

الجامعة العربية للدراسات الإسلامية

فتح العرب للمغرب

تأليف

حسين مؤنس

مدرس بكلية الآداب بجامعة فؤاد الأول

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد سيد المرسلين ، وعلى أهله وصحبه أجمعين .

وبعد ، فإننى حاولت أن أتتبع فى الفصول التالية الأعمال السياسية والعسكرية التى قام بها العرب بين سنتى ٢١ و ٨٥ هجرية والتى انتهت بدخول الشمال الإفريقى من حدود مصر إلى المحيط الأطلسى فى نطاق الدولة الإسلامية .

ولم يتسع المجال لدراسة النتائج المباشرة وغير المباشرة لهذا الفتح العظيم ، لأن استيفاء هذا الموضوع يقتضى دراسة تاريخ المغرب والأندلس وغرب البحر الأبيض المتوسط خلال العصر الوسيط كله ، فقد كان فتح المغرب من الفتوح الحاسمة التى استتبعت معها نتائج بعيدة الأثر فى تاريخ الشرق والغرب : منها فتح الأندلس وما نتج عن ذلك من قيام حضارة إسلامية زاهية فى أرض أوروبية ، ومنها فتح صقلية الذى جعل للمسلمين طريقاً إلى جنوب إيطاليا ، ومنها سيطرة المسلمين على غرب البحر الأبيض المتوسط طوال بضعة قرون ، وغير ذلك من الظواهر التاريخية التى يعد كل منها حدثاً هاماً له أهميته وأثره فى تاريخ الإنسانية كلها .

ولم تتسلسل هذه الحوادث التاريخية الكبرى إحداها عن الأخرى تسلسلاً هيناً سهلاً ، ولم تكن إحداها نتيجة طبيعية للأخرى ، وإنما كانت هى الأخرى نتيجة لجهود متصلة عنيفة قام بها العرب ومن معهم من البربر عن قصد ومعرفة بأهميتها ، ففتح الأندلس مثلاً لم يكن مجرد انسياح طبيعى وإنما كان فتحاً عسيراً قدّر الذين قاموا به معظم نتائجه ، وكذلك كان فتح صقلية والسيطرة على غرب البحر الأبيض ، ولم يكن العرب الفاتحون أصحاب الفضل الأول فى هذا كله ، وإنما كان معظم الفضل فيه للبربر ، وتلك هى الظاهرة الفريدة فى بابها التى تجعل فتح المغرب ظاهرة لا نكاد نجد لها فى تاريخ الفتوح الإسلامية شبيهاً : فهؤلاء قوم يدافعون العرب عن بلادهم شبراً شبراً ، ويناجزونهم عن حريتهم مناجزة لم يعهد العرب لها مثيلاً ، فما هو إلا

أن يطول القتال حتى ينشأ في نفوس البربر إعجاب بهؤلاء الفاتحين البواسل الذين يكادون يشبهونهم في كل شيء ، ثم يظهر البربر شيئاً فشيئاً على طبيعة الرسالة الإنسانية التي يحملها الفاتحون إليهم ، فتبدأ نفوسهم تهوى للإسلام ، يأخذ نفر منهم يشترك في جيوشه المظفرة ، ولا يكاد فتح المغرب يتم ، حتى نجد هؤلاء البربر الأحماد « يقودون » العرب إلى الأندلس حيث يقيمون معهم صرح دولة من أعجود وأجل ما أنشأ المسلمون في تاريخهم السياسي كله .

ذلك هو ما يستهوى النفس في دراسة المغرب وما يتصل به ، وليس يتسع المجال في كلمة كهذه للإفاضة في هذا الموضوع ، فلندعه إلى أن يأذن الله فنمضي في تأريخ ما تلا هذا الفتح المجيد من أحداث ونتائج .

وقد وقفت بالحوادث عند ولاية حسان بن النعمان وأعماله ، لأن حسان أكمل الفتح وثبته ووضع أسس المغرب الإسلامي ، ولم تكن أعمال موسى بعد ذلك فتوحاً وإنما كانت نشاطاً عادياً نعرف مثله لكل عامل مسلم نشيط ، ولم يكن غرضها أكثر من تهدئة البلاد وتنظيم أمورها .

ومن الحق أن أقرر هنا أن معظم الفضل في هذا البحث إنما يرجع إلى أستاذي الجليل عبد الحميد العبادي بك أستاذي ومرشدي في كل جزء من أجزائه ، فليس ينفي بشكره كلام .

وقد أفدت أجل الفائدة من التوجيهات القيمة التي تفضل بها الأستاذ حسن حسني عبد الوهاب باشا فله مني أخلص الشكر وأصدقته .

ومن الحق كذلك أن أقدر هنا ما لقيت من العون من صديقي مهدي افندي خير الدين أثناء طبع الكتاب ، وما تفضل به زميلي الأستاذ حسين فهمي من كريم المعاونة في رسم خريطة الكتاب .

القاهرة في ١٢ ربيع الأول سنة ١٣٦٦

٢ فبراير سنة ١٩٤٧

حسين مؤنس

موضوعات الكتاب

صفحة	مقدمة
٨ — ١	موضوعات الكتاب
٩ — ١	تمهيد (في تحديد المراد بالفاظ إفريقية ، المغرب ، بربر ، بُتر ، برانس ، زَنَانة)
٤٧ — ١٠	الباب الأول — إفريقية البيزنطية
	الدولة البيزنطية بعد جستنيان ، ١١ — إفريقية البيزنطية ، ١٤ — الإدارة البيزنطية في إفريقية ، ١٦ — العلاقات بين الروم وأهل البلاد ، ٢١ — الحضارة البيزنطية في البلاد ، ٢٦ — الأدب ، ٢٧ — المسيحية في إفريقية ، ٢٨ — ثورة هرقل سنة ٦١٠ م وإسقاطه فوكاس ، ٣٥ — الهدوء يسود إفريقية في أواخر أيام العصر البيزنطي ، ٣٦ — كنيسة روما تتدخل في شؤون إفريقية ، ٣٦ — جريجوريوس الأول ، ٣٨ — نقيتاس بن جريجوريوس الأول ، ٣٨ — جريجوريوس الثاني (جرجير) ، ٣٩ — الانقسامات الدينية ، ٤٢ — توتر العلاقات بين جرجير والدولة ، ٤٥ — الأب مكسيم يدعو إلى انفصال إفريقية عن الدولة ، ٤٥ — البابوية تعرض أهل إفريقية على الانفصال ، ٤٦ — قس إفريقية يشجعون جرجير على الوثوب بالدولة ، ٤٧
٧١ — ٤٩	الباب الثاني — مقدمات الفتح
	مركز برقة وطرابلس من الناحية السياسية ، ٥٠ — سكون بربر برقة وطرابلس في أولى سنوات الفتح ، ٥١ — عمرو بن العاص يبدأ في غزو برقة ، ٥٢ — قبيلة لواتة ، ٥٣ — غزو برقة وبعث عقبة بن نافع إلى زويلة ، ٥٤ — مسير عمرو إلى طرابلس وإرساله بعثاً إلى ودان ، ٥٧ — تحديد التواريخ ، ٦٩

الباب الثالث - المحاولات الأولى (أ) - حملة

١٠٧ - ٧٣

عبد الله بن سعد بن أبي سرح

جرجير يستعد للقاء المسلمين ، ٧٤ - برقة وطرابلس في غيبة المسلمين ، ٧٦ - التمهيد لفتح إفريقية ، ٧٩ - عبد الله بن سعد يستأذن عثمان ، ٧٩ - وصول القوات إلى مصر ، ٨٢ - مسير عبد الله بن سعد إلى إفريقية ، ٨٣ - واقعة سببلة ، ٨٥ - وصول المسلمين إلى إفريقية ، ٨٦ - المناوشات الأولى ، ٨٧ - الدور الذي قام به عبد الله بن الزبير ، ٨٩ - انتصار المسلمين ، ٩٧ - تعجيل المسلمين بالعودة وأسباب ذلك ، ٩٨

المحاولات الأولى (ب) - حملة معاوية بن حديج

١٢٧ - ١٠٩

سنة ٥٤٥ - ٦٦٦ م

وقوف حركة الفتح عامة ، ١١٠ - عودة الفتوح ، ١١١ - عمرو ابن العاص يستأنف الفتح في إفريقية ، ١١١ - معاوية بن حديج يتولى قيادة الفتوح في إفريقية ، ١١٢ - الدولة البيزنطية في مستهل النصف الثاني من القرن السابع ، ١١٢ - تحديد تاريخ غزوة معاوية بن حديج ، ١١٥ - الروم يرسلون جيشاً إلى إفريقية ، ١١٩ - مسير معاوية بن حديج ، ١٢٠ - مسير معاوية إلى بنزرت ، ١٢٤ - فتح جزيرة جربة ، ١٢٦ - قيمة حملة معاوية بن حديج ، ١٢٧

الباب الرابع - فتح إفريقية - حملة عقبة بن نافع

١٥٤ - ١٢٩

الأولى وبناء القيروان

تطور الفتوح بقدوم عقبة ، ١٣٠ - عقبة يخرج إلى إفريقية في بعث صغير سنة ٥٤١ ، ١٣١ - بعث عقبة في الصحراء ، ١٣٤ - مسير عقبة إلى إفريقية ، ١٣٨ - عقبة يفكر في اختطاط القيروان ،

على فتح إفريقية ، ٢٧٠ — عقبة بن نافع ، ٢٧٠ — النتائج السياسية لإنشاء القيروان ، ٢٧٠ — طمع عمال مصر في ولاية المغرب ، ٢٧١ — النزاع بين عمال مصر والخلفاء على ولاية إفريقية ، ٢٧١ — الأضرار التي لحقت المغرب من تدخل عمال مصر في شئونهم ، ٢٧٢ — النظام الإداري الذي وضعه العرب للمغرب ، ٢٧٣ — إنشاء تونس وأثره ، ٢٧٣ — اضمحلال أمر المسيحية في البلاد ، ٢٨٠ — الكنيسة الإفريقية ، ٢٨١ — هل أقبل البربر على الإسلام من زمن مبكر ؟ ٢٨٢ — أثر فتح الأندلس في إسلام أهل المغرب ، ٢٩٢ — أصل حركات الخارجية في بلاد المغرب ، ٢٩٤ — عمر بن عبد العزيز يعمل على إسلام أهل المغرب ، ٢٩٥ — اسماعيل بن عبيد الله ، ٢٩٥ — التابعون العشرة الذين أرسلهم عمر بن عبد العزيز إلى المغرب ، ٢٩٦

٣٠١ — ٣٢٥

٣٢٦

ذيل ١ : مصادر هذا البحث

ذيل ٢ : التواريخ الهامة

خريطة ١

خريطة ٢

فهارس الكتاب



صفحة

١٤٠ — قونية ، ١٤١ — موقع القيروان ، ١٤٣ — أهمية قيام
القيروان ، ١٤٥ — لماذا عزل عقبة ؟ ، ١٤٧ — عقبة يعود
إلى دمشق ، ١٥٠ — معنى لفظ قيروان ، ١٥٣

الباب الخامس — فتح المغرب الأوسط — دينار
أبو المهاجر ودوره في فتح إفريقية (٥٥ — ٦٣ هـ . =
٦٧٤ — ٦٨٢ م .)

١٥٥ — ١٧٦

تطور هام في مسير الفتوح ، ١٥٦ — دينار أبو المهاجر ،
١٥٧ — نشاط الروم ، ١٥٩ — ابتداء مقاومة البربر ، ١٦١ — وصول
أبي المهاجر ، ١٧٠ — هل هدم أبو المهاجر القيروان ؟ ، ١٧٠ — أبو المهاجر
وكسيلة ، ١٧٢ — تقدير أعمال أبي المهاجر ، ١٧٤

الباب السادس — محاولة فتح المغرب الأقصى — حملة

عقبة الثانية (من سنة ٦٠ هـ — سنة ٦٣ هـ)

١٧٧ — ٢٠٧

— متى سار عقبة في حملته الثانية ؟ ، ١٧٨ — إصلاح القيروان ،
١٧٩ — مسير عقبة ، ١٨١ — عود النشاط إلى الروم ، ١٨٢ — عقبة
في الزاب ، ١٨٩ — عقبة في طنجة ، ١٩١ — وصول عقبة إلى المحيط ،
١٩٤ — عقبة وكسيلة ، ١٩٥ — عود عقبة ، ١٩٧ — واقعة
تهودة ، ١٩٩ — كسيلة في القيروان ٢٠٦

الباب السابع — تمام الفتح — (١) هـ — لة زهير

٢٠٩ — ٢٣٠

ابن قيس البلوي على إفريقية

إفريقية بعد تهودة ، ٢١٠ — أنصار العرب من أهل البلاد ،
٢١١ — عود النشاط إلى الروم ، ٢١٣ — زهير يعود إلى مصر
بعد انسحابه من إفريقية ، ٢١٥ — عبد الملك يسير زهيراً إلى إفريقية
سنة ٦٩ هـ ، ٢١٧ — اهتمام عبد الملك بحملة إفريقية ، ٢١٨ — انضمام
نفر من البربر إلى زهير ، ٢١٩ — فزع كسيلة لمسير العرب ،

منفعة

- ٢٢٠ — لماذا انتقل كسيلة إلى ممش ؟ ، ٢٢٠ — زهير يهادن الروم ،
٢٢٢ — مسير زهير إلى كسيلة ، ٢٢٣ — واقعة ممش ، ٢٢٣ — النتائج
السياسية لواقعة ممش ، ٢٢٤ — الاستيلاء على شقبنارية ، ٢٢٥ — الروم
يدبرون لزهير ، ٢٢٥ — وصول مدد من القسطنطينية ، ٢٢٦ — لماذا
ارتد زهير مسرعاً عن إفريقية ؟ ٢٢٧ — مقتل زهير بركة ، ٢٢٨

الباب الثامن — تمام الفتح — (٢) حسان بن النعمان

ودوره في فتح إفريقية ٢٣١-٢٦٦

- أثر مقتل عقبة في سير الفتوح ، ٢٣٢ — عود النشاط للروم
وأسباب ذلك ، ٢٣٣ — أثر ذلك في روم إفريقية ، ٢٣٤ — متى
سارحسان ؟ ٢٣٥ — اهتمام عبد الملك بحملة حسان ، ٢٣٦ — مسير
حسان ، ٢٣٧ — وصول حسان إلى القيروان ، ٢٣٨ — مسير
حسان إلى إفريقية ، ٢٣٩ — عودته إلى قرطاجنة ، ٢٤٠ — ثورة
الكاهنة ، ٢٤٢ — من هي الكاهنة ؟ ٢٤٢ — حقيقة ثورة الكاهنة ،
٢٤٤ — خوف الكاهنة من مسير حسان ، ٢٤٦ — واقعة نينى ،
٢٤٨ — انهزام حسان إلى برقة ، ٢٤٩ — القيروان في غياب المسلمين ،
٢٤٩ — حال البلاد بعد انصراف حسان ، ٢٥٠ — الكاهنة تخرب
إفريقية ، ٢٥١ — أثر سياستها ، ٢٥٣ — عود الروم للعمل في عهد
ليوتيتيوس ، ٢٥٣ — الروم في إفريقية ، ٢٥٤ — حسان على مقربة
من صرت ، ٢٥٥ — عودة حسان إلى إفريقية ، ٢٥٨ — مسير
حسان إلى قرطاجنة ، ٢٥٩ — إنشاء تونس ، ٢٦٠ — نتائج قيام
تونس ، ٢٦٣ — العلائق بين حسان وعبد العزيز بن مروان ، ٢٦٣

الباب التاسع — انتشار الإسلام في المغرب والنظام

الإدارى الذى وضعه العرب له ٢٦٧-٣٠٠

- لماذا طالت مدة الفتح العربى للمغرب ؟ ٢٦٨ — انصراف
الحلقة عن فتح المغرب ، ٢٦٩ — جند العرب في مصر يصرون

تمهيد

في تحديد المراد بألفاظ إفريقية ، المغرب ، بربر ، بُثْر ، برانس ، زَنَاتَه

أطلق الفينيقيون لفظ افري (Aphri) على أهل البلاد الذين كانوا يسكنون حول مدينتهم طاقة Utica « المدينة القديمة » وعاصمتهم قرطاجنة « المدينة الحديثة » ،
وعنهم أخذ اليونان ، فأطلقوه على أهل البلاد الأصليين الذين يسكنون المغرب من
حدود مصر إلى المحيط ، ومن ثم سميت هذه المنطقة افريكا^(١) أى بلاد الأفري ،

(١) لازال أصل لفظ إفريقية خافياً لم يصل الباحثون فيه إلى رأى يركن إليه ، ولمؤرخى
العرب في ذلك آراء مختلفة جمعها البكري فقال : « قال قوم أنها إفريقية أى صاحبة السماء .
وقال آخرون : سميت إفريقية لأن إفريس بن أبرهة بن الرايش غزا نحو المغرب حتى انتهى إلى
طنجة في أرض بربر ، وهو الذى بنى إفريقية ويسمى سميت ؛ وقيل سميت بإفريق بن ابراهيم
عليه السلام من زوجته الثانية فطوري ، وقال قوم لأنها سموها الأفارقة وبلادهم إفريقية لأنهم من
ولد فارق بن مصرم ؛ وقد زعموا أن إفريقية لبيبة سميت بنت يافوه بن يونس الذى بنى مدينة
منفيس بمصر ، وهى التى ملكت ملك إفريقية أجمع فسمى بها » . وابقية مؤرخى العرب آراء
كذه لا محل لذكرها ولا يمكن الأخذ بها ، فربما جعل بعضهم إفريقية مشتقاً من لفظ فرق ،
ويغلب أن الذين رأوا ذلك الرأى أخذوه مما ينسب إلى عمر بن الخطاب من أنه قال : « إفريقية
الفرقة غادرة لا أغزيها أحداً ماحيت » . وقد حاول دوبرا أن يكشف أصل هذا الاسم ،
فذهب إلى أن بوشار قال أن اللفظ مشتق من كلمة يونانية بمعنى epi ، وذهب كذلك إلى أن أصل
الاسم ربما كان مشتقاً من لفظ opara الهندى الذى يريد به الهنود الغرب وذلك أن للفظ
opara مرادف هو aprica ومعناه الغرب أيضاً ، وهذا رأى بعيد لا يمكن الأخذ به ، لأننا
لأنك من الدلائل ما يؤكد لنا اتصال أهل إفريقية بالهند ، وربما كان دافع دوبرا إلى ذلك الزعم
ماذهب إليه من أن أصل البربر جنس آرى هاجر من نواحي الكنج ، بيد أن دى سلين ذهب
في تعليقه على هذا اللفظ أثناء ترجمة ابن خلدون إلى أنه « لابد أن يكون معناه فرقة
أو جزء أو طائفة منفصلة ، أو نفراً من المستعمرين الذين هجروا الوطن الأصلى » وهذا رأى
مقبول . ولم يرد اسم إفريقية في الانجيل ، وأورد هوميروس ذكرها محاطاً بالغموض .

البكري : وصف إفريقية ، ص ٢١ — البكري : معجم ما استعجم ، ج ١ ص ١١٦ —
ابن خلدون : تاريخ ج ٦ ص ٩٨ — Duprat : p. 4, n. 1 — Fe Slane, iv, p. 571 — 572.
Gautier, Siècles obscures p.100.

واستعمل هذا الاسم للدلالة على هذه المنطقة، فنجد هيرودوت يطلق لفظ افريكا على كل ما يلي مصر غرباً من البلاد حتى المحيط الأطلسي . فلما غلب الرومان الفينيقيين على هذه النواحي ، أخذوا عنهم هذه التسمية فأطلقوا اسم ولاية إفريقية القنصلية Africa proconsularis على قرطاجنة وما حولها حتى نوميديا .

وأخذ معنى هذا اللفظ يتسع شيئاً فشيئاً كلما اتسع سلطان الرومان في إفريقية، فأصبحت ولاية إفريقية القنصلية تضم ولاية إفريقية الأصلية والجزء الشرقي من تونس الحالية الذي كان يسمى زوجيتانيا ، والمنطقة الداخلية منها التي تمتد حتى فزان المسماة Bezacena ، أما بقية إفريقية الرومانية فسمى الجزء المقابل منها للجزائر الحالية نوميديا ، وبلى ذلك مَرطانيه^(١) بقسميها القيصرية والطنجية^(٢) . ثم اتسع معنى هذا اللفظ في العصر البيزنطي ، فكانت إفريقية البيزنطية تشمل كل ما دخل في طاعة الروم من هذه القارة من برقة إلى طنجه .

وعن البيزنطيين أخذ العرب لفظ إفريقية وتحديد الأول لمعناه ، فأرادوا به في أول الأمر كل ما يلي مصر غرباً حتى ساحل المحيط الأطلسي ، ولهذا نجد أقدم مؤرخيهم كابن عبد الحكم والبلاذري يطلقون لفظ إفريقية على كل ما يلي مصر غرباً من شمال هذه القارة ولا يقسمونها أقساماً ، ولكنهم استثنوا من ذلك برقة « بنطابلس » وطرابلس ، إذ اعتبرهما أغلب المؤرخين ولايتين قائمتين بين مصر وإفريقية .

ثم أخذ لفظ إفريقية يضيق شيئاً فشيئاً ، وبدأ لفظ « المغرب » في الظهور فاقصر اسم إفريقية على ما يلي مصر غرباً حتى بُجَايه ، أي أنه ضم تونس ونصف مقاطعة قسطنطينية الحالية ، ثم بلى ذلك المغرب حتى المحيط ، وربما أدخل

(١) تعريب للفظ Mauretania وهكذا رسمها البكري ، وصف إفريقية ، ص ٢١٠

(٢) Mercier, Hist. de l'Afr. Septentrionale, vol I, p. 180

فيه بعضهم الأندلس نفسها ، فياقتوت مثلاً يحدد إفريقية بقوله « وحد إفريقية من طرابلس الغرب من جهة برقة والاسكندرية إلى بُجايه ، وقيل إلى مِلْيَانِه فتكون مسافة طولها شهرين ونصف شهر^(١) » وعنده أن المغرب هو ما يلي ذلك من بلاد المسلمين غرباً ، ويؤيد ذلك ابن أبي دينار بقوله « وعند أهل العلم إن أطلق اسم إفريقية فإنما يعنون بلد القيروان » أي البلاد المحيطة بالقيروان ، ثم يعود فيؤكد ذلك بقوله « وإفريقية أوسط بلاد المغرب^(٢) » .

ويبدو أن المراد بلفظ المغرب في أول الأمر كان تحديداً جغرافياً ، أراد به الذين اتخذوه كل ما يقابل المشرق من البلاد ، ومن هنا أدخل فيه بعض المؤلفين مصر والأندلس^(٣) ، وقصره آخرون كابن عذارى على المغرب الحالي ، وأخرج منه الأندلس ، وجعلوا حدود المغرب « من سبب بحر النيل بالمشرق إلى ساحل البحر الأبيض من ناحية المغرب^(٤) » .

بيد أن طائفة من الكتاب ظلت تخلط بين لفظي « مغرب » و « إفريقية » ولا تميز بينهما ، فالبكري مثلاً يحدد إفريقية بقوله : « وحد إفريقية طولها من برقة شرقاً إلى طنجة الخضراء غرباً ، واسم طنجة مرطانية وعرضها من البحر إلى الرمال التي هي أول بلاد السودان^(٥) » وحذا حذوه نفر من المؤرخين^(٦) . على أن ذلك لم يستمر طويلاً فلم يلبث معنى كل من اللفظين أن تحدد بشكل واضح فنجد ابن أبي دينار يقول : « وحد إفريقية بالطول من برقة إلى طنجة ، وعرضها من البحر الشامي إلى الرمال التي أول بلاد السودان قاله غير واحد ، قلت : في زماننا هذا لا يعبر بإفريقية إلا من وادي الطين إلى بلاد باجة^(٧) » وقد أكد

(١) ياقوت ، معجم البلدان ، مادة إفريقية (٢) المونس ، ص ١٣

(٣) القدسي ، أحسن التقاسيم ص ٢١٧ — ٢١٨ (٤) المونس ص ١٦

(٥) البكري ، وصف إفريقية ص ٢١ (٦) راجع تحفة الملوك ص ٣٩٧ — ٣٩٨

(٧) المونس ص ١٦ ؛ وحدد كاستليوني المراد بلفظ إفريقية في الرواية العربية بقوله :

الإدريسي ذلك بقوله عن بجاية : « ومدينة بجاية في وقتنا هذا مدينة المغرب الأوسط أى أول بلاد المغرب الأوسط^(١) » .

وينقسم المغرب إلى قسمين : المغرب الأوسط ويمتد من بُجاية حتى وادي مَكْوِيَّة ، والمغرب الأقصى وهو ما يلي ذلك حتى المحيط^(٢) ، وقد يطلق اسم السوس على الجزء الغربى المطل على المحيط من بلاد المغرب ، ويقسم إلى قسمين : السوس الأقصى ، ويضم سلسلتى الأطلس (دَرَن) وما جنوبهما وغربهما من النواحي العامرة حتى تارودانت وتافِلَّات (سَجْلَمَاسَه) ، والسوس الأدنى ويشمل الجزء الشمالى من مراكش الحالية على وجه التقريب^(٣) .

والغالب أن معنى لفظ المغرب انتهى عند المؤرخين والجغرافيين إلى أن يشمل كل مايلي مصر غرباً حتى المحيط ، ثم يقسمونه بعد ذلك أجزاء : هى برقة وطرابلس ثم افريقية حتى نهر مَكْوِيَّة ثم المغرب الأوسط ثم المغرب الأقصى فالسوس^(٤) . ومن هنا صح استعمال لفظ المغرب للدلالة على الإقليم كله ، ثم تقسيمه بعد ذلك إلى الأقسام المشار إليها ؛ وفى هذه الحدود استعملت تلك الألفاظ فى هذا البحث .

ويفرق المؤرخون بين ثلاث طوائف من السكان كانت تعمر المغرب

== « يريد مؤرخو العرب بإفريقية ولاية Africa Propria الرومانية (أنظر خريطة رقم ١) وزوجيتانيا Zeugitania وكذا الولايات البحرية الأخرى كطرابلس ونوميديا وبعض أجزاء من صرطانية القيصرية وبنطابلس وتمتد فى الداخل حتى واحة آمون وجزء من فزان Castiglioni ; Memiores . p 4 ويبدو أنه أخذ هذا التحديد عن دهربلو : D' Herbelot

Bibliographie Orientale : مادة إفريقية .

(١) الإدريسي ، ص ٩٠

(٢) ابن خلدون ، تاريخ ، ج ٦ ص ٩٨ — ١٠٢

السلوى ، الاستقصاء ص ٣٣ — ٣٤

(٣) ياقوت ، معجم البلدان ، مادة سوس

(٤) انظر ابن حوقل ص ٤١

زمان الفتح^(١)، فيذكرون الروم والأفارقة والبربر؛ فأما الروم فالمراد بهم البيزنطيون الذين وجدهم العرب في البلاد إذ ذاك^(٢).

وأما الأفارق أو الأفارقة فالمراد بهم أخلاط من الناس كانوا يسكنون النواحي الساحلية العاصرة المحيطة بالمداين البيزنطية والأجزاء المزروعة الأخرى الداخلة في الرباطات البيزنطية؛ وهؤلاء خليط من المستعمرين اللاتين Colons وبقايا الشعب القرطاجني القديم ومزارعي البيزنطيين وصناعهم ونفر من البربر ممن استقر ودخل في طاعة البيزنطيين، وتتضح التفرقة بينهم وبين البربر من قول جوتيه: « وعلى أي الأحوال يسمّى الأهالي الثائرون بأسماء قبائلهم، أو يسمّون الماور (les Maures) أو البربر جملة، ولكنهم لا يسمون «الأفارقة» أصلاً، إن هذه التسمية قصر على خصومهم حماة النظام وهم أهل قرطاجنة أورعاياها^(٣) » وهذا يدل على أن العرب أخذوا هذه التسمية عن المؤلفين اللاتين.

(١) قسم الحسن الوزان أهل إفريقيا إلى: عنصر فينيقي قديم جداً، عنصر عبري، وعنصر لاتيني، وعنصر أصلي Leo Africanus: p. 187 طبعة ماسينيون

(٢) De Slane, Journal Asiatique, 1848. p. 424.

وقال في مكان آخر: « يريد كتاب العرب بالروم إما رعايا الأمبراطورية البيزنطية أو مسيحي أوروبا، أو اللاتين الذين سكنوا شمال إفريقيا, Journ. Asiat. XII, p. 420 n. 5، ويلاحظ أن كتاب العرب لا يريدون بالروم مسيحي أوروبا الغربية لأنهم يسمونهم الفرنجة تمييزاً لهم عن الروم، ويلاحظ ذلك واضحاً في اهتمام ابن خلدون بالتفريق بين الأفرنج والروم. وقد اختفى الروم من إفريقيا بعد الفتح العربي؛ ولكن التيجاني يذهب إلى أن طوائف منهم بقيت في بعض نواحي البلاد كواحات الجريد فقال « وأهل توزر من بقايا الروم الذين كانوا بإفريقية قبل الفتح الإسلامي. وكذلك أكثر بلاد الجريد، لأنهم — في حين دخول المسلمين أسلموا على أموالهم » رحلة التيجاني، ورقة ٦٨ أ

Gautier, p. 100 (٣)

وقال ابن عبد الحكم في تاريخه: « وأقام الأفارق، وكانوا خدماً للروم على صلح يؤدونه إلى من غلب على بلادهم »، مما يؤيد أنهم كانوا زراعا وصناعا فقط، وأنهم كانوا خاضعين للروم. ابن عبد الحكم، فتوح، ص ١٧٧

والبربر هم سكان البلاد الأصليون . وينقسمون طائفتين متباينتين وهما طائفة البربر الحضري الذين يسكنون النواحي الخصبة الشمالية والسفوح المزروعة ، وطائفة البربر الرحل الذين يعمرّون الصحارى والواحات التي تلى ذلك جنوباً وشرقاً .

والفوارق بين الطائفتين اجتماعية لا جنسية ، وليست ناشئة عن انتساب كل منهما إلى أب كما يذهب نسبة البربر وفي مقدّتهم ابن خلدون ، إذ أنّ البربر المستقرين ينزلون النواحي الخصبة المحيطة بجبال أوراس ، أى جنوب ووسط الجزائر الحالية وجنوب مراکش وبعض أجزاء تونس الغربية ؛ وطبيعى أن يكونوا على جانب من الحضارة لاتصالحهم بالقرطاجنيين واللاتين وحضارات البحر الأبيض المتوسط ، فتناولوا الزراعة والصناعة وظهر فيهم تفرّد أخذ بأسباب الحضارة اللاتينية مثل يوبا أمير نوميديّة الذي درس وتربّى في روما ، ويوجرتا عدو الرومان اللدود ، وماكسن الذى لعب دوراً سياسياً هاماً في الحرب بين روما وقرطاجنة .

وأما البربر الظواعر فهم بدو يعيشون على الرعى ويميلون إلى الاغارة على ما يجاورهم من نواحي العمران ، حتى لقد وصفهم كودل بقوله : « إنهم ليسوا أمة وإنما هم لصوص »^(١) ، وهو وصف مبالغ فيه ، نقله كودل عن المؤلفين الرومان والبيزنطيين مثل سالوست وبروكوبيوس .

كان هذا الاختلاف في الأحوال الاجتماعية سبباً في نزاع طويل وحروب مستمرة بين الفريقين ، فكان الرّحل لا ينفكون يغيرون على مزارع المستقرين وقراهم ، فاضطر هؤلاء إلى أخذ الحذر منهم والاحتفاء من شرهم والاستعانة عليهم باللاتين أو البيزنطيين ، مما أدى إلى ظهور الفوارق بين الطائفتين بشكل جلى واضح كان له أبعد الأثر في مستقبل البلاد السياسى ، إذ حال دون اتحاد أهلها ، وسهّل غزوها ومكّن الفاتح الأجنبي من أن يستعين بفريق على فريق ،

Caudel, I, 68 (١)

وحال دون نشوء دولة بربرية واحدة أو شعب متآلف متناسق .
أفاد الرومان من هذه الحال فائدة كبرى فاستعانوا بفريق على فريق ،
فأمكنهم ذلك من البلاد وثبتت قدمهم فيها . أما البيزنطيون فلم يوفقوا إلى الفائدة
من تلك الحال مما جعل سلطانهم على البلاد ضعيفاً واهياً .
وكان البيزنطيون (والرومان كذلك) يقسمون البربر شعباً بحسب الأقاليم
التي كانوا ينزلونها ، ولم يقسموهم إلى قبائل ^(١) .

فلما اتصل العرب بالمغرب فهموه كما رأته عيونهم وكما تصورته أذهانهم التي
تختلف كثيراً عن العيون والأذهان الغربية . فكان أول ما حدث تغير
الاصطلاحات ، فاختلف لفظ أفريكا — كتسمية عامة شاملة على الأقل — وبدأ
لفظ المغرب يحل محله . . واختفى كذلك اسم الليبيين وظهر لفظ « البربر » للمرة
الأولى أو ظهر على الأقل بمعناه الذي نفهمه منه الآن . ومن المعقول جداً أن يكون
العرب قد أخذوه عن اللاتينية مع تغير معناه ، إذ يذهب جسل S. Gsell إلى أن
أصله لفظ Barbari الذي كان الأفارقة اللاتينيون يطلقونه عادة على الأهلين ، وهذا
الرأى لم يصبح بعد قضية مسالة نظراً لصمت المراجع ^(٢) ، وتفطن العرب إلى نظام
البربر البدو وإلى انقسامهم قبائل وبطوناً ، فأخذوا يقسمونهم على مثال تقسيمهم

(١) شمال برقة يسكنه Asbystes - Barcytes - Ghibigammes

جنوب برقة وطرابلس : الليبيون Libataï وحرفه العرب إلى لواته
واحاح برقة وطرابلس وبعض نواحي خليج سدره يسكنه Nasamons
بقية ساحل سدره : Makés ، Psylles

المغرب الأوسط : النوميديون

تونس : Zonakes , Libo - Pheniciens

المغرب الأقصى : Maures . الخ أنظر Mercier, vol. I, p. xvii - xvii

(٢) ربما جاز الأخذ برأى جوتييه وجسل ، لأن آراء نسابة العرب والبربر ومؤرخيهم
في ذلك الموضوع ضعيفة جداً ، فالغالبية منهم على أن « إفريقش بن قيس بن صيفي من ملوك
التيابعة لما غزا المغرب وإفريقية وقتل الملك چرجيس وبني المدن والأمصار ، وباسمه زعموا =

هم — أى العرب — إلى قبائل تتفرق فى نواحي البلاد ، وتجتمع إلى جد أكبر اخترعوا له اسماً مشتقاً من اسم الجنس : سموه — بُر بن قيس^(١) ، وكما انتظمت القبائل العربية كلها فى جذمين عظيمين : قحطان وعدنان فقد قُسمت قبائل البربر كلها قسمين : قسم ينتسب إلى مادغيس بن بر الملقب بالأبتر فسموا البتر ، وقسم ينتسب إلى بُرنس بن بر فسموا البرانس .

هذا التقسيم مقبول على علته ، بل هو أدل على أحوال البلاد وأكثر اتفاقاً مع طبيعة نظام أهلها الاجتماعى من أى تقسيم آخر ، واتباعه يلقي ضوءاً كشافاً على كثير من أحداثها ؛ ولكن المبالغة فى الاعتماد عليه ربما أدت إلى الخطأ ، ولهذا لم يكن جوتييه على الصواب حين حاول أن يفسر كل أحداث التاريخ المغربى على هذا الأساس أى على أنه نزاع بين البتر والبرانس ، أى بين البدو والحضر ، وفاته أن ابن خلدون لم يجعل البتر كلهم رحلاً ، ولا البرانس كلهم حضراً مستقرين ، وإنما كان تقسيمه نسبياً فقط لا علاقة له بحال القبائل الاجتماعى أو نظام قبائلها ، وآية ذلك أنه — أى ابن خلدون — جعل زناته أكثر قبائل البربر حضارة وعمراناً ، وزناته بترية فى الأصل^(٢) ، ثم إن نسبة الحضرة إلى البدو قليلة جداً ،

== سميت إفريقية — لما رأى هذا الجيل من الأعاجم وسميرطاتهم ، ووعى اختلاطها وتنوعها تعجب من ذلك وقال : ما أكثر بربركم فسموا البربر « كما يقول ابن خلدون ، وهذا تعليل ضعيف غير مقبول نقده ابن خلدون نفسه فقال : « والبربر معروفون فى بلادهم وأقاليمهم متميزون بشعارهم من الأمم منذ الأحقاب المتطاولة قبل الإسلام ، فما الذى يحوجنا إلى التعلق بهذه الترهات فى شأن أوليتهم ويحتاج إلى مثله فى كل جيل وأمة من العجم والعرب » أنظر Gautier p. 190 - 191 وابن خلدون ، ج ٦ ص ٨٩ — ٩٨

(١) وقيس هذا هو الذى هاجر بالبربر من بلاد العرب ، وهو الذى عرف باسم إفريس ؛ وذهب البكرى إلى أن تسميته بهذا الاسم الأخير سببها أنه « كان اسمه قيساً فلما ابتنى لإفريقية أضيف اسمه إلى بعض اسمها فقبل : إفريس (أى إفريس) البكرى . معجم ما استعجم ج ١ ص ١١٦ طبعة وستنفلد .

(٢) اعترض الأستاذ وليم مارسيه على جوتييه فقال : أن البتر والبرانس ليس معناها =

فالبربر الحضري بضع قبائل قليلة قريبة من مراكز العمران في الشمال ، والبدو بقية البربر .

وزناته في الأصل قبيلة من قبائل البدو أخذت تظهر ويقوى أمرها في العصر الإسلامي ، وكانت منازلها الأولى وسط المغرب والصحارى المحيطة به من الجنوب ، وكان الزناتيون — بحكم حياتهم الصحراوية وابتعادهم عن غيرهم من القبائل — يعيشون في شبه عزلة ويتحدثون بلغة خاصة بهم ، فلما دخل الإسلام البلاد كانوا من أول القبائل اعتناقاً له . وقد علل جوتييه ذلك بما بينهم وبين العرب من شبه ، ولكن العرب أخطأوا في السياسة التي اتبعوها معهم فعسفوهم وأرادوا أخذهم بالشدّة ، فلجأت زناته للثورة وانضم إليها غيرها من القبائل الناقمة على العرب ، ولما كانت هي أقوى هذه القبائل فقد بدأ اسمها يطغى عليها ، وبدأت القبائل الصغيرة تدمج فيها فكبرت بمرور الأيام ، حتى أصبح اسمها يطلق على قبائل البتر جميعاً ، فصار البربر الذين يسكنون مناطق العمران الداخلية التي تمتد من غدامس في الشرق حتى تازا وسجلماسة في الغرب يسمون زناته ، وبلغ الأمر إن ابن خلدون جعل زناته فرعاً من البربر قائماً بذاته ^(١) . ومن هنا أخطأ بعض الباحثين فجعلوا زناته فرعاً من البربر مستقلاً يختلف عن البرانس والبتر كليهما . فرسييه مثلاً يقسم البربر إلى أجناس ثلاثة : بربر الشرق أو جنس لوا ، وبربر الغرب أو جنس صنهاجه ، وجنس زناته ^(٢) .

== البدو والحضر ، وإنما هو تقسيم اصطلاحى فقط وضعه نسابة العرب والبربر . وذهب إلى أن لفظ الأبتّر ربما أريد به العارى من الثياب وبرنس أريد به لابس البرنس أى المتدثر ، راجع R. Basset, Berbères (Enc. de l'Islam) Mercier : 1, pp. 17-18. Gautier pp. 190 - 214.

وابن خلدون ج ٦ : ص ٨٩ — ١١٤

(١) وقد ذكر السلاوى في نسب زناته أن جدهم «زانا بن يحيى بن ضرى بن زحيك بن مادغيس

الأبطر» أى أنه ومادغيس الأبطر سواء أى أن زناته هم البطر : الاستقصا ، ج ١ ص ٣١

(٢) مرسييه ج ١ ص ١٨١ و ١٨٢

الباب الأول

إفريقية البيزنطية

أفريقية البيزنطية

الدولة
البيزنطية
بعد
جستينيان

حلقت بيزنطة على جناح الخيال أيام جستينيان زماناً قصيراً ، وتراعى بها الطامح الخادع حتى أخرجها عن الحد المأمون ، إذ أراد لها جستينيان بعثاً جديداً تعيد به عهد روما في أوجها ، فمضى يجد بها في المسير لإدراك تلك الغاية حتى أجهدا وهي شيخوخة تنهادر نحو القبر ، فلم تلبث علائم الانحلال أن تمشت في كيانها المتداعى ، وجستينيان بعد يقضى سنواته الأخيرة بين أحزان الشيخوخة وآلام الفشل . « ثم إنه لم يكد ينتقل إلى الدار الأخرى ، حتى بدأت ثمرات جهوده تصفى تصفية مخزنة ، فأعلنت الدولة في الداخل إفلاسها مالياً وحربياً ، وجثم على صدرها شبح الفرس مخيفاً لا يرد ، وما هو إلا قليل حتى انهال على الدولة طوفان الغزو العربى ، ولم تكذب المنازعات الدينية أن أقبلت مسرعة تزيد الفوضى السياسية سوءاً على سوء ، فهذا القرن السابع (٦١٠ - ٧١٧ م) يعد من أسود عصور الدولة : عصر أزمة حادة ، وفترة حاسمة كان مصير الإمبراطورية نفسها خلاله في الميزان »^(١) ، وربما كانت سياسة جستينيان نفسها سبباً من أسباب ضعف الدولة واضمحلالها ، فقد فرق جهدها وأقام على ظهرها حملاً ثقيلاً لم تلبث أن ناءت به فهوى إلى الأرض مبعثراً مفككا .

وكانت أفريقية جزءاً من ذلك الحمل الثقيل ، استعادها جستينيان في بضعة شهور على يد قائده الماهر بلزار يوس — ، فلم يكد يغلب من بها من حطام الوندال حتى أعلن أن أفريقية قد ردت إليه ، وبعث إليها من القسطنطينية بالقوانين والأنظمة والقيود مما لا يتفق مع طبيعة البلاد ، فكانت قوانينه فاصلاً بين الحاكم والمحكوم ، لاسبباً من أسباب الاتصال بينهما ، ولم يلبث الأفارقة أن عصوا

Ch. Diehl ; Pyzance, Grandeur et Décadence, p. 8. (١)

قانونه فسارع إليهم يرغمهم على طاعته ، فبدأ النزاع الذى أصبح خصومة مشبوبة لا يكاد يحمد أوارها بين الروم وأهل البلاد وأصبح مع الزمن مدار تاريخ إفريقية خلال القرن الذى انقضى بين وفاة جستنيان وإشراق شمس الإسلام عليها .

وكان للدين مكانة من اهتمام الروم حكومةً وشعباً ، وكانت بيزنطة كلها من الإمبراطور إلى أصغر رعاياه يفرمون بجنون الخصومات الدينية غراماً شديداً ، ولا نزاع فى أنه من العبث أن نظن أن الباعث الوحيد على منازعات العقائد التى لا آخر لها ، والتى أثارت أشد الاضطرابات فى التاريخ البيزنطى ، كان مجرد ميل الشعب للخلاف وشغفه بالمناقشة الفارغة أو ولع الحكام بالتشريع ورسم العقائد ، إذ كان الغالب أن تخفى المنازعات الدينية تحتها آراء وخصومات سياسية شتى ، وكان صالح الدولة لا مجرد الرغبة فى التجديد فى الدين ، هو الدافع للأباطرة إلى ما أتوا من الأمر فى كثير من الأحيان ^(١) .

وكان الانحلال الاجتماعى دليلاً آخر على ما كانت الدولة تعانيه من الآلام فى هذا العصر العصيب ، فقد كانت نفوس الناس قد وهنت ، فلم تستطع همهم أكثر من الإنصراف إلى منازعات الخضر والزرق وما يتصل بها من مباحج الملامى وعبث الملاعب ، حتى قيل إن هذه الأخيرة « كانت مرآة الحياة الاجتماعية اليونانية طوال العصور الوسطى ^(٢) » ، فكان الأباطرة أنفسهم أسبق الناس إلى حلقات الملاعب والمسرّات ، وكان النساء كذلك سباقات إليها يخالطن الرجال فى تبذل انتهى بالاجتماع كله إلى التدهور السريع ، ومن هنا نشأت الدسائس والمؤامرات التى تتصل بهذه الألوان من العبث فنخرت عظام الدولة الواهنة ، وأخذت دائرتها تتسع حتى شملت بلاط الإمبراطور ، فأحاطته مسرحاً لكثير من الخصومات والجرائم والآثام . وكما

Diehl, Byzance, p. 8 (١)

Ibid. 121 (٢)

انتصر في القصر حزب ارتفعت له في نواحي الدولة أعلام بعضها الأنصار وبعضها مذاهب مختلفة في الدين والسياسة، وكلما مات حاكم نزل البلاء بأشياعه وأتباعه ومناصريه في العقيدة والرأى وندمائه في المباحج والشراب .

ففي هذا البلاط الذي يعج بالخصيان والنساء وكبار الموظفين — الذين لا عمل لهم — كانت المؤتمرات دائرة بدون انقطاع : في مخادع النساء وفي مساكن الحرم، يتدافعون كلهم للقضاء على صاحب الخطوة في يومه ، وكل السبل مطروقة لاجراج فيها : من ملق واتهام بالباطل وبذل للمال وإزهاق للأرواح ، فكانوا يدبرون في الظلام مصرع الوزير بل مصرع الإمبراطور ^(١) .

وكانت يزينطه نفسها لا تكاد تقاس في المساحة إلى ما تملك من أرضين ، وكلما ازداد بها الضعف انسلخ عنها جزء وتقطعت بينها وبينه الأسباب ، وكلما اشتد ساعد جار اقتطع منها على قدر ما تستطيع سيوفه ، حتى إذا كان القرن السادس واشتد ساعد القرس أقبلوا ينيبون أرض الدولة انتهاباً ، فاقطعوا أكثر آسيا الصغرى والشام ومصر ، وأخذوا يستعدون للمضى إلى شمال إفريقيا ، فلم يكن للدولة بد من أن تبذل ما قد بقي في كيانها الواهن من قوة لتدفع خطرهم ، حتى إذا تمكنت من ذلك على يد هرقل ، لم يبق لها بعد ذلك من القوة ما يقيمها على أرجلها ، إذ كانت الحروب قد كلفتها الثمن الغالي ، فأنشأت تعتصر دماء من بقي لها من الرعايا حتى كادت توردهم موارد التلف وبدأوا يحتجون ويعترضون ، فلجأ الحكام إلى العنف يقضون به على ما بدا لهم من بوادر الاضطراب ، فاشتد الحقد وتأصلت الكراهية بين الجانبين ، ولم يكد الفريقان بحسان بما بينهما من خلاف بسيط في مسائل الدين ، حتى خيل لهم الحقد الدفين ان الخلاف بعيد يتناول كل مرافق الحياة ، فنشبت الفتنة وأهوى الحاكم على رأس المحكوم

(١) Diehl, Byzance, pp. 151 - 4

بسياط الظلم ، وأبى المحكوم أن يجيب أو يطيع ، فغظم الاضطهاد وسالت الدماء ، واشتعلت بعض نواحي الدولة كمصر وأفريقية بهذه النار الحامية ، فأتت على ما فيها ، وحقت على أفريقية قالة كورييوس التي أجمل فيها وصف البلاد بقوله *fumans perit Africa flammis* أى أن أفريقية التي كان يتصاعد منها الدخان كانت تخفى بين السنة النيران .

أفريقية
البيزنطية

كان جستنيان يرجو لأفريقية من وراء جهوده خيراً كثيراً ، ويبدو أنه كان على شيء من العلم بطبيعتها ، فأفرد لها من بين ولاياته بنظام خاص دقيق ينطوي على الحذر الشديد من أهلها ويرمى إلى جعلها مورداً من موارد المال والثروة للدولة ، فلم تكذب بشار الفتح ترد عليه حتى رفع أفريقية إلى مصاف ولايات الدولة الكبرى ، وأقام على حكومتها عاملاً مدنياً لا عسكرياً^(١) ، وذلك حتى « يعبر عن عطفه الخاص على هذه الولاية — التي رحب مسروراً بعودتها إلى أحضان الإمبراطورية — ويؤكد لأهلها حسن نيته نحوهم ، ويظهر الأهمية التي يعلقها على تخليصها من الأسر الوندالي^(٢) » .

وكانت أفريقية البيزنطية لا تشمل المغرب كله من حدود مصر إلى المحيط ومن البحر إلى قلب الصحراء ، وإنما كانت جزءاً صغيراً يبدأ من حدود مصر ويضم برقة وطرابلس وحوض مجرد (تونس الحالية) وجبال الأوراس ، ثم يأخذ في الاقتراب من الساحل حتى ينتهي عند طنجة وسبته^(٣) ، أما في الجنوب فلم يكن

(١) كانت أفريقية معتبرة ولاية عسكرية تابعة لإيطاليا في التنظيم السياسي للدولة الرومانية يحكمها *Proconsul* فجعلها جستنيان ولاية مدنية مثلها مثل بيزنطة نفسها يحكمها مدير *Praefect* واختار لها والياً من أقدر ولادة الدولة هو أرخلاوس *Archelaos* الذي كان حاكماً لولايتي بيزنطة والبلقان وهذا يدل على عظيم اهتمامه بأمرها

(٢) *Cod. Just. I, 27,1,8. Diehl: L'Afr. Byz. 97*

(٣) ذكر جوليان أن جستنيان أقام في سبته محرساً هاماً ؛ وذكر كذلك أن أقصى حدود أفريقية البيزنطية كان عند أعمدة هرقل أى على مقربة من سبته الحالية أقطر :

Julien, Hist. de l'Afr. du Nord, p. 297.

يتعدى نصف امتداد أفريقية الرومانية ، فكان أقصى اتساعه سهل مجرد وهضبة الأوراس ووقفت حدوده الجنوبية عند تبسه Tebessa ومسكولا Mascula وتمجاد Thamugadi ولمبيزه Lambeisis وطبنة Tobna والمسيلة Msila أما فيما عدا ذلك فكانت حدوده ملاصقة للساحل لا تكاد تتعدى أرباض الموانئ من أمثال تيفش Tipasa وقيصريه Caesaria وتانس Tenes ووهران Oran^(١) .

وكانت البلاد مقسمة إلى سبعة أقسام إدارية هي :

يحكمها قناصل Consulaies	١ — الولاية القنصلية (شمال تونس الحالية) Proconsularium
	ب — الولاية الداخلية (بيزاسيوم) Byzacium
	ح — طرابلس Tripolitania
يحكمها مدبرون Praesides	د — نوميديا (إلى قسطنطينية) Numidia
	هـ — مرطانية الأولى Mauritania Sitifiensis
	و — مرطانية الثانية وتشمل « Cesariensis
	« Tingtana (شمال مراکش)
	ز — سردانية

وقد امتد سلطان الدولة في أول الأمر إلى أبعد من هذا الحد الرسمي فدخل في طاعتها نفر من بدو البربر الضاربين على حدود الصحراء ، وأقيمت المحارس على طول الرباط الأخير لكي تضمن طاعة هؤلاء للدولة وترد عنها أذاهم ، ولكن سلطانها أخذ يضعف شيئاً فشيئاً ، فأخذت تنسحب إلى الشمال ، حتى لم يبق من أملاكها آخر الأمر إلا ساحل ضيق ويضع محارس حصينة في الداخل ، مثل تبسه وسببيلته ، واحتل البربر ما خلا ذلك من الحصون .

(١) راجع الخريطة رقم ١ لقد عملت بناء على ما ورد في كتاب ديل عن أفريقية البيزنطية

وكانت برقة البيزنطية لا تكاد تعدو مدائنها الخمس^(١)، وكذلك طرابلس لم تعد ثغور الساحل مثل صُرت Syrtta وطرابلس نفسها وصبره وقابس . جمع جستنيان لحاكم إفريقيا كل السلطات، فكان هذا الحاكم يحمل من تبعات الحكم فوق ما يطبق، وكان مثقلاً بالألقاب وشارات الشرف، يرافقه جيش من الموظفين ويحف به الأتباع والخدم^(٢)، وأطلقت يده في كل شيء حتى بلغ من اتساع سلطته « أن كُتاب ذلك العصر أعوزهم اللفظ الذي يعبرون به عن السلطان — الذي لا حده — الذي كان يتمتع به ذلك الحاكم »^(٣).

كان هذا الحاكم مكلفاً بأن يجمع من الولاية مالا طائلاً، لأن جستنيان أراد أن يسترد ما أنفقه في فتحها، وكان يرجو أن يستعين بما يأتيه منها على إتمام ما يريد من فتوح وإقامة ما يجب من أبنية، وكان عليه كذلك أن يرسل إلى العاصمة في كل عام عدداً من السفن المحملة بالغلال لغذاء أهل القسطنطينية، ولهذا كان لا بد له من عدد كبير من الموظفين لتحصيل هذه الضرائب كلها، فكان العبء ثقيلاً على ولاية فقيرة كأفريقية^(٤)، وقد حفظ لنا المؤرخون البيزنطيون قوائم مفصلة بهؤلاء الموظفين واختصاصاتهم، « وهي — أي القوائم — تشبه أن تكون دليلاً لوزارة من وزاراتنا تعج بالموظفين، وقد انتشروا من العاصمة إلى الأرياف

(١) هي كما ذكرها دي سلين في تعليقه على الترجمة الفرنسية للبكري Cyrene, Barca, Tenchera (Arsinoe) Berenice, Appollonias, J.A. 1858 p. 422 note 3

(٢) Caudel, I. p. 23

(٣) Diehl, L'Afr. Byz. p. 98

(٤) يمكن لتصوير ثقل هذا العبء أن نورد التقدير الذي أورده ديل لمرتباتهم مقدرة بالفرنك (بحسب سعره قبل الحرب الكبرى الأولى) فقال إنها كانت تبلغ ١٠٠٢٩٩٧٣٧ من الفرنكات أي نحو نصف مليون من الجنيهات المصرية، وهذا لمرتبات الموظفين فقط غير ما يرسل للإمبراطور وما يدفع جمالات لرؤساء البربر وما يجمع من القمح، ثم نفقات جيش الاحتلال ونفقات الباني والحصون والأسوار ودور الصناعة : Diehl, Op. Cit. p. 106

كذلك ، فضمت كل مدينة فرقة منهم ، وقام في كل قرية واحد^(١) . وما دامت الأعباء المالية ثقيلة على هذه الصورة ، فلم يكن في إمكان الحاكم التفرغ للقيام بشئون الحكم الأخرى ومراعاة مصالح المحكومين ، فانصرف جهد الحكومة كله إلى جمع المال ، ومن البديهي أن تعجز الولاية عن النهوض بذلك العبء الثقيل ، فلجأت الحكومة إلى أخذ السكان بالعنف للحصول على مالها بالضغط والإرهاق ، فاشتتت مع رعاياها اشتطاطاً بالغاً ، فلم يجد هؤلاء بداً من ترك مزارعهم ومتاجرهم والنجاة بأنفسهم واحتراف اللصوصية وقطع الطرق والاعتداء على الآمنين ، ولم تنشأ هذه المساوىء في نهاية العصر البيزنطي أو بعد أيام جستنيان ، بل بدأت في أيامه ، وآية ذلك قوانينه التي كان لا يكف عن إصدارها محذراً عماله من إرهاق الرعية ، حاضاً إياهم (في نفس الوقت) على الاجتهاد في تحصيل المال^(٢) .

هكذا كانت حكومة إفريقية البيزنطية مليئة بالنقص والأخطاء من أول الأمر ، وقد كان معقولاً أن يصلح هذا النظام في بلد غني كمصر تكفي موارده لسد هذه المطالب كلها ، أما إفريقية الفقيرة فلا قبل لها بذلك ، فكان مقدراً لهذه الحكومة

(١) Diehl, Op. Cit. p. 23.

(٢) « ليعرف رعايانا جميعاً أننا أصدرنا هذا القانون لأتينا معنيون بمصالحهم مهتمون بأن يكونوا بمنجاة من كل حيف ، وبأن يمشوا في رخاء ، وإنما ينبغي عليكم — يا رعاياي — نظراً لما تعرفونه من عظيم رعايتنا لكم أن تؤدوا الضرائب العامة بإخلاص شديد ، دون حاجة إلى استعمال العنف الإداري وأن تظهروا من الطاعة ما يؤكد صدق الولاء والاعتراف بالجميل الذي تقابلون به عطفتنا » Diehl, Op. Cit. p. 116.

« وكان نظام الضرائب في إفريقية البيزنطية يدل على استقصاء منظم شامل لكل موارد البلاد ، فتبع المشرع ، الثروة الخاصة في كل ناحية وأثقلها بالمال ، ففرض على الممتلكات العقارية ضريبتين Tributum و Captio وقدرت الفروض المختلفة على الزراعة والتجارة والجمارك والملاحة ، وبلغ من اهتمام الحكومة بالضرائب أن كان خمسة الموظفين مختصين بالتحصيل وأكثر من النصف يقومون بشئون المال » Caudel, I, p. 24.

ولأى حاكم يقوم بأمرها الفشل التام ، مهما أوتي من الحذق والمقدرة ، ولعل دليل لم يخطئ. حين علق على هذا النظام بقوله: « وإنه لما يؤسف له أن كان بين آمال الإمبراطور الخادعة المتفائلة وحقيقة الأشياء بون شاسع »^(١).

وقد أحسن كودل إذ وصف هذه الإدارة بقوله: « كانت الضرائب هي الغاية الوحيدة التي ترمى إليها الحكومة ، بل كانت هي علة وجودها *sa raison d'être* وسبب حياتها ، إذ كان من الضروري توفير الأسباب لحماية البلاد بالجند والحصون ودفع الجعالات لرؤساء الأهالي الذين عجزت الحكومة عن التغلب عليهم ؛ كان لابد من حراسة البلاد على هذا النحو حتى يتيسر الاحتفاظ بها والاستمرار في جباية الضرائب ، وكان النصر قد جعل هذه الضرائب عبئاً ثقيلاً بغض أهل البلاد في حكمهم ، وكان لزاماً على البيزنطيين أن يظلوا على الحذر من هؤلاء الخصوم الأقوياء حتى يأمنوا جانبهم ، ولهذا انتهجت الدولة في تنظيم افريقية البيزنطية — من الناحية العسكرية — خطة جديدة تختلف عما اتبعته في ولاياتها الأخرى كصر والبلقان : فالمعروف أن القوة الحربية البيزنطية التي كانت تحمي مصر مثلاً كانت تعسكر في مراكز رئيسية مثل بابلليون والإسكندرية ، وترابط فرق صغيرة منها في مواضع أخرى كالفرما وتندنياس (أم دين) ، أما في إفريقيا فقد اتجهت عناية الدولة إلى إحاطة أملاكها برباطات قوية من الحصون المتقاربة ، وأقامت في كل مرتبط طائفة من الجنود تستطيع حمايته والدفاع عنه ، وأسرفت الدولة في ذلك إسرافاً يسترعى النظر ، فلم تكتف برباط واحد بل أقامت ثلاثة ، وقسمت البلاد إلى أربع مناطق عسكرية لكل منها عاصمتها التي ترابط فيها فرقة يقودها قائد أو دوق *Dux*^(٢) ، فأصبحت البلاد شبكة من الحصون

(١) Diehl, op. cit. p 34

(٢) هذه الأقسام هي : طرابلس وعاصمتها لطة Leptis Magna

والقلاع ، ولما كانت الموارد ضئيلة لم يكن في الإمكان المحافظة على هذه التحصينات في حالة طيبة ، بل عجز الروم عن مجرد الاحتفاظ بها ، فإذا عرفنا أن هذه المنشآت لم تكن متينة البناء — إذ أقيمت على عجل — استطعنا أن نعرف مدى قوة هذا النظام الدفاعي لإفريقية البيزنطية^(١) . وقد روعي في اختيار مواقع هذه الحصون أن تكون محارس تقوم على أبواب البلاد ومنافذها^(٢) : فقامت قابس على باب سهل تونس تصد من يقبل مساحلا من الشرق ، وتليها حصون أخرى على الساحل مثل يونكا Yunca ومغمداس Macomades ، وقامت سُبُطْلَه Suffetula على أحد المنافذ المطروقة التي يسلكها من يريد الانتقال من سهل تونس إلى هضبة الأوراس ويعربها الرباط الثاني الذي يبدأ من سوسة ويمر بمدرسومة Madarsuma وثلبت Thelepte ويلى ذلك الرباط الثالث الذي تقوم فيه سَبِيبَه Sufes وممس Mamma وجلولاء Couloulis .

= الولاية الداخلية (يزاسيوم) وعاصمتها Thelepte وقصه
نوميديا وعاصمتها قيصرية Caesarea
مصرطانية وعاصمتها قسطنطينية

(١) اعتمد البيزنطيون في إقامة هذه الحصون والقلاع على ما كان قائماً في البلاد قبل ذلك من المنشآت الرومانية كالحمامات والملاعب والمعابد ، فلم تكن منيعة قوية كما يتصور الإنسان لأول وهلة . وسنرى مثلاً من ذلك حين يحاصر العرب حصن الجم Thysdrus في حملة عبد الله بن سعد (أوائل سنة ٢٨ هـ ٦٤٨ م) ، إذ تبين الروم المحصورون به عدم صلاحيته للدفاع ، إذ كان أصله مائلاً (طياطر) تحيط به العقود والحنايا ، فسلموا على عجل . وفي صفة هذه الحصون يقول كودل « استعالت معابد سبیطله الثلاثة حصوناً ، وحولت الأبنية في كل مكان إلى معدات للدفاع ، وقد تهافت البناء على خرائب المدن التي وجدوها في طريقهم بدون احترام لما وقع في أيديهم منها ، فأخذوا من الملاعب القواعد الفاخرة مع ما تحمل من تماثيل ، ومن المعابد الأعمدة وقواعدها وعقودها ومن المدافن أحجارها الرخامية : Caudel, II, p. 18

(٢) وقد أوجز جوليان وصف هذا النظام الدفاعي بقوله « أنشأ البيزنطيون سلسلتين من الحصون ، أما الأولى فسلسلة من الاستحكامات تربط المحارس بعضها ببعض ، وخلفها سلسلة من المدائن الحصينة التي كانت تستعمل دائماً ملاجئ للناس » وربما كان قول الأستاذ « أن الرباط البيزنطي كان يمثل القوة الرومانية في حالة اضمحلالها تحت ضغط الهجوم الجديد الآتي من الصحراء » لمجازاً لطيفاً لحالة البلاد الحربية إذ ذاك . Julien, op. cit. p. 297.

طبيعي بعد ذلك أن تكون إفريقية البيزنطية ضعيفة من الناحية الحربية .
وكما تقدم العهد بالروم في إفريقية زاد الضعف وضوحاً وخطراً ، وكان أهل البلاد يلاحظون تخوف البيزنطيين منهم ، ولا يكادون يتركون فرصة للاشتباك معهم إلا انتهزوها ، فزاد الأهليون مرانة وخبرة في حين ضعف البيزنطيون وسقطت هيبتهم، واضطروا إلى التخلي عما عجزوا عن الدفاع عنه من هذه المحارس والحصون، حتى إذا أذن القرن السادس بالمغيب كان البربر قد استولوا على الرباط الثالث وأنشأوا يطمعون في الرباط الثاني ، وكان قيام الروم بمحارس هذا الأخير إسمياً فقط إذ تركت العناية به لمن أحاط به من الزراع يعتصمون فيه من المهاجمين من البربر ، ولم يكف هؤلاء عن اختراق هذا النطاق واجتياح ما يليه من المزارع والبلاد ونهبها ، بحيث لا نخطيء إذا قلنا إنه لم تعد له قيمة حربية تذكر منذ أه إثار القرد السابع الميلادي، واقتربت حدود الولاية البيزنطية من الساحل وأصبح واجب الدفاع عن داخل البلاد منوطاً بالأهالي أنفسهم لالاروم ، بل سنلاحظ في منتصف القرن السابع أن الضعف ينتهي بالولاية البيزنطية إلى حد تجد نفسها معه أعجز من أن تدافع عما بيدها ، فيضطر حاكمها البطريق جرجير إلى التراجع إلى الداخل والاختباء بالبربر لصد العرب .

وكانت الاضطرابات وكثرة الثورات البربرية قد أحالت حكومة إفريقية البيزنطية إلى منطقة عسكرية يحكمها قائد حربي Exarcens يلقب بالبطريق، فكان هذا التحول^(١) خطوة في سبيل انفصال إفريقية عن بيزنطة ، لأن الحكام العسكريين الذين يطول بهم البعد مع جندهم عن مركز الدولة يميلون دائماً إلى

(١) يرى جوليان أن هذا التحول بدأ في عهد جستنيان نفسه ولكنه لم يأخذ شكلاً ظاهراً إلا في أيام جناريوس الذي استطاع أن يخمّد ثورة البربر في سنة ٥٨٧ فكان بهذا أول الحكام العسكريين Julien, op. cit. p. 209

الإفصال وإعلان الاستقلال ، وهذا ما حدث في إفريقية : إذ لم يكذب الطريق جرجوريوس (جرجير) يختلف مع الدولة حتى ثار بها واستقل عنها وأعلن نفسه امبراطوراً وكان هذا قبيل الفتح العربي .

العلاقات بين
الروم وأهل
البلاد

كان الروم على حق حين اتخذوا الحذر لاتقاء شر البربر ، ولكنهم كانوا مخطئين إذ بالغوا في ذلك مبالغة أشعرت الأهليين بخوفهم وأوجدت بين الجانبين — من أول الأمر — شعوراً من العدا والكراهية كان بعيد الأثر في مستقبل الحكم البيزنطي في شمال أفريقية ، فكانت الاستحكامات الحربية الكثيرة والجيش المتنقلة والثابتة إيجاء للحاكين بالاستبداد والاعتماد على القوة في معاملة أهل البلاد ودافعاً لهؤلاء إلى أن يقفوا موقف العدا من الروم وكل ما يتصل بهم من حضارة ولغة .

وكانت الرباطات قد قسمت البلاد قسمين : القسم الأول الساحلي الذي يظهر فيه الحكم الرومي واضحاً جلياً ، وتنتشر فيه الحضارة واللغة البيزنطيتان ، والقسم الداخلي الذي باعدت السياسة الرومية بينه وبينها فبقيت فيه القبائل البربرية محتفظة بما لها من القوة والشخصية والاستقلال ، بل أخذت بكثرة الاحتكاك بالروم والصراع معهم تتعلم منهم وسائل جديدة في الحرب حتى أصبح الصراع بينهما صراعاً بين كفتين متعادلتين تقريباً ، بل كان النصر لأهل البلاد في كثير من الأحيان ، فزادت جرأتهم على اختراق الرباطات والهجوم على الولايات البيزنطية واحتلال كثير من الحصون والمخارص ، وكلما انسحب الروم من جزء حل البربر محلهم فيه حتى انتهى الأمر بأفريقية البيزنطية إلى أن تكون شريطاً ضيقاً لا يكاد يعدو الخط الممتد من سوسة إلى سبيطة في أوسع أجزائه ، أما فيما عدا ذلك فاقصر على مدائن الساحل وأرباضها وماحولها من المزارع .

وحاول الروم أن يرضوا الأهليين بدفع الجمالات المنتظمة إلى رؤسائهم

— إذ كان المال أقوى وسائل السياسة البيزنطية —^(١) فأصبح هؤلاء يعتبرون ذلك حقاً لهم وثنماً لطاعتهم، فإذا انقطع كانوا في حل من الطاعة ولم يعد عليهم حرج من العصيان ، فكان هذا سبباً من أسباب الشقاق والنزاع، ولو كانت الحكومة البيزنطية قد استمرت على سياسة الحذر واليقظة لبقيت سيطرتها على البلاد قوية لا ينال منها شغب الأهلين ، ولكن علة الحكم البيزنطى كانت ضعف الحكام وقلة خبرتهم مما استغفر الأهلين إلى العصيان .

كان الأهليون قد استقبلوا الفاتح البيزنطى — أول مجيئه — استقبالا طيباً ، وتوقعوا أن يكون خلاصهم من فوضى الوندال على يديه ، وكان بلزاريوس رجلاً قديراً ماهراً فأحسن استغلال ذلك الشعور الطيب ووجهه إلى ما فيه خير الحكم البيزنطى ، فغمر رؤساء القبائل بالهدايا والأموال ، وطلب إليهم رهائن يحفظها عنده حذراً من غدرهم ، فلم تلبث هذه السياسة أن كسبت ودهم ، فبدلوا له ما أراد من طاعة وقبلوا ما شرط من حدود^(٢) ، بل قدموا إليه جنوداً تحارب في صفوف الامبراطورية وسمح لهم بأن يحيطوا أنفسهم بحرس فخرى من الروم ، فكان هذا احتياطاً له معناه إذ كان وسيلة فعالة للرقابة عليهم وضماناً لطاعتهم^(٣) .

حافظ سليمان — خلف بلزاريوس في حكم إفريقية — على هذه السياسة الموفقة ، بل زادت ثقته بالأهلين فجعل يعتمد عليهم في إقرار السلام في المناطق التى يسكنونها ، والمجاورة لهم فأقرّ انتالاس Antalas على رأس قبائل الولاية الداخلية ، ويابنداس على القبائل التى تسكن هضبة الأوراس يعاونه رئيسان صغيران هما كوتسينا وأورتاياس ، وأقرّ ماسونا ماستيجاس على مرطانية بأقسامها^(٤) . سارت الأمور على هذا النحو زمناً قصيراً كانت الدولة خلاله تقوم حكاماً بين

Diehl, L'Afr. Byz. p. 319 (٢)

Diehl, Byzance, pp. 55-60 (١)

Caudel, I, p.21 (٤)

Ibid. p. 320 (٣)

الأهلين فيما يشجر بينهم من خلاف وربما كسبت حق اختيار رئيس القبيلة في حالة موت رئيسها^(١)، وكثر دخول البربر في جيش الامبراطورية فرساناً ومشاة^(٢)، فبعث هذا في نفوسهم شعوراً من القوة وعرفهم بأساليب الحرب، ولكنهم آثروا البقاء على الولاء، ما حفظت الامبراطورية لهم حقوقهم، وكان أكثر عمل البربر في فرق الحدود، يربطون عندها داخل أرض الدولة مستعدين لقتال من يفضيهم من أعداء الدولة أو رجالها على السواء؛ ولم يقتصر استخدام البربر على جيوش أفريقية بل رغبت الدولة في الاستفادة من مواهبهم في سرعة الحركة وركوب الخيل، فأخذت فرقاً منهم حاربت في إيطاليا واشتركت في الحرس الامبراطوري، وحارب كثير منهم في صفوف الدولة في ميادين فارس^(٣)؛ وسنرى أن هرقل سيأخذ فرقاً منهم حين يبرح أفريقية لإسقاط فوكاس سنة ٦١٩ م.

لم يدم هذا الصفاء طويلاً، إذ كان الروم مضطرين إلى الغلو في تقرير الضرائب واستعمال العنف في جبايتها لكثرة ما تستلزمه الإدارة والدفاع والبناء من تكاليف، فأخذوا يتأخرون في دفع أعطيات الجند وجعالات الأهلين، واشتد ضغط الجباة فارتفعت الأصوات بالشكوى في كل مكان، وأخذت أسباب الاضطرابات تتوافق وتتكاثر، فأنشأ الجند يشغبون ويغيرون على مزارع الأهلين ويروعون الآمنين، وتحولوا شيئاً فشيئاً إلى طلاب غنم وقطاع طرق، وعجزت الحكومة عن ردهم إلى الطاعة فأصبحوا من عوامل القوضى والاضطرابات، وتهاون من بقي منهم على الطاعة في القيام بواجباته العسكرية «فتقاعدوا عن القتال أو تهاونوا فيه أو ادعوا الحاجة إلى الطعام أو اضطنعوا التعب واعتذروا بشدة البرد، وإذا ساروا للقتال دخلوا الميدان من غير استئذان وخرجوا منه دون انتظار أوامر قائدهم، وربما تركوه دون تردد

Ibid. p. 326 (٢)

Diehl, L'Afr. Byz. p. 322 (١)

Diehl, op. cit. p. 324 (٣)

ساعة الخطر^(١)، وكان البربر يرقبون ذلك فتزداد جرأتهم على الحكام وتتحرك الثورة في نفوسهم، ولم يلبث الإرهاق الذي أصاب أهل البلاد أن مهد لهم السبيل ليعلموا ما يضررون من كراهية وحقد، وعلة ذلك ما كان من تفاضل الحكام الذين تولوا بعد سلامون (سليمان) عن قوة البربر واحتقارهم إياهم ومعاملتهم معاملة العبيد. بدأ البربر يشكون إلى الحكومة عدوان الجند عليهم وتعيدهم على أرضهم ومراعيهم، فردت الحكومة على الأهليين رداً جافياً قاسياً أثار نيران غضبهم إذ قتل الحاكم رجال الوفد الذي انتدبه البربر لإبلاغ الشكوى إليه^(٢)، فاستطارت نيران الثورة، وتصادف أن سليمان كان قد خاصم إذاك أكبر رؤساء البربر وهو أنطالاس رأس قبائل برقة وقتل أخاه، فثار رجاله واتصلت ثورة إفريقية بثورة برقة وطرابلس وخف سليمان للقضاء على أنطالاس فخر صريعاً في الميدان أمام البربر سنة ٥٤٤ م لأن جنده تخونوه وغدروا به، وبهذا أصبحت إفريقية بدون حاكم وخرجت عن طاعة الأمبراطورية جملة، فلم يسع الجند الثأرين إلا السير نحو العاصمة والاستيلاء على قرطاجنة برياسة زعيمهم جنفارت.

ولو لم يقيض الله للدولة قائداً أميناً اسمه أرطبان جمع من بقي من الجند على الولاء، وسار بهم إلى قرطاجنة وهزم جنفارت وأعاد العاصمة إلى طاعة الأمبراطور^(٣)، لاستدعى الأمر غزو البلاد من جديد بل ربما استعصى على الدولة أن تستعيد لها.

(١) Diehl, op. cit. p. 327

(٢) عين جستنيان ابني أخ سليمان وما قيرس Cyrus وسرجيوس Sergius حاكبين على برقة وطرابلس، وكانا يافعين مترفين منصرفين إلى لهوهما، فلما قصد وفد لواته أحدهما (سرجيوس) للشكوى إليه من عدوان الجند قتل رجال الوفد كلهم، فلم ينج إلا واحد أسرع رجف نبأ الفاجعة إلى القبائل فرفضت علم الثورة.

(٣) ويكفي للدلالة على تخرج الحال وانتشار روح الثورة أن أرطبان هذا رفض أن يكون =

استبانت الدولة أن حكم إفريقية لم يعد بالأمر الهين ، فأخذت تميل إلى الاعتماد على الأساليب العسكرية في التفاهم مع الأهلين ، وتحولت إفريقية البيزنطية إلى ولاية عسكرية يشرف على أمورها قائد، لكي يستطيع أن يداوم الحرب مع الأهلين ويثبت لهم ، ولكنه لم يستطع أن يردمهم إلى الطاعة ، فأخذ بربر انطالاس ينسابون بمجموعهم في أراضي الولاية الداخلية حتى استولوا على سوسة وأخذوا ينهبون ما يجدونه نهباً ذريعاً ، فخلاً أكثر المزارع من السكان وترك لا يرعاها أحد ، إذ فر المزارعون إلى صقلية أو بيزنطة ، وخلاً أكثر المدن من الصنائع والسكان ، وتطلب الأمر منقذاً يخلص بالبلاد من هذه الفوضى التي جر إليها فشل الحكم البيزنطي .

لم يبالغ ديل إذن حين تساءل « وأي فائدة للرباط إذن ، لقد عبر البربر الحدود وعدوا عليها ، ونهبت البلاد وفوجيء الناس وأخذوا أسرى » ؟ بل لم يكن مبالغاً حين تساءل عن فائدة الجيش المحتل نفسه إذا كان قد عجز تماماً عن رد الأهلين إلى الطاعة وتفوق البربر عليه تفوقاً ظاهراً حتى إن تيودوسوس حاكم إفريقية قتل في حربه معهم سنة ٥٦٩ م وفي السنة التالية ٥٧٠ م قتل قائد ولاية إفريقية فيوكتيتوس ، ولم يسلم القائد العام لإفريقيا البيزنطية من هذا المصير سنة ٥٧١ .

فشل الحكم البيزنطي إذن في إفريقية وعجزت الدولة عن السيطرة عليها فعلياً فأصبح جندها في حال أقرب إلى الاستقلال ، وبدأ قادتها يفكرون في الانفصال وإعلان أنفسهم حكاماً بأنفسهم .

= حاكماً لإفريقية حينما خلق عليه الامبراطور هذا الشرف جزاء له على ولائه ، كأنما كان هذا الرجل يعرف قيمة منصب كهذا ، ويعرف أن حاكم إفريقية لا بد مقتول على يد البربر أو على يد الجند أو على يد الامبراطور نفسه .

هذا عن الحالة السياسية . أما عن حضارة الروم في افريقية ومدى توفيقهم في نشرها بين الأهلين ، فقد وقفوا إلى بعض ما أرادوا من إعادة الحضارة الرومانية في افريقية إلى ما كانت عليه أيام الرومان في مدائن الساحل وما يتصل بها ، وبذلوا جهداً كبيراً ليعمروا الولاية الداخلية والنواحي المهجورة في الأوراس ، فازدهرت زماناً في أوائل حكم جستنيان ، ولكن الاضطرابات وثورات الأهلين ومساءات الحكام ما لبثت أن عدت على ذلك فأعادته خراباً كأن لم يكن بالأمس . أما بلاد الداخل — فيما وراء الرباط — فلم يمسه الروم بتغيير كبير ، فظلت على حالها يقيم فيها أهلها من البربر ، ويهمون منها للاغارة على ما يجاورهم من سراكر العمران ، ويعتصمون في جبالها وشطوطها من الروم .

وقد ازدهرت الأساليب المعمارية البيزنطية في البلاد ووفق المهندسون إلى إقامة كثير من القصور والحصون والكنائس البيزنطية الطراز ، ولا زالت آثارها باقية فيما أخذه المسلمون من بقاياها واستعملوه في إنشاء مساجدهم كما في مساجد القيروان وسفاس وسوسة التي أخذ الكثير من أبوابها وأعمدتها ونوافذها من مبان بيزنطية ، ولا زالت النقوش الباقية على هذه المعاهد تشهد ببراعة روم افريقية في التصوير والزخرفة والتصميم^(١) ، ولا نزاع في أن الطرز المعمارية والزخرفية الإسلامية تأثرت في شمال افريقية بهذا التراث تأثراً ظاهراً ، بل يذهب ديل إلى أن الملاحظ لا يعدم في بعض آثار المناطق التي لم يصل إليها الحكم الرومي لمحات لطراز افريقي بيزنطي أصيل . وآثار افريقية البيزنطية غنية بالقاشاني المزخرف الذي يبدو أنه كان شائع الاستعمال في مبانيها ، مما يدل على أن الصانع الأفارقة بلغوا في إجادته مبلغاً عظيماً ، ولا تقتصر قيمة ما وجد من هذا القاشاني على الدلالة على

(١) أنظر اللوحات الخاصة بمساجد عقبة والزيتونة وحمودة باشا وزخارف القاشاني الواردة في كتاب G. Marçais, Manuel d'art musulman, l'architecture. vol. I (1928), II, 1927.

مبلغ روم أفريقية في إجادته ، بل إن نقوشه ورسومه لتدل على نواحٍ كثيرة من حياة أهل البلاد كتصاوير الملاعب واللاعبين وملابس الرجال والنساء .

وكانت لأفريقية الرومانية ماضٍ مجيد في عالم الآداب ، ولا زال كاتبها سنت أوغسطين صاحب كتاب « مدينة الله » يذكرنا بذلك العصر الزاهر ، فلا غرابة أن أثمرت جهود البيزنطيين فظهر بعض الشعراء والكتاب ، فهذه أشعار كوريتيوس دليل ناطق على ذلك ومعيناً لا ينضب لتاريخ ذلك العصر ، ولكنه لم يكن إلا مقلداً للرومان القدماء متبعاً تقاليدهم ، وربما أخطأه التوفيق في كثير من الأحيان ، وكتابه « القصائد الجوهانية » تاريخ شعري لحروب جان تروجليتا مع البربر ، وهو خال من الجمال الشعري الحقيقي الذي هو أساس القيمة الأدبية ، ولكن قيمته ليست بالقليلة ، إذا اعتبرناه وثيقة تاريخية^(١) ، إذ أن الرجل استطاع أن يصور في أشعاره حروب البيزنطيين مع البربر وأساليبهم وملابسهم وعاداتهم في الحروب وما إلى هذا مما لا غنى عنه في دراسة تاريخ أفريقية البيزنطية . كذلك أخرجت الكنائس عدداً طيباً من الكتاب الدينيين الذين وصلت لنا كتاباتهم ، فكانت وثائق تاريخية جليلة الفائدة لا تخلو من لمحات أدبية صادقة^(٢) .

(١) أنظر : Procopius, Corpus scriptorum historiae byzantinae, Bonnæ 838

(٢) أنظر : Gautier, Siècles obscures, pp. 179-187 على أن جوتيه بالغ في تقليل أثر الرومان في البلاد ، لأنه إذا كان البربر قد ظلوا بعيدين عن حضارة الرومان ، فقد حفلت البلاد بالمدائن والمستعمرات التي كان يسكنها الرومان الذين أخذوا يجتهدون في إقامة مظاهر الحضارة اللاتينية حتى وفقوا في ذلك توفيقاً كبيراً ، وأعانهم على ذلك أن إفريقية نالت حظاً وافراً من العناية منذ أيام سقيروس (٢٢٢ — ٢٣٥ ق م) لأنه كان إفريقي المولد ، وكان شديد الحب لموطنه الأصلي ، فتزوج بزوجة قرطاجنية ، وكان لا يفتأ يعني بشئون إفريقية وأمورها حتى أصبح للفرق البربرية في الجيش الروماني سلطان قوى ، مكنتها من عزل خليفته مكسيميان (٢٣٥ — ٢٣٨ م) وإقامة ضابط إفريقي آخر هو جورديانوس الملقب بالأفريقي امبراطوراً . لهذا ارتفع مستوى البلاد الاقتصادي وعمها العمران ، وساد الجزء الروماني الرخاء ، ودخلتها زراعة الزيتون والكروم =

على أن الإنسان إذا قارن هذه الآثار بمشكلاتها مما كان موجوداً أيام الرومان لم يسهه إلا أن يقرر أن إفريقية البيزنطية ما هي إلا فترة اضمحلال للحضارة الرومانية في إفريقية بل لم تكن إلا محاولة مخففة لإعادة هذا العصر الزاهر .

وكانت المسيحية قد دخلت البلاد خلال القرن الثاني فوجدت قبولا طيباً ، لأن السراة والأغنياء كانوا مستعدين لقبولها ، إذ أن الفلسفة كانت قد أعدت عقولهم لذلك كما يقول جوليان . دخل كثيرون من البربر المسيحية ونشرها فيهم رهبان من مصر أو من إيطاليا نفسها ، ولكن انتشارها ظل محدوداً أثناء العصور التي نشطت الدولة الرومانية في محاربة المسيحيين خلالها ، وعلى الرغم من ذلك أقبل كثيرون من أهل البلاد على الدخول في النصرانية حتى لقد استشهد منهم نفر كبير ، وانتشر الرهبان بين البربر فكانت المسيحية سبيلاً للاتصال بين الرومان والأهلين ، وكانت الكنائس وسطاً صالحاً للاتصال والتفاهم ، وبهذا وفق الرهبان فيما عجز الحكام دونه وهو اجتذاب نفر من أهل البلاد .

ولم يقتصر الأمر على سهل الساحل بل اعتنق النصرانية نفر من بربر الأوراس ونوميديا ، وانتشرت في إقليم الزاب على الخصوص ، وكثر انعقاد المجالس الدينية في قرطاجنة فيجتمع فيها الرهبان والأساقفة يمثلون بلادهم ونواحيهم^(١) .

= والقواكه . وتبع ذلك نشاط صناعي في استخراج الزيوت وعصر الخمر وما إلى ذلك . وفي هذه المدائن اللاتينية نشأت مدارس لاتينية تعلم فيها الكثيرون ؛ فازدهرت اللاتينية وأصبحت لغة المثقفين في البلاد ، وأقبل عليها سراة البلاد ورؤساء الأهالي فنبت فيها منهم نفر منهم يوبا المعروف ؛ وهذا تراث إفريقية القديمة الفكرى نصفه لاتيني : فكوريوس صاحب القصائد الجوهانية وصاحب مدائح جستنيان وفولجنطيوس فراندوس صاحب حياة القديس فولجانتى أسقف روسبنس *Fulgentius Ferrandus . Sanctii Fulgentii Episcopi Ruspensis* وبريغاسيوس هادرميتوس وسنت أوغسطين صاحب كتاب مدينة الله كل أولئك كتاب لاتين على درجة مشكورة من الإقتدار على الترويض والنظم اللاتينيين *Julien, op. cit. pp. 162, 187, 791*

Julien, op. cit. p. 211 (١)

وكان الدعاة والمبشرون لا ينفكون يفرون إلى داخل البلاد نجاة من الاضطهاد والقتل، فرحبت بهم القبائل واتبعهم من أهلها نفر كبير، ولما كان هؤلاء الهاربون أعداء للرومان، فقد اهتموا بأن يبشروا في نفوس الأهلين كراهية الرومان وعداءهم، وكلما ازداد اضطراب الدولة الرومانية وكثرت مساوئها وثقلت ضرائبها ازداد الأهليون لها كرهاً، حتى إذا نشب الخلاف المذهبي بين الأسقف دوناتوس وأسقف قرطاجنة فرّ دوناتوس إلى البربر واعتصم فيهم، فأزروه وأجاروه ورفعوا علم الثورة على الرومان : ثورة سياسية في الواقع دينية في الظاهر، وعبثاً حاولت كنيسة قرطاجنة القضاء على الدوناتية — نسبة إلى دوناتوس — أو تفلّ غربها . ولم يلبث الوندال أن أقبلوا فأنشأوا يضطهدون الدوناتيين وأعداءهم معاً لأنهم، أي الوندال، كانوا أريوسيين^(١).

بهذا تفرق أمر المسيحية في افريقية، واختلف أتباعها شيعاً وأحزاباً، فلم يلبث أن ارتد عنها الكثيرون، وضعف أثرها في الداخل فكان على جستنيان أن يحاول نشرها في البلاد من جديد .

اهتم جستنيان اهتماماً بالغاً بإعادة افريقية إلى المسيحية، فأعاد بناء كثير من الكنائس وأنشأ بعضها، وشجع البعثات التبشيرية، فأخذت المسيحية تنشط من جديد وانتشرت بين القبائل البربرية المحيطة بصبرة Sabrata^(٢)، وفي طرابلس وبعض نواحي نوميدية مثل وادي شلف (حول تلمسان)، بدليل أن أهل هذه الناحية

(١) Julien, op. cit. pp. 211, 261

وقد أبان الأستاذ C. A. Scott في موسوعة الأديان والأخلاق « أن الدوناتية في حقيقتها خلاف شخصي إقليمي بين طوائف الرهبان، وأكد أنها ليست هرطقة ولا خروجاً على الدين وقرر أن ميدانها كان في نوميدية ومرطانية Encycl. of Religion and Ethics : vol IV, p. 844

(٢) Fournel, Les Berbères, vol I, p. 326

أرسلوا وفداً عظيماً من القساوسة ليقدم الطاعة والخضوع إلى الإمبراطور سنة ٥٧٣ م ،
وبدليل ما لا يزال باقياً إلى الآن في منطقة التل المحيطة بوهرا من قبور مسيحية
على هيئة الأهرام تجللها من الداخل نقوش مسيحية ^(١) ، بل أن المسيحية تغلغلت
في داخل البلاد ، فأقيمت الكنائس في واحات مثل أوغله Augila وغدامس
Cydamus ، ولا ينبغي أن نغفل الإشارة إلى ما تقرره الرواية العربية من وجود
قبائل مسيحية في أثناء الفتح العربي مثل أوربة قبلية كسيلة وغمارة في إقليم طنجة
بيد أن الكنيسة الأفريقية لم تكن خلال العصر البيزنطي على حال يبعث
على الأمل في مستقبل المسيحية في البلاد ، فكانت إدارتها مختلفة النظام إذ تلاشى
النظام الكنسي ، واقترب القس ذنباً كثيرة تدل على العصيان أو التدهور
الأخلاقي والفساد ^(٢) ، وكانت الدونانية وخصومتها المشوبة مع الكنيسة البيزنطية

(١) وفي بناء هذه القبور وفي نقوشها دليل على أن المسيحية لقيت قبولا عند الأفارقة من
أهل الساحل والقبائل القريبة منهم في الأوراس وبعض نواحي نوميدية ، وقد علق الأستاذ جوليان
على ذلك بقوله: « ويبدو أن إفريقية — التي كان هرقل قد عهد في حكومتها إلى ابن عمه —
قد هدأ أمرها بعض الشيء ، فسارت المسيحية وطاعة الإمبراطور فيها جنبا إلى جنب ، حتى تركت
الأولى أثراً واضحاً في منطقة الجريد وفي الأوراس وفي الزاب . ولدينا برهان يؤكد أن المسيحية
تقدمت في مرطانية إن لم تكن قد استقرت وثبتت قدمها فيها ، وهو أنه وجد في ناحية الجدار
ثلاثة عشر مدفناً يرجع تاريخها إلى القرنين السادس والسابع الميلاديين على هيئة الأهرام يبلغ
ارتفاع بعضها خمسة وأربعين متراً ، وهي قائمة جنوب تاهرت إلى الغرب » ثم أورد الأستاذ
وصف داخل هذه المدافن كما أثبتتها لابلاشير ثم ختم كلامه بقوله « وهذه الآثار التي بناها عمال
رومان وبيزنطيون . تدل — من النقوش التي على جدرانها — على أن عائلة بربرية قوية
مسيحية كانت على علاقات — معنوية على الأقل — مع الإمبراطورية ، وقد ذكر بروكويوس
في حديثه رجلاً مسيحياً من أهل البلاد اسمه ماسوناس Masunas كان على اتصال دائم مع
سليمان فرجج جسل أن يكون هو هذا الشخص وأن سلطانه شمل كل منطقة وهران ، بل أكد
جوتيه أن نفوذه امتد إلى الأوراس ، وكل تلك الدلائل تشهد بأن المسيحية قد انتشرت في هذا
الجزء من البلاد ولقيت عند بعض قبائل نوميدية والأوراس قبولا طيباً ، ومما يؤكد ذلك أن هذه
الأجزاء كانت نصرانية أثناء الفتح العربي إذ فيها كانت مواطن أوربة وزعيمها كسيلة النصراني
Julien, op. cit. pp. 311-312

(٢) Greg. Epist. 9,24—7,342. Diehl, op. cit. p. 506

عاملا آخر من عوامل ضعف هذه الأخيرة ، إذ استطاع دعايتها أن يفروا إلى داخل البلاد نجاة من الاضطهاد؛ وهناك كانوا يثيرون الناس على الكنيسة البيزنطية فيفر منها الكثيرون ، بل أخذ البعض يُعَمِّد نفسه من جديد وفق طقوس الدوناتيين . وكانت الكنيسة الغربية قد أخذت تنهض نهضة عظيمة في ذلك الزمن بفضل جهود جريجورى الأكبر ، وكانت الخصومة ناشبة بينها وبين كنيسة بيزنطة ، فوجد جريجورى فى تفرق أمر المسيحية فى أفريقية فرصة طيبة يتدخل بها فى شئون كنيسة أفريقية ليكسب رعاياها إلى صفه ؛ فاستعان بقساوسة ذوى قدرة وشهرة من أمثال دومنيك كبير قساوسة قرطاجنة وكولمبوس أسقف نوميدية ، فأخذ مسيحيو إفريقية يتجهون نحو روما متأثرين بما كان جريجورى يذيعه فيهم من نداءات وبما يبذله قساوسته من جهد وبما حرصت عليه الكنيسة الغربية من إعزاز لأمر الدين وإخلاص فى نشره؛ وبهذا ازدادت العلاقات العامة بين بيزنطة وإفريقية ضعفا على ضعف ،^(١) ولم يلبث جريجورى أن حوّل هذا السلطان الدينى الذى كسب الى سلطان سياسى ، فأخذ يتدخل فى إدارة شئون أفريقية ويتصدى للدفاع عن المظلومين وإنصاف ذوى الشكاوى فى عصر كثر فيه المظلومون وقل من يسمع الشكوى .

من ذلك الحين أخذت طائفة دينية — من أتباع كنيسة روما — تنشأ فى إفريقية ؛ وتكسب لمبادئها أنصاراً يعتزون بها ويخاصمون فيها غيرهم من أصحاب المذاهب القائمة فى إفريقية ، مما جعل المنازعات الدينية أحداً وأقسى وزاد فى انحلال البلاد التى كانت — لهذا الزمن — قد تفككت تفككا بالغا لا يرجى معه أمل فى صلاح أمورها .

كانت سياسة البيزنطيين إذن قاضية على الآثار القليلة التى خلفها الرومان

(١) Diehl, L'Afr. Byz. pp. 508 - 509

في نفوس أهل البلاد ، بل دفعت هذه السياسة بالبربر البدو إلى العدوان على الولايات البيزنطية التي قامت فيها معالم الحضارة ، ولو لم تكن المسيحية قد ثبتت بعض الثبات في بعض النواحي كالزباب وتلمسان ، لما كان للبيزنطيين أى أثر في حضارة أهل البلاد ، ولا مبالغة في القول بأن كثيرين من زراع البربر انصرفوا عن الزراعة وهجروا المزارع والمدن وعادوا إلى ما كانوا عليه قبل دخول الرومان .

تبين الأباطرة أن نظام الحكم الذي وضعه جستنيان لأفريقية لم يحقق الغرض المراد منه ، إذ استمرت الثورات تقلق البلاد وتفصل أجزاءها عن جسد الدولة جزءاً جزءاً ، وظهر لهم بجلاء أنه لا بد من إيجاد نظام جديد لحكمها يلائم أحوالها التي صارت إليها ، وثبت في أذهانهم أنه لا بد أن يراعى في النظام الجديد تغليب الناحية العسكرية على الناحية المدنية^(١) ، وجعل الأولى فوق الثانية ومشرفة عليها بعكس ما رسم جستنيان ، وأقيم على الولاية حاكم عسكري Exarcus له الإشراف التام على كل مراقبها وموظفيها ، بما فيها الحاكم المدني القديم Praefect . وأقيم على الأقسام الإدارية الجديدة حكام عسكريون يلقبون بالأدواق ، وعلى المدن قواد عسكريون على رأس حاميات .

كان تحويل أفريقية البيزنطية من ولاية إلى منطقة عسكرية بدء النهاية

(١) بدأ هذا التغيير يحدث منذ أوائل أيام الامبراطور موريس (٥٨٢ — ٦٠٢ م) الذي أدخل تعديلاً على تقسيم إفريقية البيزنطية يلائم حالة البلاد الجديدة ، ففصل طرابلس عن إفريقية وضمها إلى مصر . وجمع مرطانية السفينية Mauretania Setifiensis إلى ما بقى من مرطانية القيصرية M. Cesariensis . وكون منها ولاية واحدة سميت مرطانية الأولى ، وأضيفت سبتة Septem إلى جزائر البليار وبقية أملاك البيزنطيين في أسبانيا وألفت منها جميعاً ولاية مرطانية الثانية ، وأنشئت ولاية جديدة لسردانية وقرصقة . واكتفى في الدفاع عن البلاد بتحصين عدد قليل من المدن لاتكاد تتعدى خط المواسم الثاني (الرباط) الذي يمر « بتبسا » وتيجاد وباغاية وتيجس وقسطنطينه وصدفه وسبتة

كما يقولون لأنه كان نذيراً بفشل البيزنطيين في حكم البلاد، وإيذاناً بوقوف كل الجهود السلمية والإصلاحية التي كان يرجى قيامها في ظلهم، ودليلاً على قرب انسلاخها عن جسد الدولة، لأن الحكام العسكريين لا يترددون في أغلب الأحيان في الثورة على الدولة المركزية والاعتصام منها بالجيوش التي تحت أيديهم إذا قامت بينهم وبين المركز خصومة، وزاد في خطر هذا النظام الجديد أن الدولة جعلت للحاكم العسكري الإشراف الكامل على مرافق الولاية كبيرها وصغيرها حتى شئون الكنيسة^(١).

أثمر هذا النظام في أول الأمر ثمراً طيباً، إذ انتظمت أمور الولاية في حدودها الجديدة، وسادها الهدوء فترة من الزمان، وكان للمظهر العسكري الذي ظهرت به أثره في القبائل البربرية، فلم تعد تستخف بالحدود البيزنطية، وكفت عن مهاجمتها إلى حين^(٢)، ولكن البلاد أصبحت رهناً بإرادة من يولى عليها من الحكام العسكريين، لا تملك الدولة قبلهم شيئاً، وإذا عرفنا — إلى ذلك — أن هذه الدولة كانت تعتمد على أفريقية في الحصول على جزء كبير مما يلزمها من القمح، وأن أفريقية كانت قريبة من مصر التي تمد العاصمة بجزء آخر (فيستطيع حاكمها أن يوقف قمح مصر وقمح أفريقية)، عرفنا إلى أي حد كان الوثوب بالدولة هيناً على حاكم أفريقية.

(١) المدير *praefect* في نظام الحكم الروماني حاكم مدني، يرسل كل سنة كممثل للقاضي الروماني الأكبر *praetor* لكي يراقب سير القضاء في الولايات، وقد ينتدب لتنظيم الممتلكات الرومانية التي لم يكن فيها سكان مدنيون أو حكومة منظمة، وبذلك يتناول سلطاته الإدارة. أما القناصل السابقون *proconsuli* فحكام عسكريون أصلهم قواد *Consuli*، ولما كان القانون الروماني يحرم استمرار القنصل في حكمته أكثر من عام، فقد عهد إليهم في حكومة ولايات الحدود والمستعمرات الكثيرة القلاقل، ويسمون قناصل سابقون *proconsuli* وقد يسمون *Eparci*.

(٢) Diehl, op. cit. p. 262

في سنة ٦٠٨ أقام موريق Maurice على أفريقية البطريق « هرقل »^(١)، وهو قائد ماهر من أصل أرمني ، له ماض حربي مجيد في الحرب مع فارس ، وكانت أفريقية في هذه الفترة في حاجة إلى رجل ممتاز في الحرب ليرد البربر إلى الطاعة بعد أن ثاروا ثورة شديدة أخرى عقب موت جستنيان ، استمرت ثلاث سنوات متوالية (٥٦٩—٥٧١م) استولوا خلالها على العاصمة ، وأنشأوا فيها شبه حكومة منظمة على رأسها قائد الثورة Gasmul جاسمول ، ولم تحمد نيرانها إلا حين ندب الإمبراطور القائد جناديوس Gennadius الذي استطاع حوالي سنة ٥٨٠ م أن يقتل جاسمول ويهزم أتباعه . ولكن الهدوء لم يطل أمده ، إذ عادت الثورة فشبت من جديد سنة ٥٨٨ م واستمرت زمناً طويلاً حتى عجز جناديوس عن القضاء عليها .

أقيم هرقل حاكماً على أفريقية لينقذ البلاد مما صارت إليه ، ونُدب لمعاونته في إدارة البلاد أخوه البطريق جريجوريوس Gregorius ، فبدأ يعملان معاً ليعيدا الأمور إلى نصابها في هذا الأقليم المضطرب ، ولكن هرقل لم يكد يبدأ العمل ، حتى فوجيء سنة ٦٠٢ م بثورة في القسطنطينية ، انتهت بقتل موريق وإقامة فوكاس إمبراطوراً ، وكان الإمبراطور الجديد يعرف ما كان بين هرقل وموريق من حب وولاء ، ولكنه آثر أن يدعه حيث هو حذراً من الشر الذي يصيبه إذا هو أقدم على عزله ، ولزم هرقل من جانبه حياداً تاماً حيال النظام الجديد ، ولكنه لم يستطع أن يقف مكتوف اليدين أمام ما كان يسمعه من مظالم فوكاس ، فلم يلبث أن اتجه وجهة معادية وأنشأ يعمل على الانفصال عن الدولة ، وكانت أولى الخطوات التي اتخذها لبلوغ ذلك ، أن حجز في قرطاجنة السفن التي تنقل

(١) Neciphore, p. 3 ; Theophanès, p. 295—297 ; Diehl, op. cit. p 517.

القبح إلى العاصمة كل عام ، فلم يلبث الموتورون من فوكاس أن اعتبروه منقذاً للدولة
وتوجهوا بآمالهم نحوه ، واثالت عليه الرُّجى تستحبه إلى المبادرة بإنقاذ الدولة مما
صارت إليه ، وبعث إليه مجلس شيوخ القسطنطينية يسأله القدوم ، وكتب إليه
برسكوس Priscus — صهر الأمبراطور وحاكم القسطنطينية — يستحبه على
النهوض للقضاء على فوكاس ، وتخليص الناس من شره^(١) .

ثورة هرقل
سنة ٦١٠
واسقاطه
فوكاس

بيد أن هرقل كان في الستين من عمره ، وقد علت به السن عن أن ينهض
بعمل كهذا ، فندب ابنه هرقل لإنقاذه ، واختار ابن أخيه نقيتاس Nicetas
لمعاونته ، ولكنه تردد في التنفيذ ، إذ كانت امرأته « ابفانيا » Epiphania
وخطيبة ابنه يوديسيا Eudicia تزوران القسطنطينية في ذلك الحين ، فلم يكد
فوكاس يستشعر نية البطريق وانصراف الناس إليه ، حتى سارع فاحتجز
الاثنين وأودعهما أحد الأديرة^(٢) ، فلم يفت ذلك في عضد هرقل ، إذ أن الاضطراب
كان قد عم نواحي الدولة ولم تسلم منه أفرقية نفسها ، فثارت طرابلس وبنطابلس ،
وأقبلت القبائل البربرية على هرقل تستحبه على المضي في الأمر ، فبدأ بإرسال
بعث احتل بنطابلس ، ثم سير حملتين : إحداهما بحرية يقودها ابنه هرقل ، تقلع
من قرطاجنة إلى سلانيك ، وهناك يلقاها أعداء الأمبراطور فيعاونونها على الاستيلاء
على القسطنطينية ، والأخرى يقودها ابن أخيه نقيتاس Nicetas مكونة من جيش
كبير — انضمت إليه فرق عديدة من الأهالي —^(٣) تخترق مصر وتستولى عليها
ثم تخترق الشام وآسيا الصغرى ، لتصل إلى القسطنطينية فتثير الولايات في طريقها ،
وبهذا يكون القضاء على فوكاس تاماً^(٤) .

Theophanès, p. 295. Diehl, op. cit. p. 518 (١)

Theophanès p. 295. Diehl, op. cit. p. 519 (٢)

Jean de Nikiou, p. 541. Diehl, op. cit. p. 519 (٣)

Theophanès p. 295. Diehl, op. cit. p. 310 (٤)

لقيت خطة البطريق هرقل ما قدر لها من نجاح ، فلم يكد أسطوله يقترب من القسطنطينية حتى انفجرت الثورة في العاصمة ، إذ كان أعداء فوكاس يترقبونها بنافذ الصبر ، وأسرع برسكوس — صهر الإمبراطور — فضم جنوده إلى جنود هرقل ، فلم يجد صعوبة في إسقاط فوكاس والقبض على أشياعه وتسليمهم للجمهور الساخط يفعل بهم ما يريد ، فلما تم له ذلك أحب أن يعود إلى أفريقية ، ولكن رجال الدولة وأساقفتها ألحوا عليه في قبول التاج حتى قبل واحتفل بتتويجه في ٥ أكتوبر سنة ٦١٠

— ٣ —

ساد السنوات الأخيرة للحكم البيزنطي في أفريقية هدوء نسبي ، لأن هرقل الكبير لم يعد يعنى بشئون أفريقية كثيراً ، بعد أن أصبح ابنه إمبراطوراً ، إذ صرفته شئون الإمبراطورية ، فزال الضغط عن أهل البلاد وشعروا بشيء من الحرية واطمئنان الحال ، وكان هرقل إلى ذلك يعرف لهم يد هم التي أسدوها إليه وإلى ابنه ، وفضلهم فيما صار إليه من ملك وسلطان لما كان من حسن عونهم له فيما أراد من إسقاط فوكاس ، فأحسن معاملتهم وتقرب منهم ، فركنوا إلى الهدوء والسكون . ويمكننا القول بأن البلاد كانت أهدأ حالا وأكثر ازدهاراً في ذلك الحين منها في أي وقت آخر من العصر البيزنطي .

الهدوء يسود
أفريقية
في أواخر
أيام العصر
البيزنطي

في ظل هذا الهدوء ، أخذت المسيحية تنتشر بين قبائل البربر ، ولكن انتشارها لم يكن بفضل الكنيسة البيزنطية ، وإنما كان سببه نهضة الكنيسة الغربية أيام جريجوري الأكبر ونشاطها في إرسال البعوث التبشيرية إلى أفريقية^(١) فتغلغل القسس في داخل البلاد ، واستطاعوا أن يمدوا لواء المسيحية على كثير من القبائل البربرية ، وإذا كانت الحكومة البيزنطية قد أخذت تنسحب رويداً من

كنيسة روما
تدخل في
شئون
أفريقية

(١) Diehl, op. cit. pp. 319 - 321

المواقع الداخلية ، فقد أخذ القسس يحلون محل الحكام ، حتى أصبحوا — على مر الأيام — حماة الضعفاء والمظلومين ، فلم يعد هؤلاء يتوجهون إلى القسطنطينية لبث ظلاماتهم ، وإنما إلى بابا روما ، فهو أقرب إليهم . وربما كان أقوى سلطاناً ، فكان يسارع إلى رد الظلم عن الشاكين ، فإما اتصل بالحاكم المذنب رأساً وأمره بالانصاف ، وإما اتصل برئيسه ، متكلم كل مرة بإسم القانون والدين ، يوزع المديح أو التأنيب حسب الحاجة : فيعد دوق سردينيه مثلاً بأن يؤدي في القسطنطينية شهادة طيبة بحسن مسلكه ، أو يرفع للإمبراطور الشكوى بما يفعله البطريق جناديوس وهكذا ، وليس بين هذه الحال وبين التدخل الصريح في الإدارة إلا خطوة قصيرة ، ولقد ساعدت ظروف هذا العصر المليء بالاضطرابات جريجور يوس على أن يخطوها ، وكانوا — أى الموظفون — لا يجدون بداً من طاعة هذه الأوامر التي يتلقونها من البابا والقساوسة ، لأنهم كانوا يحملون في أنفسهم تقديراً عميقاً للدين ورجاله^(١) .

كان من نتائج هذا ، أن اتجه الناس بآمالهم نحو الكنيسة الغربية ، واتخذوا من أبحارها حماة يدفعون عنهم أذى الحكام وغنتهم ، « ومن ثم أصبحت روما سلطة جديدة في أفريقية البيزنطية يُحسب حسابها ، ويركن السكان إليها في كثير من أمور حكومتهم ، « فاعتمد الحكام على رجال الدين الذين لم يلبثوا أن سادوهم ففي أوائل القرن السادس كان القساوسة يديرون أفريقية »^(٢) ؛ وكان هذا التدخل عاملاً قوياً جديداً من عوامل التنافر ، وأى تنافر أغرب من ذلك : بلاد تابعة للدولة الشرقية ، يسيطر عليها بابا روما ، ويكون له من الإشراف على أمورها والتدخل في شئونها مثل ما للإمبراطورية ! .

وفي الواقع ، لم يكن يربط أفريقية بالدولة البيزنطية إلا علاقة واهية جداً في أواخر القرن السادس المسيحي ، فقد كان الموظفون البيزنطيون — في جميع نواحي الإدارة —

(١) Diehl, op. cit. p. 514 (٢) Caudel, l'Afr. du Nord. I p. 27.

يميلون إلى التحرر من سيطرة الأباطور البعيد عنهم جداً ، وانصرف الناس ، الذين ثقلت عليهم وطأة الإدارة البيزنطية وما كان يسودها من خلل ، عن الأباطورية التي كادت تنزل بهم الخراب ، وبدأوا يتصلون بالكنيسة التي تحميهم بعض الشيء ، وأخذت هذه الكنيسة تحل سلطتها الإدارية على مهل محل السلطة الإدارية المركزية ، وتعمل على إفساد الإدارة الحكومية ، التي لم يكن ينقصها الاضطراب^(١) .

انتشرت المسيحية بين بعض القبائل ، وكان المنتظر أن يكون هذا الانتشار سبباً جديداً من أسباب الاتصال بين بيزنطة وممتلكاتها في افريقية ، ولكنه كان كما رأينا فاصلاً لا رابطاً ، لأنه زادها بعداً عن بيزنطة ، وقربها إلى رومة . ولا نزاع في أن البابوية نفسها كانت ترمي إلى بعض هذا حين كانت تبذل الجهود لتقطع افريقية عن الكنيسة الشرقية ، إذ كان الخلاف بين الكنيسة الشرقية والبابوية في هذا الحين شديداً جداً .

— ٤ —

مات هرقل الكبير في افريقية سنة ٦١٠ ، فأقام هرقل الابن على حكومة
جرجوريوس الأول
افريقية عمه البطريق جرجوريوس ، الذي كان يساعد أخاه منذ زمن طويل
في إدارة البلاد ، ولكنه لم يلبث على حكومتها إلا زمناً قصيراً ، إذ خلفه عليها بطريق
اسمه قيصر يوس Caesarius ، ثم أعقبه نقيتاس ابن جرجوريوس وابن عم الأباطور
جرجوريوس الأول
الذي كان ساعده الأيمن في الهجوم على القسطنطينية ، وكان قد قضى فترة طويلة
متنقلاً في ميادين الحرب مع فارس ، وولى شئون مصر ، ولعل الأباطور قد اختار
هذا الرجل القوى ، لأن فارس كانت تغزو بلاد الدولة للمرة الثانية ، واستولت

(١) Diehl, op. cit. pp. 515 — 16

على مصر سنة ٦١٩^(١) ، وأوشكت أن تغزو افريقية ، فكان لا بد من إيقاف تقدمها^(٢) .

خلف نقيتاس في ولاية افريقية ابنه جريجوريوس ، وفي أثناء سنتي ٦٢٨-٦٢٩ م جريجوريوس الثاني :
احتفل بخطبة جريجوريا أخته إلى هرقل قسطنطين Heraclius Constantin (جرجير)
ابن الأمبراطور هرقل ، فزاد مركز جريجوريوس قوة ، وعلت هيئته في أعين أهل البلاد .

طبيعى أن تنشأ بين آل جريجوريوس وأهل افريقية — من روم وبربر — علاقات طيبة ، فقد طال بهم العهد في حكومة هذه البلاد ، يتوارثونها ويزيدون نفوذهم فيها ، وساعد على ذلك أن ثلاثة الحكام الذين تولوا هذا الأمر من هذه الأسرة كانوا ذوى خبرة وكفاية وكياسة ، وكان لهم من الخطوة عند الأباطرة والقربى منهم ما زاد شأنهم نباهة وأشخاصهم هيبة ، وكان معقولا أن تستمر الأسباب موصولة بين القسطنطينية وقرطاجنة ، ما دامت الدولة على حال من القوة تمكنها من الإشراف على ولاياتها وعمالها كبارا كانوا أو صغارا ، أما وقد بدأ الأمر يضطرب بالدولة ، فيهددها الفرس ويبتاحون بلادها ، ويبلغ الخوف من الأمبراطور مبلغا يجعله يفكر في الفرار من القسطنطينية إلى صقلية أو إلى افريقية ، أما وقد كثرت الشبهات وحامت الدسائس وداخل الخوف قلوب العمال ، وأما وقد أدرك جريجوريوس هذا كله ، وأحس أن شرره يكاد يتصل به ويكاد يصيبه منه

Bury, Hist. of the later Rōman (٢)
Empire II, p. 287

Diehl, op. cit. p. 524 (١)

وقد ذهب بيورى (ج ٢ ص ٢٨٧) إلى أنه كان لهرقل أخ اسمه جريجوريوس ، وأيد ذلك توكسييه في مقاله عن جريجوريوس في المجلة الافريقية سنة ١٨٨٥ . ومحدثنا تيوفانيز أنه كان لهرقل ابن أخ يسمى جريجوريوس ، مات بين سنتي ٦٥١ ، ٦٥٢ في عين شمس بعد أن وقع أسيراً في يد العرب (ص ٣٤٥) ، وقد حاول توكسييه أن يقرر أن جريجوريوس أفريقية الذى نحن بصده هو نفس جريجوريوس هذا . وذلك خطأ ظاهراً ، لأن جريجوريوس أخا هرقل كان قد مات قبل موقعة سببلة بزمان طويل 26 — Diehl op. cit. p. 525
cf.: Tauxier, Gregoire d'Afrique, Rev. Afr. 1885.

شر عظيم ، فإنه لمن الطبيعي أن يتجه تفكيره إلى سبيل ينقذ به نفسه ويخلص به بلاده من هذا الشر المحيق .

أخذ جريجوريوس يرقب أعمال الدولة في حذر منذ فكر هرقل في نقل عاصمته إلى قرطاجنة ، ولكن روعه ما لبث أن أفرخ حين ترك الإمبراطور هذه الفكرة ، بسبب ما أصاب أهل القسطنطينية من الرعب حين اتصل بهم عزم الإمبراطور^(١) ، على أن جريجوريوس بات على الحذر من ذلك الحين ، لأن فكرة الانتقال ما برحت تتردد في أذهان الأباطرة كلما أحاطت بهم الأخطار في القسطنطينية ، حتى أن قسطنط الثاني نقل عاصمة الدولة إلى صقلية ست سنوات عاد بعدها إلى القسطنطينية^(٢) ، وربما كان مبعث حرص جريجوريوس على ولايته أنها انتعشت بعض الانتعاش في أيامه بسبب الهدوء القصير الذي تمتعت به في ظل أبيه وجده ، ودليل ذلك أن الغالبية من مؤرخي شمال أفريقية متفقون على أن العرب وجدوا البلاد — ساعة دخولهم — كثيرة الزروع وافرة الثمرات ، بل يفهم من رواية لابن عبد الحكم أن زراعة الزيتون كانت مزدهرة في البلاد يتجر الناس فيها ويصييون من ورائها رجاً عظيماً^(٣) ، ويؤكد ديل أن « الإنسان يجد في أرض السهوب فيما يلي القيروان جنوباً — وهي التي نجدها اليوم قفراً خالياً — وفي السهول الواسعة المهجورة التي تمتد جنوبى هضبة الأوراس ، وفي الإقليم الجبلي الذي يتوسط سهل تونس ، في كل هذه النواحي يجد الإنسان في كل خطوة آثار مدن كبيرة أو صغيرة .

(١) Diehl, op. cit. p. 523

(٢) Bury, op. cit. II, 203, 212, 292—Diehl, op. cit. p. 523

(٣) جاء في ابن عبد الحكم . « حدثنا عبد الملك بن مسعدة ، حدثنا ابن لهيعة أن عبد الله ابن سعد هو الذي فتح أفريقية ... وأنه كان يوضع بين يديه الكوم من الورق فيقال للأفارقة من أين لكم هذا ؟ قال : فجعل إنسان منهم يدور كالقذى يلمس الشيء ، حتى وجد زيتونة فجاء بها إليه ، فقال : من هذا نصيب الورق ؟ قال وكيف ؟ قال : إن الروم ليس عندهم زيتون ، فكانوا يأتوننا فيشترون منا الزيت فنأخذ هذا الورق منهم — ابن عبد الحكم ، فتوح ص ١٨٤ — ١٨٥ .

وقرى أهلة وأراض مزروعة على امتداد عظيم ، ولا يعوزنا البرهان على أن هذه البلاد كانت عامرة بالسكانين حوالى منتصف القرن السابع الميلادى على رغم ما شققت به من حروب ، إذ يرجع إلى هذه الفترة تاريخ ذلك العدد العظيم من القلاع التى تتوسطها وتقوم على جانبيها»^(١).

يسد أن كودل يرى فى الأمر رأياً آخر : فيذهب إلى أن ديل بالغ كثيراً فى الاستنتاج من الرواية العربية ومن الآثار التى كشفت فى هذه النواحي . ويقول : « يصف لنا العرب البلاد وصفاً بديعاً ، فيقول الباجي : « وكانت أفريقية على عهده — أى على عهد حسان بن النعمان — من أعمار المعمور تتصل بها المدن العظيمة والقرى الحسنة ، ساطعة البياض فى مدهام الأشجار ومنساب المياه ومتدفق الأنهار وخصيب المراعى والمزارع ولطيف الهواء من طنجة إلى طرابلس ، فأهلكت ذلك كله الكاهنة البربرية » ؛ وينبغى أن لانسى أن العرب أقبلوا من الصحراء ، وأن رمال بلادهم وصخورها ظلت ذكرها عالقة بأذهانهم بعد هجرتهم جزيرتهم بزمان طويل ، فليس بغريب أن تأخذ عيونهم أبسط الزروع وتدهشهم أقل خضرة ، ولهذا رأوا فى مجرى الماء الرفيع نهراً فياضاً ، وجعلوا من أشجار الزيتون الباهتة الكثيفة ومن أفرع شجر الترنبتينا ومن أشجار الفستق والمثنان والقطاف ، ومن السهول المنخفضة ونباتات الرمال التى على الشاطئ ، جعلوا من ذلك كله مزارع زاهرة ، ورأوا فى مجرد نهراً عظيماً »^(٢) ويؤيد كودل فى هذا رأى مؤلف كتاب تونس الذى يقول « لم يكن الإصلاح البيزنطى أكثر من باب فخم لأفريقية ، إذ لم يجرؤ إلا عدد يسير من الزراع على المخاطرة بمرافقة عمال الحكومة وجنودها ، ويمكن أن نقول إجمالاً إن العرب وجدوا أنفسهم — وجهاً لوجه — أمام الشعب

(١) Diehl, op. cit. p. 525 (٢) Caudel, op. cit. I, p. 31 ونس الباجي

فى الخلاصة النقية ، ص : ٤

البربرى ، الذى انتهى إلى السكون فى ناحية من البلاد بعد أن أقترته المنازعات العديدة التى شملت العصر البيزنطى ، وإلى الاستقلال فى ناحية أخرى ، والخضوع فى ناحية ثالثة بسبب إرهاب الموظفين البيزنطيين ^(١) .

ربما كان كودل مصيباً فيما ذهب إليه من الشك فى آراء ديل ، ومن القول بأن الإصلاح البيزنطى لم يكن إلا ظاهراً كاذباً ينطوى على أسوأ الحال لإفريقية ، ولكنه لم يوفق فى قائلته إن العرب رأوا أفريقية رأى البدوى الجلف الذى تروعه أبسط الزروع ، وتأسر لبه أقل مظاهر العمران ، لأن غزو أفريقية لم يكن أول عهد العرب بالمزارع والرياض ، وربما ضوّلت فى عيونهم زروع أفريقية إذا قارنوها بزروع مصر ونباتها ، وأين مجرد من النيل ؟ وأين الشجرة الخضراء من واحات الصحراء ؟ ، وأغلب الظن أن العرب وجدوا سلسلة طويلة من الواحات المتصلة تمتد من مصر إلى أفريقية ، فذكروا أن البلاد كانت ظلاً واحداً من برقة إلى طنجة ، لأنهم سلكوا طريق السهل الداخلى الذى يغلب أنه كان مزورعاً زاهراً فى أواخر العصر البيزنطى .

ازدهرت البلاد — إذن — إزدهاراً طارئاً قصير الأجل فى أواخر أيام الحكم البيزنطى ، لأن الهدوء الذى سادها فى ظل آل جرجوريوس وركون البربر إلى السلام — بحسن سياسة هذه الأسرة — كانا قمينين بأن ينهضا بالبلاد بعض النهوض (لا إلى الدرجة التى يصورها ديل فى كتابه) ، وربما اقتصر الانتعاش على الولاية القنصلية وقرطاجنة وأرباضها ، وبعض المدائن الكبرى فى سهل تونس وهضبة الأوراس .

فى هذا الحين كانت الإنقسامات الدينية قد اشتدت فى بيزنطة وأخذ سميرها

الانقسامات
الدينية

يتمدد فيحرق ولاياتها بلظاه ، وكان الروم قد توزعتهم المذاهب المختلفة شعباً و فرقا ،
تتصارع وتحترب وتهبط بالدولة إلى درك عميق ، وكان مذهب خلقيدونية مازال
يعصف بالدولة منذ سنة ٤٥١ م . إذ نفر منه الملكانيون لأنه مال إلى التوحيد ،
وكرهه اليعاقبة لأنه لم يكن توحيداً صريحاً ، فأحب هرقل أن يخلص بيلاده من تلك
الفوضى ، فأنشأ يتصل بكبار رجال الدين في دولته يستطلع رأيهم ، حتى استقر رأيه
آخر الأمر على إصدار مذهب وسط ترضى عنه الطوائف كلها ، فلم يكبد المجلس
الديني الذي عقده في سنة ٦٣١ يصدر المذهب الجديد ، حتى ثار الناس كلهم عليه
وأنكروه جميعاً ، فلم يجد هرقل بداً من أن يصطنع الشدة في إرغام الناس على
اتباعه ، فاضطهد الكثيرين من رعاياه اضطهاداً شديداً ، وشقى به قبط مصر خاصة
لما أصابهم على يد قيرس الذي كان هرقل ندبه لتطبيق هذا المذهب في مصر .

وكان أهل أفريقية لا يطبقون المونوثيلية ولا يرون إلا أنها الزيغ بعينه ، فلما
وصلت أوامر هرقل بنشر مذهبه الجديد منذرة المعارضين بالعقاب الشديد^(١) ،
تلقاها الأفريقيون بالسخط ، إذ كان هذا المذهب شديد الشبه بالمونوثياية ، ولم يلبث
أساقفتهم ورهبانهم أن اجتمعوا وقرروا : « أن كل البدع صادرة عن غرام شديد
بالتظاهر ، وأن أصحابها يريدون بابتداعها أن يظهروا أنهم أمهر وأنفذ بصيرة وأعقل من
سائر إخوانهم... »^(٢) وأصرروا على أن لا يعدلوا بمذهبهم القديم مذهباً آخر ، وأبوا
أن ينحرفوا عن كرمى البابوية^(٣) ، واستعدوا للقاء أى شريراد بهم في سبيل العقيدة ،
وكانوا قد طال بهم العهد وهم يتوجهون بالولاء لروما لا إلى بيزنطة (في مسائل الدين) ،
فأحسوا حين اطلعوا على المذهب الجديد والأوامر المتصلة به ، أنهم سيتعدون عن الدولة
مرة أخرى ، لأنها تؤذى مشاعرهم الدينية التي هي أعز ما لديهم ، فشملمهم حماس الرغبة

P. G. XCI; Diehl, op. cit. p. 542 (٢) Diehl, op. cit. p. 542 (١)

Labbe, VI, 126 — P. G. XCI 141,— Diehl, op. cit. p. 542. (٣)

في المقاومة الإجماعية دون أن يكثرثوا أقل اكثرث لما قد ينجم عن ذلك من إضعاف الأسباب التي تربطهم بالإمبراطورية في سبيل الدفاع عن عقيدتهم الأرثوذكسية ، وكانوا موطنين أنفسهم على قبول كل شيء ، حتى الانفصال التام عن الدولة^(١) . وزاد هذه الحال سوءاً ، أن الاضطهاد الديني في الشام ومصر ، كان قد روع نفراً غفيراً من رهبانها ، فأخذوا يفتدون على إفريقية من الشام والأسكندرية وديورليبية ، حاملين معهم مذهبهم المونوفيسي يعقوبي (وهو أقرب المذاهب إلى التوحيد) ، وأخذوا ينشرون دعايتهم بنشاط أثار قساوسة إفريقية « حتى تسمع الناس بأخبار الفتيات اللاتي كن يُفتنّ عن عقائدهن على رغم أسرهن ، وبحفلات التعميد المقدسة التي كثرت لذلك الغرض ، فلم يسع عامل إفريقية إلا التدخل بدون جدوى ،^(٢) فلما يئس من صلاح الحال ، اتفق مع أسقف قرطاجنة على الكتابة للامبراطور ولبابا روما ، يبسطان لهما سوء المصير .

وكان من غريب الاتفاق أن دخول يعقوبية إفريقية وافق موت هرقل وتولّى قسطنطين الثالث عرش الإمبراطورية ، وكان عدواً للمذهب الذي ابتدعه هرقل ، فلم تكد شكوى أساقفة إفريقية تصل إلى علمه حتى أمر بأن يُخرج الرهبان الذين يرفضون العود إلى أحضان الكنيسة من الأديرة وأن تُصادر أُملاك الأديرة الخارجة^(٣) ، وبهذا انقلب الحال ، ونزل الاضطهاد بأشياء الإمبراطور القديم وعامة اتباع المونثيلية (بما فيهم القبط وهم المونوفيسيون) ، وكان جريجوريوس نفسه أرثوذكسياً ، فرضيت نفسه عن حكومة القسطنطينية ، خصوصاً وقد كان الإمبراطور زوج أخته جريجوريا ، فحبل للناس أن ما وهى من العلائق لا بد معقود مرة أخرى بين بيزنطة وإفريقية .

(٢) Diehl, op. cit. p. 544

(١) Diehl, op. cit. p. 543

(٣) Diehl, op. cit. p. 546

ولكن الأيام لم تمهل المتفائلين إلا قليلا ، إذ يلبث قسطنطين أن قتل في مايو سنة ٦٤١ ، وحامت الشبهة حول الأمبراطورة «مارتينه» التي قيل أنها دبرت موت قسطنطين ليتولى ابنها هرقل الصغير (هرقلوناس) مكانه ، وكان من سوء الطالع أن الأمبراطورة كانت على مذهب هرقل ، فرفضت المونوثيلية رأسها ، وبدأت ترد إلى الأرثوذكسية ما أسلفت لها من أذى في عهد قسطنطين ، فساد البلاد ذهول شديد ، وبلغ من اختلاط الأمر على أهل إفريقية وحيرتهم بين المذاهب وأهواء الحكام أن حاكم قرطاجنة — جورج ، وكان رجلا متدينا وأرثوذكسياً مخلصاً — أنكر ما وصل إليه من الأخبار ، وقام في الناس يؤكد لهم أن الأوامر بمطاردة الأرثوذكسية إن هي إلا وسيلة يراد بها النيل من الأمبراطورة المؤمنة الطاهرة الذيل ، وأراد أن يؤكد للناس مقالته ، فحضرهم على النشاط في تتبع المونوثيليين واضطهادهم ،^(١) غير عالم أن اليوم يومهم ، فلم تكذب الأخبار بأفاعيله تصل القسطنطينية ، حتى دُعي إلى هناك ليحاسب أعسر الحساب على ما اقترف من جرم ، فرحل الرجل وهو — من حيرته — لا يكاد يعرف لنفسه مصيراً .

وجوالى سنة ٦٤٠ م أقبل على إفريقية رجل من أشهر رجال الدين في القرن السابع ، إذ كان له فيما بعد أثر بعيد في مصير إفريقية السياسي والديني ، وهو الراهب مكسيم . كان مكسيم قد زار الأسكندرية قبل مجيئه إفريقية في صحبة صُفرونيوس ، ورأى بعينه الاضطهاد الأكبر الذي كان قيرس ينزله بقبط مصر ، فعمد النية على تخليص الناس من هذه الدولة التي تزهق أرواح الناس بمذاهبها وأهوائها ، وكان صيته قد سبقه إلى إفريقية قبل مجيئه إليها ، فلم يكذب يصل حتى اجتمع الناس على الترحيب به ، فأنشأ بيت في رهبان إفريقية تعاليمه ، ليعد هؤلاء القساوسة السذج البسطاء — الذين أضعفهم الانقسام — لكي يكافحوا ويثبتوا

Diehl, op. cit. p. 546 (١)

لمهارة البيزنطيين واقتدارهم على السفسة في أمور الدين ، وبهذا أصبح ذلك الرجل معقد آمال أهل أفريقية للنجاة مما يراد بهم من مساءات ، فاشتد ساعده بولائهم ، وصارح الدولة بأن الله لن يرضى عن الامبراطورية الرومانية ما دام هرقل وآله على عرشها^(١).

لقيت هذه الآراء هوى من نفس جريجوريوس ، فأخذ يبذل العون لمكسيم ، ويشجعه على الاستمرار فيما هو آخذ فيه من مناهضة الدولة وصرف الناس عنها ، فلم يكدره بان أفريقية يرون أنهم في أمن من غدر الدولة بحماية جرجوريوس حتى اجتمعوا ووجهوا للامبراطور خطاباً يسألونه أن يترك ما هو سائر فيه من ابتداء وإفساد في الدين^(٢).

كذلك صادفت حركة مكسيم قبولا لدى البابوية ، فلم تتردد في بذل العون له حتى يستطيع أن يثبت للكنيسة الشرقية ، وكان مكسيم يميل للبابوية ويحبها إلى أتباعه ، حتى صار لهذه في أفريقية مكان لا تكاد تطمع فيه الكنيسة الشرقية ، ولما تولى أسقف قرطاجنة الجديد منصبه بعث بولائه للبابا « حتى يستطيع أن ينافع عن العقيدة الصحيحة والمذهب الكاثوليكي بشجاعة في كل الظروف »^(٣).

هكذا جنت الدولة على نفسها بتدخلها في شئون الدين وعيها برعاياها ، الذين أسلمتهم إلى البابوية من الناحية الدينية كما تسلمهم للعرب من الناحية السياسية . وبذلك كانت الظروف كلها مواتية لجرجوريوس ليخرج على الدولة ، ويبدو أنه كان قد عقد العزم على ذلك منذ مات قسطنطين الثالث^(٤) ، وأصبح الأمر بيد

البابوية
تعرض أهل
أفريقية على
الانفصال

(١) Diehl, op. cit. 549 وقد ولد مكسيم في القسطنطينية سنة ٥٨٠ م ، وربى فيها تربية دينية صرفة ، ثم دخل الدير وترهب في سنة ٦٢٨ ، وطارله صيت في مسائل الدين والفقه ، حتى أنه استقبل في مصر استقبالا حافلا حين زارها في صحبة الرهبان فالاسيوس وصغرونيوس ، وكان أولها أعلم أهل زمانه بمسائل الدين ، ثم ذهب إلى أفريقية وقد وطن العزم على تخليص أهلها من الأذى الذي تنزله الدولة بهم

(٢) Diehl, op. cit. p. 552 (٣) Loc. cit.

(٤) حنا النقيوسى ، ص ٥٧٣ ، Diehl, op. cit. p. 545

فس
أفريقية
يشجعون
جرجير على
الوثوب
بالدولة

مرتبه وابنها هرقلوناس ، فلم يكذب البابا تيودور يلح منه هذا الميل « حتى صارحه بأن الله يرضى عن ثورته ويقدر له التوفيق فيها ^(١) » ، وأهاب بالقسس فأحاطوا بـجرجوريوس يستحثونه على المبادرة بإفناذ ذلك الأمر ، « فزعم له الأب مكسيم أنه رأى حلماً ذا مغزى بعيد : رأى طائفتين من الملائكة في السماء إحداهما مقبلة من الشرق والأخرى من الغرب ، وأن المقبلين من الشرق ينادون : النصر لتسطنطين العظيم ! والمقبلين من الغرب يهتفون : النصر لجرجوريوس العظيم ! وأن أصوات الشرق أخذت تخفت رويداً رويداً حتى غابت عن الأسماع ، وبقيت أصوات الغرب وحدها تردد اسم البطريق ^(٢) » ، وسواء أصدق مكسيم فيما زعم أم لم يصدق ، ففي هذه الرواية ما يدل على أن نفراً من رجال الدين عاون البطريق على الانفصال ، وأن البابوية كانت تشد أزر ذلك نفر ، لأن انسلاخ أفريقيا عن الكنيسة الشرقية ودخولها في طاعة البابوية يعد نصراً عظيماً للشانية في عصر اشتد النزاع فيه بين الإثنتين .

بيد أن طائفة أخرى من قساوسة أفريقية لم يكن يرضيهم هذا الانفصال ، فنجدهم يشيرون إلى هذه الحركة إشارة غامضة تم عن التحرج والأسى في الخطاب الذي كتبوه للبابا سنة ٦٤٦ م ^(٣) يصفون هذا الانفصال بقولهم إنه « ضرورة لم تكن متوقعة » وكذلك نجد أسقف قرطاجنة يشكو من « أن هناك أشخاصاً أشراراً يتهمون الأفريقيين بالباطل بأنهم يبطنون نوايا سيئة لا وجود لها في الحقيقة » ^(٤) ، ويغلب على الظن أن مخاوف هذا الفريق ، لم يكن مرجعها الميل إلى الكنيسة الشرقية ، وإنما كان سببها الخوف من الغزو العربي ، الذي كان قد أتى منذ سنوات ثلاث على برقة وطرابلس ، وأخذ ينذر أفريقيا نفسها بمثل هذا المصير .

Loc. cit. (٢)

Diehl, op. cit. p. 556 (١)

Labbe IV, 129 — Diehl, op. cit. p. 556 (٣)

Labbe IV, 156 — Diehl, op. cit. p. 557. (٤)

obeykandi.com

الباب الثاني

مقدمات الفتح

قضى النظام الذى وضعه موريق (٥٨٢ — ٦٠٢) للدولة البيزنطية بأن تكون برقة وطرابلس ولاية واحدة داخلية فى زمام مصر ، فانقطعت الصلات السياسية الرسمية بين هاتين الولايتين وبقية شمال افريقية ، وأصبحتا تابعتين لحاكم مصر من ذلك الحين . ولكننا لانجد لهاتين الولايتين ذكراً فيما نقرأ من أخبار مصر قبل الفتح العربى ، بل على العكس من ذلك نجد لهما ذكراً فى أحداث إفريقية فى ذلك العصر فقد روى ديل أن أهل برقة وطرابلس هم الذين بدأوا ثورة إفريقية على فوكاس ، وكانوا فى مقدمة من آزر جريجوريوس على الانفصال ، وهذا يدل على أن حكام مصر لم يجدوا فسحة من الوقت أو هدنة من المشاغل تسمح لهم بالالتفات لشئون هذه النواحي ، فظلت الولايتان من عهد موريق إلى زمن الفتح العربى معلقتين بين مصر وإفريقية على حال قريبة جداً من الاستقلال . بيد أن الغالب أن آل جرجوريوس حرصوا — من يوم صارت إليهم أمور إفريقية وأخذوا يتوارثون أمارتها — على أن يسيطروا سلطانهم على هاتين الولايتين ويستعيدوها ويفاقموا شأنهم وفقوا إلى شيء من ذلك ، ومصادق ذلك أن ديل يذكر أن جريجوريا أخت جريجوريوس الأخير (جرجير) كانت تقيم ببرقة حين خطبها الإمبراطور هرقل لابنه قسطنطين ، ففى مقامها بهذه الناحية واطمئنانها إلى سكناها مايدل على أنها كانت فى زمام أخيها وتحت سلطانه ، وإلا فما معنى أن تفضل الإقامة فى بلاد تابعة لمصر وأمامها من بلادها متسع رحب . وقد كانت هاتان الولايتان من أكثر ولايات إفريقية نشاطاً فى أوائل العصر البيزنطى ، وكان أهلها وبربرها أكثر أهل إفريقية ثورة ووثوباً بالبيزنطيين ، فكانت لواته — أعظم قبائل برقة وطرابلس — قائدة الثورة الكبرى بين سنتى ٥٤٥ و ٥٤٦ م ، فأظهرت من القوة وشدة البأس مامكنها من الانتصار على سليمان حاكم إفريقية كلها وقتله ؛ وعلى الرغم من أن البيزنطيين

تمكنوا بعد جهد شديد من إخماد هذه الثورة واستعادة البلاد ، إلا أن بربر برقة وطرابلس ظلوا على حال من القوة مكنتهم من إقامة شيء يشبه أن يكون دولة بربرية ، ويؤيد مرسية ذلك بقوله : « وظهرت في الولاية دويلات وطنية لها قوانينها وأديانها وحكامها ، الذين كادوا أن يكونوا مستقلين : فكانت لَوَاتَه — التي تحتل الساحل من برقة إلى قابس (ومعها هوارة ونفوسة) — على جانب عظيم من القوة ، وكان في استطاعتها بعد ذلك بسنوات قلائل أن تجمع نحواً من ستة عشر ألف مقاتل ^(١) » .

بيد أن الغالب أن قبائل برقة وطرابلس لم تظل على هذه الحالة من القوة حتى نهاية العصر البيزنطي ، لأن الفاتح العربي لن يجد لَوَاتَه أو نفوسه أو هوارة على شيء من القوة يتفق مع ما يفهم من هذه الروايات ؛ ولن يجد لها أثر ظاهراً في الدفاع عن برقة وطرابلس ، ولو قد كانت هذه القبائل على ما عهدناها عليه أيام سليمان لكان لها مع عمرو بن العاص وعقبة بن نافع شأن غير هذا ، أما وقد وجد العرب هذه النواحي في سكون شامل وهدوء كامل ، فلا بد أن تكون تلك القبائل قد أدركها الضعف آخر الأمر فاستكانت إلى الهدوء .

وربما جاز أن نلاحظ أن هذا الاستسلام كان صفة عامة اشترك فيها بربر إفريقية كلهم طوال سنوات الفتح الأولى التي انقضت بين أول ورود العرب إفريقية وفراغهم من إنشاء القيروان ؛ فسنلاحظ أن هذه القبائل كلها لم تبد مقاومة ولم تتحرك للدفاع عن النواحي التي تسكنها على الرغم من أن المسلمين جاسوا خلالها ولم يتركوا ناحية فيها إلا وطئوها وغزوها ، وذلك السكون إن هو إلا نتيجة طبيعية للحكم البيزنطي ، فلم يكن ينتظر من هذه القبائل التي لبثت طوال هذا العصر تناهض الروم وتدافعهم إلا أن يدركها الخمود والسكون في أواخر ذلك العصر ،

(١) Mercier, op. cit. I, pp. 187—189; Fournel, Les Berbères, I, pp. 217—218

ومصدق ذلك أن هذه القبائل بدأت تتحرك للدفاع والمقاومة مرة أخرى بعد انقضاء بضع وثلاثين سنة من بدء الفتوح العربية ، أى بعد أن نالت قسماً من الراحة عوضت فيه بعض ما أصابها في حكم الروم ، سواء في ذلك قبائل الساحل التي كانت خاضعة لهم تماماً ، وقبائل الداخل التي خرجت عن سلطانهم ، إذ كانت الأولى هدفاً لمطالبهم وضحية لمساءاتهم ، وكانت الأخرى موقع أذاهم وعدوانهم . لهذا لا غرابة في أن يجد المسلمون لواتة وهوارة ونفوسة على حال من الهدوء والسكون تمكنهم من إتمام فتح برقة وطرابلس والعود إلى مصر سالمين موفورين ، بل لا غرابة في أن يسارع بعض أهل هذه النواحي فيعرضوا طاعتهم على المسلمين راضين ، مما يدل على أنهم وجدوا في العرب حليفاً قوياً يعتززون به على الروم الذين لا يؤمن جانبهم وأن ركنوا في أواخر أيامهم إلى الهدوء وتركوا البربر وشأنهم .

— ٢ —

كان من الطبيعي أن يفكر عمرو بن العاص في الاستيلاء على برقة بعد فراغه من الاستيلاء على الأسكندرية وتمام جلاء الروم عن مصر ، لأنه كان ميالاً بطبعه إلى مواصلة الفتح والغزو ، لا يكاد يفرغ من إقليم حتى يشرع في إعداد العدة لفتح ما يليه : لم يكد يفرغ من فتح فلسطين حتى شرع يمهّد لفتح مصر ، ولم يكد يفرغ من مصر حتى شرع في السير إلى برقة ، وسنراه بعد الفراغ من برقة يسير إلى طرابلس ثم يستأذن في فتح إفريقية كما فعل قبل دخوله مصر .

وكان جند عمرو يميلون هذا الميل ، إذ كان الفراغ من فتح مصر معناه وقوف حركة الغزو وانقطاع الفهم بعد معاهدة الأسكندرية ، فلم يجد هؤلاء الجنود منفرجاً لنشاطهم — الذى اتصل من جزيرة العرب حتى الأسكندرية — إلا في القيام بغارات قصيرة يصيبون فيها من أهل الواحات وسكان الصحراء ما يقدرّون عليه ، ثم يعودون إلى مصر ، ولا شك في أن أخبار برقة وإفريقية قد اتصلت بعمرو بن العاص

وهو على فتح مصر فعرف أنهما من بلاد الروم وأن لهم فيها منعة وعزة، وكان أهل برقة وطرابلس إذ ذاك على علاقات قوية موصولة مع أهل مصر، حتى إن بعض قبائلها كان يُحسب من قبطها، وكانت الطرق بينهما مطروقة مأمونة، فلما فرغ عمرو من فتح الأسكندرية ووجد الطريق إلى برقة سهلاً ميسوراً، خشى أن يهاجم الروم مصر من برقة فعجل بالمسير إليها.

كانت الصحراء الممتدة من مصر إلى برقة تسكنها قبيلة لواته، وهي قبيلة بُتريّة كبيرة، يتحدث عنها ابن خلدون بقوله: «وهو بطن عظيم متسع من بطون البربر البُتريّنتسبون إلى لَوا الأصغر بن لَوا الأكبر بن زُحيك، ولوا الأصغر هو نَفَراؤ كما قلناه، ولوا اسم أبيهم... وذكر ابن حزم أن نسابة البربر يزعمون أن سِدرانة ولواته ومزاتة من القبط وليس ذلك بصحيح... وكان لواته هؤلاء ظواعر في موطنهم بنواحي برقة كما ذكر المسعودي^(١)». وهي قبيلة ذات ماض مجيد في العصر البيزنطي، وسيكون لها تاريخ حافل أثناء العصر الإسلامي، وكانت لها شبه رئاسة على ما جاورها من القبائل البربرية التي تسكن برقة وطرابلس وما حولها، ولا بد كذلك أن عمراً عرف — وهو في مصر — أن برقة جزء من مصر، وأن فتحها إتمام لفتح مصر وتأمين لها من وثبة تكون من الروم أوتدير يحكمه روم بيزنطة بها، ومصدق ذلك أن ابن عذارى يذكر أن عمراً بدأ يمهّد لفتح برقة وهو بعد على فتح مصر، فبعث إليها نفراً من جنده بقيادة عقبة بن نافع ليستطلعوا أحوالها ويوافوه باخبارها، فيقول ابن عذارى: «وجه عقبة بن نافع الفهرى إلى زويلة وبرقة فافتتحها، ثم توجه عمرو بنفسه إلى برقة فصالح أهلها^(٢)» ولا يؤيد ابن عذارى في روايته هذه غير ابن أبي دينار، إذ يشير إلى ذلك البعث الاستطلاعي إشارة ضمنية في قوله: «ولما فتح عمرو بن العاص مدينة مصر والأسكندرية بعث عقبة بن نافع

(١) ابن خلدون، تاريخ، ج ٦ ص ١١٧ — ١١٨ (٢) ابن عذارى، البيان المغرب، ج ١ ص ٢

إلى برقة وزويلة وما جاورهما من البلاد ، فصارت تحت ذمة الاسلام ، وسار عمرو ابن العاص ففزا طرابلس^(١) ، إذ يفهم من هذه الرواية أن عمراً لم يكذب فرغ من فتح مصر حتى عجل بإرسال عقبة ففتح برقة ، ثم سار هو بنفسه ففتح طرابلس ، وهذا تفسير لاتؤيده المراجع ولانستقيم به الحوادث ، والأصح الذي تستقيم به الرواية أن يقال إنه بعث عقبة في سرية صغيرة يستطلع له البلاد ريثما يفرغ هو من فتح مصر ، فلما فرغ سار بنفسه ففزا برقة وطرابلس .

لاتؤيد المراجع الأخرى ابن عذارى والقيروانى فيما ذهبوا إليه ، ولم يذكر لنا أحدهما إسناده الذى يعزز روايته ، ومع ذلك فليس هناك ما يمنع من قبول رأيهما ، والقول بأن عمراً بعث عقبة بن نافع يستطلع أخبار طرابلس وهو بعد على فتح الأسكندرية لكي يتجه إليها بنفسه رأساً حين يخلص من هذا البلد ، ولنا فى إرساله بعثاً آخر إلى النوبة — يستطلع أخبارها فى ذلك الحين — شاهد على ذلك .

اطمأن عمرو إلى الأخبار التى حملها إليه عقبة بن نافع من برقة ، فلم يكذب فرغ من معاهدة الأسكندرية حتى سار فى جنده يريد أولى بلاد المغرب ، « وهى مدينة أنطابلس ، فصالح أهلها على الجزية وهى ثلاثة عشر ألف دينار يبيعون فيها من أبنائهم ما أحبوا يبعه »^(٢) .

بل إن الشطبي يروى فى « كتاب الجمان فى أخبار الزمان » رواية تدل على أن بربر برقة لم يكتفوا بهذا الخضوع السريع للعرب ، وإنما أرسلوا رُسُلاً منهم إلى الفاتح العربى قبل أن يخلص من فتح مصر يعرضون عليه الدخول فى الإسلام على يديه ، فاستطاع عمرو بن العاص أن يفهم ما يريدون بواسطة مترجم نقل إليه

(١) المونس ، ج ١ ص ٢٢ — ٢٣

(٢) البلاذرى ، فتوح ، ص ٢٢٤ — ابن عبدالحكم ، فتوح ، ص ١٧٠ — ١٧١ . ابن الأثير ، ج ٣ ص ١٠ — البكرى ، وصف أفريقيا ص ١ — ٢ ؛ ابوالحسن ، النجوم الزاهرة ، ج ١ ص ٧٥

كلامهم فأرسلهم إلى عمر بن الخطاب ، الذي رحب بهم أحسن ترحيب لأن أحد الحاضرين أخبره أنهم البربر أولاد بُر بن قيس .

فلما سألهم عمر عن عاداتهم وعلاماتهم أخبروه بها ، فبكى ، لأن النبي صلى الله عليه وسلم ، كان قد تنبأ بفتح بلاد لأهلها هذه الصفات ، ثم حمد الله على ذلك ، وبعث إلى عمرو أن يقدمهم على الجند وحملهم بالهدايا ^(١) . فهؤلاء البربر الذي يسارعون إلى الفاتح العربي وهو بعدُ على فتح مصر ليعلموا إليه إسلامهم ، لا بد أنهم رحبوا به حين وفد عليهم ، وتلقوه بالطاعة وقبلوا ما فرض عليهم من الجزية طائعين مختارين .

وتذهب بعض الروايات إلى أكثر من ذلك ، فتؤكد أن بربر برقة كانوا يؤدون ما قدر عليهم من الخراج طائعين مختارين لا يرسل إليهم الجابي ، وإنما هم يحملونه بأنفسهم : « ولم يكن يدخل برقة يومئذ جابي خراج ، إنما كانوا يبعثون بالجزية إذا جاء وقتها ^(٢) » ويزيد البلاذري ذلك وضوحاً بقوله : « حدث محمد بن سعد عن الواقدي ، عن مسلمة بن سعيد ، عن اسحق بن عبد الله بن أبي فروة : إن أهل برقة كانوا يبعثون بخراجهم إلى والي مصر ، من غير أن يأتيهم حاث أو مستحث ، فكانوا أخصب قوم في المغرب ، ولم تدخلها فتنة ^(٣) » .

ربما كان إسراف البربر في الخضوع للعرب دون حرب ، ومبادرتهم إلى أداء الجزية بأنفسهم دون أن يدخل بلادهم جاب ، وتعهدهم بأن يبيعوا فيها من أبنائهم من أحبوا بيعه ^(٤) ، أدلة على أن البربر كانوا قد عرفوا قوة العرب من غاراتهم

(١) كتاب الجمان في أخبار الزمان ، لمحمد الشطيبي المغربي ورقة ١٢٣ — ١٣٢ (نسخة خطية بدار الكتب المصرية) ، ولم تذكر الرواية بنصها لطولها ، ولأنها أسطورة لا يراد منها غير معناها .

(٢) ابن عبد الحكم ، فتوح ، ص ١٧٠ — ١٧١ (٣) البلاذري : فتوح البلدان ، ص ٢٢٤

(٤) ابن عبد الحكم ، فتوح ، ص ١٧٠ — ١٧١ ، البلاذري ، فتوح ، ص ٢٢٤ — ابن الأثير

ج ٣ ص — ١٠ البكري وصف أفريقيا ، ص ١ — ٢

الصغيرة التي كثرت أثناء حصار الأسكندرية وبعد الفراغ من فتحها ، ومن الطليعة التي أرسلها عمرو إلى بلادهم بقيادة عقبة بن نافع قبل الفتح ، فعجلوا ببذل الطاعة وأداء ما طلب إليهم ؛ ويظهر كذلك أن عمراً تخير أحسن فرسانه وأمهر مقاتليه للقيام بهذا البعث حتى يفرغ منه على عجل ، إذ يذكر السيوطي أنه لم يذهب في بعث برقة إلا الخليل^(١) . أما بيع الأولاد الذي ورد ذكره في عهد الصلح مع أهل أفريقية فيغلب أنه كان أمراً عادياً متبعاً في ذلك الزمان ، فيروى ديل مثلاً أن أهل قرصقة كانوا يبيعون أبناءهم ليستطيعوا دفع الضرائب للحكومة البيزنطية ، ويقول : « وكان الموظفون يجمعون الضرائب بدقة فيها كثير من القسوة لكي يقوموا بالمطالب المالية الثقيلة التي كانت تنهال عليهم ، حتى أن دافع الضرائب في قرصقة كان يضطر إلى بيع أبنائه كعبيد ، وكان الملاك البائسون يبيعون أراضيتهم ويلتمسون الهرب عند البربر^(٢) » ، ويغلب أن عمراً لم يفرضه عليهم من تلقاء نفسه ، لأنه لم يسبق أن شرط هذا الشرط في فتوحه السابقة ، وإنما الأغلب أن البربر هم الذين اقترحوا ذلك فوافقهم عمرو عليه^(٣) ، ويظهر أن بيع الأبناء لدفع الجزى أو إعطاء جزء من الضريبة عبداً كان أمراً شائعاً عند أهل المغرب والنوبة ، فسنجد أن عقبة كان في مسيره في بلاد البربر يفرض جزية من مال وجزية أخرى من العبيد .

بعد أن تم لعمرو الاستيلاء على برقة ، بدأ يستعد لغزو ما يليها من بلاد المغرب ، وكان أمامه أحد سبيلين : إما أن يسير بجذاء الساحل فيستولى على طرابلس وما يجاورها من المدائن الساحلية مثل صرت وصبره ، أو يتجه إلى الداخل ليستولى

(١) السيوطي ، حسن المحاضرة ، ص ٨٦ (٢) Diehl, op, cit. p. 565

(٣) ولا يناقض ذلك قول البكري : « كتب عمرو بن العاص على لواة في شرطه عليهم أن تبيعوا أبناءكم فيما عليكم من الجزية » لأن كتابة الشروط المشار إليها إنما كانت بعد التراضي والتفاهم على طريقة الأداء : البكري ، وصف أفريقية : ص ١١

على كثير من مراكز العمران الصحراوية الداخلية ، وهي مجموعات متجاورة من الواحات والآبار تحتلها بطون من لواتة ونفوسة وهوارة ، واشتهرت منها قبيلة جرّمة Garamantes أيام الرومان ، إذ كانت لهم معها حروب طويلة انتصر الرومان فيها أخيراً بقيادة كورنيليوس قبل الميلاد بتسع عشرة سنة^(١) .

رأى عمرو أن يقوم بالأمرين معاً ، فيسير هو بنفسه للاستيلاء على طرابلس وفتح مدائنها ، ويبعث فرقة من جنده تخضع هذه الواحات الداخلية وتضمن له ولائها ، وربما كان دافعه إلى هذا الاحتياط أنه ألم بشيء من تاريخ العلائق بين هذه القبائل وبين الروم ، وما وقع بينها وبينهم من صراع ونزاع ، وما أبدته القبائل من قوة مقاومة؛ ولا شك أنه عرف أن انتزاع الساحل من أيدي الروم لا يعني خضوع هذه النواحي أو دخولها في حوزة العرب تماماً ، إذ أن ذلك لا يمنع البربر الضاربين في الواحات الداخلية من الإغارة عليها وإخراجها من أيديهم ، فرأى أن ضمن الوسائل لتوكيد الفتح وتثبيتته هو الاهتمام بإخضاع البربر في الداخل في نفس الوقت الذي يقوم فيه بفتح طرابلس أو قبله بقليل .

يؤمن الأستاذ روت على ذلك ، ويرى في فتح فزان وودان عملاً حربياً مهماً ودليلاً على حنكة عمرو الذي اهتم بأن يخضع الداخل قبل أن يفتح الساحل فقال : « وكان عمرو قائداً خبيراً ، فاهتم بأن يبعث إلى فزان بجنود تراقبها بينما اتجه هو غرباً ، فأرسل عقبة بن نافع بن عبد القيس الفهري ، فأخضع البلاد في عهد قصير ، واحتلها حتى زويلة — زويلة السودان — ويظهر أنه لم يلق مقاومة شديدة »^(٢) ، وهذا تعليل تلك الحملة الداخلية التي دبرها عمرو بن العاص وهو بعد في برقة ، وتعليل الحملة الأخرى التي سيرسها إلى وُدّان بعد أن يتم له فتح طرابلس .

(١) جورج ليشيه ، في دائرة المعارف الإسلامية : مادة فزان

(٢) Roth, Okba ibn Nafi, p. 7

يختلف المؤرخون فيما بينهم على ما يوردونه من أخبار بعث عقبة في الصحراء ، ولا يكاد اثنان منهم يتفقان على تاريخ واحد للبدء فيه أو الفراغ منه ، ثم إن ما بين أيدينا من هذه الروايات مقتضب لا يكاد يعطى فكرة صحيحة عما حدث له أو انتهى إليه .

بل إن اثنين من رواة هذه الأحداث — وهما البلاذري وابن الأثير — يخلطان بين أحداث هذا البعث وأحداث حملة عقبة الثانية — التي بدأت سنة ٤١ هـ ولم تنته إلا سنة ٥٠ هـ — على هذه النواحي ، أي حين أمر عقبة بالمسير إلى أفريقية ، فتوجه إليها من فزان ، فيوردان روايتين تكمل إحداها الأخرى ، إذ تبين رواية ابن الأثير النواحي التي تم فتحها وهي زويلة وفزان وودان وغدامس . وتؤكد رواية البلاذري أن عقبة بعد أن فرغ من إخضاع هذه النواحي عني بأن يقيم الحكام على نواحيها ويقرر الجزية والخراج على من بقى على دينه من أهلها والصدقة على من دخل في الإسلام منهم ، وهذه أمور لن تتم إلا بعد ذلك بزمان طويل ، فلا مناص من ترك روايتيها جانباً ليوضعا في موضعهما من ترتيب أحداث الفتح ، على الرغم من أن البلاذري وابن الأثير يوردان هاتين الروايتين في أخبار حملة عقبة الأولى على فزان وودان .

فإذا اكتفينا بما بقى بين أيدينا من الروايات بعد هاتين لم نجد إلا أخباراً مقتضبة متشابهة ، تكاد من إيجازها أن تلقى شكاً على حقيقة هذا البعث جملة ، فإن ابن عبد الحكم لا يزيد على قوله : « ووجه عمرو بن العاص عقبة بن نافع ، حتى بلغ زويلة ، وصار ما بين برقة وزويلة للمسلمين ^(١) » ، وربما نقل البكري عنه ذلك لأنه يقول : « ولما فتح عمرو برقة بعث عقبة بن نافع حتى بلغ زويلة ، وصار ما بين برقة وزويلة للمسلمين ^(٢) » ، وتختلف رواية ابن عذارى اختلافاً يسيراً عن رواية

(١) ابن عبد الحكم ، فتوح ، ص ١٧٠ — ١٧١ (٢) البكري ، وصف أفريقية ، ص ١٠

ابن عبد الحكم ، إذ يفهم منها أن عقبة خرج لفتح فزان من مصر لا من برقة ،
إذ يقول « كان عمرو استفتح مصر في سنة ٢٠ من الهجرة الكريمة ، ووجه عقبة
ابن نافع الفهري إلى زويلة وبرقة (برآقة) ، فافتتحها ثم توجه عمرو بنفسه
إلى برقة فصالح أهلها »^(١).

وأما أبو المحاسن فقد اكتفى بنقل رواية ابن عبد الحكم مع تغيير طفيف
في التاريخ الذي يحدده لهذا البعث ،^(٢) في حين أن مؤرخي المغرب أنفسهم كابن
خلدون والمالكي والسلوي لا يوردون من أخبار هذا البعث شيئاً يركن إليه ، إذ نقل
ابن خلدون والمالكي^(٣) رواية ابن عبد الحكم ، وأعاد السلوي رواية ابن الأثير
حرفاً بحرف^(٤).

هكذا وصلتنا أخبار هذا البعث الذي وجهه عمرو بن العاص إلى فزان
وزويلة موجزة إيجازاً لا يكاد ينم عن حقيقة أمرها ، مختلطة بأخبار غيرها من
الحملات ، بحيث يخشى أن يكون ما جعله الرواة فيها قد وقع في الحقيقة أثناء غزوة
أخرى من غزوات عقبة المقبلة .

وربما كان أصح الآراء في هذا البعث أن يقال إن قلة أخباره عند الغالبية
من المؤرخين ليست راجعة إلى جهل هؤلاء المؤرخين بما وقع فيه ، وإنما إلى أنه
كان في حقيقته بعثاً قصير الأجل والمدى ، لم يرد عمرو منه إلى أكثر من مراقبة
الداخل ، كما يقول روت ، حتى لا يفاجأ بهجوم من البربر يقطعون به عليه خط
العودة ، ومصدق ذلك أن عمراً عجل ببعث فرقة أخرى لإخضاع ودان حين هم بالمسير

(١) ابن عذارى، البيان المغرب، ج ١ ص ٢ (٢) أبو المحاسن، النجوم الزاهرة، ج ١ ص ١٢٤ — ١٢٥

(٣) ابن خلدون ، ص ٢ (طبعة دي فرجير) ورياض النفوس للمالكي ، ص ١

(٤) ولا يذكر هذا البعث في الطبري أو النويري ، ولا يشير إليه فورنل ، ويمر به كودل
مرأ سرياً ، وقد ذكره مرسييه ، إلا أنه أخطأ فجعل عمرو بن العاص يعود إلى مصر بعد غزو
برقة ، في حين تقدم أحد رجاله وهو عقبة بن نافع وسار بمحذاء الساحل حتى أدرك فزان وزويلة .

إلى طرابلس ، وودان من طرابلس كغزان من برقة سواء بسواء ويؤيد ذلك أن عقبة لم يفعل فيه أكثر من الوصول إلى فزان وزويلة والاستيثاق من طاعة أهلها أو حيادهم ، ثم العودة على عجل مطمئناً إلى أن ما بين برقة وزويلة صار للمسلمين . وكان عمرو على الحق فيما فعل لأن ما بين برقة وزويلة إن هو إلا صحراء قاحلة قليلة السكان والعمران ، والاستيلاء عليها ليس بأمر ذى بال ولا يستحق من عناية الرواة أكثر مما ذكروا .

— ٢ —

تتفق الروايات العربية على أن طرابلس كانت داخلية في طاعة جريجور يوس ، إذ يقول ابن عبد الحكم « وكان عليها — أى على إفريقية — ملك يقال له جرجير ، كان هرقل قد استخلفه ، فخلع هرقل وضرب الدنانير على وجهه ، وكان سلطانه ما بين طرابلس إلى طنجة »^(١) ؛ ويقول النويرى « وكان ملكهم يدعى جرجير وسلطانه من طرابلس إلى طنجة » ، ويقول البلاذرى « وكان بها — أى بإفريقية — بطريق سلطانه من طرابلس إلى طنجة »^(٢) . بيد أن الوقائع لا تدل على ذلك ، فلو قد كانت طرابلس داخلية في حكم جريجور يوس لأسرع للدفاع عنها أو لبعث على الأقل جنوداً من لدنه لرد العرب عن غزوها ، ولكنه لم يفعل ، وكل ما حدث هو أن أهل المدينة تحصنوا خلف أسوارها ، فحاصرهم العرب فترة طويلة حتى استطاعوا أن ينفذوا إلى داخلها ، ففر بعض أهلها إلى السفن التى كانت راسية فى الميناء . ومن الواضح أن هذه السفن كانت سفناً تجارية .

وربما جاز القول بأن مركز طرابلس كان شبيهاً — من الناحية السياسية — بمركز برقة ، أى أن سلطان جريجور يوس عليها كان قليلاً أو منعماً ، وأن العلاقات كانت متصلة بينها وبين غيرها من بلاد الدولة ، فانصرف أهلها إلى للتجارة

(١) ابن عبد الحكم ، فتوح ، ١٨٣ — ١٨٤ . النويرى ، نهاية الأرب ، ورقة ٦٣ أ .

البلاذرى ، فتوح ، ص ٢٢٦

بسفنهم مع بلاد البحر الأبيض ، ومصادق ذلك أننا سنجد العرب يصيبون منهم كثيراً من المال والغنائم دون أن نسمع عن أية مقاومة ، مما يدل على أن أهلها كانوا تجاراً ، وأنه لم تكن فيها حامية من لدن جريجوريوس أو الدولة البيزنطية .

تتوارد أخبار فتح طرابلس في جميع المراجع على نسق واحد ، لا تكاد رواية منها تخرج عما ذكره ابن عبد الحكم من أن عمرو بن العاص سار حتى نزل طرابلس سنة اثنتين وعشرين ، « فنزل على القبة التي على الشرف من شرقها ، فحاصرها شهراً لا يقدر منهم على شيء ، فخرج رجل من بني مُذَلِّج ذات يوم من عسكر عمرو متصيذاً في سبعة نفر ، فمضوا غربى المدينة حتى أمعنوا عن المعسكر ، ثم رجعوا فأصابهم الحر فأخذوا على ضفة البحر ، وكان البحر لاصقاً بسور المدينة ، ولم يكن فيما بين المدينة والبحر سور ، وكانت سفن الروم شارعة في مراسها إلى بيوتهم ، فنظر المدلجى وأصحابه فإذا البحر قد غاض من ناحية المدينة ، ووجدوا مسلكا إليها من الموضع الذى غاض من البحر ، فدخلوا منه حتى أتوا من ناحية الكنيسة وكبروا ، فلم يكن للروم مفرع إلا سفنهم ، وأبصر عمرو أصحابه الستة في جوف المدينة ، فأقبل بجيشه حتى دخل عليهم ، فلم تفلت الروم إلا بما خف لهم في مراكبهم ، وغنم عمرو ما كان في المدينة^(١) » ، بل أننا لانجد هذا التفصيل عند غيره من المؤرخين ، فيقول البلاذرى : « سار عمرو بن العاص حتى نزل طرابلس سنة ٢٢ ، فقتل حتى افتتحها عنوة ، ثم افتتحها وأصاب بها أحمال زيتون كثيرة مع تجار من تجارها فباعه وقسم ثمنه بين المسلمين^(٢) » ، ولا يخرج ابن خلدون عن ذلك الإيجاز ، ولم يزد أبو المحاسن على قوله : « غزا عمرو بن العاص في السنة الثالثة من ولايته الأولى طرابلس الغرب ، وقيل في التى بعدها^(٣) » ويزيد التيجاني : أن عمراً أقام عليها

(١) ابن عبد الحكم ، فتوح ، ص ١٧١ — ١٧٢ (٢) البلاذرى ، فتوح ، ص ٢٢٥

(٣) أبو المحاسن ، النجوم الزاهرة : ج ١ ص ٧٦

أشهرأ لا يقدر منهم على شيء... وقد كانوا استعانوا بقبيل من البربر يعرفون بنفوسة ، دخلوا معهم في دين النصرانية ، واحتوى عمرو على المدينة ، فهدم سورها وارتحل عنها^(١) ، ويضيف ابن الأثير : « ونظر عمرو ومن معه ، فرأى السيوف في المدينة ، وسمعوا الصياح ، فأقبل بجيشه حتى دخل عليهم البلد^(٢) » ويعيد المؤرخان الفرنسيان فورنل وكودل نفس هذه الحوادث في شيء من الإيجاز^(٣) ، ويورد المؤرخ المغربي ابن أبي دنيار نفس هذه الحوادث بدون تغيير^(٤) ، ولا ذكر لها في معالم الإيمان للدباغ أو الخلاصة النقية للباجي ، ولا يشير إليها الطبري ونفر آخر من المؤرخين .

هذه الروايات تشبه إلى حد كبير ما يروى عن تفاصيل فتح العرب الحصن بابلون (٢٠ هـ مارس سنة ٦٤١ م) ، إذ صعد الزبير على السلم الذي وضعه إلى جانب الحصن وأمرهم (أى المسلمين) إذا سمعوا تكبيره أن يجيبوه جميعاً ، فما شعروا إلا والزبير على رأس الحصن يكبر ومعه السيف ... وكبر الزبير تكبيرة ، فأجابه المسلمون من الخارج ، فلم يشك أهل الحصن أن العرب اقتحموا جميعاً فهربوا ، وعمد الزبير بأصحابه إلى باب الحصن ففتحوه ، واقتحم المسلمون الحصن^(٥) . ففي كلا الحالتين استطاع نفر من العرب — الزبير أو المدلجي وأصحابه — أن يلج إلى داخل المدينة ويكبر فيفر الروم ، ويقتحم المسلمون الأسوار ، وكلتا الروايتين عن الليث بن سعد ، وتاريخهما متقاربان ، إحداهما في سنة ٢٠ والثانية في سنة ٢٢ ، ولم يكتب ابن عبد الحكم هذا التاريخ إلا بعد انقضاء قرنين ونيف على هذه الحوادث ، أفلا يكون الأمر قد اختلط على بعض الرواة بين الفتحين فوضعوا في ثانيهما ما وقع في الأول؟ يغلب على الظن أن تلك هي الحقيقة: ومصدق ذلك أن كثيراً من المصادر

(١) التيجاني ، رحلة ص ١٤ ، ب (٢) ابن الأثير ، ج ٣ ص ١٠

(٣) Fournel, les Berbères, I, p.187. Caudel, op. cit. I, pp. 47, 48

(٤) اللونس : ص ٢٢ (٥) ابن عبد الحكم ، فتوح ، ص ٩٦

لأنكاد تشير إلى تكبير المدجى وأصحابه وهم بداخل المدينة، وإنما تذكر أن الفتح كان بسيطاً : أى أن عمراً قوتل حتى افتتحها عنوة^(١). والمعقول جداً أن تكون قصة التكبير قد حدثت في فتح حصن بابلينون لاحتصن طرابلس، لأن المراجع كلها تجمع على تكبير الزبير واحتياله للصعود إلى أعلا الحصن وما إلى ذلك من التفاصيل . على أن التيجاني يروى تفاصيل هامة لا يرددها معه إلا ابن عذارى ، فهو يذهب الى أن أهل المدينة قد كانوا استعانوا بقبيل من البربر يعرفون بنفوسة دخلوا معهم في دين النصرانية^(٢) ؛ أما قوله إن نفوسه دخلت في النصرانية لا تعززه الأدلة من ابن خلدون أو من تاريخ انتشار المسيحية في أفريقية كما يرويه الأستاذ ديل ؛ وأما قوله إن أهل طرابلس استنجدوا بنفوسة فأغاثتهم فغير مفهوم لأن كل المقاومة التي لقيها الجيش العربى عند طرابلس لم تتعد تحصن أهل البلد خلف أسوار المدينة ومحاصرة العرب لهم ، ثم اهتداؤهم (أى العرب) إلى خلو المدينة من الأسوار من ناحية البحر ، واقتحامهم إياها ، ثم فرار من استطاع من الروم إلى سفنهم . فإين كانت معاونة نفوسة ؟ وكيف كانت ؟ وهل أقبل من أقبل منها واحتتمى خلف الأسوار مع من احتتمى من روم طرابلس ؟ أو أن أهل طرابلس استنجدوا بنفوسة أثناء الحصار ولكن النجدة لم تصل ؟

لا يبعد أن يكون أهل طرابلس قد استنجدوا بالبربر أثناء الحصار الذى دام شهراً على قول البعض وأشهرأ على قول البعض الآخر، وربما كان هذا هو السبب الذى دفع بعمرؤ إلى الإسراع بفتح صبرة ولما يستقر به المقام فى طرابلس، وإلى إرسال بعث آخر صغير إلى ودان ، لأن صبرة وودان مركزان من مراكز نفوسة كما يقول ابن أبى دينار والساوى .

(١) البلاذرى ، فتوح ، ٢٢٥

(٢) التيجاني ، رحلة ، ص ١٠٤ — ابن عذارى ، البيان المغرب ، ج ١ ص ٢

عجل عمرو بإرسال بعث إلى صبرة قبل أن تنقضى أيام على استيلائه على طرابلس، ويبدو أن أهل صبرة كانوا على علم بما نزل بأهل طرابلس، فتحصنوا متوقعين مسير العرب إليهم، إذ يقول ابن عبد الحكم: «وكان من بسّرت متحصنين، فلما بلغهم محاصرة عمرو مدينة طرابلس، وأنه لم يصنع فيهم شيئاً ولا طاقة له بهم أمنوا، فلما ظهر عمرو بن العاص بمدينة طرابلس جرد خيلاً كثيفة من ليلته، وأمرهم بسرعة السير، فصبّحت خيله مدينة سبرت، وقد غفلوا وفتحوا أبوابهم لتسرح ماشيتهم، فدخلوها فلم ينج منهم أحد واحتوى عمرو على مافيها»^(١)، وهذا يتفق كثيراً مع ما يذكره التيجاني في رحلته، إذ يقول: «واستفتحها عمرو بن العاص رحمه الله تعالى أول دخوله أفريقية بعد افتتاحه لطرابلس: جرد إليها خيلاً وهم آمنون قبل أن يصل إليهم الخبر بفتح طرابلس، فصباحتها خيله وقد فتحوا أبوابها لتسرح ماشيتهم، وكان على الخليل عبد الله بن الزبير، فدخلوها، فلم ينج من أهلها أحد إلا أناس قلائل توجهوا في مراكب لهم إلى صقلية، واحتوى أصحاب عمرو على مافيها ورجعوا إلى عمرو فأمرهم بهدمها وإحراقها»^(٢). أما ابن الأثير فيذهب إلى أن عمراً بعث إلى صبرة جنداً كثيفاً لابعثاً صغيراً: «وكان أهل حصن صبرة قد تحصنوا لما نزل عمرو على طرابلس، فلما امتنعوا عليه بطرابلس أمنوا واطمأنوا، فلما فتحت طرابلس جند عمرو عسكرياً كثيفاً وسيّره إلى صبره فصباحوها وقد فتح أهلها الباب وأخرجوا مواشيهم لتسرح، لأنهم لم يكن بلغهم خبر طرابلس، فوقع المسلمون عليهم ودخلوا البلد مكابرة، وغنموا مافيها وعادوا إلى عمرو»^(٣)، وليس في هذه

(١) ابن عبد الحكم، فتوح، ١٧٢، وقد رسمها ابن عبد الحكم سبرت وهي أقرب الصغ للرسم اللاتيني لاسم هذا البلد وهو Sabrata، ولكن البكري والأدرسي وغالية الجغرافيين والمؤرخين يسمونها صبرة، فكان من الأوفق رسمها على هذا النحو.

(٢) التيجاني، رحلة، ٩٢، ١، أما قوله إن عبد الله بن الزبير كان على الخيل فغير صحيح

(٣) ابن الأثير، ح ٣ ص ١٠

الرواية من جديد غير هذا العسكر الكثيف الذي لا يذكره سواه من المؤرخين .
يذهب غالب المؤرخين إلى أن عمراً بعث في نفس هذا الوقت بعثاً آخر إلى ودان
جنوبي طرابلس وأنه أقام عليه بُسر بن أبي أرطاة^(١) .

ولكن فورنل يشك في صحة هذه الأخبار ، معتمداً على ما ذهب إليه البلاذري
من أن بسراً ولد سنة ٥٩ هـ ، فكانت سنة حينما أرسل في بعث ودان (سنة ٢٢
أو سنة ٢٣) تتراوح بين ثلاث عشرة وأربع عشرة سنة ، وهذا يتنافى مع القول
بقيادته لهذا البعث ، إذ لا يعقل أن يقوده وهو بعد صبي في هذه السن المبكرة .
إذن كيف اتفقت أخبار هذا البعث لابن عبد الحكم والبلاذري والبكري وابن الأثير
وابن خلدون وأبي المحاسن ؟ وقد ذكره كلهم ، بل إن من أغفل ذكره منهم
في حينه ، ذكره في بدء حملة عقبة الأولى وسيره من فزان إلى إفريقية وغزوه ودان
مرة أخرى ، إذ كان أهلها قد نقضوا العهد الذي عقده مع بسر^(٢) . أحد أمرين :
إما أن يكون البلاذري قد أخطأ في تعيين السنة التي ولد فيها بسر^(٣) ، أو أن يكون
بسر قد رافق الحملة في هذه السنة الباكورة ولم يكن على رأسها ، ولعل الرأي الأول
أرجح ، فإن إجماع المؤرخين على قيادة بسر لهذا البعث ، يميل بنا إلى الشك

(١) رسمه البلاذري بسر بن أبي أرطاة ، وابن عبد الحكم بسر بن أبي أرطاة وكذلك
البكري ، ورسمه أبو المحاسن على ثلاث صور : بسر وبسر وبسر ؛ وقد أصبح بسر هذا فيما
بعد من أكبر أنصار معاوية ، إذ سيره على رأس جيشه إلى مكة والمدينة واليمن ، فاستطاع أن
يسلخها من يد علي ، وقد جن في أواخر أيامه كما يقول ابن الأثير . انظر : البلاذري ، فتوح
البلدان ، ص ٢٢٨ . وابن عبد الحكم ، فتوح ص ١٧٢ - البكري ، وصف إفريقية ، ص ١٢ -
أبو المحاسن ، النجوم ، ج ١ ص ٢٣ - ابن الأثير ج ٣ ص ١٥٣ - ١٥٤

(٢) البكري ، وصف إفريقية ، ص ١٤٥ . أبو المحاسن ، ج ٣ ص ٤٥ - ابن الأثير
ج ١ ص ابن خلدون ص ٣ طبعة دي فرجير - ابن عبد الحكم فتوح ، ص ١٧٢ - البلاذري ،
فتوح ، ص ٢٢٨

(٣) لم يرد ذكر بسر في ثبت الصحابة الذين نزلوا إفريقية الذي أورده الباجي في الخلاصة
النقية (ص ٧ - ٨) ، كذلك لم نجد في التبت الذي أورده السلاوي (ص ٣٩ - ٤١) .

فما ذهب إليه البلاذري ، لأن اشتراك بسر في فتح مصر وإفريقية يرجع إلى أقدم من بعث ودان ، إذ ذكر أبو المحاسن أن عمر بن الخطاب « بعث عمرو بن العاص إلى مصر ، وزعم سيف أنه بعثه بعد فتح بيت المقدس وأردفه بالزبير بن العوام ، وفي صحبته بسر بن أبي أرطاة وخارجة ابن حذافة وعمير ابن وهب الجمحي ^(١) » ورواية أبي المحاسن ممكنة التصديق ، لأن كلا من خارجة وعمير أقبل مع الزبير في المدد الذي بعثه عمر لعمرو وهو على فتح مصر ، وكان لكل منهما دوره المعروف في فتحها ، وما دام أبو المحاسن قد أصاب في ذكر خارجة وعمير ، ^(٢) فالمعقول أنه لم يخطئ في ذكر بسر أيضاً ، ويؤيد روايته كودل ، إذ يقول إن بسرّاً كان من رجال حملة مصر ، فلا يبعد إذن أن يكون البلاذري قد أخطأ في تعيين السنة التي ولد فيها بسر ، ومن المعقول جداً أن يكون عمرو قد أقامه على بعث ودان .

يظهر أن المهمة التي نيّطت ببعث ودان لم تكن كبيرة الخطر ، لأن عمراً صرف همه إلى البعث الآخر الذي وجهه إلى صبرة ، على مرحلة من طرابلس ، إذ وجه إليها جيشاً كثيفاً ، وربما دفعه إلى ذلك خوفه من مسير سكان صبرة من نفوسة إلى طرابلس لعون أهلها ، وعلى أي حال فإن بعث ودان لم يفعل أكثر من أن عقد معاهدة مع نفوسة في ودان ، ولم ترد لنا أخبار خاصة عن هذه المعاهدة ، وربما يكون بسر قد صالحهم على أن لا يعاونوا الروم واكتفى بذلك .

لم يتم فتح إقليم طرابلس بسقوط صبرة ، إذ بقي من مدنها الكبرى جربة في جزيرة جربة (Meninx) وقابس (Tacapes) على حدود أفريقية ، وبقي كذلك عدد من المسالحو الحصون مثل جرجس (Girgis) ^(٣) . ولكن الروايات العربية

(١) أبو المحاسن ، النجوم الزاهرة ، ج ١ ص ٢٣ : (٢) كان عمير أمير البعث الذي أرسله عمرو لفتح دمياط ، وخارجة أمير البعث الذي أرسل إلى الصعيد : بطر : فتح العرب لمصر ، الترجمة العربية ص ٣٠٣ (٣) Diehl, op. cit. p. 229

تذهب إلى أن عمراً — بعد أن تم فتح صبرة — أرسل إلى عمر بن الخطاب يستأذنه في فتح إفريقية ، ولو قد وجد عمرو التقدم ميسوراً لتقدم في غير عناء دون أن يستأذن عمر ، ولكن الغالب أن مايلى صبرة من البلاد والمسالخ ، كان محصناً بالجند بحيث وجد عمرو ضرورة الاستعانة بأمداد جديدة ، حتى يمكنه التقدم ؛ ويمكننا أن نفهم من هذا أن مايلى صبرة من البلاد كان محل عناية جريجوريوس : حصنه وأقام فيه الجند ، وإذا عرفنا أن العرب كانت ترى في جريجوريوس حاكم الغرب جميعه ، فهمنا السبب الذي حدى بعمرو إلى الوقوف للاستئذان في فتح إفريقية .

فإذا كنا نعرف أن جريجوريوس لم يكن يهتم قبل ذلك بتأمين حدود بلاده في الشرق أو الجنوب ، وأنه اكتفى بالتحرز في سبيطة منذ أعلن العصيان على الدولة وادعى الإمبراطورية ، فما الذي حدا به إلى تحصين المدن ممايلي صبرة والاستعداد فيها ؟ لاشك أن أخبار التقدم العربى في مصر وصلته فسارع بتأمين الحدود الشرقية ليكون له منها جبهة قوية يتلقى عندها هجمة العرب الأولى ، ويرددهم عن بلاده الحقيقية في ولاية إفريقية وما يليها ، بل يظهر أن جريجوريوس استعد استعداداً كبيراً في قابس ، لأن العرب سيتحاشونها عندما يشرعون في غزو إفريقية في حملة عبد الله بن سعد ، بل سيقصدون إلى سبيطة رأساً ، ولو قد وجدوا الاستيلاء عليها هيناً لأخذوها في طريقهم .

كان طبيعياً أن لا يأذن عمر بالاستمرار في الفتح ، فإنه كان يخشى أن تتسع الفتوح المتتالية بالمسلمين إلى حد غير مأمون ، وقد كان رأيه الأول أن تقف الفتوح عند حدود فلسطين ، فكيف وقد تم فتح مصر وبرقة ووصل جند المسلمين إلى طرابلس ؟ المعقول أن يرفض التقدم رفضاً باتاً ، ولا غرابة في أن يقول ابن عبد الحكم : « أراد عمرو أن يوجه إلى المغرب ، فكتب إلى عمر بن الخطاب

— كما حدثنا عبد الملك بن مسleme عن ابن لهيعة عن ابن هريرة عن أبي تميم الجيشاني —
 أن الله قد فتح علينا ؟ طرابلس ، وليس بينها وبين إفريقية إلا تسعة أيام ، فإن
 رأى أمير المؤمنين أن يغزوها ويفتحها الله على يديه ، فعل ، فكتب إليه عمر : لا ،
 انها ليست بإفريقية ، ولكنها الفرقة ، غادرة (الغادره) مغدور بها ، لا يغزوها
 أحد ما بقيت » ^(١) وهي رواية نقلها عنه أكثر المؤرخين بالنص ، ثم عاد فأكد
 ذلك برواية أخرى عن ابن لهيعة أيضاً: حدثنا أبو الأسود بن النضر بن عبد الجبار
 حدثنا ابن لهيعة عن أبي قبيل ، عن مرة بن ليشراح (ليسرح وهو اسم معافري)
 المعافري قال : سمعت عمر بن الخطاب يقول : « إفريقية المفرقة ثلاث مرات ،
 لأوجه إليها أحداً ما مقلت عيني الماء » ^(٢) ، وفي رواية البلاذري زيادة طفيفة تدل
 على أن بعض الأخبار عن أحوال إفريقية السياسية وعن تاريخها كانت قد اتصلت
 بعمر إذ ذاك ، فعرف أنها ليست مأمونة الجوانب ولا ميسورة الفتح ولا قريبة الطاعة ،
 فعجل بإيقاف عمرو ، وذلك إذ يقول : « وكتب إلى عمر بن الخطاب أن بينها وبين
 إفريقية تسعة أيام ، واستأذنه في غزوها ، فكتب إليه ينهأ عنها ، وكتب إليه
 أنها ليست بإفريقية بل مفرقة غادرة مغدور بها ، وذلك أن أهلها كانوا يؤدون
 إلى ملك الروم شيئاً فكانوا يغدرون به كثيراً ، وكان ملك الأندلس صالحهم
 ثم غدر بهم » ^(٣) .

ويبدو أن جهد المسلمين لم يقف عند هذا الحد ، إذ يذهب المالكي
 في « رياض النفوس » إلى جند أن المسلمين وخيلهم لم يقف نشاطهم عند صبرة ،
 بل أنشأوا يغيرون على حدود إفريقية في جرائد الخيل ، كما كانوا يصنعون بعد تسليم
 الاسكندرية ، وأنهم كانوا يعودون منها بالفسائهم الوافرة ، وأنهم أقاموا على ذلك

(١) ابن عبد الحكم ، فتوح ، ص ١٧٢ (٢) نفس المصدر ، ص ١٧٣

(٣) البلاذري ، فتوح ، ص ٢٢٥

حتى ولاية عبد الله بن أبي سرح وقيامه بحملته على إفريقية سنة ٢٧ هـ (١) .

إلى هنا ينتهى دور عمرو بن العاص فى فتح إفريقية ، وهو دور ليس بالكبير كما رأينا ، ليس فيه مواقع عظيمة ولا سياسات بعيدة الأثر ، إنما هو تقدم سهل فى بلاد قليلة المقاومة ، ولنلاحظ أنه حرص دائماً على أن يكون بمقربة من الساحل لا موعلاً فى الداخل كما سيفعل كثيرون ممن سيأتون بعده ، وأنه اهتم كذلك بأن يؤمن الداخل فى نفس الوقت بهذه البعوث التى كان يبعثها قبل أن يتقدم أو بعد أن يستقر له أمر الشاطىء : لم يكذب يثم فتح برقة حتى بعث عقبة بن نافع فى بعث فزان ، ولم يكذب يثم له فتح طرابلس حتى أرسل بسرا فى بعث ودان ، هذه السياسة الحكيمة سبيلها أكبر القواد الذين أتوا بعده وهو عقبة بن نافع ، فكان إهمالها سبباً فى ضياع جهوده كلها هباء بل فى موته هو ، وانتقاض إفريقية كلها انتقاضاً تاماً .

بقى تحديد تواريخ هذه الأحداث ، وليس بين المؤرخين اختلاف كبير فى ذلك .

يذهب البلاذرى إلى أن فتح برقة كان فى سنة ٢١ هـ (٢) .
أما ابن عبد الحكم فيجعل فتح برقة سنة ٢٢ هـ ، ونقل عنه ذلك ابن الأثير ونقل عنهما كودل (٣) .

أما اليعقوبى فيجعل هذا الفتح سنة ٢٣ هـ (٤) ، ويؤيده فى ذلك ابن خلدون

(١) المالكى ، رياض النفوس ، ورقة ٤ ، ابن عبد الحكم ، فتوح ، ص ١٧٣

(٢) البلاذرى ، فتوح ، ص ٢٣٣ (٣) ابن عبد الحكم ، فتوح ، ص ١٧١ —

ابن الأثير ، ج ٣ ص ١٩ ، Caudel, op. cit. I, p. 81

(٤) اليعقوبى ، تاريخ ، ج ١ ص ٢٣٣

ونقل عن الأخير دى سلين^(١) ، ويتفق أبو المحاسن والبكرى مع البلاذرى^(٢) .
كان الفراغ من فتح الاسكندرية فى النصف الثانى من شهر سبتمبر
سنة ٦٤٢ م ، إذ فى السابع عشر من هذا الشهر « كان أسطول تيودور يحل قلاعه
ويرفع مراسيه ويسير إلى قبرص بمن كان عليه من فلول جيش الروم يرفرف عليه
الأسى^(٣) » ، والمعروف أن عمراً شرع فى غزو برقة بعد ذلك مباشرة ، وأن سبتمبر
من سنة ٦٤٢ م يوافق ذى القعدة من سنة ٢١ من الهجرة ، فهل انتظر عمرو
ابن العاص ، حتى أهلت سنة ٢٢ أو شرع فى المسير إلى برقة فى الشهر الأخير من
سنة ٢١ ؟ أغلب الظن أن عمراً لم يشرع فى المسير إلى برقة بعد الفراغ من
الأسكندرية بأيام ، بل المعقول أن تنظيم أمور الفتح وإعداد العدة بناء على
المعلومات التى حملها عقبة بن نافع إليه ، كل ذلك شغل عمراً الشهرين الأخيرين
من سنة ٢١ ، فلم يبدأ فتح برقة إلا فى أوائل سنة ٢٢ هـ ، ويستبعد أن يكون قد
قضى سنة ٢٢ بأسرها فى مصر ثم شرع فى المسير إلى برقة سنة ٢٣ ، وإذن فرأى
ابن عبد الحكم وابن الأثير هو الأرجح ، ولم يخطئ كودل فى متابعتها فى ذلك ،
ولم يخطئ البلاذرى وابن خلدون وياقوت ودى سلين كثيراً ، إذ لا يبعد أن عمراً
بدأ يستعد ويرسل الطلائع إلى المغرب من أواخر سنة ٢١ هـ .

فإذا كان فتح برقة قد تم فى الشهور الأولى من سنة ٢٢ ، فلا يستبعد أن
يكون عمرو قد وصل إلى طرابلس فى خلال سنة ٢٢ ، أوفى أواخرها ، وإذا
عرفنا أنه بقى على حصارها شهراً على قول البعض وبضعة أشهر على قول البعض
الآخر ، كان معقولاً أن يكون تسليم طرابلس قد تم فى الأشهر الأولى من

(١) ابن خلدون ، ص ٣ ، طبعة دى فرجير De Slane : J. A. Tome XII, p. 422, Ve série

(٢) أبو المحاسن ، النجوم الزاهرة ، ج ١ ص ٢٣ — البكرى ، وصف إفريقيا ،

ص ١٤٥ — البلاذرى ، فتوح ، ص ٢٣٣

(٣) بطلر ، فتح العرب لمصر ، (الترجمة العربية) ص ٣١٧

سنة ٢٣ هـ^(١) ، ثم أعقب ذلك فتح صبرة قبل نهاية هذا العام ، لأن المعروف أن عمرأ عاد إلى مصر قبل أن يقتل عمر بن الخطاب (وكان مقتل عمر في ٢٣ ذى الحجة سنة ٢٣ هـ) .

فإذا صح هذا ، يكون فتح فزان قد بدأ خلال سنة ٢٢ هـ وانتهى في الشهور الأولى من سنة ٢٣ هـ ، وعاد عقبه قبل منتصف سنة ٢٣ هـ ، لأن عمرأ عاد إلى مصر حوالى ذلك الوقت تاركاً إياه في برقة .

وبديهى كذلك أن يكون فتح وِدان ، الذى كان مع حملة صبره في فترة واحدة ، قد تم في الأشهر الأولى من سنة ٢٣ هجرية .

(١) في أواخر سنة ٢٢ هـ إذا صدقت رواية المدبلى وأصحابه ، وفي أوائل سنة ٢٣ هـ إذا كانت مجرد أسطورة .

obeykandi.com

الباب الثالث

المحاولات الأولى (١)

حملة عبد الله بن سعد بن أبي سرح

اضطر عمرو إلى الانصراف عن إفريقية مرغماً ، ولعل السبب في ذلك لم يكن مجرد رفض عمر ، إذ لم تكن ولاية طرابلس كلها قد سقطت بسقوط « صبرة » ، فما زال أمام المسلمين عدد من مدائنهم مثل « قابس » من غير فتح ، ولو قد أرنس عمرو في نفسه وجيشه القدرة على التقدم ، لما أعوزه الإذن من عمر ، إذ المسافة بين طرابلس وصبرة أكبر من المسافة من صبرة إلى قابس ، ولما كان قد خطا الخطوة الأولى بغير استئذان ، فلم يكن عليه بأس في أن يخطو الخطوة الثانية لو كان ذلك ميسوراً له ، ولكن الغالب أنه أحسن أن الخطوة التالية تحتاج إلى عدة جديدة وعدد كبير ، فأحب أن يستأذن عمر في الفتح ، تمهيداً لطلب المدد إذا أذن عمر في ذلك ، وقد تكون عيونه وطلائمه^(١) قد نقلت إليه أخبار ما يليه من البلاد إلى الغرب ، وأعلمته أن لا محيص له عن عدة وافية وقوة جديدة ، ليقهر ما عساه يلقاه من المقاومة عند قابس وما يليها .

طبعي أن يكون جريجوريوس قد أحس بالخطر حين بلغته أنباء وقوع صبرة في يد العرب ، وانسياب طلائع جندهم بين محارس الحدود وثغورها ، وكان سلطانه على هذه النواحي خاصة ضعيفاً ما يزال ، إذ لم يمض وقت طويل على انفصاله^(٢) عن

جرجير
يستعد
لقاء المسلمين

(١) تجمع المصادر على أن عمراً كان يبعث المسلمين في جرائد الخيل ، فيصيبون من أطراف إفريقية ويضمون ، في ظاهر الأمر ، ويستطلعون الأحوال ويعرفون قوة أهل إفريقية في الحقيقة . أنظر : ابن عبد الحكم ، فتوح ، ص ١٨٣ والبلاذري ، فتوح ، ص ٢٢٦ — التويري ، نهاية الأرب ، ورقة ١٦٢

(٢) كان خروجه سنة ٦٤٦ م أي في الوقت الذي كان العرب فيه في طريقهم إلى بلاده ، فلا بد أنه قضى بقية هذه السنة والتي تلتها في ترتيب شئونه ، ويغلب أن يكون انتقله إلى سبيلة لم يتم إلا خلال سنة ٧٤٧ م ، أي قبل موقعة سبيلة ببضعة شهور .

الدولة وإعلان نفسه إمبراطوراً . فكان محتاجاً إلى فسحة من الوقت حتى يعزز دولته الجديدة ويقوى جانبها ، وكان لازماً عليه أن يبذل جهده حتى يضمن ولاء أهل أفريقية ويطمئن إلى عونهم أمام الدولة البيزنطية وغيرها .

يذهب ديل إلى أن جريجوريوس لم يُلق إلى العرب بالافى أول الأمر ، وأنه لم يأخذ الأهبة لردهم إلا حين أشرف جنود عبد الله بن سعد على تخوم بلاده^(١) ، ويبدو أن هذا الرأي ليس صحيحاً على إطلاقه ، لأن اختياره سبيطة كعاصمة مؤقتة ينبىء بأنه كان يتوقع شيئاً من ناحية الشرق ، ولو كان أراد من التراجع إلى الداخل مجرد الاحتماء بالبربر والتحرز بينهم ، لكان أمامه من الحصون ما هو أعز وأقوى^(٢) ، ثم كيف يقال إن رجلاً مثل جريجوريوس اشتهر بالقدرة والخبرة ، كان يجهل ما حدث في برقة وطرابلس ، أو يفغل عن نيات العرب وهو يراهم ينساحون من بلد إلى بلد ، وها هي ذى خيلهم تطرق أبواب بلاده وتروع أهلها ؟ كيف يقال إنه غفل عن ذلك وله العيون في برقة وطرابلس ، والأرصاد في القسطنطينية ينهون إليه أخبار الامبراطورية كبرها وصغيرها ؟

لابد أن جريجوريوس أحس بالخطر المقبل من الشرق ، فأنشأ يتحرز منه ، ولما كانت قرطاجنة في أقصى البلاد شمالاً ، فقد خاف إن هو بقي فيها أن ينحصر بين هجوم العرب من الشرق وهجوم البيزنطيين من الشمال ؛ ثم إنه كان يعول على نصر البربر وعونهم ، فأحب أن يتحرز فيهم ، واستقر الرأي به آخر الأمر

(١) نفس المصدر والصفحة .

(٢) تقع سبيطة على الطريق الذى يؤدى من السهل الساحلى الى جبال الأوراس ، فهى أول حصون الهضبة ، وتقع على الطريق الحربى الذى يؤدى من سوسة الى نفست Theveste فاختيارها يدل على أنه كان يتوقع الخطر من ناحية الشرق ، فترى للمقبلين من السهل والهضبة ، ولو لم يكن ينتظر خطراً من الشرق لاختار نفست وهى العاصمة الحربية لهذا الإقليم وموقعها لا يدانى وحصونها لا ترام .

على التمهقر إلى الداخل والتحصن في أحد حصون الهضبة^(١). فاختار سبيطة التي تشرف على السهل الساحلى لذلك الغرض ، وربما بعث جنداً إلى الحدود فمسكرت عندها ، فلم يجسر عمرو على تخطى هذه الحدود ، وأدرك أنه لا بد له من مدد جديد ، فبعث يستأذن عمر ، وربما حصن بعض ثغوره الشرقية كقابس ، لأن المسلمين وجدوها على الأهبة للقائهم حين أدركوها ، وقد تحصن أهلها خلف أسوارها ، فلم يمكنهم الاستيلاء عليها .

لم يجد عمرو إذاً بداً من الانسحاب والتراجع ، فطوى كعبه وانصرف عائداً إلى مصر ولبث بها حتى عزله عثمان عنها بعبد الله بن سعد بن أبي سرح سنة ٢٥هـ^(٢).

كيف كان حال برقة وطرابلس خلال السنوات الأربع التي انقضت بين
انصراف عمرو وإقبال عبد الله بن سعد؟ (٣٣ هـ - ٢٧ هـ) .

برقة
وطرابلس في
غربة المسلمين

لم تنبئنا المراجع العربية أو الأجنبية بشيء ثابت عن ذلك ، ولكننا نستطيع أن نلاحظ بضع ملاحظات توضح هذه الناحية : من الثابت أن عمراً خلف عقبة ابن نافع على إفريقية ، ويغلب أنه لبث هذه الفترة في برقة ، لأن عبد الله بن سعد سيجده في هذه المدينة بعد ذلك بقليل عندما يقبل سنة ٢٧ هـ ، وربما أنفق عقبة وقته في التردد بين القبائل الضاربة حوالها والواحات القريبة منها ، مما يدل على أن برقة وما حوالها ظلت على طاعة المسلمين طوال هذه الفترة .

أما طرابلس وما يليها فالراجح أنها ارتدت عن طاعة العرب بُعيد انصرافهم

(١) يذكر ابن عذارى أن عمرو بن العاص تقدم حتى أدرك تخوم إفريقية، فوقف عندها ، ولم يجسر على التقدم فيها ، «لأن ملوكها كثيرة وأهلها في (ياض في الأصل) وأكثر ركوبهم الخيل» : ابن عذارى ، البيان ، ج ١ ص ٣٣

والغالب أن ابن عذارى لا يعنى بذلك أن عمراً خاف من أهل البلاد الآمنين ، وإنما لا بد أنه وجد هناك جنداً كثيرة نخافها . (٢) الكندى ، القضاة والولاة ، ص ١١

عنها ، ويغلب أن يكون عقبة قد أهمل شأنها ولم يعن بأن يحفظها للمسلمين ، بل يظهر أن أمداداً جديدة وصلت إليها فاستطاع أهلها أن يعوضوا ما خسروه حين استولى العرب على مدينتهم سنة ٥٢٣هـ ، فقد جاء في نهاية الأرب : « حكي الزهري .. فوالله إنا لبطرابلس ، وقد أصبنا من بها من الروم ، وقد تحصنوا منا فحاصرناهم ؛ ثم كره عبد الله أن يشتغل بذلك عما قصد إليه ، فأمر الناس بالرحيل ^(١) » ، ويؤيد المالكي ذلك بقوله : « وتحصن أهل طرابلس ولم يعرضوا لنا ولم نهجمهم » ^(٢) ، مما يفهم منه أن المدينة كانت إذ ذاك أحصن مما كانت عليه قبل ذلك بسنوات أربع حين حاصرها عمرو بن العاص واستولى عليها ، ولا يعلل هذا التغير إلا بأن الأمداد كانت تصل المدينة وتعين أهلها على إعادة تحصينها ، وقد ذهب كودل إلى أن امتناع طرابلس على العرب في حملة عبد الله بن سعد كان سببه أن الطرابلسيين اتعظوا بغزوة العرب الأولى ، فزادوا بأسوار مدينتهم عناية ، وأقاموها من جديد ، فامتنعت على عبد الله بن سعد في غزوته على إفريقية ^(٣) ، وكل ذلك يدل على أن طرابلس عادت سيرتها الأولى بعد انصراف عمرو عنها ، وأن الأمور عادت فاتصلت بينها وبين بلاد الروم ، وأخذت السفن تصل ميناءها بالمتاجر والجند وتقلع عنها ، وليس ببعيد أن أمداداً كانت تصلها مما يجاورها من البلاد . وعلى أي الأحوال ، نستطيع أن نستنتج من امتناع طرابلس على عبد الله بن سعد أنها خرجت عن طاعة المسلمين وعادت إلى ما كانت عليه قبل غزوة عمرو بن العاص لها .

أصبح عبد الله بن سعد بن أبي سرح عاملاً على مصر منذ سنة ٥٢٥هـ ، ^(٤)

(١) النويري ، نهاية الأرب ، ورقة ٦٣ | (٢) المالكي ، رياض النفوس ، ورقة ٢

(٣) Caudel. op. cit. II, 60 (٤) الكندي ، القضاة والولاة ، ص ١١ — ابن حجر

الإصابة ، ج ٣ ص ٧٦

مطلق اليد في شئونها المالية والإدارية بعد عزل عمرو عنها ، وأصبح — تبعاً لذلك — حاكماً على ما بقي للمسلمين من فتوحهم في إفريقية ، قائداً على من يخرج من الجند لإكمال الفتح فيها ، وهذا هو الوضع السياسي الأول لإفريقية : إذ اعتبرت جزءاً ملحقاتاً بولاية مصر يحكمها عامل مصر ، يجبي خراجها ويقود جندها .

ينبغي أن نجعل حداً فاصلاً بين عبد الله بن سعد في إسلامه الأول وعبد الله ابن سعد في إسلامه الثاني ، لأن الوقائع تبين أن الرجل يختلف كثيراً في الدور الأول عنه في الدور الثاني ؛ فعبد الله بن سعد الأول فتى يافع لا يكاد يحسن فهم الأشياء ، فيستهن بثقة الرسول ، وتؤثر فيه دعايات قريش ، ويحجب عنه صغر السن عظمة النبي الكريم ، فلا يلبث أن يرتد إلى الشرك ويلقى بنفسه في أحضان قريش ويقول في نزق « كان يملئ على عزيز حكيم ، فأقول : أو عليم أو حكيم فيقول : كل صواب ^(١) » ، فلا يبالي أن يفترى على الرسول كذباً مجاراة لقريش فيما كانت تتخذ من الأساليب للقضاء على الإسلام ، أما عبد الله بن سعد الثاني فجندى باسل وثيق الإيمان كامل الشعور بجلال الإسلام وتبعاته ، شهد فتح مصر واختطبها ، وكان صاحب ميمنة عمرو في فتحها ، « وكانت له مواقف محدودة في الفتوح ^(٢) » ، ويؤكد النويري أنه : « حسن إسلامه ولم يظهر بعده ما ينكر ، هو أحد العقلاء والكرماء من قريش ^(٣) ... » وقد أخطأ المؤرخون في الحكم عليه ، لأنهم أخذوه بجريرة فعلته الأولى ، فأنكروا عليه كثيراً من فضله في فتح إفريقية ، ونسب أكثرهم هذا الفضل إلى عبد الله بن الزبير ، ويظهر أنهم تأثروا كثيراً بالدعاية الواسعة التي بذلها عبد الله بن الزبير لنفسه حين أصبح خليفة ، فضاع

(١) تهذيب الأسماء للنووي ج ١ ص ٢٦٩ (٢) الإصابة لابن حجر ، ج ٣ ص ٧٦

(٣) نهاية الأرب ، للنويري ، ص ١٦٢

حظ ابن أبي سرح بين جريرة الارتداد ودعاية ابن الزبير ، بل يبدو أن قرابة عبد الله من عثمان قد قللت من شأنه في حساب التاريخ ، إذ نسب ما كسب من توفيق إلى أخوته للخليفة (بالرضاع) لا إلى مواهبه الشخصية ، وأصابه من سوء ظن الناس ما أصاب كل ولاية عثمان وأشياعه ، فكان قليل الحظ عند المؤرخين .

لم تكد ولاية مصر تستتب لعبد الله بن سعد حتى بدأ يمهّد لغزو المغرب ، فأخذ « يبعث المسلمين في جرائد الخيل كما كانوا يفعلون في أيام عمرو ، فيصيبون من أطراف إفريقية ويغنمون ^(١) » ، ويضيف النويري أنه « كان يكتب بذلك إلى عثمان » ، مما يدل على أنه كان يرجو أن يمنحه عثمان الإذن بفتح إفريقية ويمده بما يمكنه من القيام بهذا العمل العظيم ، ويبدو أن عثمان نفسه كان يميل بعض الميل إلى إجابة عبد الله بن سعد إلى ما يريد : إما نكاية منه في عمرو الذي كان مقيماً إذ ذاك بالمدينة مندداً عليه وعلى واليه الجديد على مصر ، وإما رغبة منه في تعزيز مركز أخيه في الرضاة بفتح عظيم كفتح إفريقية ، ولكنه كان متردداً متخوفاً ، لأن رفض عمر بن الخطاب لهذا الفتح كان له معناه ، وما كان عثمان ليلقى بجند المسلمين إلى هذه البلاد « المفرقة الغادرة » ^(٢) ، إلا إذا استوثق من أمره ، وأمن على جنده وعلى أخيه شر هزيمة قد يكون وراءها بلاء عظيم .

وكان ابن أبي سرح قد « كتب في ذلك إلى عثمان ، وأخبره بقربهم (أى قرب الروم) من حوز المسلمين ، ويستأذن في غزوها » ^(٣) ، فأنشأ عثمان يستشير الصحابة وأصحاب الرأي ، وإذا أخذنا بما رواه المالك والنويري ، ثبت أن عثمان اهتم اهتماماً عظيماً بأمر إفريقية ، وأنه أطل التفكير في شأنها ، ويتضح ذلك

(١) ابن عبد الحكم ، فتوح ، ص ١٨٣ والنويري ، ورقة ١٦٢

(٢) البلاذري ، فتوح ، ص ٢٢٦ (٣) ابن عبد الحكم ، فتوح ، ص ١٨٣ — البلاذري ،

فتوح ، ص ٢٢٦ ، المالك ، رياض النفوس ، ورقة ١

من رواية للمالكي عليها طابع القصص ولكنها لا تخلو من دلالة لها معناها ، قال :
«حدث عن المسور بن مخرمة عن طريق الزهري ، قال المسور : خرجت من منزلي
ليل طويل أريد المسجد ، فإذا عثمان رضى الله عنه في مصلى النبي صلى الله عليه
وسلم يصلى فصليت خلفه ، ثم جلس فدعا ليلا طويلا حتى أذن المؤذن ، ثم قام
منصرفا إلى بيته ، فقامت في وجهه فسلمت عليه فقال : يا ابن مخرمة ! واتكأ
على يدي — إني استخرت الله تعالى في ليلتي هذه في بعث الجيوش إلى إفريقية ،
وقد كتب إلى عبد الله بن سعد يخبر بخبره مع المشركين وغلهم وقرب حوزهم
من المسلمين ، فقلت : خار الله لأمر المسلمين ، فقال فما رأيك يا ابن مخرمة ؟ فقلت
اغزوم ، فقال أجمع اليوم الأكبر من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم
(وأستشيرهم) فما أجمعوا عليه فعلته ، أو ما أجمع عليه أكثرهم فعلته^(١) . ينسب
المالكي هذه الرواية الطويلة إلى الواقدي مما يجعل للشك سبيلا إليها ، لكثرة
ما ينسب للواقدي ويدخل عليه ، ولا ندرى كيف خفيت هذه الرواية القصصية
عن الليث بن سعد أو ابن لهيعة أو عبد الملك بن مسلمة ، وهم ثلاثة المحدثين الثقات
الذين لا يفتأ ابن عبد الحكم يأخذ عنهم . وعلى أى الأحوال فليس هناك ما يدعو
إلى رفض تلك الرواية جملة ، ولا أقل من أن نأخذ بمعناها إجمالا ، لأن الثابت
بشهادة البلاذري وابن عبد الحكم^(٢) أن عثمان استشار الصحابة في غزو إفريقية ،

(١) البلاذري ، فتوح ، ص ٢٣٦ وابن عبد الحكم ، فتوح ، ص ١٨٧

(٢) بل يزيد المالكي فيذكر أن عثمان عقد شبه مجلس لبحث هذه المسألة ، فيقول رواية
عن ابن مخرمة . فقال (أى عثمان) لآيت عليا وطلحة والزبير والعباس ، وذكر رجلا ، فخلا
بكل واحد منهم في المسجد ، ثم دعا بالأعور بن سعيد بن زيد فقال له عثمان : ما كرهت يا أبا الأعور
من بعثة الجيوش إلى إفريقية ؟ فقال له سمعت عمر يقول : لا أغزبها أحدا من المسلمين ما حلت
عيناي الماء ، فلا أرى لك خلاف عمر ، (فقال له عثمان) ، والله ما نخافهم ولأنهم لراضون أن
يغزوا في مواضعهم ! فلم يختلف أحد ممن شاوره غيره . وفي هذا ما يدل دلالة واضحة على أن
عثمان كان شديد الميل إلى إتمام هذا الأمر ، وسواء أصدق المالكي أو كذب فيما زعم =

وأن الرأي قد ثاب له على الغزو فعزم عليه ، « فكتب إلى عبد الله في سنة ٢٧ و يقال سنة ٢٨ و يقال ٢٩ يأمره بغزوها ^(١) » .

ويظهر أنه كان لاهتمام الخليفة بهذه الغزاة أثره ، فتقاطر الناس من مختلف القبائل للاشتراك فيها ، وقد يكون دافعهم إلى هذا التهاوت الأمل في الغنم ، لوفرة ماغنم المسلمون في بعوثهم الأولى إلى برقة وطرابلس وقلة ما لقوا من المقاومة ؛ وكان على رأس كل قوم نفر من كبارهم ، واندمج في سلك الحملة نفر غفير من مشاهير الصحابة وأولادهم ^(٢) .

== من افراد عثمان بكل من ذكر من الصحابة ليقنعه بالموافقة على الغزو ، فإن قرائن الحال تدل على أن عثمان بذل جهداً كبيراً لإنفاذ هذا البعث ، وأنه أخذ يندب الناس للاشتراك في هذه الحملة . أنظر : المالكي ، رياض النفوس ، ورقة ٢

(١) البلاذري ، فتوح ، ص ٢٢٦

(٢) كان هذا الجيش يسمى جيش العبادلة لاشتراك عبد الله بن سعد وعبد الله بن الزبير وعبد الله بن أبي بكر وعبد الله بن عمر وعبد الله بن زيد بن الخطاب ، وعبد الله بن عمر بن الخطاب فيه وقد خرج فيه من بني هاشم عبد الله بن عباس وعبيد الله بن عباس . ومن بني تميم : عبد الله بن أبي بكر وعبد الله بن طلحة في عدة من قومه ومن بني عدى : عبد الله بن عمر بن الخطاب وعبد الله بن زيد بن الخطاب وعبد الله وعاصم ابنا عمر في عدة منهم ؛ ومن بني أسد بن عبد العزى عبد الله بن الزبير في عدة من قومه . ومن بني سهم : عبد الله بن عمرو بن العاص وعبد المطلب ابن السائب بن وداعة في عدة منهم . ومن بني أمية : مروان بن الحكم وأخوه الحارث . ومن بني زهرة : المسور بن مخزومة بن نوفل وعبد الرحمن بن الأسود بن عبد يغوث ، ومن بني عامر ابن لؤي : السائب بن عامر بن هشام وبشر بن أرطاة ، وعدة من بني هزبل : منهم أبو ذؤيب خويلد بن خالد الهذلي ، وعبد الله بن أنس وأبو ذر الففاري ومعاوية بن خديج ورويف ابن ثابت وأبو زمعة البلوي وعقبة بن نافع الفهري . ومن جهينة : ستمائة رجل . ومن أسلم : ثلاثمائة رجل ومن مزينة : ثمانمائة رجل ومن بني سليم : أربعمائة رجل ، ومن بني الديلم ودصمة وغفار خمسمائة ، ومن كعب ابن عمرو أربعمائة ، وكانوا آخر من قدم على عثمان والناس معرسون بالجرف ، والجرف على ثلاثة أميال من المدينة ، وهذا يدل على إقبال الناس على الاندماج في هذه الحملة ، إذ اشتركت فيها معظم القبائل الكبيرة ووفد إلى إفريقية نفر من مشاهير العرب وكبار الصحابة ، وربما كان بعض هذه الأسماء مدخولا اخترعه مؤرخو المغرب للتظيم من شأن إفريقية ، ودليلنا على ذلك أنه لم يرد مفصلاً إلا في كتبهم كرياض النفوس ومعالم الإيمان والخلاصة النقية . ولم يورده من مؤرخي المشرق إلا من أخذ عنهم كالنويري . أنظر : المالكي ، رياض النفوس ورقة ٢ — النويري ، نهاية الأرب ، ورقة ٦٢ أ و ٦٢ ب و ٦٣ أ

ويبدو أن عثمان استمر يدعو الناس لغزو إفريقية بضعة أيام ، وأن المتطوعين كانوا يتوافدون إلى الجرف على ثلاثة أيام من المدينة ، وكان لا يني يشجع الناس على التطوع ، فأعان الجيش بألف بعير من ماله : يُحمل عليها ضعفاء الناس ، وحمل على خيل ، وفرّق السلاح وأمر للناس بأعطياتهم وذلك في الحرم سنة ٢٧ هـ^(١) . فلما اكتمل الجيش « خطب عثمان الناس ورغبهم في الجهاد ، وقال لهم : لقد استعملت عليكم الحارث بن الحكم إلى أن تقدموا على عبد الله بن سعد فيكون الأمر إليه ، واستودعتكم الله^(٢) » . وهذا يدل على أن عثمان لم يبرح معنياً بأمر الحملة باذلاً جهده في إنفاذها وإعدادها ، حتى فصلت عن المدينة .

— ٣ —

وصلت تلك القوات إلى عبد الله بن سعد في مصر ، فجمع إليها ما كان لديه من الجند ، فصار له جيش عدته نحو عشرين ألفاً باتفاق الرواة ، فاستخلف على مصر عقبة بن عامر الجهني ، ومضى هو إلى إفريقية^(٣) .

وصول
القوات
إلى مصر

تختلف الروايات في شأن هذه الغزوة اختلافاً يَبِينُ ، وليس الاختلاف مقصوراً على سير الحوادث أو توقيتها ، وإنما يتناول الحوادث نفسها ، فنجد في بعض الروايات أشياء لا نجدها في روايات أخرى ، بل إن بعض مؤرخي هذه الفترة كالمالكي ، يعرض ثلاث أو أربع روايات للحادثة الواحدة تتباين تبايناً شديداً ، فيحسن أن نوجز ذكر ما ثبت صدقه من أحداث هذه الحملة ، ثم نعرض بعد ذلك لما يكون من أقوال المؤرخين فنناقشها :

تتفق الروايات كلها على أن عبد الله حاصر طرابلس في طريقه ، ثم استصوب

(١) النويري ، نهاية الأرب ، ورقة ١٦٣ (٢) نفس المصدر والصفحة

(٣) الكندي : القضاة والولاة ، ص ١٣ — ١٤

وقد أخطأ النويري فذكر أن عبد الله بن سعد خلف على مصر عقبة بن نافع ، لأن عقبة كان لا يزال بإفريقية ، وسيلقي قوات بن أبي سرح في برقة : النويري ، ورقة ٦٣

أن ينصرف عنها كسباً للوقت ، وكذلك فعل عند قابس ، وأنه التقى بجريجور يوس ومن معه من الجند بمكان قريب من سُبَيْطَلَة يسميه البلاذري عَقُوبَة ، فدارت الدائرة على الروم ، وقتل جريجور يوس وتقهقرت جموع الروم المنهزمة إلى حصن في الشمال يسمى الجُمُ (الأبحام) Thysdrus ، فحاصروهم فيه مدة طويلة أسرعوا بعدها إلى طلب الصلح ، وكانت خيله قد أخذت تجتاح نواحي ولاية إفريقية في هذه الأثناء ، فاجتاحت الولاية الداخلية ووصلت إلى قفصة ، وأخيراً تمت المفاوضات على أن ينسحب من البلاد لقاء مبلغ كبير من المال اختلف في تقديره المؤرخون ، ثم عاد من إفريقية دون أن يترك بها عاملاً أو حامية .

تلك هي الأحداث التي ينعقد عليها إجماع المؤرخين فيما يتصل بهذه الحملة ، وما عدا ذلك فتفصيلات لا يشملها الإجماع ويشوبها الشك في كثير من الأحيان ، كتفاصيل واقعة سُبَيْطَلَة التي يورد كل من المالكي وابن الأثير وابن عذارى والنويرى طرفاً منها ، والتي يتكون منها وصف طويل ممتع فيه الكثير من الخيال والاختلاق ، وكالدور العظيم الذي ينسب إلى عبد الله بن الزبير وقتله جرجير ، وكقصة ابنة جرجير ، وما إلى هذه من القصص التي يورد المالكي وحده أرباعاً منها كما ذكرنا ، ولا بأس من أن نمر بهذه الروايات لعل فيها شيئاً يزيد قصة الفتح الحقيقية وضوحاً .

لا شك في أن ابن أبي سرح كان قد استعد لهذه الغزاة استعداداً طيباً ، فأنته عيونه بالأنباء وأوقفته على الخطة المثلى التي ينبغي عليه اتباعها حتى يصل إلى ما يريد ، كانت لديه المعلومات الدقيقة عن مركز جريجور يوس وحكومته من الناحية السياسية : بهذا تتحدث أقدم الروايات ، وعليه تدل خطة الفتح نفسها ، فقد حدث ابن لهيعة أن هرتل « كان استخلف جرجير ، فخلعه » ، ثم يضيف ابن عبد الحكم : « وكان مستقر سلطان إفريقية يومئذ بمدينة يقال لها قرطاجنة ، وكان عليها ملك يقال

مسير عبدالله
ابن سعد
إلى إفريقية

له جرجير ، كان هرقل استخلفه فخلع هرقل وضرب الدنانير على وجهه ، وكان
سلطانه مايين طرابلس إلى طنجة»^(١) . وهذا حديث قريب جداً من الصحة ،
ولا يتطرق إليه الشك إلا من ناحية القول بأن جرجير ضرب الدينار برسمه ،
إذ لم توجد إلى الآن آثار تشهد بذلك ، ولو وجدت لذكرها توكسييه في مقاله الذي
استقصى فيه كل ماخلفه جرجير من الآثار وأورد ما عليها من النصوص ليؤكد أن
اسمه — أى اسم جرجير — كان جريجوريوس فلافيوس الأرمني .

حينما فصل ابن أبي سرح عن مصر كان معه عشرون ألف جندي مايين عرب
من الجزيرة وجند وقبط من مصر وبربر من أهل إفريقية ، وكانت خطته ترمى
إلى السير إلى جرجير في عاصمته رأساً والقضاء عليه في موقعة حاسمة ، فلا تلبث
النواحي والحصون الأخرى أن تسقط من نفسها، ويبدو أنه كان يقدم أمام جيشه
الطلائع الكثيرة التي تكشف له الطريق ، على هذا يدل قول الزهرى عن ربيعة
ابن عباد الديلي ، قال : « لما وصلنا قدم عبد الله الطلائع والمقدمات أمامه »^(٢) .
وصل عبد الله إلى برقة ، فلقية عندها عقبة بن نافع « فيمن معه من المسلمين ،
وكانوا بها ، وسار نحو إفريقية ، وبث السرايا في كل ناحية »^(٣) . ثم وصل طرابلس

(١) ابن عبد الحكم ، فتوح ، ص ١٨٣ . ورواية ابن الأثير أقل دقة ، فلا ذكر فيها لثورة
جرجير : « وكان ملكهم اسمه جرجير ، وملكه من طرابلس إلى طنجة ، كان هرقل ملك الروم
ولاه إفريقية ، فهو يحمل إليه الخراج كل سنة » : ابن الأثير ، ج ٣ ص ٣٤
ويظهر أن جريجوريوس لم يتراجع من قرطاجنة إلى سبيطة إلا قبيل حملة عبد الله بقليل
من الزمان ، فإجماع مؤرخي العرب على أن العاصمة كانت قرطاجنة يدل على أن أهل إفريقية —
ومنهم أخذ عيون عبد الله هذه المعلومات — كانوا لا يعلمون عن انتقال جريجوريوس إلى
سبيطة ، ويؤكد ذلك أن ما غنمه العرب من هذه الأخيرة لا يكاد يعدل ما غنموه من كثير
من المدن الأخرى ، مما يدل على أن جريجوريوس لم يكن له من الوقت ما يمكنه من نقل كنوزه
من قرطاجنة .

(٢) النويري ، نهاية الأرب ورقة ٦٣ (١) ، وقد أورد هذه الرواية بالنص الدباغ في معالم
الإيمان ، ج ١ ص ٣٥ (٣) ابن الأثير ، ج ٢ ص ٣٤ ، وقد علق كودل على ذلك بقوله عن هذا
المدد الذي ضمه عقبة — بمجنده — إلى حملة عبد الله : « كان رجال عقبة إفريقيين قدماء =

فوجد أهلها قد امتنعوا خلف أسوارها ، فلبث على حصارها أياماً ، فخاف أن يطول به الوقوف بطرابلس وهو يريد الإسراع إلى جرجير في عاصمته ، فأمر رجاله بالانصراف : « وكره عبد الله أن يشتغل بذلك عما قصد إليه ، فأمر الناس بالرحيل »^(١) . وكذلك فعل حين أدرك قابس : وجد أهلها متحصنين ، فانصرف عنها ، إذ أشار عليه الصحابة أن لا يشتغل بها عن أفريقية ، « فسار وبث السرايا في كل وجه ، وكان يؤتى بالبقر والشاة والعلف »^(٢)

— ٤ —

واقعة
سبيلة

واقعة سبيلة

أفضى عبد الله بذلك إلى سهل تونس ، وكان جرجير يوس يستطيع أن يقف للمسلمين عند قابس ويسد عليهم الطريق الضيق الذي يؤدي من طرابلس إلى أفريقية — بين قابس وشط الجريد — ، ولكنه فضل الانتظار في مكان تسميه الرواية العربية « عقوبة »^(٣) على أميال من سبيلة ، ويغلب أنه كان أحد

= من أيام عمرو بن العاص ، وقد عرفوا البلاد معرفة طيبة ، وعرفوا كذلك الأسلوب الذي ينهج في الحرب فيها ، وكانوا قد سبق لهم حصار طرابلس في سنة ٢٣ هـ ، وهام يجدون أنفسهم يحاصرونها مرة أخرى حصاراً أقل توفيقاً من المرة السابقة ، Caudel op. cit II, 64—65 .

(١) النويري ، نهاية الأرب ، ورقة ٦٣ (ب) وقد روى النويري ونقل عنه المالكي ، أن سفناً أُرست بالمدينة والعرب على حصارها ، فقاتلهم حتى استولوا على السفينة بما فيها ، ونستطيع أن نستنتج من هذه الرواية (إذا صدقت) أحد أمرين : إما أن العلاقات عادت فاتصلت بين طرابلس وبلاد الروم بعد استيلاء عمرو عليها سنة ٢٣ هـ ، وإما أن هذه السفينة كانت تحمل مدداً إلى أهل طرابلس (النويري نفس الصفحة ، المالكي ورقة ٢) ، وفي انصراف عبد الله عن طرابلس دون أن يستولى عليها ، يقول كودل : « اعتبر أهل طرابلس بما حدث لهم سنة ٢٣ هـ ، فتحصنوا جيداً ، وتبين العرب ذلك فاكثفوا بنهب ما حول المدينة » ، ولا ذكر لهذا التهب الذي يذكره كودل في المراجع التي ينقل عنها عادة ، وهي رياض النفوس والمونس ومعالم الأيمان Caudel op. cit. II, 64 s. (٢) النويري ، ورقة ٦٣ (ب) — المونس ، ص ٢٣ ، معالم ج ١ ص ٣١ (٣) البلاذري ، فتوح ص ٢٢٦ ، ويصفه النويري بقوله : « خص متسع يسمى بمقوبة بينه وبين دار ملك الروم مسيرة يوم وليلة ، وهي المدينة المسماة سبيلة (النويري ، ورقة ١٦٣) »

الحصون الكثيرة أو المحارس المتعددة التي كانت تحيط بسببيلة^(١).
تذهب الروايات العربية إلى أن عبد الله تقدم إلى الشمال حتى بلغ مكاناً
يقال له قونية^(٢)، أو قودة، وهناك وقف، وبدأت المفاوضات بينه وبين
جرجوريوس، ويظهر أن المناوشات كانت مستمرة بين الفريقين طوال فترة
المفاوضة، إذ يقول ابن الأثير: « فأقاموا هناك يقتتلون كل يوم، وراسله عبد الله
ابن سعد يدعوهم إلى الإسلام أو الجزية فامتنع منهما، وتكبر عن قبول أحدهما،
وانقطع خبر المسلمين عن عثمان، فسير عبد الله بن الزبير في جماعة إليهم ليأتيه
بأخبارهم »^(٣).

نستطيع أن نستنتج من روايات ابن عبد الحكم والمالكي وابن الأثير والنويري
وابن عذارى أن أمد هذه المفاوضات قد طال، وأن جرجوريوس نشط للقاء
العرب بجيش عظيم^(٤)، وأن العرب داخلهم بعض الخوف من تحفزه وجمعه جموعاً

(١) الأقرب للصواب أن عقوبة لم يكن مجرد شخص أى سهل، وإنما كان فيه حصن قوى
دارت الموقعة حوله، وقد ورد ذكره كثيراً في الروايات، فيقول المالكي: « فانهزم جرجير،
ولزمه عبد الله بن الزبير في عجاج الحرب... وقتله إلى جانب السور وابنته تنظر من السور إلى
قاتله، وسبقت خيول المسلمين الروم إلى باب الحصن فخالوا بينهم وبين الدخول إلى حصنهم »:
رياض النفوس، ورقة ٣ (٢) يغلب أنها كابوت فاذا Caput Vada الميناء البيزنطي
المعروف، وربما كانت هي قودة المشار إليها في الإدريسي (ص ١٠٣)، والاثنان قريبان
من مكان القيروان، وهذا هو التحديد الوحيد الذي ورد عن هذه البقعة في رياض النفوس
(ورقة ٣) (٣) ابن الأثير، ج ٣ ص ٣٤ — نجد تفصيل هذه المفاوضة بصورة أوفى
في النويري (ورقة ٦٣ ب) والمونس (ص ٢٣) والمالكي (ورقة ٢)، ولا يبعد أن تكون
هذه المفاوضات قد جرت بين الفريقين قبل الموقعة، فقد كانت هذه خطة العرب قبل كل حرب.
(٤) يقول ابن الأثير في وصف استعداد جرجير: « فلما بلغه خبر المسلمين، تجهز وجمع
الساكر وأهل البلاد، فبلغ عسكره مائة ألف وعشرين ألف فارس (ج ٣ ص ٢٤) وقد بالغ
رواة العرب في تقدير قوة جرجير مبالغة ظاهرة فذهبوا إلى أنهم كانوا ١٢٠ ألفاً (النويري
ورقة ٦٣ ب والمونس ص ٢٣)، ويستبعد أن يكون لدى جرجير هذا القدر من الجنود لأنه:
أولاً، نأثر على الدولة لا تأتيه إمدادات، ولا يقل أن يكون في أفريقيا كل هؤلاء الجنود، وثانياً
لا يدل سياق الحوادث إلى الآن على أنه كان يقود قوة كبيرة، وربما التفت حوله جموع كثيرة =

كثيرة من الروم والبربر ، فلم يبدأ القتال الجدى بعد انقطاع المفاوضات وإياء جرجير للجزية أو الإسلام مباشرة ، بل يبدو من رواية ابن عذارى — على وجه الخصوص — أن المسلمين أدركهم بعض التراخي ومالوا إلى طلب الإمداد ، وربما بعثوا في طلبها^(١) .

تتفق الروايات على أن أخبار حملة أفريقية انقطعت عن عثمان ، فبعث عبد الله ابن الزبير في فئة قليلة ليتعرف له ما تم في أمر عبد الله بن سعد وأصحابه^(٢) ، ويظهر أن ابن الزبير أدرك جيش المسلمين وقد بلغ اليأس من الجند مبلغاً عظيماً ، لأنهم هلكوا وكبروا وفرحوا فرحاً عظيماً ، وبلغ من شدة فرحهم أن الروم حسبوا أن الأمداد وصلت للمسلمين فتخوفوا من ذلك^(٣) .

المناوشات
الأولى

كانت المناوشات مستمرة بين الفريقين طوال هذه المدة ، وكان الجانبان يتقاتلان بفتور ، وكان المسلمون يقاتلون الروم كل يوم إلى الظهر ثم ترجع كل طائفة إلى معسكرها وتضع الحرب أوزارها^(٤) ، ويبدو من تخوف الروم من وصول

== من الروم وأهل البلاد من غير المحاربين خوفاً من العرب ، فظن هؤلاء أن كل من معه جنود فيقول الباجي مثلاً : « وكان العدو — أى جرجير — في مائتي ألف مقاتل » ، راجع : الخلاصة النقية للباجي ص ٤١ — النجوم الزاهرة لأبى المحاسن : ج ١ ، ص ٨٥

(١) ورد في ابن عبد الحكم « وقد قيل إن عبد الله بن سعد قد كان وجه مروان ابن الحكم إلى عثمان من إفريقية ، فلا أدرى أفي الفتح أم بعده (ص ١٨٦ — ١٨٧) » ويغلب أن ذلك كان قبل الفتح ، لأن الذى وجهه بعد الفتح هو عبد الله بن الزبير ، والأغلب أنه أرسل لطلب الإمداد أو لإبلاغ الخليفة أن مركز المسلمين ليس على ما يرام (٢) ليس في رواية ابن عبد الحكم والبلاذرى ما يدل صراحة على أن عبد الله أرسل من المدينة ليتعرف الأخبار ، ولكن بقية الرواة يجمعون على أنه أرسل ، مما يميل بنا إلى تصديق ذلك ، ويذهب النويرى إلى أن عبد الله كان على رأس اثني عشر رجلاً فقط (ورقة ١٦٤) . (٣) ولما « وصل كثر الصباح والتكبير في المسلمين ، فسأل جرجير عن الخبر فقيل : قد أتاكم عسكر ، ففت ذلك في عضده » (ابن الأثير ج ٣ ص ٣٤) . « فسار — أى عبد الله بن الزبير — يجد السير حتى قدم على المسلمين فوصل ليلاً فمروا به ، ووقع في العسكر صيحة خافت الروم منها » نهاية الأرب (ورقة ١٦٤) (٤) ابن الأثير ج ٣ ص ٦٤ والنويرى ، نهاية الأرب ، ورقة ١٦٢ ، ولا نجد في غير هذين من المؤرخين ما يدل على أن عبد الله بن سعد كان يتبع هذه الطريقة بالذات ، وإنما تتفق الروايات كلها على أن المناوشات كانت تدور بفتور .

الأمداد للمسلمين ، أنهم كانوا يتوقعون هجوم العرب عليهم بين لحظة وأخرى ، وهناك ما يدل على أن العرب أنفسهم كانوا على خوف طوال هذه الفترة ، إذ روى ابن عبد الحكم : « صلى عبد الله بن سعد بالناس بإفريقية المغرب ، فلما صلى ركعتين سمع جلبة في المسجد ، فراعهم ذلك وظنوا أنهم العدو ، فقطع الصلاة ، فلما لم ير شيئاً ، خطب الناس ثم قال : إن هذه الصلاة احتضرت ، ثم أمر مؤذنه فأقام الصلاة ثم أعادها »^(١) ، مما يدل على أن المسلمين كانوا على الحذر وتوقع الشر في كل لحظة ، بل إن رواية النويري تدل على أن ابن أبي سرح نفسه كان لا يثق كثيراً بمن معه من الجند ، فقد روى أنه قال لعبد الله بن الزبير معللاً اختفائه في فسطاطه : « وغير خاف عنك من معي ، وأكثرم حديثو عهد بالإسلام ، ولا آمن أن يرغبهم ما بذل لهم جرجير فيقتلونى ، فهذا سبب تأخرى »^(٢) ، بل إن ابن عذارى يقرر أن المسلمين بلغ بهم الخوف واليأس حد الاختلاف على ابن سعد ، مما أوقعه في الحيرة ودفعه إلى الانزواء في فسطاطه ، حتى أنقذ المسلمين من ذلك قدوم عبد الله بن الزبير^(٣) ومن معه .

(١) ابن عبد الحكم ، فتوح ، ص ١٨٥ (٢) النويري ورقة ٦٤ ا و ب — وقد وردت في ابن الأثير عبارة تشير إلى ذلك ، إذ يقول : « فلم ير — أى عبد الله بن الزبير — ابن أبى سرح معهم ، فسأل عنه ، فقيل إنه سمع منادى جرجير يقول : من قتل عبد الله بن سعد فله مائة ألف دينار وأزوجه ابنتى ، وهو يخاف » ابن الأثير ج ٣ ص ٣٤ . وظاهر أن حكاية مناداة جرجير في جيشه ووعدده بإعطاء مبلغ كبير من المال لقاتل عبد الله وتزويجه ابنته — أى ابنة جرجير — مخترعة ، ولكننا نستطيع أن نحكم على وجه العموم بأن عبد الله كان متخوفاً من الروم . (٣) « وكان جرجير صاحب إفريقية والمغرب في مائة وعشرين ألفاً ، فضاقت المسلمون في أمرهم ، واختلفوا على ابن أبى سرح في الرأي ، فدخل فسطاطه مفكراً في الأمر ، وهذا أمر معقول جداً ، ولكن ابن عذارى يبالغ بعد ذلك بقليل في تفصيل ذلك ، فيقول رواية عن لسان عبد الله بن الزبير : فأتيت فسطاط عبد الله بن سعد فطلبت الإذن عليه ، فقال لى حاجبه : دعه فإنه يفكر في شأنكم ، ولواتجه له رأى لظهور أو دعا بالناس ، فقلت لى احتاج لى مذاكرته ، فقال إنه أمرنى أن أحبس الناس عنه حتى يدعونى » ابن عذارى ، ص ٥ — ٦ وتلك مبالغة من ابن الزبير كما سيتضح .

الدور الذي
قام به عبدالله
ابن الزبير

يبالغ بعض المصادر مثل ابن الأثير في تقدير الدور الذي لعبه عبد الله بن الزبير في فتح إفريقية ، فيذهب المالكي وابن الأثير وابن عذارى والنويرى والدباغ والباحي إلى أنه وصل إفريقية ، فوجد المسلمين يقاتلون كل يوم حتى الظهر ، ووجد قائدهم عبد الله ابن أبي سرح متخوفاً من أن يقتل في المعركة ، فحاول أن يتصل به ، فوجد أنه قد أوصد أبوابه ، وأمر أن لا يراه أحد ، فاحتال حتى رآه^(١) ، فقال له : « إن أمرنا يطول مع هؤلاء ، وهم في أمداد متصلة وبلادهم لهم ، ونحن منقطعون عن المسلمين وبلادهم ، وقد رأيت أن نترك غداً جماعة صالحة من أبطال المسلمين ، لم يشهدوا القتال وهم مستريحون ، ونقصدهم على غرة فلعل الله ينصرنا »^(٢) ؛ وليس ببعيد أن يكون ابن الزبير قد لاحظ فتور الفريقين في القتال ، وتخوفهما الاشتباك في معركة حاسمة^(٣) ، فأشار على المسلمين باتباع هذه الخطة ، ولكن ما يقال عن فتور ابن أبي سرح واختبائه لا يتفق مع ما نعرفه عنه ، ولم يرد له ذكر عند أساطين الرواية الأول من أمثال الليث بن سعد وابن لهيعة ومسلمة بن عبد الملك ، ثم أن خطة عبد الله ابن سعد كانت واضحة بينة ، تنحصر في السير رأساً إلى إفريقية وملاقاة الروم والقضاء على قوتهم في موقعة فاصلة ، فكيف يتفق هذا مع ما يروى

(١) ابن عذارى ، البيان المغرب ، ج ١ ص ٥ — ٦

(٢) ابن الأثير ، ج ٣ ص ٣٤ — وقد نقل النويرى كلام ابن الأثير مع تحريف قليل : « إنى فكرت فيما نحن فيه ، والقوم في بلادهم والزيادة فيهم والنقصان فينا ، وقد انصل بي أنه أنفذ إلى جميع نواحيه بالحشد والجمع » ورقة ٦٤ ب .

(٣) « وقد رأيت أصحابه — أي الروم — إذا سمعوا الأذان أغمدوا سيوفهم ورجعوا إلى مضاربهم ، وكذلك المسلمون جرياً على العادة ، والرأى عندي أن يترك غداً إن شاء الله أبطال المسلمين في خيامهم بخيلهم وعددهم ، وتقاتل ببقايا الناس على العادة ، ويطول في القتال حتى يثبت القوم ، فإذا انصرفوا ورجع كل إلى مضربه ، وأزال لامة حربه ، يركب المسلمون ويحملون عليهم والقوم على غرة ، فحسب الله تعالى أن يظفرنا بهم وينصرنا عليهم » النويرى ، نهاية الأرب ، ورقة ٦٤ ب . ولا وجود لهذا الحديث في رياض النفوس أو معالم الأيمان أو ابن عذارى أو الباجي ، ولكنهم يتفقون جميعاً على أنه هو الذي قتل جرجير في الموقعة الكبرى .

من خوفه واختبائه ولوم ابن الزبير إياه؟ معقول جداً أن يكون الرجل قد آثر التريث قليلاً حين وقف وجهاً لوجه أمام الروم ، وربما كان سبب ذلك أن جرجير ظهر بمظهر القوى العزيز الذي لا يأبه للعرب أو يحفل لهم ، وقد يكون لما رواه ابن عذارى من اختلافه مع الجند ودخوله فسطاطه مفكراً^(١) ظل من الحقيقة ، أما الخوف والاضطجاع في الفسطاط والحرب دائرة بين المسلمين والروم ، فأمر غير محتمل الوقوع ، ولا نزاع في أنه مكذوب ومخترع .

إلى جانب هذه الروايات التي تصف جبن ابن أبي سرح وتؤكد عجزه ، نجد رواية أخرى تؤكد أن ابن الزبير كان بطل هذا الميدان وفارسه ، وأنه هو الذي أنقذ المسلمين واختط لهم في الحرب خطة جديدة ، وقادهم في الموقعة ، وقتل جرجير ، وأبدى من صنوف الشجاعة وسداد الرأي وإنكار الذات ما يرفعه إلى مصاف أكبر الفاتحين المسلمين من أمثال خالد وعمر بن العاص ؛ ويغلب أن نجد الروایتين جنباً إلى جنب في معظم المراجع التي تقدم ذكرها : نجدها أولاً في رياض النفوس وابن الأثير ثم في^(٢) والنويري والمونس^(٣) .

أما ابن عبد الحكم فيذكر هذا الخبر في كثير من الحذر فيقول : « حدثنا

(١) أنظر : البيان المغرب ، ج ١ ص ٥ (٢) لا يذكر القيرواني شيئاً عن جبن ابن أبي سرح وخوفه ، وإنما يذكر قتل ابن الزبير لجرجير وأخذه ابنته .

(٣) لا يشير المالكي إلى خوف ابن أبي سرح ، ولا ينسب خطة تقسيم الجيش لصفين — نصف يحارب إلى الظهر ونصف يحارب من الظهر — إلى ابن الزبير ، بل يذكرها عرضاً ، ولكنه يشيد بشجاعة ابن الزبير : « فلما التقوا بالمسلمين نادى جرجير بالبراز ، فبرز إليه عبد الله ابن الزبير ومروان بن الحكم فقتله » (رياض، ورقة ٣) ؛ ونلاحظ أن في روايته مشابة كبيرة لما نَجده في فتح أفريقية المنسوب للواقدي ، الذي نجد فيه عبد الله بن جعفر مكان عبد الله ابن الزبير ، وكلتا الروايتين في الغالب من اختراع الرواة ، فالأولى اخترعها دعاة العلويين والثانية ابتكرها دعاة ابن الزبير أثناء خلافته أو بعدها ، وليس من المستبعد أن تكون خلافة ابن الزبير وأعماله قد أصبحت أسطورة بعد مقتله الروائي ، ولا ننسى أن ابن الزبير كان شديد الاقتان بنفسه واسع الدعاية لها .

عبد الملك بن مسلمة ، حدثنا ابن لهيعة قال : كان هرقل استخلف جرجير فخلعه ، ثم رجع إلى حديث عثمان بن صلح وغيره ، قال : فلقيه — ابن أبي سرح — فقاتله فقتله الله ، وكان الذي ولي قتله — فيما يزعمون — عبد الله بن الزبير ^(١) ، وكذلك البلاذري يسندها إلى ابن الزبير نفسه ويقول : « حدث محمد بن سعد ، عن الواقدي ، عن أسامة بن زيد بن سلم ، عن نافع مولى آل الزبير ، عن عبد الله بن الزبير قال : « أغزانا عثمان ، فسار عبد الله بن سعد بن أبي سرح حتى حل بعقوبة ، فقاتله أياماً فقتله وكنت أنا الذي قتلته » ^(٢) . فإذا أخذنا بروايته ابن عبد الحكم والبلاذري — وهما أحق بالثقة من غيرهما — كان في إمكاننا أن نشك كثيراً في المبالغات الشديدة التي ينسبها من بعدها من المؤرخين إلى ابن الزبير ، وإذا أضفنا إلى ذلك أن ابن عبد الحكم نفسه ، يروي بعد ذلك خبراً صغيراً يهدم كل ما ينسب لابن الزبير ، ازدادنا تأكيداً من ذلك الرأي ؛ ذلك أن الرواية التي تنسب إلى ابن الزبير فخر موقعة سببلة وقتل جرجير ، تؤكد أنه أخذ ابنته جزاء له على ما فعل ^(٣) ؛ ولكن ابن عبد الحكم يروي رواية أخرى فيقول : « وكانت ابنة جرجير كما حدثنا أبو عبد الله بن عبد الحكم وسعيد بن عفير قد صارت

(١) ابن عبد الحكم فتوح ، ص ١٨٤ — ورواية ابن عبد الحكم عن الموقعة ناقصة ، إذ هو لا يذكر مكانها ولا شيئاً مما وقع بعدها مباشرة (٢) البلاذري : فتوح البلدان ص ٢٢٦ (٣) يقول ابن الأثير : « وقتل جرجير ، قتله ابن الزبير وأخذت ابنة الملك سبية ، ونقل عبد الله بن الزبير ابنة الملك » ابن الأثير ج ٣ ص ٣٥ ؛ أما النويري فيقص هذه الحادثة في شيء من التطويل الذي يسمو بابن الزبير إلى درجات الأبطال : « وأسرت ابنة الملك وآتى بها إلى عبد الله بن سعد ، فسألها عن أبيها قالت قتلت ، قال أتعرفين قاتله ؟ قالت نعم إذا رأيته ، عرفته ، فلما أقبل — أي ابن الزبير — قالت هذا قاتل أبي ، فقال له بن سعد ما منعك أن تعلمنا بذلك لنفي لك بما شرطناه ، فقال أصلحك الله ما قتلته لما شرطت ، والذي قتلته له يعلم ويجازى عليه أفضل من جزائك ولا حاجة لي في غير ذلك ، فنقله ابن سعد ابنة الملك ، فيقال إن ابن الزبير اتخذها ابنة ولد — النويري نهاية الأرب ، ورقة ٦٥ (١) وقد نقل المالكي ذلك فيما أورده من الروايات : رياض النفوس ورقة ٣

لرجل من الأنصار في سهمه ، فأقبل بها منصرفاً قد حملها على بعير له فجعل يرتجز :

يا ابنة جرجير تمشي عقيبكِ إن عليك بالحجاز ربتك

لتحْمِلِنَ عن قباء قربتك

قالت مايقول هذا الكلب ؟ فأخبرت بذلك ، فألقت بنفسها عن البعير الذي

كانت عليه فدفقت عنقها فماتت ^(١) . فكيف يتفق أن تصير ابنة جرجير لابن

الزبير ولرجل من الأنصار في وقت واحد ؟

ذلك ما نستطيع أن نستنتجه من رواية ابن عبد الحكم ، فإذا أضفنا إلى ذلك

مانلاحظه من الشك في رواية البلاذري ، إذ يسوق الرواية عن ابن الزبير نفسه ،

استطعنا أن نؤكد أن قصة قتل ابن الزبير لجرجير ، وأخذه ابنته ، وإبدائه ما يروى

من التعفف والورع والزهد . . . كل ذلك لا أصل له في الحقيقة ، ولم يكن يثق به

أئمة الرواية الأول ، وإنما دسه الدعاة أو اخترعه الرواة ^(٢) ؛ هذا فضلاً عن أن هناك

(١) ابن عبد الحكم ، فتوح ، ص ١٨٥ ؛ ويبدو على هذه الرواية روثق الصدق ، ونحوى

إلى ذلك معنى لطيفاً .

(٢) أول من أورد ذلك من المؤرخين هو ابن الأثير (+ ٦٣٠ هـ) ، ولكنها لا توجد

في المراجع التي ثبت أن ابن الأثير أخذ عنها كالبلاذري (وقد عرفنا موقعه) والطبري

(وليس فيه إشارة إلى ذلك أصلاً) والمسعودي (ولا وجود لها عنده) .

ويسوق النويري روايته عن الزهرى ، عن ربيعة بن عباد الديلي ، والزهرى هذا هو

— في الأغلب — السور بن مخرمة الزهرى الذى قص القصة الطويلة التي سبق ذكرها ،

وزعم فيها أنه لقي عثمان في المسجد ليلاً مهموماً بأمر غزاة إفريقية . . . الخ (راجع ص ٧٩ — ٨٠

من هذه الرسالة) ، وقد شككنا في روايته الأولى ، لأن ما ينسب إليه عليه مسحة الأحاديث

المكذوبة ، ولا نستطيع أن نثق فيما حكاه عن عبد الله ابن الزبير ، أما ربيعة بن عباد الديلي

الذى أخذ عنه الزهرى ، فلا وجود له في الثبوت الذى أورده النويري عن كبار رجال الحملة ،

ولا وجود له كذلك في معالم الإيمان .

أما ابن عذارى فيقلب أنه نقلها عن ابن الأثير وأضاف إليها ماسمعه من رواة عصره ، ولا بد

أن الأسطورة كانت قد كبرت وشاعت حتى أيامه كما يبدو من روايته ، ويبعد أن يكون

أخذها عن إبراهيم بن الرقيق لأنها لا توجد عند غيره ممن أخذوا عن ابن الرقيق كابن خلدون

والتيجاني والحسن الوزان (ليون الأفريقي) .

نقرأ من المؤرخين — الذين يعتمدون على الرواية اليونانية — كالمسيو توكسييه .
يشك فيما إذا كان جريجوريوس قد قتل في معركة سبيطة أصلاً^(١) .

يخلص لنا من ذلك إن ما يقال عن بطولة ابن الزير في أفريقية مشكوك فيه
جداً ، سواء من ناحية إسناده أو اتفاده مع الواقع ، وهو أقرب إلى القصص التي
لا يمكن التعميل عليها في كتابة التاريخ .

نستطيع أن نوجز وصف الموقعة مما يصح لنا ويثبت من أقوال المالكي
وابن الأثير والنويري وابن عذارى :

(١) كتب الأستاذ Tauxier في المجلة الأفريقية La Revue Africaine (سنة ١٨٨٥
ص ٢٨٤ — ٣٠٣) مقالا ذهب فيه إلى أن جريجوريوس لم يقتل في موقعة سبيطة ، اعتماداً على
قول تيوفانيس في (Chronographia ص ٢٨٥) : « هزم جريجوريوس وقتل من معه » ،
ويقول توكسييه في تحليل ذلك : « وعلى الرغم من ذلك فإنه — أي جريجوريوس — لم يرد له
ذكر في التاريخ بعد ذلك ، فلم يكن هو الذي أكمل الكفاح ولم يكن هو الذي فاوض ابن سعد
في رجوع الفزاة العرب ، إذ أقام الأفارقة مكانه جناحه Ghenaha ، واستغنوا عن الرجوع
إلى أحضان القسطنطينية ، « أما جريجوريوس فإنه بعد أن طرده رعاياه الأول من الحكم لم يعد
يمكنه البقاء في البلاد ، إذ لم يكن جناحه يسمح بذلك ، ولم يكن يفكر كذلك في القسطنطينية
خوفاً مما كان ينتظره فيها من العقاب الصارم جزاء ثورته، ولم يبق له بعد ذلك إلا أن يسلم نفسه —
بشروط — إلى الفاتحين، ومن ذلك أستطيع أن أستنتج أن الذي حدث هو أن عبد الله بن سعد
اصطحبه معه في رجوعه إلى مصر، وأدخله هليوبوليس حيث مات، وهذا هو التفسير الوحيد المعقول
لما يقال عن موت أخ هرقل في هذه المدة » . وهذا رأى خاطيء لا يعززه أي برهان ، ولو
كان جرجير مع عبد الله لما أغفل العرب ذكر ذلك لأن ذلك أمر له أهميته وخطره . ثم إن
موت جرجير في هليوبوليس ، بعد رجوع العرب بست سنوات — أي سنة ٣٣ — لا ذكر له
في الروايات ، وإذا كان تيوفانيس قد قال إن أخاً لهرقل مات في هليوبوليس في هذه السنة ،
فقد بطلت حجة توكسييه ، لأن جويجوريوس لم يكن أخا هرقل .

ثم يقول الأستاذ توكسييه بعد ذلك : ثم إن لنظريتي هذه نتيجة مباشرة، وهي رفض الأسطورة
التي يرويها مؤرخو العرب من أن ابنة لجويجوريوس أسرت أثناء موقعة سبيطة ، وقد سبق
أن أثبت المسيو دي سلان (في تاريخ البربر ج ١) أن هذه الروايات — يقصد الروايات
العربية — أخذت إحداها عن الأخرى ، وانتهى من ذلك إلى أنه لا يثق من هذه الروايات
إلا برواية ابن عبد الحكم التي يصور لنا جريجوريوس مقتولا على يد عبد الله ابن الزير .

دارت المعركة على مقربة من حصن عقوبة^(١)، إذ تقدم العرب من قونية بعد أن فشلت مفاوضاتهم^(٢)، وكان جريجوريوس مجتمعا بأعيان قومه على مقربة من باب الحصن^(٣)، يدير دفة القتال، وربما كان قد اصطحب معه ذويه وجعلهم داخل الحصن (انظر هامش ٣)، ومن هنا نشأت أسطورة ابنة جرجير، وكان جيش الروم على مبعدة من الحصن، وهناك دارت الموقعة^(٤)، وظلت المناوشات أياما حتى أجهد الفريقان، ولجأ العرب إلى الحيلة المعروفة التي تؤكدتها أغلب الروايات وتنسبها إلى ابن الزبير إذ قال: «والرأى عندي أن نترك غداً إن شاء الله أبطال المسلمين في خيامهم بخيلهم وعددهم، ونقاتل ببقايا الناس على العادة، ونطول في القتال حتى يتعب القوم، فإذا انصرفوا ورحل كل إلى مضربه وأزال لامة حربه يركب المسلمون ويحملون عليهم والقوم على غرة»^(٥)،

(١) البلاذري، فتوح البلدان؛ ص ٢٣٦

(٢) جاء في الادريسي: «قوده» ولم يرد ذكر قونية بهذا الرسم عنده ولا عند البكري، ولم يحدد موقعها أحد من الجغرافيين، وربما كانت هي الأخرى حصنا كبيرا.

(٣) عن المالكي: فانهزم جرجير ولزمه عبد الله بن الزبير في عجاج الموت، ففره بمن معه من أشراف قومه، ففرت عنه أصحابه وقتله إلى جانب السور، وابنته تنظر من السور (ورقة ٣)

(٤) يذكر ابن عذارى رواية عن عبد الله بن الزبير: «واتبعوني حتى خرقت صفوفهم (أي صفوف الروم) إلى أرض خالية فضاء بيني وبينهم، فاحسب إلا أني رسول إليه».

وبقية كلام ابن الزبير مشكوك في صحته، لأنه يفهم منه أن ابن الزبير قتل جرجير أمام جمع كبير من المسلمين، ولم يقل بذلك حتى النويري نفسه، إذ المقول أنه قتله في وسط المعركة، ولم يره إلا ابنة جرجير التي كانت تنظر من السور.

(٥) النويري، نهاية الأرب، ورقة ٦٥ (١)

وسباق حديث النويري يدل على أن الصفاء لم يكن متبادلا بين ابن سعد وابن الزبير، إذ أنه لبث أياما بعد وصوله من المدينة لا يرى ابن سعد ولا يحفل له (ورقة ٦٤ أ)، وماذا نفهم من قول ابن الزبير: «أصلحك الله ماقتله لما شرطت، والذي قتلته له يعلم ويمجأزى عليه أفضل من جزائك ولا حاجة لي في غير ذلك»؟ (ورقة ٦٥ ب)، وقد روى ابن عذارى ما يدل على ذلك، إذ جرى ذكر خمس خراج إفريقية — الذي أعطاه عثمان مروان بن الحكم — في مجلس معاوية، فقال ابن الزبير: «خرجنا مع عبد الله بن أبي سرح إلى إفريقية (ولم يكن) =

وظاهر أن ذلك لم يحدث إلا بعد قدوم عبد الله ابن الزبير^(١) وأصحابه من المدينة ، إذ تحمس المسلمون وبدأوا الموقعة ، ومن المعقول أن يكون ابن الزبير قد أبلى فيها بلاء حسناً ، « فقاتل الروم مع المسلمين إلى الظهر قتالاً شديداً ، فلما أذن الظهر هم الروم بالانصراف على العادة ، فلم يتمكنهم ابن الزبير وألح عليهم بالقتال حتى أتعبهم ، ثم عاد عنهم هو والمسلمون ، فالتقى كل من الطائفتين سلاحه ووقع تعباً ، فعند ذلك أخذ عبد الله بن الزبير من كان مستريحاً من شجعان المسلمين ، وقصد الروم ، فلم يشعروا بهم حتى خالطوهم وحملوا حملة رجل واحد ، وكبروا فلم يتمكن الروم من لبس سلاحهم حتى غشيهم المسلمون ، وقتل جرجير — قتله ابن الزبير ، وانهزم الروم — وقتل منهم مقتلة عظيمة »^(٢) .

= أحسننا وجهاً ولا أكثرنا نفقة ولا أعظمتنا .. » (البيان المغرب ص ٨) والنص غير كامل ، وهذا الرأي يتعارض بالطبع مع ماورد في الخطبة التي تنسب إلى ابن الزبير عن فتح إفريقية ، التي يثنى فيها ابن الزبير على عبد الله ابن سعد ثناء طيباً ، وهي ظاهرة الإنتحال — أنظر نص الخطبة في العقد الفريد لابن عبد ربه ، ح ٢ ص ١٨١ — ١٨٢ .

(١) أخطأ جيون فذكر أن الزبير بن العوام هو الذي اشترك في فتح إفريقية والصواب ابنه ، وأخطأ كذلك غرف عبد الله بن سعد إلى عبد الله ابن سعيد ، وقد سلم جيون بقصة ابنة جرجير ، بل أضنى عليها من يئانه حلة روائية فقال : « وقيل إن ابنة جرجير ، وهي غادة نادرة الجمال ، كانت تقا تل إلى جانبه ، وكانت منذ نعومة أظفارها مدربة على ركوب الخيل ، وعلى الرمي بالسهم ، والطنن بالسيف القصير ، وكانت الحلى في ذراعيها ... ظاهرة بارزة في معمة القتال ، وقد ذهب جيون إلى أن عبد الله غادر ميدان القتال بعد أن ألح أصحابه عليه في ذلك (كذا) ، وأن العرب وهنت عزيمتهم بعد انسحاب قائدهم وبعد هذه المناوشات المتشابهة الفاشلة » ، وكل هذا غير صحيح كما نعلم ، وبقية روايته مليئة بالأخطاء ، وقد أضاف هو من عنده شيئاً كثيراً Gibbon : Decline..., II pp. 760 - 373 . ومن الثابت أن جيون أخذ تاريخ فتح إفريقية عن كتاب Cardonne, Histoire de l'Afrique et de l'Espagne sous la domination des Arabes . ومن الترجمة الناقصة التي قام بها أوتر Otter لتاريخ التويرى ، والكتاب الأول كثير الأخطاء ، ويشك الأستاذ فورنل في أنه اطلع على المصادر التي يقول إنه اطلع عليها ، وقد ظل موضع الثقة نحواً من ثلاثين سنة حتى اتضح خطؤه ، فانصرف عنه أكثر المؤرخين . راجع رأى فورنل في كاردون وجيون وأوتر

في Les Berbères I, pp. VI, VI

(٢) ابن الأثير ، ح ٣ ص ٣٤

فلما أن تأكد الروم أن الدائرة عليهم استداروا وعادوا نحو الحصن مسرعين
يبيغون الاعتصام خلف أسواره من العرب الذين كانوا يتتبعونهم بالسيوف ، ويظهر
أن خيل العرب سبقت مقاتلة الروم إلى باب الحصن ، « فخالوا بينهم وبين الدخول
إلى حصنهم ، فركبهم المسلمون يميناً وشمالاً ، في السهل والوعر ، فقتلوا فرسانهم
وأنجادهم » ^(١) . فسقط الحصن بمن فيه (وفيهم آل جرجير وابنته — لو كانت
له ابنة) .

تقدم العرب بعد ذلك إلى سَبَيْطَلَة ^(٢) نفسها ، وهي على مقربة من عقوبة ،

(١) رياض النفوس ، ورقة ٣ ، ولا يبعد أن تكون خيل العرب قد أدركت جرجير ومن
معه وهم على مقربة من الحصن فقتلوه .

(٢) تقع سبَيْطَلَة في وسط سهل تونس على وجه التقريب ، على أحد فروع نهر مجرد ،
وكانت الطرق الحربية الرومانية ثم البيزنطية تصلها بكل الدائن الكبرى والمسالح والمخارس التي
كانت تملأ ذلك السهل ، وكانت تقع على الرباط الثاني — الذي يبدأ عند الساحل عند مضمداس
الصغرى ، ثم يمر بها فسيبية فالأربس فالكف ثم إلى البحر شمالاً . وكانت لها قلعة حصينة بنيت
في القرن الرابع (راجع رسمها في ديل ص ٢٩٣) ، وقد بدأت أهميتها تظهر منذ ذلك القرن حين
استولى البربر على الرباط الأول (قنصه — تلبت — نفست — أمايدرا) وأصبحت الدولة
تمول على الرباط الثاني الذي تعد سبَيْطَلَة من أمنع حصونه Georgii Chiprii, 35
Diehl. op. cit. p. 279 . ولما انتشرت المسيحية في أفريقية ، لم تلبت سبَيْطَلَة أن أصبحت أسقفية
يقم فيها أسقف ، وبنيت فيها كنيسة كبيرة (ديل ص ١٥ و ٤٢٨) ، وقد بقيت حصونها
على منعتها وحالها حتى الفتح العربي . ولما كان جرجير يوروس قد ثار بالدولة واستقل عنها ، لم يكن
له بد من التمويل على عون البربر وحلفهم ، وكان يخشى الروم ، فرغب عن المقام بقرطاجنة لقربها
من البحر وسهولة إدراكها بالأساطيل ، فأنحاز إلى الداخل ، وتخير سبَيْطَلَة إذ كانت قد أصبحت
أعظم مدن السهل الداخلية بعد تهدم أسوار نفست — أمنع مدن الأقليم — من كثرة ما دار
بها من الحرب ، وهناك لبث حتى وافاه العرب ؛ وكانت المدينة في ذلك الوقت — كما يقول
ديل — غنية وكبيرة: Diehl, op. cit. p. 557 ؛ وقد ذكرها « شو » في « رحلاته » ورأى
أطلالها ، وحدد موضعها جنوبي قرطاجنة بمائة وخمسين ميلاً ، وذكر أنها تشرب من مجرى
وفير المياه ، وأنها تختفي خلف غابة من الأشجار السامقة ، وذكر كذلك أنه رأى فيها أطلال
قوس نصر وثلاثة معابد ذات أعمدة كورنثية الطراز : أفنر Shaw : Travels in Morocco
p.p. 118-119 جاء ذكرها في جغرافية أبي الفداء ، إذ قال عنها « سبَيْطَلَة كانت كرسى
مملكة أفريقية في القديم ولها آثار عظيمة تدل على ذلك : (طبعة Reinaud ص ١٤١) وذكر =

فحصروها حصراً شديداً حتى سقطت في أيديهم ، فأصابوا فيها خلقاً كثيراً ، وأكثروا
أموالهم الذهب والفضة »^(١) .

أصبحت ولاية إفريقية كلها تحت رحمة العرب بعد هذه الموقعة ، فأخذوا
ينهبون ما يجدونه حتى جمعوا غنيمة طائلة ؛ ويظهر أنهم لم يغادروا ناحية إلا وصلوها ،
وبلغوا سفوح الجبال حيث ترعى قطعان البربر ، فاستاقوا كثيراً من الماشية^(٢) ،
 واجتمع للعرب من ذلك كله ثروة طائلة قسمت على المقاتلين بعد أن خُصِّتْ ،
 فكان سهم الفارس ثلاثة آلاف دينار ، وسهم الراجل ألف دينار^(٣) .

تفرقت قوة الروم بعد واقعة سببلة ، وانحاز أغلب المهزيمين إلى الشرق
في حصن « الجَم »^(٤) جنوبي الموقع الذي بنيت فيه القيروان بعد ، وهناك تراحت

انتصار
المسلمين

== دى ثرجير أن السير جرانفل تمبل زار أطلالها حوالى سنة ٨٤١ م ورأى فيها قوس نصر
وثلاثة معابد وحمامات وحوض ماء من زمن Auralius Verus وأعمدة رؤسها مصنوعة بعناية
وأرضية بالسيفاء مما يشهد بعظمتها الحالية Des Vergiers. p. 3 وقد جاء في الأدريسى عنها
« كانت مدينة جرجيس ملك الروم الأطارفة ، وكانت من أحسن البلاد منظراً وأكبرها قطراً ،
وأكثرها مياهاً وأعدلها هواء ، وأطيبها ثرى ، وكانت فيها بساتين وجنان ، وافتتحها المسلمون
في صدر الإسلام ، وقتلوا فيها ملكها العظيم المسمى جرجيس ، ومنها إلى مدينة فقهه مرحلة
وبعض ، ومنها أيضاً إلى القيروان ٧٠ ميلاً : الأدريسى ، ص ١١٥

(١) النويرى ، ورقة ١٦٦ (٢) البلاذرى ، فتوح ، ص ٢٢٧

(٣) ابن عبد الحكم ، فتوح ، ص ١٨٤ — ابن الأثير ، ج ٢ ص ٣٥ — والنويرى ،
نهاية الأرب ، ورقة ٦٥ (ب)

(٤) الجَم (الأجم — العجم — الأعجام) كانت معروفة أيام اليزنطيين باسم
Thysderas وكانت مركزاً حريباً هاماً طوال العصر اليزنطى إذ كان يجتمع عند حصنها عدد
عظيم من الطرق الحربية ، وينهب ديل إلى أنها كانت لا تزال على جانب كبير من المتعة في القرن
السابع Diehl, op. cit. pp. 415, 535 وقد وصفها التيجانى في رحلته بقوله : « هو أعظم
حصون إفريقية وأشهرها على القوم ، وليس بعد الحنايا التى بالقرطاجنة بناء أضخم منه وأعجب ،
وشكله مستدير ، وارتفاعه فى الهواء مائة ذراع ، وذكر البكرى أن تكسير دائرته فى الأرض
ميل : رحلة التيجانى ، ورقة ٢٣ (١) . وقال كودل إن قصر العجم (الذى تجتمع فيه الروم)
إن هو إلا الملعب الرومانى الذى كانت مساحته العظيمة تشغل المساحة التى تشغلها قرية الجَم
الحالية Caudel op. cit. II, pp. 72-79

جموعهم داخل بناء كبير حصين — يظن أنه حصن بيزنطى ، ويذهب كودل إلى أنه الملعب الرومانى — فأسرع ابن أبى سرح وحاصر الحصن بمن فيه .

فى ذلك الحين كان جند العرب يجتاحون البلاد بهمة عظيمة ، ويستاقون كل من يجدونه أسيراً ، ويصيبون كل ما يظفرون به فى المدن غنيمة ، « فلما رأى ذلك رؤساء أهل إفريقية ، طلبوا إلى عبد الله بن سعد أن يأخذ منهم مالا على أن يخرج من بلادهم ، فقبل منهم ذلك ، ورجع إلى مصر ولم يول عليهم أحداً ، ولم يتخذ بها قيرواناً » (١) .

لماذا عجل عبد الله بن سعد بالعودة ؟ ولماذا قبل أن يتخلى عن كل ما كسبه بعد هذا القتال العنيف لقاء مبلغ من المال ؟ أكانت هذه القدية العظيمة هى كل ما قصد إليه من وراء هذه الحملة الخطيرة ؟ أم كان يرجو أمراً بعد ذلك ولكن أحداثاً اضطرتة إلى التعجيل بالعودة ؟ هنا نجد فى رياض النفوس بضعة أسطر تلقى بعض الضوء على هذه المسألة الغامضة ؛ يقول المالكي : « وأقام ابن أبى سرح وهو أمير سبيطلة على عسكره ، فلما رأى الروم الذين بالساحل ما حل بجرجير وأهل سبيطلة ، غارت أنفسهم ، وتجمعوا ، وكاتب بعضهم بعضاً فى حرب ابن أبى سرح ، فخاف منهم لما معه من الغنائم ، فكتب إلى خليفته بمصر يأمره أن ينفذ إليه سراكب فى البحر ، يجعل فيها غنائم المسلمين ، فأخذ خليفته فيما أمره به ، فاتصل بالروم قصد ابن أبى سرح إياهم . . . لحربهم ، فخافوا وراسلوه ، وجعلوا له جُعلاً على أن يرتحل بجيشه ولا يعترضوا بشيء ، ووجهوا إليه مائة قنطار ذهباً ، فأجابهم إلى ذلك وانصرف عنهم راجعاً إلى مصر ، بعد أن أقام بإفريقية سنة وشهرين ، فلما وصل إلى طرابلس واقفه المراكب ، فحمل فيها أثقال جيشه ، ونفذ هو وأصحابه إلى مصر سالمين » (٢) .

تعجيل
المسلمين
بالعودة ،
وأسباب
ذلك

(١) ابن عبد الحكم ، فتوح ، ص ١٨٤ ، ولا اختلاف بين المؤرخين فى ذلك .

(٢) رياض النفوس ، ورقة ٤ — ونقلها عنه ابن الناجى فى معالم الأيمان ، ج ١ ص ٣٨ — ٣٩

قبل تحليل هذه العبارة ينبغي أن نلاحظ بضعة أشياء :

أولها — أن موقعة سبيطة لم تفتح أمام العرب كل سهل تونس بل جزءاً محدوداً منه يحدده الخط الممتد من سبيطة نفسها إلى سوسة من الشمال ، ثم من سبيطة إلى قفصة جهة الشرق ، وشريط ساحلي ضيق محصور بين قابس وشط الجريد من الجنوب ، وبلى ذلك في الشمال بلاد واسعة ملأى بالحصون والساحل والمخارص ، على اتصال دائم بالبحر ، تستطيع أن تقاوم مقاومة عنيفة ، وربما خاف المسلمون — إن هم تقدموا شمالاً — أن ينحدر البربر بجمعهم من الغرب فيحصرهم من الجنوب فيقعوا بين نارين ، وربما انتهى الأمر بهزيمتهم^(١) ، فانتصار عبد الله ابن أبي سرح في سبيطة لا يمكن أن يسمى فتحاً لإفريقية ، وكان لا بد لإكمال هذا الفتح من السير إلى الشمال والاستيلاء على قرطاجنة^(٢) .

وثانيها — أن جيش المسلمين قد قضى حتى هذه الواقعة خمسة عشر شهراً في إفريقية ، وأنه جمع خلال تلك المدة من الغنائم شيئاً كثيراً جداً^(٣) ، كان موضع

(١) وسيحدث هذا مراراً فيما يلي ذلك من فتوح أفريقية .

(٢) تشبه هذه الواقعة واقعة عين شمس في فتح العرب لمصر ، ولا يمكن أن يقال إن مصر فتحت عقب الموقعة المذكورة ، ولو أن عمرأ انصرف عقب انتصاره في عين شمس لكانت حملته كأن لم تكن .

(٣) في ذلك يقول كودل : « ويدهش الإنسان من كثرة ما أصاب الجندي الواحد من الغنيمة ، ولكن ينبغي أن نذكر جيداً أن هؤلاء الرجال (أي جند المسلمين) ظلوا طوال بضعة أشهر ينتقلون من قرية لقرية ، ومن مدينة لمدينة ، يجمعون — بما عرف عنهم من العناية الفارغة بهذا العمل — كل ما استطاعوا حمله ، ولا بد أن المحصول كان كبيراً ، بحيث فكر عبد الله في التراجع مباشرة حين لاحظ له مخايل المقاومة التي أبدتها أهل الساحل »
Caudel, op. cit. II p. 77

ولم يزد كودل في تعليقه على الحملة كلها على أن اعتبرها غارة للسلب والنهب ، لا مقصد وراءها ولا غاية ترمى إليها ، « ... ولم تعد للجندي العربي — وقد أغناه ما غنم — رغبة في الحرب ، ولم يعد يفكر إلا في الرجوع ، وكان القادة يميلون هذا الميل كذلك ، قم الاتفاق مع الأهليين =

الدهشة عند كل الرواة ، ولا نزاع في أن الجند كانوا يحرسون أشد الحرص على ما يصيبون من غنيمة ، فلا يبعد أن تكون كثرة الغنائم قد مالت بهم إلى العودة إلى بلادهم ، وأنهم خافوا أن يفاجئهم الروم أو البربر فيسلبوا منهم ما غنموا .

وثالثها — أن الوثام لم يكن سائداً بين قادة هذا الجيش ، وقد لاحظنا شيئاً من التوتر بين عبد الله بن الزبير وعبد الله بن سعد ، كلاهما يحاول السيطرة على الآخر وقيادة الجند^(١) ، وتستجد أن ابن أبي سرح لم يكذب يتم له النصر حتى بعث عبد الله بن الزبير ليشرح عثمان بالفتح ، وربما أراد بذلك أن يتخلص منه ، فإذا أضفنا إلى ذلك ما سبقت الإشارة إليه من عدم ثقة ابن أبي سرح بمن معه ، وتخوفه منهم ، استطعنا أن نفهم سبباً من أسباب هذه العودة المفاجئة .

ورابعها — أن جيش العرب كان صغيراً ، كان عشرين ألفاً في بادئ الأمر ، ولا بد أنه تناقص كثيراً بعد هذه الوقائع والمناوشات ، ولم تصله أمداد إلا النفر القليل الذي أقبل مع عبد الله بن الزبير . وإذا كان المسلمون قد طال تخوفهم قبل موقعة سبيطلة ، « ودخل ابن أبي سرح فسطاطه مفكراً » ، فلا بد أن قوة الجيش الإسلامي كانت قد ضعفت جداً بعد هذا الكفاح الشديد .

وخامسها — أنه لا يبعد أن تكون حاميات المدائن والمسالخ قد تواصلت وتفاهمت على أن تنهض لمقاومة ابن أبي سرح ، وربما جأهم على ذلك ما رأوا من قلة عدد المسلمين .

== الذين فضلوا دفع ضريبة على أن يدخلوا مع العرب في قتال ، فإذا ما دفع المبلغ ، شرع الجيش في العودة ، وبهذا انتهت حملة العرب الأولى على أفريقية. Caudel, op. cit. II, p. 78. وراجع كذلك Fournel, op. cit. I, pp. 127, 128 والغالية ممن تناولوا الكلام على هذه الفزوة من الأفرنج على هذا الرأي .

(١) خصوصاً إذا صدقت رواية الطبري التي يذهب فيها إلى أن عامة الجند كانوا ساخطين على عبد الله بن سعد ، وأنهم طلبوا إلى عثمان أن يعزله عنهم (بعد موقعة سبيطلة) فأجابهم إلى ذلك : « قالوا : فاعزله عنا فإننا لا نريد أن يتأمر علينا وقد وقع ما وقع » : الطبري، ج ٥ ص ٤٨

سادساً — أن ابن أبي سرح كان قد طالت غيبته عن عاصمة ولايته مصر ، ولا شك في أنه كان يميل بعد ذلك إلى الرجوع للنظر في أمورها .

إذا ذكرنا ذلك كله لم نستبعد أن يكون فيما قاله المالكي بعض الحق ، نعم أن قوله إن ابن أبي سرح بعث إلى خليفته بمصر يطلب منه سفناً يحمل فيها غنائم المسلمين لا يؤيده مصدر آخر ، ولكنه معقول ، وقد يكون ابن أبي سرح قد أراد أن يطمئن الجند على مصير غنائمهم ، فأرسل يطلب سفناً يحمل عليها الغنائم ، حتى لا يخاف الجند أن يفاجئهم الأعداء فيغصبوهم إياها ، بل لا نستبعد كذلك أن يكون ما ذكره المالكي هو التعليل الوحيد المعقول لهذه العودة السريعة التي لا تبررها مقدمات الحملة ، وما كان يرجى من ورائها من عظيم الأمر .

على أي الأحوال تتفق الروايات على أن عبد الله بن سعد صالح الروم وأهل البلاد على أن ينصرف عن بلادهم لقاء مبلغ من المال ، يقدره البعض بألف وخمسمائة ألف دينار^(١) ، ويقدره البعض الآخر بثلاثمائة قنطار من الذهب^(٢) . وأضاف النويري إلى شروط الصلح بين الجانبين قوله : « وكان في شرط صلحهم أن ما أصاب المسلمون قبل الصلح فهو لهم ، وما أصابوه بعد الترداد ردوه عليهم^(٣) » ، وهي ملاحظة على جانب عظيم من الأهمية ، إذ تدل على أن ابن أبي سرح

(١) ابن الأثير ، ج ٣ ص ٣٥ ، والساوى ٣٥ — ٣٦ قدر دي سلين الدينار في ذلك الحين

بعمرة فرنكات والدرهم بعشرة سنتيمات Journ. Asiat. 1858

(٢) النويري ، نهاية الأرب . ورقة ٦٦ (١) ، وكذلك فضل ابن الناجي في معالم الإيمان إذ ذكر الثلاثمائة قنطار من الذهب وقال إنها تساوي ١٥٠٠٠٠٠ دينار ، ثم عاد فنقض نفسه فقال إن الخمس بلغ ٤٠٠٠٠٠ دينار ، مما يجعل المبلغ نحو ٢٠٠٠٠٠٠٠ دينار — معالم الإيمان ، ج ١ ص ٣٣ ؛ وذكر ديل أن الروم صالحوا العرب على ثلاثمائة تالان Talent من الذهب ، مما يفهم منه أن القنطار المذكور هنا يساوي تالان Diehl op. cit. p. 560 وقد حاول ياقوت أن يقدر القنطار بأن قسم قيمة الغنيمة بالدنانير على قيمتها بالقناطير ، فوفق في ذلك ، وقدر القنطار بثمانية آلاف وأربعمائة دينار ، وهو رقم قريب من الصحة (الصحيح ٨٣٣٣) ياقوت ج ١ ص ٣٢٥

(٣) النويري ، نهاية الأرب ٦٦ (١)

حرص على أن يستبقى ما فتحه من البلاد ، ولعل النويرى ينفرد بذلك عن غيره من المؤرخين ، وربما كان عبد الله بن أبي سرح قد صالح أهل البلاد على ذلك ولكنه لم يتخذ الإجراء الذى يكفل له تنفيذ هذا الشرط ، فلم يترك خلفه حاكماً ولا حامية ولا قيرواناً ، فأصبح أهل البلاد فى حل من أن يستردوا ما أخذ منهم ، وهكذا فعلوا .

وكان عبد الله بن سعد قد سارع بإرسال عبد الله بن الزبير إلى المدينة ليحمل البشارة بالفتح إلى عثمان ، فيقول بعض الناس : « دخل المدينة من سبيطة في عشرين ليلة ، وبعضهم يقول وافي المدينة في أربعة وعشرين يوماً ، ولا يستغرب ذلك من مثله ^(١) » .

بقيت مسألة لا بد من الوقوف عندها لحظة قبل الفراغ من أمر هذه الحملة ، وهى بحث الرواية التى تذهب إلى أن عثمان أعطى خمس فى إفريقية إلى مروان ابن الحكم ، وإلى أن هذا كان من الأمور التى أخذت على عثمان . نجد تفصيل هذه المسألة فيما رواه الطبرى ^(٢) عن تاريخ فتح إفريقية ، وإليك روايته : « كتب إلى السرى عن شعيب عن سيف عن محمد وطلحة . . . وقال — أى عثمان — لعبد الله بن سعد : إن فتح الله عز وجل عليك غداً إفريقية ،

(١) النويرى ، نهاية ، ورقة ١٦٦ ويذكر المونس (ص ٢٤) أنه بلغها فى خمسة وعشرين يوماً ، وذكر ابن الناجى (معالم الأيمان ، ص ٣٤) أنه بلغ المدينة فى ثمانية عشر يوماً ، وهو مبالغ فيه . وقد ذكر ابن الأثير أن أبا ذؤيب الهذلى الشاعر كان فى صحبته ، فأتى الشاعر فى طريقه إلى المدينة — ابن الأثير ، ج ٣ ص ٣٥

وقد أورد ابن عبد ربه نص الخطبة التى ألقاها عبد الله بن الزبير فى المدينة ، يصف فيها فتح إفريقية ، ونلاحظ أنه ليس فيها إشارة إلى قتله جرجير أو إلى إشارته على عبد الله بن سعد بالخطبة التى اتبعت فى موقعة سبيطة ، ويشير فيها إلى استيلاء مروان بن الحكم على الفتيمة كلها ، وأول الخطبة وآخرها يدل على أنه قد دخلها تحريف وزيادات كثيرة ، وعليها كلها مسحة الأحاديث الموضوعة . المقد الفريد لابن عبد ربه ، ج ٢ ص ١٨١

(٢) وفى رواية الطبرى لحادث هذه الغزوة خطأ كبير ، ولنا سبيل مناقشة روايته ، ولكن المسألة التى نعرض لها الآن تعد من ذبول فتح إفريقية التى تتصل بتاريخ الدولة كلها ، فيحسن الاعتماد عليه فيما يتصل بها .

فلك مما أفاء الله على المسلمين خمس الخمس من الغنيمة نفلاً . (ثم يقص قصة الفتح بإيجاز لا يخلو من خطأ) وقسم عبد الله ما أفاء الله عليهم (على الجند) ، وأخذ خمس الخمس ، وبعث بأربعة أخماسه إلى عثمان ، مع ابن دثيمة النضرى ووفد وفد ، فشكوا عبد الله فيما أخذ ، فقال لهم أنا نفلتهم ! ، وكذلك كان يصنع — أى عثمان — وقد أمرت له بذلك ، وذلك إليكم الآن فإن رضيتم فقد جاز وإن سخطتم فهو رد ، قالوا فإننا نسخطه ، قال فهو رد ، وكتب إلى عبد الله برد ذلك واستصلاحهم . قالوا : فأعزله عنا فإننا لا نريد أن يتأمر علينا وقد وقع ما وقع ، فكتب إليه أن استخلف على إفريقية رجلاً ممن ترضى ويرضون ، واقسم الخمس الذى كنت نفلتك فى سبيل الله ، فإنهم قد سخطوا النفل ، ففعل ، ورجع عبد الله بن سعد إلى مصر وقد فتح إفريقية وقتل الأجل (أى البطريق^(١)) يفهم من هذه الرواية أن هذه الشكوى رفعت إلى عثمان وعبد الله ما زال فى إفريقية ، فمن يكون الخبر قد بلغ أهل المدينة وأسخطهم إلا من عبد الله ابن الزبير ومن وفد معه بأخبار الفتح ؟ لقد رأينا أن الود لم يكن معقوداً بين ابن الزبير وابن أبي سرح فى إفريقية ، ورأينا الأول يُقبل على معسكر المسلمين فلا يسلم على القائد ، ثم يخاطبه فى لهجة لا تخلو من شدة ، ورأينا ابن أبي سرح لا تكاد تسنح له الفرصة للخلاص من ابن الزبير حتى يسارع فيرسله إلى المدينة^(٢) ولا حظنا كذلك أن ابن الزبير لم ينس فى آخر خطبته أن يقول إن مروان بن عبد الحكم صفق على غنائم الحملة كلها^(٣) .

(١) الطبرى ، ج ٥ ص ٤٨ فى حوادث سنة ٢٧ هـ

(٢) لو أن الصفاء كان معقوداً بين الرجلين لكان ابن أبي سرح أحرص على أن يستبق ابن الزبير لأنه كان ممن لا يستغنى عنهم .

(٣) ولا عبرة بالثناء العريض الذى تخلمه الخطبة على ابن أبي سرح ، لاذ يظلم أن ذلك من تكلف الوضع ، ولا يتفق مع ما سبقت الإشارة إليه من حديث ابن الزبير عن ابن أبي سرح فى مجلس معاوية — راجع ابن عذارى ، البيان المغرب ، ج ١ ص ٨

فإذا أضفنا إلى ذلك أن المراجع تتفق على أن عبد الله بن عباس^(١) هو الذي قسم غنائم الحملة بين الجند ، — وعبد الله بن عباس رجل له مقامه ولا شبهة في دينه ونزاهته — تبين أنه من المستبعد أن يستطيع ابن أبي سرح أن يؤثر فيه وأن يجعله ينحرف هذا الانحراف ؛ وكيف يتفق لمروان بن الحكم أن يصفق على الغنائم كلها في حين يقوم بتقسيمها عبد الله بن عباس ؟ وأين شكوى هذا الأخير وهو أحق الناس بالشكوى والاعتراض ؟ ثم إن لدينا رواية أخرى لابن عبد الحكم ساقها عن راوية لا يرقى إلى صدقه شك وهو ابن لهيعة ،^(٢) تدل على أن توزيع النفي كان يجري بغاية الدقة والنزاهة ، فكيف يتفق هذا مع ما حدث وشاع ذكره من إساءة التصرف في غنائم الحملة وأخذ عبد الله بن سعد خمس الخمس لنفسه ؟

بيد أن وعد عثمان لعبد الله بن سعد بأن يعطيه خمس الخمس نفلاً يحتاج إلى شيء من الإثبات ، لقد رواه مع الطبري ابن الأثير وأبو المحاسن والسلاوي ،^(٣) ويغلب أن يكون هؤلاء قد أخذوه عنه ، ولكنه لم يرد عند البلاذري وابن عبد الحكم ، ولا وجود له كذلك عند من لم يأخذ عن الطبري كالنويري وابن عذارى والمالكي والديباغ والباجي ، فكيف غاب أمره عن كل هؤلاء على ما له من الأهمية وبعيد الخطر ؟

قد تكون أموال إفريقية قد نالها العبث حين انتهت إلى المدينة ودخلت بيت المال — وكان يقوم عليه مروان بن الحكم — وقد يكون هذا من الأمور

(١) النويري ، نهاية الأرب ، ورقة ٦٢ (١) — الباجي : الخلاصة النقية ، ص ٧
(٢) فكانت غنائم المسلمين يومئذ — كما حدثنا عبد الملك ابن مسلمة عن ابن لهيعة عن أبي الأسود عن أبي أويس — كان أبو الأسود مولى لنا قال : قسم لرجل من الجيش توفي بذات الحمام فدفن إلى أهله بعد موته ألف دينار ، ابن عبد الحكم فتوح ، ص ١٨٤
(٣) ابن الأثير ، ج ٣ ص ٣٤ — أبو المحاسن ، النجوم الزاهرة ، ج ١ ص ٦٩ — السلاوي ، ص ٣٦

التي أخذت على عثمان وكانت سبباً من أسباب سخط الناس عليه ؟ وتعليل هذا أن عثمان كان رجلاً مسناً لا يكاد يفطن إلى عبث مروان ، وقد يكون قد تهاون في الرقابة على بيت المال حتى أصاب منه آل الحكم نصيباً وافراً ، ولكن يستبعد أن يكون عثمان قد وعد — بلسانه — أن ينفل ابن أبي سرح مالا هو أعلم الناس أنه مال المسلمين كافة .

وإذا ذكرنا عظم الغنيمة التي أصابها المسلمون من إفريقية . لم نستبعد أن يشك الناس في أن قسم هذا الفء قد سار بالقسطاس ، بل لا نستبعد أن يخنق ابن الزبير على ابن أبي سرح ذلك وينشره بين الناس ليثير سخطهم عليه ، وكان كل ما يقال عن عثمان وولاته يصدق في هذه السنوات .

ولا شك أن الناس افتروا على عثمان بالباطل أضعاف ما أتى ، ولا نزاع في أن جو المدينة كان يرحب في هذه الأيام (أواخر سنة ٢٧ هـ) بكل ما يقال عن عثمان ، ومن هنا لا نستبعد أن يكون ابن الزبير الساخط قد لقي في المدينة نفراً من الساخطين على عثمان ، فاجتمع سخطه إلى سخطهم ، فنشأت هذه الفرية ونمت ، وانتشرت على عثمان وعامله في مصر وإفريقية^(١) .

دامت هذه العزوة خمسة عشر شهراً . إذ بدأت — باتفاق الرواة — سنة ٢٧ هـ^(٢) ، ولا بد أنها انتهت في سنة ٢٨ هـ (٦٤٧ — ٦٤٨ م) ، فإذا صدق

(١) ثم إن من أوردوا هذه الرواية يختلفون فيما بينهم : فيقول أبو المحاسن : « وصالحه بطريقها على ألف دينار ، فأطلقها عثمان كلها في يوم واحد في آل الحكم ، ويقال في آل مروان » ويفهم من هذا أن العبث بأموال إفريقية إنما حدث بعد أن وردت الأموال إلى بيت المال في المدينة — أبو المحاسن ، النجوم الزاهرة ، ج ١ ص ٦٩

(٢) ابن عبد الحكم ، فتوح ، ص ١٨٧ — الطبري ، ج ٥ ص ٤٨ — ابن الأثير ج ٣ ص ٣٤ — التويري ، ص ٢٢ (١) — معالم الإيمان ، ج ١ ص ٣٠ — النجوم الزاهرة ، ج ١ ص ٦٩

ما ذكره النويرى من أن ارتحال الجيش عن المدينة كان في المحرم من سنة ٢٧ هـ ، كان وصول الجيش إلى إفريقية في ربيع الأول في هذه السنة ، وتكون موقعة سبيطة قد دارت في أوائل سنة ٢٨ هـ ، لأن المسلمين طال انتظارهم قبل الموقعة . لم يوفق عبد الله بن سعد فيما قصد إليه من فتح إفريقية ، ولم تزد حملته على غارة طال أمدها وكثرت أحداثها ، ولكنها انتهت دون أن تخلف وراءها أثراً كبيراً ، ولعل الرجل أحس بعد سبيطة أنه غير مستطيع فعل شيء بعد ذلك إلا إذا وصلته إمدادات جديدة يستطيع تثبيت الفتح بها ، فلما تأكد أن عثمان لم يستطع أن يمدّه بما يريد بعد أن سكت عنه هذا الزمن الطويل ، أحب أن يتراجع بانتظام ، وكان يخشى الخشية كلها أن يقوم انسحابه حجة عليه وعلى عثمان في نظر العرب ، فاشتط في طلب المبلغ الذى يدفع إليه لكي يحمل إلى المدينة مبلغاً طائلاً من المال يدل به على أن الحملة وفقت أعظم توفيق ، فلما أجابه الأفارقة إلى ما طلب عجل بالعودة وهو آمن نقد الناس ، واثق من أن جنده سيرضون عنه ويلقون في روع العرب بعد عودتهم — أن حملة إفريقية كانت من أعظم الحملات وأوفرها غلة .

عاد عبد الله إلى المدينة محملاً بالفنائم ، فحسب الناس أن إفريقية قد تم فتحها ، وتناقلوا هذا الخبر ودونه الرواة ، فاتفقت كلمة المؤرخين على أن فتح إفريقية كان على يد عبد الله بن سعد بن أبي سرح ، وهذا خلاف الواقع كما سبق بيانه ، إذ لم تكن حملة عبد الله إلا غارة طويلة كثيرة الأحداث وافرة الغنيمة . عاد العرب

= وينذكر السلاوى أن عثمان أمر عبد الله بالسير إلى إفريقية سنة ٢٦ هـ فيكون المقول أنه بدأ هذه الغزوة في سنة ٢٧ هـ وعاد إلى مصر في أوائل سنة ٢٨ هـ . أنظر الاستقصاء للسلاوى ص ٣٥ وقد تردد البلاذرى بين سنوات ٢٧ و ٢٨ و ٢٩ فقال « ثم عزم — عثمان — بعد أن استشار ، وكتب إلى عبد الله في سنة ٢٧ هـ ، ويقال سنة ٢٨ ويقال سنة ٢٩ بأمره بغزوها ، فتوح البلدان ، ص ٢٢٦ . وقد فعل ذلك ياقوت ، وربما أخذه عن البلاذرى — معجم البلدان

ج ١ ص ٢٠١

منها فعادت البلاد إلى ما كانت عليه : مات جرجير فأقام الروم على أنفسهم والياً مكانه ، ثم كانت الأحداث التي عصفت بالبلاد العربية عقب موت عثمان ، فتأخر إتمام الفتح إلى أيام معاوية بن أبي سفيان ، فإذا كانت حملة ابن أبي سرح لم تخلف في إفريقية إلا أثراً باقياً في أذهان أهل البلاد ، لعفت عليه السنوات الثلاث عشرة التي ستنتقضي قبل أن تطأ خيل المسلمين بلاد إفريقية مرة أخرى .

obeykandi.com

المحاولات الأولى (ب)

حملة معاوية بن حديج سنة ٤٥ هـ - ٦٦٦ م

كان لا بد أن تؤثر فتنة عثمان وما تلاها من الأحداث في نشاط الفتوح الإسلامية ، إذ لم يكن من الميسور للقادة والجند أن يستمروا فيما كانوا آخذين فيه من فتوح بعد أن شبت نيران هذه الفتنة ، ولا شك أن الأمداد قد انقطعت عنهم وتوقعوا أن تحول حروب الداخل دون إرسال الجند إلى الأطراف ، فتركوا ما بأيديهم ، ولبث بعضهم حيث هو ينتظر نتيجة الصراع المحتدم ، وعاد البعض الآخر إلى الحجاز والشام ليسهم بنصيب في هذه المعركة العنيفة .

وإذا كنا لم نتنسم في انصراف عبد الله بن سعد عن إفريقية ربح هذه الفتنة ، فلا بد أننا واجدون في عواصفها الموج علة وقوف الفتوح تماماً — في إفريقية وغيرها — مدى السنوات الخمس التي ظلت مشتعلة فيها (بين سنتي ٣٥ و ٤١ هـ) وإذا ذكرنا أن عبد الله بن سعد وجلة من كان معه من القادة كانوا من رجال عثمان وأنصاره وآل بيته ، توقعنا أن يكون اهتمامهم شديداً بما ترمى إلى أسماعهم — وهم على الثغور — من تعريض الناس بعثمان وتكلمهم في الثورة عليه وسعيهم للخلاص منه وتنديدهم برجاله وعماله ، وإذا ذكرنا كذلك أن مصر كانت مركزاً من مراكز السخط على عثمان والائتمار به ، وأن نفراً من الناقمين عليه خف إليها ليدبر الوثوب به بمساعدة عن الحجاز ، إذا ذكرنا ذلك كله فقد بانت أمام أعيننا أسباب هذه العودة المفاجئة والركود الذي أعقبها . ولننصف إلى ذلك أن هوى جند إفريقية كان مع معاوية لأنه رأس شيعة عثمان ، فكان لعودهم السريع ونصرهم إياه أثر حاسم في نتيجة الصراع بين علي ومعاوية .

وكان طبيعياً أن تعود الفتوح سيرتها الأولى بعد استقرار الأمور لمعاوية ، لأن أنصاره ورجاله كانوا هم قادة الجنود ورجال الفتوح الذين كانوا يترقبون الفرصة للعود إليها ، وأعان على ذلك أن جلة هؤلاء أصبحوا أعلام الدولة الجديدة ، فوجد الأمويون في ردهم إلى الولاية والقيادة شيئاً من حسن الجزاء الذي استحقوه

بما نصرروا قضيتهم وأعزوا جانبهم ، وإلى هذا تغزى بعض أسباب النشاط الواسع المدى الذى أبدته الدولة الإسلامية فى دور الفتوح الثانى .

وكان عمرو بن العاص قد أصبح عاملاً لمعاوية على مصر من سنة ٣٨ هـ ،
فأصبح بذلك — قياساً على عبد الله بن سعد — صاحب رأى فيما يتصل بأمر
إفريقية ، وأصبح فى مقدوره أن يخرج لغزوها إن أراد ، وكانت الغنائم الوفيرة
التي عاد بها عبد الله بن سعد والنجاح السريع الذى أحرزه دافعان لعمرو إلى التفكير
فى أمر إفريقية ، ولكن همته لم تكن إذ ذاك على ما كانت عليه فى ولايته الأولى ،
إذ علت به السن ، وشغلته شئون المشرق عن أن يوجه اهتمامه كله لغزوة يقودها
إلى المغرب ، فاكتمى بأن يبعث إلى هذه البلاد جنداً يفتحون منها ما يقدر
عليه ويغنمون من نواحيها ما تصل إليه أيديهم .

بيد أن معاوية لم يرض عن عمل كهذا ، ففكر فى أن يسارع فى رد عمرو
عنه ، إذ رأى فيه ازدياداً لسلطان عمرو — وكان حريصاً على أن يحد من ذلك
السلطان — ورأى فيه كذلك طمعاً من عمرو فى خير إفريقية وغنائمها ، وكان هو
فى حاجة إلى هذه الغنائم والأموال ، وربما تحدث فى هذا إلى بعض خاصته ،
ولكنه آثر السكوت وترك عمراً يفعل ما يشاء ما دامت بعونه التى وجهها إلى
إفريقية لم تخرج عن أن تكون سرايا قصيرة المدى لا تكاد تصل إلى أكثر من
الواحات مثل فزان .

فلما أن توفى عمرو بن العاص سنة ٤٤ هـ ، سارع معاوية إلى استرداد الحق
الذى كسبه عمرو فى ولاية إفريقية ، واعتبرها ولاية قائمة بنفسها يولى عليها من عنده
والياً ، تكون صلته به مباشرة ، دون أن يكون لصاحب مصر دخل فى شئون
هذه البلاد ، فأقام على مصر عقبة بن عامر الجهنى (بعد عزل عبد الله بن عمرو) ،
ثم أعقب ذلك بتولية معاوية بن حديج قيادة الفتوح فى إفريقية والإمارة

على ما يفتحه من بلادها ، وذلك على الرغم من أن عقبة بن نافع كان لا يزال
إذ ذاك مغازياً في نواحي فزان والواحات القريبة منها .

ولا يفسر هذا الإغفال الظاهر لشأن عقبة بن نافع إلا بأن معاوية فضل
أن يكافئ بهذه الولاية واحداً من أنصاره المقربين إليه الذين أعانوه على الانتصار ،
وكان معاوية بن حديج رأس العثمانية في مصر ، استطاع أن يحول بين أتباع علي وبين
الاستيلاء عليها ، فأقامه معاوية على هذه الولاية مكافأة له على ثباته وإخلاصه .

معاوية بن
حديج يولي
قيادة الفتح
في إفريقية

— ١ —

كانت عودة عبد الله بن سعد من إفريقية قضاء على ما بذل المسلمون في فتحها
من جهود استمرت ست سنوات من ٢٢ إلى ٢٨ هـ ، إذ أنه غادر البلاد دون
أن يترك عليها والياً ، وربما كانت علة ذلك أنه لم يكن لديه من الجند ما يستطيع
أن يخلفه على هذه البلاد ليحفظها للمسلمين ، ثم كانت سنوات الفتنة التي تلت ذلك
قضاء على ما عسى أن يكون المسلمون قد تركوه من آثار في نفوس الأهليين ، فكان
على الفاتح الجديد أن يبدأ العمل من جديد كأن أحداً من المسلمين لم تمس قدمه
أرض المغرب قبل ذلك .

ولو أن أحوال الدولة البيزنطية بين سنتي ٣٥ و ٤٥ هـ كانت على شيء
من الانتظام والقوة ، لاستطاعت أن تستعيد إفريقية على أهون سبيل ، ولكنها
كانت هي الأخرى تعاني من الضعف واضطراب الحال أكثر مما كانت تعانيه
الدولة الإسلامية .

لم يكن ماحق بالدولة من المصائب بكاف لإقناع إمبراطورها قسطنطين الثاني
بالانصراف عن التدخل في شئون الدين وإعانت رعيته بالمذاهب التي يفرضها عليهم ،
فابتدع مذهباً جديداً سماه النموذج^(١) ، وأخذ يفرضه على أهل الولايات ، فأثار

الدولة
البيزنطية
في مستهل
الصف
الثاني من
القرن السابع

(١) Diehl, op. cit. p. 556

ذلك اضطراباً شاملاً ، وكان أهل إفريقية — من روم وبربر — قد حمدوا الله على انقطاع صلتهم بالامبراطورية ، وشجعهم على ذلك البابا الذي لاحظنا عظيم أثره في ثورة جريجوريوس وفي فصل إفريقية عن الدولة دينيا ، فثار ذلك قسطنطين ، وصمم على أن ينهض بنفسه لعقاب البابوية ، فبعث جنداً قبضوا على البابا مارتن وأنزلوا به من العقاب شيئاً كثيراً ، ثم أسر به فنفي في شمال البحر الأسود حتى مات ،^(١) وكان ذلك عقب غزو العرب لصقلية على يد معاوية بن حديج من الشام^(٢) ، فثار به الناس واشتد الصراع بينه وبينهم ، وفيما هو في ذلك ، إذ بلغه نبأ نزول اللومبارد بشمال إيطاليا (٦٦٧ م) ، خف إليهم ليلقاهم ، فكان ذلك من جملة ما نزل بالدولة من أحداث عاقبتها عن الالتفات لاسترجاع إفريقية ، ثم عاد بعد ذلك فأقام ببلاطه في سرقوسة^(٣) ، وظلت هذه البلدة عاصمة الدولة مدى ست سنوات ، استطاع فيها أن يسترجع كلبرية وسردينيه ، وجزءاً صغيراً من إفريقية ، وفرض الضرائب على كل شيء ، واشتط في ذلك « إلى حد أن فصل الأب عن ابنه »^(٤) فثار ذلك ثائرة الجند ، فقتله أحدهم في ١٢ يولييه سنة ٦٦٨ م ، بأن ألقى عليه ماء غالياً في الحمام ، وأعقب ذلك اضطراب شديد انتهى بالمناداة بقسطنطين الثالث امبراطوراً^(٥) .

في هذه الظروف لا يستبعد أماري أن يكون أهل إفريقية قد استنجدوا

(١) Amari, Hist. Arab. Sic., I, pp. 89, 90

(٢) وتلك هي الغزوة التي أخطأ بعض مؤرخي العرب كابن عذارى فجعلوها سنة ٤٦ هـ في خلافة معاوية ، وذهبوا إلى أن معاوية بن حديج قام بها من إفريقية ، والحقيقة أنه أفلح بها من الشام ، وعادت إلى الشام — البيان المغرب ، ج ١ ص ١١

(٣) Amari, op. cit. I. p. 95 (٤) Diehl, op. cit. p. 567. وأورد ديل ذلك بشيء من الشك ، فقال : نجح قسطنطين الثاني في استعادة إفريقية ، ولا نعرف كيف ولا متى ، ولم يسترجع منها على كل حال إلا ما كان تابعا للحاكم الأفريقي .

(٥) Ibid. pp. 97-99

بالعرب ليخلصوهم من مظالم الروم ، إذ يتفق كثير من المراجع على أن أهل صقلية استنجدوا بهم فأقبلوا لعونهم^(١) .

يذهب ابن الأثير إلى أن « هرقل أرسل إلى أهلها — أى أهل إفريقية — بطريقاً ، وأمره أن يأخذ منهم مثل ما أخذ المسلمون ، فنزل البطريق قرطاجنة وجمع أهل إفريقية ، وأخبرهم بما أمره الملك ، فأبوا عليه وقالوا : نحن نؤدى ما كان يؤخذ منا ، وقد كان ينبغي له أن يسأحننا لما ناله المسلمون منا ، وكان قد قام بأمر إفريقية بعد قتل جرجير رجل آخر من الروم ، فطرده البطريق بعد قتل كثيرة ، فسار إلى الشام وبه معاوية ، وقد استقر له الأمر بعد قتل على ، فوصف له إفريقية ، وطلب أن يرسل معه جيشاً ، فسير معه معاوية بن أبي سفيان معاوية ، بن حديج السكوني ، فلما وصلوا إلى الإسكندرية هلك الرومى ، ومضى ابن حديج فوصل إلى إفريقية وهي نار تضطرم »^(٢) وقد رأينا أن أحوال إفريقية العامة وأخبارها التى أوردها تيوفانيس وغيره تؤيد رأى ابن الأثير والنويرى ، وقد رأينا أمارى يؤيد استنجد أهل صقلية بالمسلمين الذين خفوا إليهم ، فلم نستبعد أن يكون أهل إفريقية قد فعلوا ذلك ؟ ولم نستبعد أن يكون المؤرخان العربيان على الحق فيما ذهبا إليه ؟ ومع ذلك فليس من الضروري أن نقبل هذه الرواية بمخذافيها ، بل يكفي أن نأخذ بمعناها إجمالاً ، فنقرر أن نزاعاً شديداً بين البيزنطيين وأهل

(١) فلما وصل الأمبراطور الجديد من القسطنطينية ، انقلب الصقليون على قائدهم الذى كان استنجد بالعرب ، والتفوا حول قسطنطين ، الذى استطاع أن يطرد العرب من الجزيرة — أمارى ج ١ ، ص ٩٥

(٢) ابن الأثير ، ج ٣ ص ٣٥ وقد روى النويرى هذه القصة ، وزاد عليها بأن جعل اسم البطريق الذى أرسله هرقل ليجمع المال أوليه ، واسم الرومى الذى قام بأمر إفريقية بعد مقتل جرجير جناحه : « وولوا على أنفسهم وال يقال له الأطيلون » ، ثم قال إن معاوية بن حديج وصل إفريقية ، وهي حرب ، وقد صارت ناراً — نهاية الأرب ٦٦ (ب) وقد أقر توكسييه ما جاء برواية النويرى وذهب إلى أن جناحه ربما كانت صحته Gennadius وأوليه

Olympus - Ablavius - Ablimus cf. Revue Afr. 1885, p. 204

إفريقية كان يثير البلاد ويقسم أهلها شيعاً وأحزاباً ، وأن قسطنطين أراد أن يرغمهم على أن يؤدوا إليه مثل ما أخذ العرب منهم ، فزاد ذلك في سخطهم ونفورهم ، وودوا لو أقبل العرب فخلصوهم من نير الروم . ثم إن انتقال قسطنطين إلى صقلية في ذلك الحين يؤيد ذلك^(١) ؛ وتتفق المراجع اليونانية على أن الدولة كانت تقاسى إذ ذاك عَوَراً مالياً شديداً ، وأنها أرهقت صقلية وسردينية وكلبرية بالضرائب ، فطبيعي جداً أن تكون قد أرادت بإفريقية مثل ذلك .

ويذهب فورنيل إلى أن قسطنطين لم يكتف بإرسال الرسل يجمعون له المال ، بل حاول أن يسترجع إفريقية بقوة الجند ، وقد أشار أماري إلى ذلك إشارة يسيرة ، ولكن فورنل أكد أن النصوص تتحدث عن وجود جيش يسمى بالجيش الإفريقي *Exercitus africal* بين جيوش الدولة إذ ذاك ، وأكد بيوري أن قسطنطين حاول أن يستعيدوها ، ولكن ديل تسامل عن النصوص التي أخرج بيوري منها رأيه هذا^(٢) .

— ٢ —

يذكر ابن عبد الحكم^(٣) أن معاوية بن حديج غزا إفريقية ثلاث غزوات . « أما الأولى فسنة ٣٤ هـ قبل مقتل عثمان ، وأعطى مروان الخنس في تلك الغزوة ، وهي غزوة لا يعرفها كثير ، والثانية سنة ٤٠ والثالثة سنة ٥٠^(٤) » وجاراه في ذلك أكثر المؤرخين الغربيين ، ويغلب أنهم نقلوها عنه ، لورود عبارته بالنص في رواياتهم^(٥) .

(١) Bury, op. cit. II, pp. 297, 299. Diehl, op. cit. p. 568

(٢) Bury, op. cit. II, p. 302. Diehl, op. cit. p. 568

(٣) رواية عن عبد الملك بن مسلمة عن ابن هبة عن يزيد بن أبي حبيب

(٤) ابن عبد الحكم ، فتوح ، ص ١٩٣ — ١٩٤

(٥) معالم الأيمان ، ج ١ ص ٤١ وطبقات علماء أفريقية ج ١ ص ١٥ ، وقد ذكر أبو العرب =

ولكنه — أى ابن عبد الحكم — يجمع كل أعمال معاوية بن حديج في إفريقية في غزوة سنة ٣٤ ، ويجاربه في ذلك ابن خلدون ، الذى يضيف أن هذه الغزوة (سنة ٣٤ هـ) كانت في خلافة معاوية ابن أبى سفيان ^(١) ، وسياق روايته يدل على أن أعمال ابن حديج كانت متصلة بلى بعضها بعضاً ، دون أن تفرق بينها فترات طويلة كالتى بين سنوات ٣٤ و ٤٠ و ٥٠ ، مما يميل بنا إلى الاعتقاد بأن الرجل قام بغزوة واحدة ، أتم فيها كل ما ينسب له من أعمال ، أما الغزوتان الأخريان فربما شرع فيهما ولم يفعل ، أو لم يقم بهما أصلاً .

ومما يقوى الشك في تلك الرواية أن غالبية المؤرخين الآخرين لا يذكرون إلا غزوة واحدة يحملون فيها كل فتوح معاوية بن حديج ، ويختلفون في تحديد السنة التى تمت فيها هذه الغزوة الواحدة ، فيجعلها بعضهم سنة ٤٥ هـ ^(٢) وبعضهم الآخر سنة ٤١ هـ ^(٣) ، ونادر منهم من ذكر شيئاً في سنة ٣٤ أو في سنة ٥٠ هـ ^(٤) ؛ مما يؤكد لنا أن ابن حديج خرج في غزوة واحدة أتم فيها كل ما ينسب إليه من أعمال .
ففى أى سنة كانت ؟

لاجدال في أن معاوية بن حديج كان في مصر سنة ٣٤ هـ ، إذ كان من كبار

== أنه أخذها « عن فرات عن عيسى بن عيسى بن محمد عن ابن وهب عن ابن لهيعة عن ابن أبى حبيب » ولكن الغالب أنه نقلها عن ابن عبد الحكم ونزهة الأقطار (ص ٧٠) ، وهذا المرجع ذكر أن الغزوة الثانية كانت سنة ٤١) ، والمونس (ص ٣٤) ورياض النفوس (ورقة ٤) يقتصر على ذكر اثنين ولا يذكر سنة ٤٣ هـ)

(١) ابن خلدون ، ج ٤ ص ١٨٥ (٢) ابن الأثير ، ج ٣ ص ٣٥ ، والنويرى ورقة ٦٧ (١) ، والباجى ، ص ٤ — ٥ ، والبيان المغرب لابن عذارى ، ص ١٠ — ١١ والمونس ص ٢٣ — ٢٤

(٣) البكرى ، وصف إفريقية ، ص ٣٤ ، ٣٥ ، ٥٨ ، والمالكى ، رياض النفوس ، ص ٤ (١) (٤) يذكر ابن عبد الحكم وابن خلدون سنة ٣٤ هـ . أنظر : فتوح ، ص ١٩٣ — ١٩٤ ، العبر ، ج ٤ ص ١٨٥ . ويكتفى ابن مقدشو مؤلف نزهة الأقطار بالقول بأن ابن حديج حفر الآبار المسماة باسمه فقط سنة ٣٤ ، (أنظر ص ٧٠) . ويتردد أبو المحاسن بين سنتي ٤٥ ، ٥٠ : أنظر النجوم الزاهرة ، ج ١ ص ١٣٠ ، ١٣٩

القواد في جيش عبد الله بن أبي سرح ، ولكن فتنة عثمان كانت في هذه السنة على أشدها ، وكان سخط الناس قد بدأ يستفيض على الألسن ، وبدأ الشغب ، وكانت مصر على الخصوص مركزاً من مراكز السخط على عثمان ، خف إليها نفر كبير من أعدائه ، وجعلوا يدبرون أمرهم للخلاص منه ، وكان عثمان وأنصاره في هذه السنة في شغل عن الغزو الخارجي بما أصاب الخلافة من اضطراب ، فاقترنت جهودهم على الدفاع عن عثمان ، فكيف يتفق أن ينهض معاوية بن حديج بغزوة عظيمة كهذه ، وهو من شيعة عثمان وأنصاره ، والحال في مركز الدولة لا يسمح له بأن ينفق قواته في بلاد نائية بعيدة ؟ وإذا كنا عللنا عودة ابن أبي سرح السريعة بإحساسه بالخطر على عثمان ، فكيف يطمئن إلى إرسال جنده إلى إفريقية في هذا الظرف الحرج الذي « سارت فيه ركائب المنحرفين عن عثمان » ^(١) كما يقول أبو المحاسن ؟ ثم إننا نجد معاوية بن حديج في مصر في العام التالي ، أي سنة ٣٥ هـ ، مناهجاً عن قضية عثمان مطالباً بدمه ، ^(٢) فكيف اتفق له أن يذهب إلى إفريقية ويفتح جلولاء وسوسة ومثروث ويحاصر هذه المدائن زماناً طويلاً ، ويقيم بناحية القرن مساكن يسميها قيرواناً ^(٣) ، ويتم ذلك كله في أقل من سنة ، ثم يعود إلى مصر ؟ أليس المعقول أن تكون هذه الغزوة قد تمت في وقت آخر ساد فيه الهدوء واستقرت الأحوال ، وأمنت فيه شيعة عثمان على أنفسهم ؟ وأليس المعقول أن يكون فورنل قد أصاب حيناً استبعد أن يخطيء ابن خلدون ، فيذكر أن معاوية كان خليفة سنة ٣٤ وأن ابن حديج كان والياً على مصر إذ ذاك ، وعلل ورود سنة ٣٤ في روايته بخطأ الناسخ الذي ذكر سنة ٣٤ بدلاً من سنة ٤٣ ^(٤) ؟

ثم إن رواية ابن عبد الحكم نفسها يشوبها شيء كثير من الاضطراب ،

(١) النجوم الزاهرة ، ج ١ ص ٩١ (٢) نفس المصدر ، ج ١ ص ٩٤ ، ٩٧

(٣) ابن الناجي ، معالم الإيمان ، ج ١ ص ٤٢ (٤) Fournel, op. cit. I. p. 141

فهو يجعل كل أعمال معاوية ابن حديج التي أوردتها جميع المؤرخين ، في سنة ٣٤ ، ثم يعود فيقول أن هذه الغزوة لا يعرفها كثير ، ألا يكون الأقرب للصواب أنه أراد أن يقول إن معاوية بن حديج ربما يكون قد غزا غزوة صغيرة سنة ٣٤ لم يبق فيها بشيء ذي بال ، ولذلك لم يعرفها كثير ^(١) ، ثم عاد فغزا غزوة كبيرة أخرى في سنة لم يذكرها سهواً ؟ ذلك أقرب الآراء إلى الصحة ، وأكثرها اتفاقاً مع منطق الحوادث . أما سنة ٥٠ فقل بين المؤرخين من يذكرها ، وربما ذكر بعضهم فيها حوادث قليلة ، أو تردد بينها وبين سنة أخرى ، مما يميل بنا إلى نفيها ، خصوصاً وأننا نعلم أن عامل مصر في هذه السنة (٥٠) كان مسلمة بن مخلد الأنصاري ^(٢) ، وأنه عزل عقبة عن إفريقية ، وولى عليها بدله مولاة أبا المهاجر ، ولم يقل أحد من المؤرخين أنه بعث معاوية بن حديج ثم عزله بعقبة ثم عزل هذا بأبي المهاجر . بقيت سنتا ٤١ و ٤٥ ، فأما الأولى فكانت عقب مقتل علي ، ولم يكن أمر معاوية قد استتب بعد ، ولم تكن الظروف تسمح له بالتفكير في الغزو ، فالمعقول أن الغزوة كانت في الأخرى ، أي في سنة ٤٥ هجرية ، بعد أن ثبتت قدم معاوية واستطاع أن يفكر في التوسع والغزو الخارجي ، ثم إن والي مصر في سنة ٤١ هـ كان عمرو بن العاص (منذ ٣٨ هـ) ، ولم يرد أنه أرسل معاوية بن حديج ، في حين كان هذا الأخير قائد جند مصر في ولاية عتبة بن أبي سفيان عامل مصر لمعاوية سنة ٤٣ ، وبقي في هذا المنصب إلى سنة ٤٧ حين عزله مسلمة بن مخلد وأقام

(١) حاول كودل أن يؤيد ابن عبد الحكم فيما ذهب إليه ، ولكنه لم يوفق ، إذ لم يأت ببينة من النصوص تعلل هذا التأيد ، ثم قال معلقاً على هذه الغزوة : « ولكنها كانت على جانب قليل من الأهمية ، وربما تكون قد توقفت في بدايتها ، حينما ترامت أخبار الأحداث التي كانت تفتش المشرق في ذلك الحين ؟ وكانت قلة أهميتها تلك داعية البعض إلى إهمالها ، والبعض الآخر إلى خلطها بما تلاها من غزوات » ، ثم عقب على هذا الرأي بقوله : « إن جمع الحوادث كلها

في سنة واحدة يفسد التاريخ : cf. : Caudel, op. cit. II. pp. 86, 87

(٢) أبو المحاسن ، النجوم الزاهرة ، ج ١ ص ٧٥

على جند مصر بدله السائب بن هشام ؛ فالمعقول أن معاوية بن حديج استطاع في هذه السنوات الأربع — أو في بعضها — أن يقوم بحملته على إفريقية ، وما دام أغلب المؤرخين يذكر سنة ٤٥ هـ (٦٦٦ ميلادية) ، فلا يبعد أن يكون ذلك هو التاريخ الصحيح لتلك الغزوة .

أما مداها فغير معروف ، فقد تكون استمرت إلى نهاية سنة ٤٦ هـ ، لأن معاوية عزل عن جند مصر في سنة ٤٧ هـ ، وربما امتدت إلى أوائل سنة ٤٧ هـ ، لأننا نجد عاملاً لمعاوية بن حديج على طرابلس ، وهو رُوَيْفِع بن ثابت الأنصاري يغزو جزيرة جربة في سنة ٤٧ هـ^(١) .

وتذهب طائفة من المؤرخين^(٢) إلى أن معاوية بن حديج خرج بحملته من دمشق ، وهذا غير صحيح ، لأن الثابت المعروف أن معاوية كان على جند مصر إذ ذاك ، وأنه خرج إلى إفريقية من مصر بالطريق العادي ، وليس هناك ما يؤيد القول بأن حملته كانت بحرية ، وإنما الثابت المحقق أنها كانت برية ، وأنها سارت في نفس الطريق الذي سلكه عبد الله بن سعد ، وربما يكون معاوية قد أذن له في فتح المغرب وهو على جند مصر جزاء له على ما أبدى من الإخلاص في الدفاع عن قضية عثمان .

الروم
يرسلون
جيشاً إلى
إفريقية

يبدو أن الأخبار بمسير معاوية بن حديج إلى إفريقية كانت قد اتصلت بالروم قبل وصوله ، لأننا نجد جيشاً بيزنطياً يقوده قائد اسمه نففور ينزل إفريقية ويتقدم ليلقي العرب ، وربما كان هذا الجيش قد أقبل لأمر آخر غير قتال العرب ، لأن الحرب بين الفريقين كانت قصيرة المدى ، ولعل ابن الأثير لم يصدق حين قدر

(١) المونس ، ص ٢٦

(٢) هم ابن عذاري ، وابن خلدون ، والنويري ، ويظهر أن السبب في وقوعهم في ذلك الخطأ هو أنهم ظنوا أن معاوية بن حديج كان أميراً على مصر ، وقد أشار إلى ذلك روت في كتابه عن عقبة بن نافع (ص ٢٩ — ٣٠) cf. : Roth, Okba ibn Nafi, pp. 29, 30

هذا الجيش بثلاثين ألف مقاتل ، لأنه يخبرنا بعد ذلك أن معاوية بن حديج سير إلى الروم جيشاً ، فلو كان الروم بهذا العدد الكبير لسار هو إليهم بكل جيشه ، وعدته عشرة آلاف فقط^(١) .

من الثابت أن أمور إفريقية كانت على حال من الاضطراب تؤيد قول ابن الأثير أن معاوية بن حديج وصل إلى إفريقية وهي نار تضطرم^(٢) ، لأن الدولة أرادت أن ترهق الأهلين بدفع مبلغ عظيم يوازي ما دفعوه للعرب ، فاشتد النزاع بين الفريقين كما سبق بيانه ، حتى اضطر الأفارقة إلى طرد عامل الامبراطور فعاد إلى بلاده ، وربما كان ذلك هو السبب في إرسال الجيش الذي لقيه معاوية بن حديج ، وكانت سلطة الامبراطور قد تقلصت من البلاد حتى لم يبق منها إلا ظل خفيف ، وذلك على الرغم من وجود الامبراطور في صقلية في ذلك الحين ، على مقربة من إفريقية ، وقد سبق القول بأنه فشل في أن يعيد سلطانه عليها إلى ما كان عليه . سار معاوية بن حديج على رأس عشرة آلاف جندي^(٣) يريد إفريقية ، وكان مسيره على مقربة الساحل ، فتقدم حتى أفضى إلى سهل تونس وحط رحاله في ناحية قونية^(٤) ، وكان معه في جيشه نفر كبير من الصحابة والتابعين ، من أمثال عبد الله بن عمر بن الخطاب وعبد الله بن الزبير بن العوام وعبد الملك بن

مسير معاوية
ابن حديج

(١) روى ياقوت أن جيش معاوية بن حديج كان عشرة آلاف ، وأيد ذلك ليثي بروثنسال في دائرة المعارف الإسلامية (معجم البلدان مادة قيروان ودائرة المعارف نفس للمادة) . وقد قدر ابن الأثير جيش الروم بثلاثين ألف مقاتل . وقال : « فلما سمع بهم معاوية سير إليهم جيشاً من المسلمين فانهزمت الروم ، ابن الأثير ج ٣ ص ٣٥ ، وزاد النويري أن تغفور أقطع بمن معه بعد هذه الهزيمة — نهاية الأرب ص ٦٧ أ

(٢) ابن الأثير ، ج ٣ ص ٣٥ (٣) القيرواني ، ص ٣٤

(٤) لم يرد لقونية ذكر في معجم البلدان ولا البكري ولا الإدريسي ، وحدد ابن عبد الحكم موضعها بأنها « موضع مدينة قيروان ، ويطلب أنها هي Caput Varda البيزنطية ، وربما كانت إلى شمالها قليلا ، وقد وصفها المالكي بأنها قيروان أفريقية — ابن عبد الحكم ، فتوح ، ص ١٩٣ ، ورياض النفوس ورقة ٤ أ

مروان^(١)، ويحيى بن الحكم بن أبي العاص، وعدة من أشرف قريش^(٢)، ونفر كبير من جند مصر^(٣).

لم يكد معاوية يستقر في قونية حتى تسامع بنزول جيش بيزنطي في إفريقية، فتقدم للقائه، ولم يدر بين الفريقين شديد قتال، إذ مجل الروم بالانسحاب والعودة، وبذلك انتهت المقاومة البيزنطية.

تقدم معاوية إلى الشمال، ويبدو أنه اقترب من البحر، لأن المراجع تحدثنا أنه استقر في مكان يسمى القرن^(٤)، اتخذ مركزاً لأعماله، ويبدو أنه أقام بذلك المكان زمناً طويلاً، لأنه احتفر فيه آباراً تسمى آبار حديج، وابتنى دوراً^(٥)، ومن هناك أرسل عبد الله بن الزبير يتتبع الروم، ويغلب أن هؤلاء تفهقروا بعد المناوشة الأولى حتى أدركوا سوسة، وهناك لبثوا فترة قبل أن يقلعوا، فبعث معاوية في أنهرم عبد الله بن الزبير، فأدركهم وناوشهم مناوشة خفيفة أفلعوا بعدها في البحر^(٦)، فاستولى عبد الله بن الزبير على سوسة، وغنم منها بعض الغنائم، ثم عاد إلى معاوية بن حديج في القرن.

كان أمام معاوية بن حديج بعد ذلك أحد أمرين: إما أن يسير غرباً فيتوكل

(١) ولد عبد الملك سنة ٢٦ هـ، فكانت سنة أثناء هذه الغزوة ١٩ سنة، وهي سن مبكرة، ولكنها لا تمنع من قيامه بالدور الذي سينسب إليه.

(٢) المونس، ص ٢٤ — ٢٥ (٣) رياض النفوس، ورقة ٣ (ب)

(٤) تتفق المراجع كلها على ذكر قونية وجبل ممتور والقرن، وكلها أماكن لا وجود لها في المعاجم، ولا تتفق النصوص كذلك على ترتيب الحوادث وربما كان أقرب ترتيب للمنطق هو أن معاوية استقر أولاً بقمونية ثم خف للقاء الروم حتى إذا فرغ من أمرهم استقر بتاحية القرن، وأرسل عبد الملك بن مروان إلى جلولا، وابن الزبير إلى سوسة وقد ورد القرن باسم جبل القرن في معالم الأيمان ورجح كودل أنه جبل Ousselet. cf.: Caudel, op. cit. II, p. 96 ج ٢ ص ٩٦ (٥) الباجي، الخلاصة النقية، ص ٣

(٦) ينسب البكري إلى ابن الزبير أموراً لا نزاع في أنها مختلفة كقوله إن العدو هاجمه وهو يصلي العصر، فلم يكثر له وأكل صلاته ثم هجم عليهم فهزمهم — البكري، ص ٣٥

المهضبة ليهاجم القوي البربرية في معاتلها ، أو يتجه إلى الشمال ليفتح مدائن الساحل ومحارسه ، لئيم له القضاء على ما بقى من آثار الروم في البلاد ، ويحول دون أية محاولة يدبرونها لفتحها من جديد ، فاتهى إلى أن يحقق الغرضين معاً ، وقر رأيه على أن يندب للتوغل في الداخل أحد قواده ويهم بنفسه بالمسير إلى الشمال^(١).

وقع اختيار معاوية بن حديج على عبد الملك بن مروان ، ويبدو أنه لم يكن موفقاً في هذا الاختيار إذ كان عبد الملك حدثاً في التاسعة عشرة من عمره لا عهد له بقيادة الجند أو القيام بفتوح ذات خطر ، وسنراه يفسل في فتح جلولاء ، على رغم تداعى أسوارها وتهدمها ، ثم يختلف مع معاوية بن حديج في تقسيم غنائم حملته ، وتشتد الخصومة بينهما إلى حد يدعو معاوية بن حديج إلى استشارة معاوية ابن أبي سفيان في دمشق ، ويظل عبد الملك منابذاً قائده إلى أن تعود الحملة أدراجها ، وربما كان السبب الذي حدا بمعاوية إلى اختيار عبد الملك هو قرابة هذا الأخير من الخليفة ، وميل ابن حديج إلى إرضاء آل أمية باختيار فتى منهم لقيادة هذا البعث ، إذ لا مرء في أن أسراً كهذا يرفع من قدر ابن حديج لدى البيت الحاكم .

(١) ويذهب نفر من المؤرخين كآبي العرب إلى أن معاوية بن حديج قاد بنفسه حملة جلولاء ، وقد أيده في ذلك التويرى حيث يقول : « وقاتل معاوية أهل جلولاء » ، على باب المدينة مما يفهم منه أن معاوية سار بنفسه ، ولكنه يعود فيقول : « وانصرف عبد الملك إلى معاوية وهو معسكر بالقرن ينتظره ، مما يفهم منه أن معاوية أرسل عبد الملك إلى جلولاء ، ولبت ينتظره بالقرن ؟ وتردد ابن عبد الحكم بين الرأيين فقال : « ويقال بل غزاها معاوية بن حديج بنفسه ، فحاصرهم فلم يقدر عليهم فانصرف آيساً منها وقد جرح عامة أصحابه وقتل منهم ، وبقية المؤرخين على أن عبد الملك هو الذى قام بها ، بيد أن ابن « عبد الحكم » يعود فيشير إلى خلاف بين معاوية بن حديج وعبد الملك على غنائم جلولاء : « وانصرف عبد الملك إلى معاوية بن أبي سفيان ، فكتب إن العسكر رده للسرية ، فقسم ذلك بينهم » مما يرجح أن عبد الملك قاد هذه الحملة . ابن عبد الحكم ، فتوح ، ص ١٩٤ ، رياض النفوس ، ورقة ٤ (١) ، نهاية الأرب ، ورقة ٧

فصل عبد الملك بن معه واتجه إلى الغرب ، وكان أقرب حصون الهضبة إليه حصن جلولا^(١) ، ولم تكن من كبار الحصون أو المحارس ، ولكنها كانت أقربها إليه ، « فحاصرها أياماً فلم يصنع شيئاً ، فانصرف راجعاً فلم يسر يسيراً حتى رأى في ساقية الناس غباراً شديداً ، فظن أن العدو قد طلبهم ، فكريّ جماعة من الناس لذلك ، وبقي من بقي على مصافهم ، وتسرع سرعان الناس ، فإذا مدينة جلولا قد وقع حائطها ، فدخلها المسلمون وغنموا ما فيها ، وانصرف عبد الملك إلى معاوية ابن حديج^(٢) » . وظاهر من هذه الرواية أن أسوار المدينة كانت متداعية آيلة للانقضاض ، ولا يعلل عجز عبد الملك عن الاستيلاء عليها إلا بقلة خبرته أو إسرعه بالعودة بعد حصار قصير ، وظاهر من الرواية كذلك أن المدينة لم تكن بها حامية ، وإنما كان أهلها هم الذين يدافعون عنها ، وربما استطعنا أن نأخذ فكرة عن ثروة المدينة في هذه الأيام إذا عرفنا أن نصيب الفارس من غنائمها كان مائتي دينار ، ويغلب أن العرب لم يجدوا بالحصن ناساً كثيرين ، ولم يصيبوا منه شيئاً كثيراً ، لأن عبد الملك بن مروان اشترى بنصيبه من الغنيمة جارية ، مما يدل على أن الحصن لم يكن مأهولاً .

(١) جلولا أو جلولا على مقربة من القيروان الحالية ، تبعد عنها أربعة وعشرين ميلاً ، وهي مدينة كبيرة وحصن يزنطى قديم ، ذهب ديل إلى أن أصله البيزنطى Couloulis أحد محارس الهضبة ، في حين ذهب دى فرجير إلى أنها Usilla القديمة ، وأثبت دى سلين خطأ دى فرجير ، مما يؤكد صحة رأى ديل ، وقد أخذ عنه شو وحقق موضع المدينة بنفسه . واتفق جغرافيو العرب على ذكرها والقول بقدمها ووجود الآثار بها ، وزاد البكرى أنها كانت غنية كثيرة الأشجار والثمار وبها قصب السكر ، أما الإدريسي فيسميها جلولة ، ويقول : « إنها مدينة صغيرة عليها سور وبها عين ماء جارية » البكرى ، وصف أفريقية ، ص ٣١ ، ٣٣ ، ٥٨ والإدريسي ، ص ١٢٠

(٢) ابن عبد الحكم ، فتوح ، ص ١٩٣ — ابن الأثير ، ج ٣ ص ٣٥ (مختصرة جداً) — البكرى ، وصف أفريقية ، ص ٣٢ — ٣٣ ؛ ويظهر أنه نقلها عن ابن عبد الحكم . ابن خلدون ، (طبعة دى فرجير) ص ٨ . النويرى ، نهاية الأرب ، ورقة ٦٧ (ب) — ٦٨ (١)

يتفق المؤرخون على أن خلافاً وقع على قسمة غنائم جلولاء بين معاوية بن حديج وعبد الملك بن مروان ، إذ أراد هذا الأخير أن يختص بها من رافقه من الجند ، في حين رأى معاوية أنها من حق الجيش كله : من اشترك منهم في فتح جلولاء ومن لم يشترك ، واشتدت اللجاجة بينهما إلى حد اضطر معه معاوية بن حديج إلى استشارة معاوية بن أبي سفيان ، فحسم النزاع بأن قرر أن غنائم جلولاء من حق الجيش كله ، فقسمت بين الجند جميعاً^(١) ، ويبدو أن الرجلين ظلّا متغاضبين بعد ذلك إلى انتهاء الحملة ، إذ يقول البكري : « قالوا : ولما كان من عبد الملك بن مروان ما كان ، ومنازعتة لمعاوية بن حديج على فيها ، ثقل على معاوية بن حديج ، فكان يتجهمه ولا يقبل عليه ، فرأى حنش الصنعاني عبد الملك بن مروان وهو متفكر متغير اللون ، فقال له ما شأنك ؟ فقال إني أبعد آل قريش مجلساً من الأمير ، فقال له حنش لا تهتم . . . الخ »^(٢).

يذهب نفر من المؤرخين إلى أن معاوية طال مكثه بناحية القرن ، فحفر بها آباراً لا تزال تسمى آبار حديج ، وأنه ابتنى بها دوراً سماها قيروانا^(٣) في موضع القيروان قبل أن يأتي عقبة ، ولكن ذلك كله مشكوك فيه ، ويجوز أنه ابتنى بعض المساكن للجند واحفر آباراً لسقيهم ، أما أن يكون قد فكر في ابتناء المدينة فغير صحيح ، ولا وجود له في المراجع الأصلية الأولى كابن عبد الحكم والبكري والبلاذري وابن الأثير .

ثم هم معاوية فتوجه إلى الشمال ، وكانت وجهته بنزرت ، ومن الغريب أنه لم يقصد قرطاجنة عاصمة إفريقية البيزنطية ، وكانت معروفة للعرب إذ ذاك فلا يقال إنه جهلها ، وربما كان السبب في ذلك أنه تهيب حصارها لما كان معروفاً عنها

مسير معاوية
إلى بنزرت

(١) أنظر المراجع المشار إليها في الهامش الأخير من الصفحة السابقة (٢) البكري ص ٣٣

(٣) البايي ، الخلاصة النقية ، ص ٥ ؛ ابن الناجي ، معالم الأيمان ، ج ١ ص ٤٢ ؛ المالكي ، رياض النفوس ، ٤ (١)

من المنعة والقوة ، ولا نزاع في أن معاوية أخطأ بذلك خطأً كبيراً ، فلو أنه وجه جهوده نحو قرطاجنة لخطا بفتح إفريقية خطوة كبرى ، لا شك في أهميتها ، ولكنه انصرف إلى ميناء لا أهمية له ، ولم يكن لسقوطه أى أثر في تقدم الفتح العربى لهذه البلاد .

والتفاصيل عن فتح بنزرت قليلة ، ويظهر أن أكثرها أضافه مؤرخو المغرب ، فيحسن أن نكتفى بذكر رواية البكرى الذى يقول : « وافتتحها معاوية بن حديج سنة إحدى وأربعين ، وكان معه عبد الملك بن مروان ، فشذ عن الجيش ، فمر بامرأة من العجم من عمل بنزرت ، فقرته وأكرمت مثواه ، فشكر لها ذلك ، فلما ولى الخلافة كتب إلى عامله بإفريقية فى المرأة وأهل بيتها فأحسن إليهم ^(١) ، مما يفهم منه أن بعض أهل البلاد كانوا يرحبون بالعرب ويتلقونهم كمخلصين من مساءات الروم ، وأن العرب لم يكونوا ينهبون البلاد النهب الذريع الذى يصوره كودل وديل وفورنل ^(٢) وأضرابهم .

ويذكر بعض المؤرخين غزوة بعثها معاوية بن حديج فى ذلك الحين إلى صقلية ^(٣) ، ويجملون ذلك قبل فتح بنزرت ، وواضح أنهم أخطأوا فوضعوا هنا حملة معاوية بن حديج ، التى بعثه فيها معاوية بن أبى سفيان حوالى سنة ٢٧ هـ ، أو ٢٨ فى خلافة عثمان ، إذ كان معاوية قد غزا بنفسه قبرص ، وأرسل معاوية ابن حديج فغزا رودس ثم صقلية ^(٤) ، وربما أخطأ ابن عذارى فى النقل عن البلاذرى

(١) البكرى ، وصف إفريقية ، ص ٥٨

(٢) Fournel, I, pp. 145, 146. Diehl, op. cit. p. 570. Caudel, op. cit. II, pp. 87-96

(٣) ابن عذارى ، البيان ، ج ١ ص ١١ ، وابن الناجى ، معالم الأيمان ، ج ١ ص ٤١ ، والسلاوى ، الاستقصا ، ص ٣٦

(٤) وراجع أمارى ، الصفحات ٨٨ — ٩٠ من الجزء الأول حيث يذكر طرفاً من سيرة معاوية بن حديج ومناصرته لمعاوية واشتراكه فى فتح مصر وفتح دقله وفقاً عينه فى تلك الحملة ، ثم تولية معاوية لياه على رأس الأسطول الذى غزا رودس وصقلية وجمعه منها غنائم كثيرة ، =

فكتب : « وفي سنة ٤٦ من الهجرة — قال البلاذري — أول من غزا صقلية معاوية بن حديج بعثه إليها عبد الله بن قيس ، وأصاب فيها أصناماً من ذهب وفضة مكللة بالجواهر ، فحملت إلى معاوية بن أبي سفيان » ، وصحتها في سنة ٢٦ وعن ابن عذارى أخذها الباجي ، وابن الناجي خطأ^(١) ، وكان معاوية قد خلف على طرابلس صحابياً اسمه رويغ بن ثابت الأنصاري ، فقام بحملة قصيرة عبر بها البحر إلى جربة وهي جزيرة مجاورة للساحل ففتحها ، وعاد سريعاً ، ويبدو أنها كانت مأهولة بالسكان لأن المسلمين أصابوا فيها سبياً ، إذ يقول البكري : « قال حنش بن عبد الله الصنعاني^(٢) : غزونا مع رويغ بن ثابت الأنصاري المغرب ففتح قرية من قرى المغرب يقال لها جربة ، فقام فيها خطيباً فقال : « أيها الناس : لا أقول فيكم إلا ما سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول فينا يوم خير : قام فينا رسول الله فقال : لا يحل لامرئ يؤمن بالله واليوم الآخر أن يسقي مازرع غيره ، يعني إتيان الحبالى من السبي »^(٣) .

فتح جزيرة
جربة

ويبدو أن معاوية بن حديج لم يحسن التصرف فيما وقع له من غنائم حملته ، فأساء قسمها ، إذ يقول ابن عبد الحكم ، رواية عبد الملك بن مسلمة عن ابن لهيعة عن بكير بن عبد الله عن سليمان بن يسار ، قال : « غزونا إفريقية مع ابن حديج ، ومعنا من المهاجرين والأنصار بشر كثير ، فنقلنا ابن حديج النصف بعد الخمس ،

ثم ذكر أمارى بعد ذلك أن التزاع بين البابا مارتن والأمبراطور قسطنطين الثاني كان على أشده ، فساق ذلك العرب إلى فتح الجزيرة ، ولم يكد معاوية يقلع من سرقوسه عائداً إلى الشام ، حتى نزل قسطنطين الثاني الجزيرة .

(١) أنظر cf, Mercier op. cit. I, p. 203 ج ١ ص ٢٠٣

(٢) سبق أن ذكر البكري لحنش حديثاً مع عبد الملك بن مروان بعد فتح جلولاء ، وهذا يدل على أن حنشاً اشترك في فتح جربة بعد فراغه من جلولاء ، ولما كان فتح جربة سنة ٤٦ هـ ، فلا بد أن الفراغ من فتح جلولاء كان في أواخر ٤٥ أو في أوائل ٤٦ هـ ، وفي هذه السنة تم فتح بنزرت التي يظن أن يكون قد تم قبل انتهائها — البكري ، وصف أفريقية ، ص ١٩

(٣) ابن عبد الحكم ، فتوح ، ص ١٩٢

فلم أر أحد أنكر ذلك إلا جبلة بن عمرو الأنصاري^(١). ولم يكن لتصرفه هذا أثر سيء كما حدث في حملة عبد الله بن سعد ، ولم يعترض عليه إلا جبلة هذا ، الذي أبى أن يأخذ شيئاً ، وكان تصرف معاوية مثار مناقشة الفقهاء ، ويدل على ذلك أن ابن عبد الحكم نفسه عاد فروى الحادث عن يوسف بن عدى عن آخرين بالنص ، إذ كان في تصرف ابن حديج خلاف لحكم الشرع في تقسيم النفل .

قيمة حملة
معاوية
ابن حديج

تلك كانت حملة معاوية ابن حديج على إفريقية ، وذلك هو الموثوق به من أخبارها ، ولم يكن لها نتائج تذكر ، ولم تكن خطوة لإتمام الفتح الإسلامي للبلاد ، وإنما كانت غارة طالت بعض الطول ، استولى العرب فيها على مدينتين قليلتي الأهمية ثم تخلوا عنهما وعادوا ، ويبدو أن معاوية لم يعد من إفريقية مرغماً ، لأن مسلمة بن مخلد لم يعزله عن جند مصر إلا بعد ولايته بقليل ، ولم يذكر أحد من المؤرخين أنه استدعاه من ميدان إفريقية . وقد رأينا معاوية يؤثر السهل من الفتوح ، فيتجنب كبار المسالحي والمعاقل ليهاجم صغارها ، ولهذا لا يبعد أن يكون اكتفى بذلك ثم عاد ، دون سبب معقول من غير أن يخلف في البلاد أثراً يذكر . لا نخطئ إذنا إذا عددناها إحدى المقدمات الطويلة التي سبقت الفتح الحقيقي ، إذ كانت آخر الغارات السريعة التي لم تنتج شيئاً ، وستبدأ بعد ذلك أولى حلقات الفتح الحقيقي على يد رجل طالت خبرته بإفريقية وأهلها ، فعرف السبيل الموفق لتثيبت قدم المسلمين ، فبدأ فتحه بإقامة معقل للمسلمين وقيروان لأسلحته حتى تركز الفتوح ويبدأ العمل المنتج .

(١) نفس المصدر والصفحة

obeykandi.com

الباب الرابع

فتح إفريقية

حملة عقبة بن نافع الأولى
وبناء القيروان

بقدم عقبة ينتهى دور المحاولات الأولى ، ويبدأ الفتح الثابت المستقر ،
وتعد أعماله الحجر الأول فى بناء إفريقية الإسلامية ، نعم أنه بدأ عمله والمسلمون
فى سهل تونس ، وانتهى منه والمسلمون فى برقة ، وأن حملته الكبرى لم تكن
أكثر من مغامرة طويلة قليلة الجدوى ، ولكنه كان أول من قام بحملة قوية ،
استطاعت أن تشق طريقها وسط البلاد وأهلها ، وتمهد كل شىء فى سبيلها حتى
تنتهى إلى المحيط .

كان عقبة بن نافع (بن عبد القيس بن لقيط) قرشياً من فهر ، ولد قبل الهجرة
بسنة واحدة^(١) ، يتصل نسبه بعمر بن العاص من ناحية أمه ، وإلى هذه القرابة
يرجع كثير من الفضل فى ظهوره على مسرح التاريخ ، إذ كان عمرو يعرف قدره
ويثق فيه ، فعهد إليه بيعت فزان — كما مر — فوق فى توفيقاً كبيراً ، ثم خلفه
فى برقة أميراً على ما فتح من إفريقية حينما عاد سنة ٢٣ هـ ، فلبث فيها حتى قدم
عبد الله بن سعد سنة ٢٧ هـ ، والغالب أن عبد الله خلفه على برقة ، وتوجه هو
لإفريقية لأننا لا نجد لعقبة ذكراً فى أحداث حملة عبد الله ، ولو أنه اشترك فيها
لكان له دور لا يغفل ذكره ، ولا بد أن عقبة عاد إلى مصر مع عبد الله بن سعد
سنة ٢٨ هـ ، لأن هذا الأخير لم يترك فى إفريقية أحداً من المسلمين ، ويظهر أن
بقاء عقبة فى إفريقية هذه السنوات الست ترك أثراً كبيراً فى نفسه ، فتعلقت آماله
بالتفوح والغزوات ، وكان هذا الميل وراثياً فى نفسه . إذ كان أبوه نافع بن القيس
فاتحاً ذا شأن ملحوظ ، فكانت السنوات التى قضاها عقبة فى إفريقية مغازيا البربر ،
متنقلا بين قبائلهم وواحاتهم ، فرصة طيبة لتنمية مواهبه الحربية ، وكان بطبيعته
رجلاً صالحاً شديد الإيمان فأخذ — وهو فى هذا المعتزل — يتحول على مدى
الأيام إلى شخصية حربية دينية لا تكاد تميل إلى شىء غير الجهاد فى سبيل الله ،

(١) ابن الأثير ، أسد الغابة ، ج ٣ ص ٢٠ — ٢١ . الخلاصة النقية ، للباجى ، ص ٥

ولا ترى غاية أعظم من الاستشهاد على قتال المشركين وانصرفت نفسه عن منازعات السياسة وأساليبها ؛ لهذا لا نجد لعقبة ذكراً في الملحمة السياسية الكبرى التي شغلت المسلمين عشرين سنوات تباعاً بين سنتي ثلاثين وأربعين هجرية . والغالب أنه قضى هذه السنوات بمصر مع معاوية بن حديج وبُسر بن أبي أرطاة وشريك ابن سُمي ومسلمة بن مخلد وغيرهم من العنابية ، وأنه اشترك مع هذا نفر في كفاح أنصار على ولا نزاع في أن عقبة كان يستطيع أن يصيب من بعد الصيت في هذه الأيام مثل ما أصابه معاوية بن حديج ، ولكن الميدان لم يكن ميدانه ، فانزوى ساكناً حتى سكنت الريح واستتب الأمر لمعاوية وعادت مصر إلى عمرو ابن العاص ، فوجد الفرصة سانحة لتحقيق ما أملت به نفسه من الفتح والجهاد ، فلم يلبث أن بدأ النشاط من جديد ، فتابع ما حالت الفتنة بينه وبين إتمامه . ولما كان عمرو يعرف تمام المعرفة مواهبه وما انطوت عليه نفسه ، ولما كان عمرو يفكر إذ ذاك في إرسال بعث إلى إفريقية لأسباب مرّ بيانها ، فقد أذن له في الخروج إلى إفريقية ، فلم يكذب أن أسرع في تنفيذ ذلك من سنة ٤١ هـ .

يقول ابن الأثير : « وفي هذه السنة — أي سنة ٤١ هـ — استعمل عمرو ابن العاص عقبة بن نافع بن عبد قيس ، وهو ابن خالة عمرو ، على إفريقية ، فأتته إلى لوانة ومزاةة فأطاعوا ، ثم كفروا فغزاهم من سنته فقتل وسبي . ثم افتتح سنة اثنين وأربعين غدامس ، فقتل وسبي ، وفتح في سنة ٤٣ هـ كورا من كور السودان ^(١) ، ويؤيده أبو الحسن بقوله : « وفيها — أي في سنة ٤٣ هـ — افتتح عقبة بن نافع الفهري كورا من بلاد السودان وودان ^(٢) » ثم يقول ابن الأثير بعد ذلك أن عقبة ظل مقبلاً ببرقة وزويله حتى استعمله معاوية بن أبي سفيان على إفريقية سنة ٥٥ هـ ^(٣) ،

(١) ابن الأثير ، أسد الغابة ، ج ٣ ص ١٨٤ (٢) أبو الحسن ، النجوم الزاهرة ، ج ٢ ص ١٢٥

(٣) ابن الأثير ، أسد الغابة ، ج ٣ ص ١٨٤

ويؤيد ذلك مؤرخ مصرى آخر هو الكندى إذ يقول : « وعقد عمرو بن العاص لشريك بن سُمى الفطيفى على غزو لواتة من البربر ، فغزاهم شريك فى سنة ٤٠ هـ فصالحهم ثم انتقضوا بعد ذلك على عمرو بن العاص ، فبعث إليهم عقبة بن نافع ابن عبد القيس الفهرى سنة ٤١ هـ فغزاهم^(١) » ، ثم يعود فيقول : « وعقد عمرو لعقبة ابن نافع على غزو هواره ولشريك بن سُمى على غزو لبدة ، فغزواهما فى سنة ٤٣ هـ ، وعادا وعمرو شديد الدنف فى مرض موته^(٢) » .

بهذا تجتمع لدينا طائفة من الأخبار تدل على أن العرب عادوا بعد سنوات الفتنة يتمون ما كانوا قد بدءوا به قبل أن يثور بركانها ، وليس هناك ما يحول دون قبول هذه الأخبار التى يوردها هؤلاء المؤرخون الثلاثة ، وأن لم تؤيدها بقيتهم . لأن البكرى وأبا المحاسن مؤرخان يوثق فيما يرويانه من أخبار مصر وما يتصل بها ، وأما ابن الأثير فيذكر صراحة أنه اعتمد فى كتابة هذا الجزء من تاريخه على رواية مفرّبين إذ يقول : « والذى ذكره أهل التاريخ من المغاربة أن ولاية عقبة ابن نافع . وهم أخبر ببلادهم ، وأنا أذكر ما أثبتوه فى كتبهم ، قالوا . . . »^(٣) .

لم يكد أمر مصر يستتب لعمرو — إذن — حتى اتجه بأنظاره ناحية المغرب ، فجعل يتخير البارزين من جنده ويرى بهم هذه البلاد ، ولا يبعد أن يكون هؤلاء الجند هم الذين سعوا إلى الخروج فى هذه البعوث ، لأن امتداد الفتنة قد حال بينهم وبين ما كانت نفوسهم تميل إليه من المغازى والفتوح ، ولكن عزم عمرو فى ولايته الثانية لم يكن على ما كان عليه فى ولايته الأولى ، إذ علت به السن عن تدبير

(١) الكندى ، كتاب القضاة والولاة ، ص ٣٢

(٢) نفس المصدر والصفحة

(٣) ابن الأثير ، أسد الغابة ، ج ٣ ص ١٨٤

فتوح واسعة النطاق ، تستدعى الكثير من الإهتمام والعناية ، فلم تزد جهوده على بعوث وطلائع قليلة الأهمية والأثر .

وكان عقبة قد طال به الزمن وهو يتربق الفرصة ليستأنف ما بدأه في ولاية عمرو الأولى من الفتح في فزان وودان وما يجاورها من نواحي الصحراء ، ولا نزاع في أن طول عهده بإفريقية وكثرة اشتغاله بحروبها قد مكّنه من تكوين فكرة واضحة عن هذه البلاد ، إذ اتصل بأهلها وعرف الكثير من أخلاقهم ، وجاس في ربوعها فألم بطبيعتها وتفطن إلى أمثل السبل لفتوحها وإخضاعها ؛ فعرف أن فتح المغرب لا يثبت إلا بأمرين : أولهما إنشاء مركز للعرب في قلب إفريقيا ، تعسكر فيه حاميتهم ، وتوضع فيه أموالهم وتأمين نساؤهم وأثقالهم ، ويخرجون منه للغزو بدل أن يخرجوا من القسطنطينية ، وثانيهما غزو البربر أنفسهم والتوغل في قلب بلادهم ، وإدراكهم في مساكنهم في الهضاب والقفار والصحراء ، وسفوح الجبال بدلا من الاكتفاء بغزو مدائن الساحل ونهبها ثم العودة بالغنيمة ، لأن العرب ما يكادون ينصرفون عن هذه البلاد ، حتى تعود إلى ما كانت عليه قبلا ، لاتصال الأسباب بينها وبين الدولة البيزنطية عن طريق البحر ، ولقلة ما يتركه المسلمون من أثر في غاراتهم السريعة ، ثم لأن غزو روم الساحل لا خير فيه ، وإخضاعهم لا يعنى خضوع إفريقيا

إلى هاتين الغايتين اتجهت همه عقبة ، والغالب أنه كان قد عقد النية — يوم خرج في ولايته الأولى — على أن يتم الشطر الأول ، ثم يعقبه بالشطر الثاني ، ففاجأه العزل وحال بينه وبين تنفيذ ما أراد .

وكان عقبة على الحق فيما رأى ، وكانت خطته هي أمثل ما يتبع في إفريقيا ، وقد أكمل شطرها الأول بنجاح ، ولكنه أخطأ في تنفيذ شطرها الثاني ، فكانت حملته الكبرى مغامرة طويلة قليلة الأثر وخيمة العاقبة .

بعث عقبة
في الصحراء

(بدأ عقبة عمله من سنة ٤١ هـ ، فبدأ بإخضاع لوائهم من جديد ، ثم تقدم إلى غدامس فاحتلها سنة ٤٢ هـ ، ثم اتجه إلى الجنوب ففتح بعض واحات الصحراء التي أرادها ابن الأثير بقوله « كوراً من كور السودان »^(١) ، ولبث مقيماً في هذه النواحي حتى ولاة معاوية جند إفريقية وسيره إليها سنة ٥٠ هـ ، ولا يبعد أن يكون قد رجا أن يوافيه عمرو أو معاوية بالجند وهو على سريته هذه ، لئتم ما بدأ به ، وربما بعث في طلب ذلك ، وهنا — كما يغلب على الظن — موضع الخطاب الذي ذهب البلاذري إلى أن عقبة ، أرسله إلى عمرو في حملته الأولى سنة ٢٢ هـ ، إذ أن معنى قوله إنه « قد وضع الجزية على أهل زويلة ومن بينه وبينها ما رأى أنهم يطيقونه ، وأمر عماله جميعاً أن يأخذوا الصدقة من الأغنياء فيردوها إلى الفقراء ، يأخذوا الجزية من الذمة فتحمل إليه بمصر »^(٢) ، أن أهل هذه البلاد كان قد طال عهدهم بالإسلام حين أرسل هذا الكتاب فاعتنقه منهم نفر وبقى منهم نفر آخر على دينه ، فأخذت الصدقة وجمعت الجزية ، بل يفهم كذلك أن بعضهم كان قد أطاع ثم عاد فارتد ، فغزاهم عقبة مرة أخرى وأقام عليهم العمال والجباة ، وبعث إلى عمرو بخبر ذلك كله . ومعقول جداً أن يكون عقبة قد أراد بهذا الكتاب أن يدل على عظيم توفيقه ونجاحه ، ويستحث القائمين بالأمر على موافاته بالجنود والمدد حتى يُتم هذا الأمر الذي بدأ به . ولبث ينتظر الإذن والمدد ليستأنف المسير أما أن يكون قد بعث ذلك الخطاب إلى عمرو سنة ٢٢ هـ أو بعدها بقليل ، فأمر بعيد الاحتمال ، إذ يبعد أن يكون البربر قد أقبلوا على الإسلام من يوم دخل العرب إفريقية إقبالاً يستدعي تنظيم أمورهم وإقامة العمال وجباية الصدقات .

توفي عمرو بن العاص في أول شوال سنة ٤٣ هـ ، وأصبحت يد معاوية ابن أبي سفيان مطلقة في شئون مصر وإفريقية يولى عليهما من يشاء ، وكان

(١) ابن الأثير ، أسد الغابة ، ج ٣ ص ١٨٤ (٢) البلاذري ، فتوح البلدان ، ص ٢٢٤

معاوية بن حديج من أكبر أنصاره في مصر جاهد في سبيل عثمان ومعاوية جهاداً طويلاً وأدرك للعثمانية ثأرها بقتل محمد بن أبي بكر ، وأصلح بين عمرو ومعاوية حين اشتدت الملاحاة بينهما وكادت تؤدي إلى مالا محمد عقباه ، وزُيِّنَتْ له دمشق يوم وفد عليها بعد استقرار الأمور فلما مات عمرو تطلعت نفس ابن حديج إلى شيء من حسن الجزاء الذي استحق ، وعرف له معاوية أياديه ، فأقامه على جند مصر في ولاية عتبة بن أبي سفيان ، وأمره بالمسير إلى إفريقية ، وبعث إليه الإمداد من جند الشام ، فسار في حملته سنة ٤٥ هـ التي مر ذكرها .

ولا نزاع في أن عقبة كان يرجو أن يكون مكان معاوية بن حديج ، ولكنه لم يجد بداً من الرضا بذلك ، لأن معاوية أعلى منه منزلة وأرجح كفة في حساب بني أمية ، فانتظر حتى عاد معاوية من حملته في أوائل سنة ٤٧ هـ بغنيمة قليلة ، وما هو إلا قليل حتى بعث إليه معاوية يأمره بالمسير إلى إفريقية ويمده بالجند خف مسرعاً^(١)

— ٢ —

ينفرد ابن عبد الحكم والبكري بذكر تفاصيل وافية عن أعمال عقبة وفتوحه في حملته الأولى ، فيصفان مسيره من برقة إلى موضع القيروان وصفاً يخالطه قصص كثير ، ويذهبان إلى أن عقبة خرج إلى المغرب سنة ٤٦ هـ «ومعه بسر بن أبي أرطاة وشريك بن سُمي المراضى ، فأقبل حتى نزل بمغداش^(٢) من صرت ، وكان توجه بسر إليها كما حدثنا يحيى بن عبدالله بن بكير ، عن الليث بن سعد سنة ٢٦ هـ ، فأدركه الشتاء وكان (مضعفاً) ، وبلغه أن أهل ودان نقضوا عهدهم ومنعوا ما كان

(١) ذكر ياقوت أن عقبة جمع « من أسلم من البربر وضعهم إلى الجيش الوارد عليه من معاوية » — معجم البلدان ، ج ٧ ص ١٢٤

(٢) يظن أن محبتها بمغداش ، على مرحلة من صرت إلى الغرب — البكري ، وصف لإفريقية ، ص ٧

بسر بن أبي أرطاة قد فرض عليهم ، خلف عقبة بن نافع جيشه هناك ، واستخلف عليهم عمر بن علي القرشي وزهير بن قيس ، ثم سار بنفسه وبمن خف معه أربعائة فارس و حتى قدم ودان » ثم ذكر المؤلفان كيف أخذ عقبة ملك ودان فصلم أذنه أدباً له وفرض عليه جزية قدرها ثلاثمائة وستون عبداً ، ثم سأل أهل ودان عن وراءهم ، فدلوه على جرّمه^(١) « مدينة فزان العظمى » ، فأخضعها بعد أن أدب ملكها ، وفرض على أهلها جزية قدرها ثلاثمائة وستون عبداً ، ووجه ملكها بعد ذلك إلى المشرق ، ثم افتتح قصور فزان ، وانتقل إلى بلد يسميانه خاوار فعجز عن فتحه بعد حصار شهر ، فمضى إلى كوار فافتتحها وأدب ملكها ، ثم عاد خفية ففاجأ أهل خاوار وفتحها ، ثم عاد إلى جيشه على مقربة من صرت ؛ ويضيف هذان المؤرخان إلى ذلك كرامة لعقبة ، إذ : « أقام عقبة بمكان اسمه اليوم « ماء فرس » — ولم يكن به ماء — فأصابهم عطش شديد أشفى عقبة وأصحابه على الموت ، فصلى عقبة ركعتين ، ودعا الله وجعل فرس عقبة يبحث بيديه في الأرض ، فكشف عن صفاة فانفجر منها الماء ، فجعل فرس عقبة يمح ذلك الماء ، فأبصره عقبة فنادى في الناس أن احتفروا فحفروا سبعين حسيّاً ، فشربوا واستقوا فسمى لذلك ماء فرس^(٢) » .

يحدد المؤرخان سنة ٤٦ هـ لهذه الغزاة ، أى أنها كانت في نفس الوقت الذي كان فيه معاوية بن حديج على غزو إفريقية ، ويرويان بعد الفراغ منها أن عقبة اتجه رأساً إلى غدامس ، فأقليم قسطنطينية فكان القيروان ، فإذا قدرنا شهرين لمسير عقبة من صرت إلى غدامس — بعد رجوعه من هذه الجولة الصحراوية —

(١) ذكر الرواة أن عقبة خلف هذين على القيروان حين سار إلى إفريقية

(٢) يغلب أن الـ Garamantes الذين يذكروهم دليل هم أهل جرمة هذه .

(٣) ابن عبد الحكم ، فتوح ، ص ١٩٤ — ١٩٦ ، والبكري ، وصف إفريقية ،

ص ١٣ و ١٤ باختلاف بسيط

لكانت المدة التي انقضت بين شروعه في السير الأول من برقة وشروعه في بناء القيروان عشرة شهور أو سنة واحدة على الأكثر . وإذا كان عقبة قد بدأ بناء القيروان سنة ٥٠ هـ فلا بد أن يكون قد قام بغزوته تلك خلال سنة ٤٩ هـ ، وإلا فكيف يتفق ذلك مع قولها إن عقبة شرع في هذه الغزوة سنة ٤٦ هـ ، وإذا كان عقبة قد أتم جولاته الصحراوية الطويلة في شهور خمسة ، فكيف قطع المسافة من فزان إلى القيروان عن طريق قسطنطينية في ثلاثة السنوات الباقية ؟ أغلب الظن أن المؤرخين أخطأ في تحديد ذلك التاريخ ، فذكرنا سنة ٤٦ هـ بدلا من سنة ٤٩ هـ .

بذلك تستقيم سلسلة الحوادث : رجع معاوية بن حديج في أوائل سنة ٤٨ هـ ، وشرع عقبة في المسير سنة ٤٩ هـ إذ لا يتفق القول بأن معاوية بن أبي سفيان سير عقبة في نفس الوقت الذي كان فيه معاوية بن حديج على غزو إفريقية . وإذا جاز أن نستنتج شيئا من قول ابن عبد الحكم والبكري إن الوقت كان شتاء ، لصح القول بأن مسير عقبة كان في أوائل سنة ٤٩ هـ لأن أول الحرم من هذه السنة يوافق ٩ فبراير سنة ٦٦٩ م^(١) أي منتصف الشتاء .

(عاد عقبة إلى جيشه) الذي كان معسكراً على مقربة من صرت بعد غيبة خمسة أشهر استراح الجند خلالها ، وجمت خيولهم وظهرهم لا فساد متوجهاً إلى المغرب ، وجانب الطريق الأعظم ، وأخذ إلى أرض فزان ، ففتح كل قصر منها ، ثم مضى إلى (يياض) فافتتح قلاعها وقصورها ، ثم بعث خيلاً إلى غدامس فافتتحت غدامس ، فلما انصرفت إليه خيله سار إلى قفصة فافتتحها وافتتح قسطنطينية ثم انصرف إلى القيروان^(٢) .

(١) روث ، ص ٣٥ Roth, op. cit. p. 35 وفورنل ، ج ١ ص ١٥٠ Fournel,

op. cit. I. p. 150 وقد أورد أحداث هذه الرحلة الصحراوية بدون تعليق

(٢) ابن عبد الحكم ، فتوح ، ص ١٩٦ — البكري ، وصف إفريقية ، ص ١٤

يتفق ابن الأثير وابن عذارى والنويري^(١) على القول بأن معاوية وتلى عقبة أمر إفريقية في سنة ٥٠ هـ ، ويؤيد المؤرخون البيزنطيون ذلك ، فيتفقون على ذكر حملة كبرى على إفريقية في أول حكم قسطنطين الرابع^(٢) ، ومن هنا كان الراجح أن عقبة قام بحملته في الصحراء عقب عودة معاوية بن حديج من إفريقية وقبل تولية معاوية إياه وإرساله الإمداد إليه ، ولهذا عاد إلى مركزه الأول على مقربة من صرت ، ولو كان معاوية أمره على إفريقية آنئذ لسار إلى إفريقية رأساً دون الحاجة إلى العودة إلى صرت ، فلما وصله الأمر والمدد شرع في السير إلى الغرب ، واحتل غدامس ، وربما كان هذا هو السبب في إغفال أكثر المؤرخين ذكر هذه الغزوة الداخلية ، إذ أن معظمهم بدأ تاريخ غزوة عقبة من ساعة وصول العشرة آلاف جندي إليه في أوائل سنة ٥٠ هـ ، ويبدو أن تتابع حملاته على هذه النواحي من سنة ٢٢ هـ إلى ٤٩ هـ أدى إلى دخول بعض أهلها في الإسلام ، لأن ابن الأثير والنويري يذكران أن عقبة أخذ معه من أسلم من البربر عند مسيره إلى إفريقية سنة ٥٠ هـ^(٣) .

(اتخذ عقبة طريقه في داخل البلاد مباعداً الساحل ، وقد لزم هذه الخطة في كل أعماله — سواء في هذه الغزوة أو فيما بعدها — وربما كان دافعه إلى ذلك إثارة الابتعاد عن الإقليم الساحلي المليء بالحصون والحارس وتفضيله الطريق الداخلي المقفر الذي لا تكون فيه إلا مقاومة ضئيلة من القبائل البربرية وسكان الواحات ؛ ولا نزاع في أن عقبة لم يكن على الصواب دائماً في التزام هذه الخطة

مسير عقبة
إلى إفريقية

(١) ابن الأثير ، أسد الغابة ، ج ٣ ص ١٨٤ — النويري ، نهاية الأرب ، ورقة ٦٨ ١ —

ابن عذارى ، البيان المغرب ، ج ١ ص ١١ — ١٢

(٢) المسمى Pogonat الذي بدأ حكمه في ١٥ يوليوسنة ٦٦٨ أي ما يوافق أواخر سنة ٤٨ هـ

(٣) ابن الأثير ، أسد الغابة ، ج ٣ ص ١٨٤ — النويري ، نهاية الأرب ، ص ٦٨ ١ ،

ويؤيد ذلك ليني بروفنسال إذ يؤكد أن جيش المسلمين أخذ يتزايد بانضمام البربر إليه أثناء مسيره في البلاد ، أنظر د . م ١ ، مادة عقبة

وتجنب غيرها ، لأنها جعلت من غزواته مغامرات قليلة الجدوى ، لقلة ما فتح أثناءها من مدائن البلاد الكبرى وحصونها المهمة ، وذلك على الرغم مما كان جنوده يلقون من متاعب المسير في هذه النواحي الجبلية القاحلة .

سار عقبة متنقلا بين أقاليم الواحات التي لقيها في طريقه مثل غدامس وقسطنطية ومن ثم أفضى إلى إفريقية فاتجه رأساً إلى موضع قثونية الذي كان معاوية بن حديج قد عسكر فيه قبله ، فوقع اختياره عليه ليقم فيه المدينة التي كان قد عقد العزم على بنائها ..

لم يكن أهل إفريقية يتوقعون مجيء العرب إذ ذاك ، فلم يتخذوا الحذر ولم يلجأوا إلى حصونهم كما عهدناهم في الغزوات السابقة ، فدهمهم عقبة ، وأصاب منهم كثيراً ، بهذا يحدثنا النويري : « فافتتحها ووضع السيف حتى أفنى من بها من النصارى ^(١) »

ولسنا نجد ذكراً لذلك القتل الذريع في غير النويري والاستبصار ^(٢) من المراجع العربية ، وإن كان المؤرخون البيزنطيون من أمثال تيوفانيس وقدرينوس وانسطاس الكتي ، يجمعون على وقوع اضطهاد شديد بالمسيحيين في إفريقية في أوائل حكم قسطنطين الرابع (بجونات) ، أى في نفس الفترة التي قاد عقبة فيها حملته على إفريقية ^(٣) .

(١) النويري ، نهاية الأرب ، ٦٨ ١

(٢) الاستبصار ، (طبعة كريمر ، فينا) ص ٣ . وظاهر أنه نقل ذلك عن النويري ، لأن عبارتهما تتفقان حرفياً .

(٣) Theophanes, I, p. 549. Cedrenus, Compendium, I, p. 764 Anastase

Hist. Eccl. II, p. 177, Fournel, op. cit. I, p. 151

وقد أيد المستشرقون من أمثال فورنل ودبل وروت هذه الأخبار ، وبالفوا في تصوير هذا

الاضطهاد مبالغاً جعلت منه بحراً من الدماء كما قال روت ، أنظر Roth, op. cit. p. 842—

Fournel : op. cit. I, p. 151

عقبة يفكر
في اختطاط
القيروان

(كان عقبة يقدر أهمية إقامة مدينة للمسلمين في إفريقية ، لأنه قال : « إن إفريقية (إذا دخلها إمام) تحوَّموا بالإسلام ، فإذا خرج منها رجع من كان أسلم بها ، وارتد إلى الكفر ، وأرى لكم — يامعشر المسلمين — أن تتخذوا بها مدينة نجعل فيها عسكرياً وتكون عز الإسلام إلى أول الدهر^(١) » . فشرع في اختطاط هذه المدينة دون أن ينتظر طويلاً ، ولا شك أن تفتن عقبة إلى ذلك الأمر ، ومبادرته بإنفاذه كان إيذاناً يبدأ العمل المنتج لفتح إفريقية ، فتأسيس هذه المدينة هو الحد الفاصل بين المحاولات الأولى التي تقدمتها والتي لم تنته إلى شيء ، والأعمال التي ستليها والتي ستنتهي بفتح البلاد فتحاً دائماً يجعل منها بلاداً إسلامية صرفة ، إذ أن جند المسلمين كانوا قبل ذلك يخرجون من مصر للأغارة على ما يستطيعون من بلاد إفريقية ثم يعودون إلى مصر أو إلى برقة محملين بالغنائم — أو من غير غنائم — دون أن يخلفوا في البلاد أثراً ودون أن يكون في غاراتهم معنى الفتح .

يذكر ابن عبد الحكم أن عقبة « لم يعجب بالقيروان الذي كان معاوية ابن حديج بناه قبله ، فركب والناس معه حتى أتى موضع القيروان اليوم ، وكان وادياً كثير الشجر والعطف . تأوى إليه السباع والوحوش والهوام^(٢) » ؛ ويجمع المؤرخون — عدا المالكي — على ذكر ما قاله ابن عبد الحكم بالنص أو بالمعنى ، ويزيد المغربيون منهم فيحيطون تخطيط القيروان بعدد كبير من الأساطير^(٣) ظاهر الاتحال ، فهل كان موضع القيروان كما قال ابن عبد الحكم حقاً و « شعاري لا يسلك^(٤) » و « دجلة مشتبكة بها أنواع الحيوان من السباع والحيات^(٥) » أم كان « حصناً لطيف الكروم ، وكان فيه كنيسة وفيها الساريتان الحراوان اللتان

(٢) ابن عبد الحكم ، فتوح ، ص ١٩٦

(٤) ابن الأثير ، أسد الغابة ، ج ٣ ص ١٨٤

(١) النويري ، نهاية الأرب ، ص ٦٨

(٣) النويري ، نهاية الأرب ، ص ٦٨ ب

هما اليوم في المسجد»^(١) كما يقول المالكي ؟ لكي نصل إلى الحقيقة لابد من تحقيق قونية هذه التي اختطت القيروان موضعها أو فيها .

يتفق البكري واليعقوبي والتيجاني^(٢) على أن قونية قطر فسيح كثير العمران والزروع ، ويذكره الإدريسي وابن حوقل باسم قمودة^(٣) ، وأنه يضم عدداً من القرى والمدائن مثل قاصرة ومذكور ونقاوس وجونس الصابون ، ويعملون حدها الجنوبي إقليم قسطليلية وحدها الشمالي سوسة ، ويذهب التيجاني إلى أن هذا الإقليم يصل إلى البحر ، لأنه يذكر ساحل قونية وشاطئ قونية^(٤) ، وذكر ياقوت أن قونية هي المدينة المعروفة بسوسة المغرب^(٥) . ولما كان المعروف أن سوسة هذه هي هادروميتوم الرومانية ، وإلى جنوبها تقع بلدة Caput-Vada الرومية كذلك (التي يظن أن العرب حرفوا اسمها إلى قمودة أو قونية) فإنه يغلب على الظن أن ياقوت أراد أن يقول إن قونية هي المنطقة المحيطة بمدينة سوسة .

قونية إذن — كما يحددها الجغرافيون — هي قلب إفريقية البيزنطية ، وكانت غاصة بالحصون والمدائن والمزارع والطرق وما إليها من معالم العمران ، فكيف اتفق إذن وجود هذه الغابات الكثيفة الملائي بالحشرات والهوام والسباع والحيات في وسط هذا الإقليم العاصر المطروق ؟ ولو لم يكن التيجاني قد أكد اتصاله بالبحر لكان معقولاً أن توجد فيه نواح مقفرة من السكان والعمران ، لأن بعض أجزاء الولاية الداخلية كان قد أدركه الخراب من منتصف العصر البيزنطي ، أما وهي مطلة على البحر فيستبعد جداً وجود هذه الغابات الملتفة والشعاري التي

(١) المالكي ، رياض النفوس ، ورقة ٧

(٢) التيجاني ، رحلة ، ١٤ و ١٤ ب والبكري ، وصف إفريقية ، ص ٧٥

(٣) الإدريسي ، ص ١٣٣ وابن حوقل ويتفق وصف هذين الإثنين لقمودة مع وصف البكري لقونية ويذكرون فيها مدناً واحدة مما يدل على أن قونية وقمودة إقليم واحد

(٤) التيجاني ، رحلة ، ١٤ و ١٤ ب (٥) معجم البلدان ، ج ٤ ص ١٧٦

لا تسلك فيها ولو أن ذلك قيل عن مكان آخر بداخل البلاد لقبه العقل ، لأن هذه المنطقة كانت قبل أن يسكنها الإنسان منطقة غابات معتدلة ملتفة الأشجار ، أما إقليم قونية كما يحدده الجغرافيون فليس من المعقول أن تكون هذه الغابات قد تركت فيه على حالها خلال العصور الماضية كلها ، مع أنه على بعد ثلاثة أيام من قرطاجنة نفسها .

لعل قول المالكى إن موضع القيروان كان حصنا لطيف الكروم وإنه كان موضعا لكنيسة حسنة البناء ، فيها الساريتان الحمراء واللتان نقلهما حسان بن النعمان إلى مسجد عقبة فيما بعد ، لعل هذا القول هو الصواب^(١) ومن المعقول أن يكون هذا الحصن اللطيف الكروم قد أدركه الخراب فى أوائل القرن السابع وهجره أهله فسكنت إلى كرومه بعض الذئاب والضباع وما إلى هذه من الوحوش التى تجاور العمران ؛ فلما أقبل عقبة وأصحابه وقع اختيارهم على موقع ذلك الحصن ، فخطوا رحالهم على مقربة منه وأخذوا يستعدون لتخطيط مدينتهم إلى جواره ، ففرغت الضواري من جلبه الجيش الذى عسكر إلى جوارها ، فأخذت تنسرب هاربة ، فرآها العرب تفعل ذلك فظنوا أنها معجزة من معجزات عقبة ، فكان ذلك موضعا خصبا لخيال الرواة ، فأضافوا خطابة للوحوش وصوروا الكرم هذا التصوير المبالغ فيه حتى تم المعجزة ويصح للقيروان ما يريدونه لها من القداسة والجلال .

هكذا يمكن تفسير ما اجتمع عليه رأى المؤرخين من وقوف عقبة على الموضع الذى تخيره لاختطاط القيروان ومناداته : « أيتها الحيات والسباع ! نحن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، إرحلوا عنا إنا نازلون ! ومن وجدناه بعد ذلك قتلناه ؛ فنظر الناس فى ذلك اليوم إلى السباع تحمل لبشباها والذئاب تحمل أجراها

(١) المالكى ، رياض النفوس ، ص ٨ ويؤيد إيفيه ذلك إذ يقول إن قونية أو قودة مدينة رومانية قديمة وينسب إلى أن العرب استعملوا موادها فى بناء القيروان — أنظر دائرة المعارف الإسلامية مادة قيروان

والحيات تحمل أولادها ، فأسلم كثير من البربر^(١) » وقد أفاض المؤرخون المغربيون في تفصيل ما دار بين عقبة وأصحابه في تحديد موضع القيروان ، فذهب الدباغ في معالم الأيمان إلى أن عقبة تحرى أن يكون لأهلها ثواب الرباط وشرف الجهاد ، وابتعد بها عن الساحل حذراً من مفاجأة الروم لها ، وجعلها على مقربة من سبخة لتكون قريبة من المراعى ، فترعى الإبل فيها آمنة من غارة البربر والنصارى^(٢) بل بلغ من إعجاب رواة المغرب باختيار عقبة أن أحد رواة الدباغ — وهو الشيخ الصالح الفقيه أبو مهدى عيسى الضميلي — زعم أنه استبان أن القيروان رابعة الثلاثة مكة والمدينة وبيت المقدس^(٣) .

موقع
القيروان

والواقع أن عقبة أحسن اختيار هذا الموقع ، فقد كان تنظيم الفتح يستدعى إقامة مدينة في هذا الموضع المتوسط بين الساحل والهضبة ، القريب من السفوح الصالحة للمرعى وقد علق كودل على ذلك بقوله : « وكان اختيار المكان موفقاً بل بلغ من التوفيق في اختياره أن ولاية المغرب ومن خلفهم من الحكام المستقلين قاموا بها زماناً طويلاً ، ولم ينتقلوا عنها إلا حينما اضطرتهم ظروف سياسية جديدة إلى ذلك . كما كان موقعها الحربي معروفاً ملحوظ الأهمية ، إذ كان الحاكم الذى يتخذ هذا الموضع مركزاً لأعماله ، يستطيع أن يرى العدو من بعيد ويتحرز من الغارات المفاجئة الكثيرة الحدوث عند البربر . وإذا أراد أن يطاردهم إلى هضابهم وجد الطريق مفتحة أمامه ، إذ كان يستطيع بعد مسير بضع ساعات الوصول إلى أعلى الهضاب ، عن طريق وادى زرود ووادى مرّجلّ ومسالك جبل بارجو ، ومن أعلى الهضاب كان يستطيع الإشراف على ما يجاورها ، فيتيسر له حكمها إذا كانت لديه

(١) التويرى ، نهاية الأرب ، ٦٨ ب وقد أوردها بقية المؤرخين بصور مختلفة — ابن عبد الحكم ، فتوح ، ص ١٩٦ — ابن الأثير ، أسد الغابة ، ج ٣ ص ١٨٤
(٢) الدباغ ، معالم الأيمان ، ج ١ ص ٨ و٩
(٣) نفس المصدر ، ج ١ ص ٦

القوة الكافية لذلك . كذلك كان فرسانه الخفاف قديرين على أن يقوموا بهذا النوع من أعمال الاستطلاع والغارات السريعة والحراسة الدائمة^(١) .

بدأ عقبة في تخطيط المدينة « فاخطط دار الإمارة والمسجد الأعظم ولم يحدث فيه بناء وكان يصلى فيه وهو كذلك^(٢) » ثم « بنى الناس مساجدهم ومساجدهم^(٣) » « وهكذا كانت المدينة في أول أمرها وعلى ذلك بقيت زماناً طويلاً » فلم يكن المسجد كما أقامه عقبة بالبناء الكامل وإنما كان — كما يفهم من رواية النويرى — عقبة قد حدد موضعه فقط وربما أحاطه بسياج وجعل له قبلة كما حدث في كل المساجد الإسلامية التي بنيت في ذلك الحين^(٤) ، ويؤكد النويرى أن خلافاً قام بين عقبة وأصحابه على موضع القبلة فقالوا له : « إن أهل المغرب يضعون قبلتهم على قبلة هذا المسجد فاجهد نفسك في أمرها^(٥) » فظل عقبة متحيراً أياماً حتى ألهمه الله باتجاهها فأقامها وتلك أسطورة أخرى مما يحيط بعقبة ينفيها مجرد التساؤل عن القبلة التي كان عقبة وأصحابه يتوجهون إليها في صلاتهم قبل أن يبدءوا في بناء المسجد ، وتأخذهم الحيرة في تحديد اتجاه القبلة .

وقد ذهب ابن عذارى إلى أن دور المدينة في ذلك الحين بلغت « ثلاثة عشر ألف

(١) كودل ، ج ٢ ص ١٠٤ — ١٠٥ Caudel, op. cit. II, pp.104,105

(٢) النويرى ، نهاية الأرب ٦٩ ١

(٣) ابن الأثير ، أسد الغابة ، ج ٣ ص ١٨٤ وقد أبان البكرى عن ميزات موضعها بقوله إنها « في بساط من الأرض مديد ، من الجوف منها بحر تونس وفي الشرق بحر سوسة والمهدية ، وفي القبلة أسفاقس وقابس وبينها وبين الجبل مسيرة يوم ، وبينه وبين سواد الزيتون المعروف بالساحل مسيرة يوم ، وشرقيها سبخة ملح عظيم طيب ظليف ، وسائر جوانبها أرضون طيبة كريهة » البكرى ، وصف أفريقية ، ص ٢٤

(٤) روى الطبري في حوادث سنة ٥٠ هـ عن المفصل بن فضالة ما يلى : « عن يزيد بن أبي حبيب عن رجل من جند مصر قال قدمنا مع عقبة بن نافع ، وهو أول الناس اختطها وقطعها للناس مساكن ودوراً ، وبنى مسجدها فأقننا معه حتى عزل وهو خير وال وخير أمير ، مما يفهم منه أن عقبة اهتم ببناء الدور والمساكن وأنه وفق إلى شيء من ذلك — الطبري ،

ج ٦ ص ١٢٩ (٥) النويرى ، نهاية الأرب ، ص ٦٩ ١

ذراع وستمئة ذراع^(١) » وتلك مبالغة ظاهرة والغالب أنها لم تزد في ذلك الحين على قول روث : « ومن المحتمل أن لا تكون القيروان في زمن عقبة أكثر من مخزن للسلاح (قيروان) ثم أخذت المباني والمنازل تقام حوله بعد ذلك^(٢) » وربما يكون عقبة قد أقام حولها سوراً لأن الباجي يقول : « إنه — أى عقبة — جعل دور سورها إثني عشر ميلاً^(٣) » ولم يذكر أحد من المؤرخين ذلك ، ولكن ليس هناك ما يمنع من قبوله مع الإشارة إلى المبالغة الظاهرة في تحديد طول سور مدينة ناشئة بإثني عشر ميلاً .

(كان عقبة يعرف أهمية إقامة القيروان . وكان قد أراد منها : « أن تتخذ مدينة يكون بها عسكر المسلمين وأهلهم وأموالهم ليأمنوا من ثورة تكون من أهل البلاد^(٤) » . فأنفق في بنائها وتخطيطها هذا الوقت الطويل ، دون أن ينصرف إلى عمل آخر من أعمال الفتوح التي كان قد عقد العزم على القيام بها) وقد أبدى فورنل دهشته من أن العرب أنفقوا هذا الوقت الطويل في بناء القيروان ، مطمئين تمام الاطمئنان من هجوم الروم عليهم ، مع أن القيروان لم تكن تبعد عن قرطاجنة أكثر من ثلاثة أيام ، وعلى ذلك بأن الروم كانوا إذ ذاك في شغل عن إفريقية وغيرها من ولاياتهم ، إذ كان العرب يحاصرون القسطنطينية حصارهم الثاني الذي بدأ سنة ٤٩ هـ وانتهى سنة ٥٢ هـ ، فانقطعت الإمداد عن الروم بإفريقية ، طوال هذه المدة وعدة سنوات بعدها ، إذ ظلت الدولة تقاسى آثار هذا الحصار الشديد زماناً طويلاً^(٥) ، وقد وصف ديل عمل عقبة بأنه كان « شجاعة عظيمة » وعلى انصراف روم إفريقية عن العرب بضعفهم وانقسامهم على أنفسهم^(٦) ، ومهما يكن من الأمر

(١) ابن عذارى ، البيان المغرب ، ج ١ ص ١٤ (٢) روث ، ص ٤٩ ، ٤٩ Roth, op. cit. p. 49

(٣) الباجي ، الخلاصة النقية ، ص ٥ (٤) ابن الأثير ، أسد الغابة ، ج ٣ ص ١٨٤

(٥) فورنل ، ج ١ ص ١٥٧ — ١٥٨ Fournel, op. cit. I. pp. 157—158

(٦) ديل ، ص ٥٧٣ Diehl. op. cit. p. 573

فقياء العرب بإقامة هذه المدينة في وسط ولاية إفريقية البيزنطية ، يدل تمام الدلالة على أن سلطان الروم كان قد تقلص من الداخل تماماً

ويبدو من قول ابن الأثير : « وكان في أثناء عمارة المدينة يغزو ويرسل السراية فتغير وتتهب ، ودخل كثير من البربر في الإسلام واتسعت خطة المسلمين ، وقوى جنان من هناك من الجنود بمدينة القيروان واطمأنوا على المقام فثبت الإسلام فيها »^(١) أن عقبة لم يظل ساكناً ، طوال هذه السنوات الأربعة التي قام فيها بتخطيط المدينة ، وإنما أخذ يبعث السرايا إلى الجهات المجاورة ، فيصيبون ما يصلون إليه ثم يعودون على عادة العرب في غاراتهم السريعة . وربما كانت تلك الغارات هي بعض ما أراده المؤرخون البيزنطيون — الذين سبقت الإشارة إليهم — من ذكرهم المذبحة الشديدة التي نزلت بمسيحيي إفريقية في ذلك الحين . ويفهم من تلك الرواية كذلك أن استقرار المسلمين في ذلك المكان أربع سنوات ، وقيامهم ببناء المدينة قد أثار بين البربر اضطراباً شديداً ، وأنهم جعلوا يفتدون على المسلمين إما لمخاربتهم أو للصلح معهم فأخذت دعوة الإسلام تلقى هوى من نفوسهم .

بدأت إفريقية تصبح ولاية ذات أهمية بعد بناء القيروان ، إذ كانت المدينة الجديدة نواة إفريقية الإسلامية ، كما كانت القسطنطينية نواة مصر الإسلامية ، فكان طبيعياً أن يطمع فيها ولاية مصر ويسعوا ليجعلوها جزءاً من ولايتهم ، كما كانت قبل قيام القيروان ، وكان ميدان إفريقية أوسع من ميدان مصر ففيه المجال مفتوح للغزوات والغنائم والأسلاب وكان عامل مصر منذ سنة ٤٧ هـ ، هو مسلمة بن مخلد الأنصاري ، وهو أموي ملحوظ الأثر في نصرة عثمان ، وكان أثيراً على معاوية وأولى الشأن في هذه الأيام . وكانت إفريقية في أول ولايته شيئاً آخر يختلف عما صارت إليه بعد سنوات ثمان من حكمه كانت في أول الأمر ميداناً غير محدود

(١) ابن الأثير ، أسد الغابة ، ج ٣ ص ١٨٤

ليس للعرب فيه أملاك ولا رعية ولا مدائن . فلم يلق إليها بالا ولم يجد بأساً في أن يولى عقبة قيادة الحرب فيها من قبل معاوية رأساً دون طلب رأيه ، أما الآن — وبعد قيام القيروان وبناء المسجد والمدينة — فقد بدأت الولاية الجديدة تسترعى التفاته ، فمالت نفسه إلى السيطرة عليها وجعلها من بلاده ، وساءه من عقبة انصرافه عنه وعدم حفله به ، وصدوره في عمله غير ملق إليه بالا ، فأحفظه ذلك منه وزاده رغبة في السيطرة على إفريقية ، ولبت يتحين الفرصة لذلك .

لماذا عزل
عقبة ؟

وكان عقبة قد انصرف عن كل شيء — خلا تخطيط المدينة — خلال هذه السنوات ، فلم يتم بما تعود قواد العرب القيام به ، من غزو المدائن والمزارع والفوز منها بالغنائم الوافرة ، ومن ثم انقطع ما كان العرب تعودوا وروذوه من إفريقية من وفرة الغنائم والأموال . ولما كانت هذه هي المقياس الذي كان يقاس به جهد الفاتحين ، ولما كانت أهمية القيروان لم تتضح إلا لعقبة وحده ، فقد سهل لمسلة ومن معه ، أن يهونوا من شأن عقبة لدى الخليفة عن ذلك السبيل ، فأقنعوه آخر الأمر بالتخلي عنه ، واستبدال غيره به على حكومة البلاد .

ذلك أقرب التفاسير لعزل عقبة المفاجيء ، الذي تنبئنا به المصادر من غير تعليل أو بتعليل طفيف ، وربما كان إغفالهم أسباب هذا العزل راجعاً إلى خطئهم في ترتيب ولاية مصر ، وفي تحديد علاقة هذه الأخيرة بإفريقية في هذا الحين .

قال الطبرى في حوادث سنة ٤٧ هـ : « وفيها عزل عبد الله بن عمرو بن العاص عن مصر ، ووليا معاوية بن حديج ، وسار — فيما ذكر الواقدي — في المغرب وكان عثمانياً »^(١) وقال في حوادث سنة ٥٠ هـ : « وفيها عزل معاوية بن حديج عن مصر ، وولى مسلة بن مخلد مصر وإفريقية ، وكان معاوية بن أبي سفيان قد بعث — قبل أن يولى مسلة مصر وإفريقية — عقبة بن نافع الفهري ، إلى إفريقية

(١) الطبرى ، ج ٦ ص ١٢٩

فافتتحها واختط قيروانها . . . وعزل معاوية هذه السنة أعنى سنة ٥٠ هـ معاوية ابن حديج عن مصر ، وعقبة بن نافع عن إفريقية ، وولى مسلمة بن مخلد مصر والمغرب كله ومصر وبرة وإفريقية وطرابلس . فولى مسلمة بن مخلد مولى يقال له أبو المهاجر علي إفريقية من قبل حتى هلك معاوية بن أبي سفيان^(١) ، أى أن الطبرى يجعل ولاية عبد الله بن عمرو تمتد إلى سنة ٤٧ هـ ، ثم يعقبه معاوية بن حديج إلى سنة ٥٠ هـ ، ثم مسلمة بن مخلد إلى وفاة معاوية . وليس الواقع كذلك ، كما نعلم أن عبد الله بن عمرو عزل في نفس السنة التى ولى فيها وهى سنة ٤٤ هـ وخلفه عقبة ابن أبي سفيان فظل إلى سنة ٤٥ هـ ، ثم عقبة بن عامر الجهنى الذى ظل إلى سنة ٤٧ هـ ، حين ولى مسلمة بن مخلد . فلا محل لولاية معاوية بن حديج إذن ، وإنما استنتج المؤرخون ولايته استنتاجاً ، إذ قالوا إن عمرو بن العاص كان والى مصر ، فقام يغزو إفريقية ، وكذلك عبد الله بن سعد ، فلما تسامعوا بغزو معاوية ابن حديج ، فقد استنتجوا من ذلك أنه كان والى مصر إذ ذاك ، ولما كانت غزوة عقبة تقع — فى حسابهم — فى ولاية معاوية بن حديج فقد استنتجوا أن هذا الأخير هو الذى سيره إلى إفريقية ، وما دام معاوية بن حديج قد عزل سنة ٥٠ هـ بمسلمة بن مخلد ، فطبيعى أن يعزل معه قائده على إفريقية عقبة بن نافع ، ويولى مسلمة بن مخلد على مصر والمغرب معاً .

ومن هنا كان خطأ ابن الأثير وابن عذارى ومن أخذ عنهم من رواة المغرب ، وسكوتهم عن استقصاء أسباب عزل عقبة ، ومن هنا كذلك كان خطأ أبي العرب تميم وقوله : « إن عقبة بن عامر هو الذى بنى القيروان » وخلط المالكي الشديد فى هذا الجزء وأخطاء أخرى شديدة وقع فيها القيروانى : فى المؤنس وابن مقديش فى نزهة الأنظار^(٢) .

(١) الطبرى ، ج ٦ ص ١٢٩

(٢) قال ابن الأثير : « وقد ذكر أبو جعفر الطبرى أن فى هذه السنة (٥٠ هـ) ، ولى مسلمة بن مخلد لإفريقية ، وأن عقبة تولى قبله وبني القيروان » ثم عاد فذكر رواية أخرى بعد =

وقد يبدو قول ابن الأثير والنويرى وأبو الحسن ، إن مسلمة بن مخلد أول من جمع له المغرب ومصر غريباً ، لأن عمرو بن العاص وعبد الله بن سعد كانا قبله واليين على مصر وعلى ما كان العرب قد فتحوه من إفريقية . فلماذا لقب مسلمة بذلك اللقب ؟ . وهل لقب به من أول ولايته أى سنة ٤٧ هـ ، أم أطلق عليه هذا اللقب بعد ذلك ؟ قبل تفسير ذلك ، ينبغي أن نرجح أنه لم يلقب بذلك اللقب إلا بعد ولايته بنحو ثمان سنين أى سنة ٥٥ هـ ، وهى السنة التى عزل فيها عقبة عن إفريقية لأن ولاية إفريقية لم تكن إليه هذه السنوات الثمانية . إذ كان معاوية ابن حديج قد ولى من قبل معاوية بن أبي سفيان حتى سنة ٥٠ هـ ، ثم عقبة بن نافع من قبل معاوية كذلك . فلا يتفق أن معاوية ولى على إفريقية مسلمة بن مخلد

= ذلك أقرب للصحة ، قال قبل روايتها : « والذى ذكره أهل التاريخ من المغاربة أن ولاية عقبة ابن نافع لإفريقية ، كانت هذه السنة وبني القيروان وبقى إلى سنة ٥٥ هـ وولياها مسلمة بن مخلد ، وهم أخبر ببلادهم ، وأنا أذكر ما أثبتوه فى كتبهم قالوا ... » وقد أخطأ فجعل ولاية مسلمة بن مخلد تبدأ سنة ٥٥ هـ ولكنه ذكر تأسيس القيروان على صحته . وقال ابن عذارى : « وفى سنة ٤٧ هـ عزل معاوية بن أبي سفيان عبد الله بن عمرو بن العاص عن مصر ، وولاهها معاوية بن حديج الكندى » وقد روى محمد بن أحمد بن تميم (أبو العرب) عن أحمد بن أبي سليمان ، وحبيب صاحب مظالم صحتون وغيرهما ، عن سحنون عن ابن وهب عن الليث بن سعد قال : « بلغنى أن عقبة بن عامر غزا قبل ذلك لإفريقية ، يعنى قبل عقبة بن نافع ، ثم روى بناء عقبة للقيروان وقصته مع الحيات منسوبة إلى عقبة بن عامر » والخطأ فى هذا ظاهر . وانفرد المالكي فى رياض النفوس بأخطاء لم يشاركه فيها أحد ، فجعل سعيد بن يزيد (يكتبه بن زيد) يبعث عقبة إلى إفريقية ، مع أن سعيداً ولى مصر سنة ٦٣ هـ ، أى فى السنة التى سار عقبة فيها إلى إفريقية فى غزوته الثانية . ثم جعل معاوية بن أبي سفيان (الذى توفى سنة ٦٠ هـ) ، يعزل سعيداً بعد ذلك ، ويولى مسلمة بن مخلد الذى يعيد أبا المهاجر إلى إفريقية سنة ٥٧ هـ وهذا خلط واضح . أما ابن أبي دinar فقد جعل غزوة عقبة التى بنى فيها القيروان سنة ٤٢ هـ أو ٥١ هـ . وذهب ابن مقديش إلى أن معاوية بن أبي سفيان : « أعاد معاوية بن حديج بجيوش الشام سنة ٥٠ هـ » والحقيقة أن الذى أعيد فى هذه السنة هو عقبة . وذكر كذلك أن مسلمة بن مخلد ولى على إفريقية خالد ابن ثابت القهرى سنة ٥٤ هـ ، ولا صحة لذلك وربما أخذه عن المالكي الذى يسميه ثابت القهرى - ابن الأثير ، أسد الغابة ، ج ٣ ص ١٨٤ ، ابن عذارى ، البيان المغرب ، ج ١ ص ١١ ، طبقات علماء إفريقية ، ص ٨ المالكي ، رياض النفوس ، ورقة ٧ ، القيروانى ، المؤنس ، ص ٢٦ ، ابن مقديش ، نزهة الأقطار ص ٧٠

في نفس الوقت الذي كان معاوية بن حديج على حكمها ، وإذا قيل إنه يجوز أن معاوية بن حديج كان خاضعاً لمسلمة بن مخلد ، رد على ذلك بالقول بأن معاوية ابن حديج كان خاضعاً لمعاوية رأساً ، بدليل احتكامه وعبد الملك بن مروان إلى معاوية بن أبي سفيان ثم إن هذا الأخير هو الذي سير عقبة إلى إفريقية سنة ٥٠ هـ .

الحقيقة إذن أن مسلمة بن مخلد طمع في إفريقية ، بعد بناء القيروان وظهورها في حياة ولاية جديدة . فسعى لدى معاوية بن أبي سفيان في ذلك . فلما نجح فيه وعزل عقبة عن مصر « جمعت له مصر والمغرب » فلقب بذلك ولزمه هذا اللقب على ألسن الرواة ، فأثبتته أبو الحسن بدون تحديد لتاريخه .

يغلب أن عقبة كان على نية الفتح بعد الفراغ من بناء القيروان ، ففاجأه العزل وحال بينه وبين ما أراد فنزل من نفسه منزلاً سيئاً وحنق على مسلمة ومولاه أبي المهاجر دينار ، وزاد في سخطه أن أبا المهاجر أساء عزله ولم يحفظ له حرمة ، فقد روى ابن الحكم : « وكانت ولاية مسلمة بن مخلد — كما حدثنا يحيى بن بكير عن الليث بن سعد — سنة ٤٧ هـ . وولى أبا المهاجر ديناراً مولى الأنصار ، وأوصاه حين ولاه أن يعزل عقبة أحسن العزل فخالفه أبو المهاجر فأساء عزله وسجنه ، وأوقره حديداً حتى أتاه الكتاب من الخليفة بتخليه سبيله وإشخاصه إليه^(١) » ، وبهذا تدارك معاوية بن أبي سفيان خطأه ، فأنقذ عقبة من يد أبي المهاجر بعد أن كاد يورده مورد التلف .

عقبة يهود
إلى دمشق

لماذا أساء أبو المهاجر لعقبة وأنزل به هذا العقاب ؟ لم يورد المؤرخون تعليلاً معقولاً لذلك . فقال السلاوي إن ديناراً : « أساء عزل عقبة واستخف به لشيء

(١) ابن عبد الحكم ، فتوح ، ص ١٩٧

كان بينهما^(١)» ولم يفسر لنا هذا الشيء الذي كان بين عقبة وأبي المهاجر .
والراجح أن هذا تعليل غير صحيح ، فإذا يكون بين مولى صغير كدينار وفتح عظيم
كعقبة من الأشياء ؟ إنما تكون الأشياء بين مسلمة وعقبة وكلاهما وال ظاهر
عظيم القدر ، يكون بينهما التحاسد والنزاع على الولاية والشرف والغنيمة ، والحظوة
لدى الخليفة ، ويبدو أن السلاوى استنتج ذلك من قول ابن عبد الحكم :
« فلما قدم عقبة مصر ركب إليه مسلمة بن مخلد فأقسم له بالله لقد خالفه فيما صنع
أبو المهاجر ولقد أوصيته بك خاصة^(٢) فأخذ بظاهر هذه الرواية ، ونسب إساءة عقبة
إلى أبي المهاجر ، مع أن سعى مسلمة إلى عقبة واعتذاره له ونفيه التهمة عن نفسه ،
لا يعلل إلا بأن مسلمة خشى أن يفضب معاوية عليه ، حين يقص عليه عقبة
ما نزل به من مساءة على يديه ، فأسرع وألقى التهمة على أبي المهاجر خوفا من
معاوية . بيد أن ابن عبد الحكم يروى رواية أخرى يفهم منها بوضوح ، أن مسلمة
هو الذى سعى لعزل عقبة ودفع معاوية إليه ، فإن عقبة لم يكذب ييسط له ظلامته
من أبي المهاجر حتى أجاب : « قد عرفت مكان مسلمة بن مخلد من الإمام المظلوم ،
وتقديعه إياه وقيامه بدمه وبذله مهجته وقد رددتك إلى عملك^(٣) » ، وفي هذا اعتراف
من معاوية بأن المسئول عما نزل بعقبة هو مسلمة ، لا أبو المهاجر . وأن عزل عقبة
كان على هوى منه ، وأن عقاب أبي المهاجر كان يسىء مسلمة . ومسلمة رجل أثير
على معاوية ، ذو مكانة عظيمة عنده ، لما كان له من الحظوة عند عثمان الإمام
المظلوم ، وإذا جاز أن نستنتج شيئا من قول ابن عبد الحكم إن معاوية قال لعقبة :
« قد رددتك إلى عملك » ، قلنا إن معاوية أراد أن يؤكد لعقبة ، أنه لا يمانع في رده
إلى ولايته ، ولكن مسلمة كان يعارض في ذلك .

(٢) ابن عبد الحكم ، فتوح ، ص ١٨٦

(١) السلاوى ، الاستقصاء ، ص ٣٧

(٣) نفس المصدر ، ص ١٩٨

وإذا صدق ما تؤكد الروايات من أن عقبة دعا على أبي المهاجر ، فظل هذا خائفاً من دعاء عقبة لأنه كان مجاب الدعوة^(١) ، فإن ذلك يكون برهاناً جديداً على براءة أبي المهاجر من تهمة إيذاء عقبة ولأن يدل على أن أبا المهاجر كان يوقر عقبة ، ويعرف ما له من المقام العظيم ، وأنه مستجاب الدعوة ، فكيف يعاقبه ويسىء إليه بعد ذلك من تلقاء نفسه ؟ وكيف يفعل ذلك إلا مضطراً راعماً ؟

(١) نفس المصدر ، ص ١٩٨

معنى لفظ قيروان

يغلب أن عقبة وأصحابه أرادوا بلفظ قيروان « مدينة » أو معسكر أو مسلحة. هكذا نفهم من قول عقبة « وأرى لكم يا معشر المسلمين أن تتخذوا بها مدينة نجعل فيها معسكراً وتكون عزاً للإسلام إلى أول الدهر » ومن قوله حين انتهى إلى اختيار موضعها « هذه قيروانكم » أى أن قيروانهم هذه ، هى مدينتهم التى يجعلون بها معسكرهم ، أى معسكرهم . وبهذا المعنى استعمل لفظ قيروان فى الروايات الخاصة بإفريقية . فقد قال المالكى إن معاوية بن حديج : « بنى بناحية القرن مساكن سماها قيروانا » أى معسكراً للجند ، وذلك قبل اختطاط القيروان وابن الأثير يقول إن ديناراً أبا المهاجر « خرب قيروان عقبة » أى معسكره .

ولفظ قيروان فارسى معرب ، أصله كروان أو كربان ومعناه قافلة أو مراح القوافل ، ويفهم من لسان العرب أنه كان مستعملاً حتى فى الجاهلية بهذا المعنى ، إذ روى أن امرئ القيس قال فى وصف غارة له .

« وغارة ذات قيروان كأن أسرابها الرغال »

ونقل ذلك عنه ياقوت .

وقد ذهب ابن الأثير فى تفسير معنى هذا اللفظ ، إلى أن معناه : « معظم المعسكر والقافلة من الجماعة » وقال الدباغ فى تفسيره : « واختلف فى لغة العرب فى لفظ القيروان ، فقيل هى موضع اجتماع الناس والجيش ، وقيل محط أنقال الجيش ، وقيل هى الجيش نفسه والمعنى متقارب »^(١)

(١) الدباغ ، معالم الأيمان ، ج ١ ص ٧

بيد أننا نلاحظ أن ديناراً أبا المهاجر حين أخذ الناس يتركون قيروان عقبة ،
تخير لهم قرية تعرف بتكيروان ، وهو لفظ قريب جداً من قيروان . وقد رأينا هذه
القرية بأسماء مختلفة عند المؤرخين الغربيين فهي « تيكروان » و « دكرور »
و « تكرور » مما يحمل على الظن أن لفظ تكيروان أصله بربرى ، وأنه كان يطلق
على قرية قريبة من القيروان . فهل لفظ « قيروان » تحريف لتكيروان ؟ إن قول
المالكي عن مدينة أبي المهاجر: « فسمّاها البربر بتكيروان » يؤيد ذلك . إذ يفهم منه
أن هذا اللفظ بربرى . أراد به بربر هذه الأيام نفس المعنى الذى أرادته العرب
من « قيروان » ، ولكن أحداً من المتضلعين فى اللهجات البربرية لم يجد للفظ قيروان
أو تكيروان أو تيكروان معنى أو وجوداً فى هذه اللهجات ، مما لا يجعل سبيلاً
إلى الأخذ بهذا رأى .

وليس هناك ما يؤيد القول بأن « قيروان » كان علماً على مدينة قديمة
بإفريقية ، اختطت القيروان مكانها كلفظ بغداد مثلاً ، فلم يبق إلا القول بأن
عقبة وأصحابه أرادوا به خطأ لقوافلهم ومراحاً لعسكرهم .

الباب الخامس

فتح المغرب الأوسط

دينار أبو المهاجر ودوره في فتح إفريقية

٥٥ - ٦٣ هـ = ٦٧٤ - ٦٨٢ م

قال ابن عبد الحكم رواية عن عبد الملك بن مسلمة ، عن ابن لهيعة وأحمد بن عمرو عن ابن وهب عن يزيد بن أبي حبيب : « وكان الناس قبل أبي المهاجر يغزون إفريقية ، ثم ينفلون منها إلى القسطنطينية ، وأول من أقام بها حين غزاها أبو المهاجر مولى الأنصار ، أقام بها الشتاء والصيف واتخذها منزلاً ، وكان مسلمة بن مخلد الذي عقد له على الجيش أحد الذين خرجوا معه إليها فلم يزالوا بها حتى قتل ابن الزبير فخرجوا منها »^(١) . وتلك عبارة يفهم منها أمر على جانب عظيم من الأهمية ، وهو أن إفريقية أصبحت مقراً يقيم به المسلمون ويطمئنون فيه دون أن يعودوا إلى مصر بعد كل غزوة ، أي أنها أصبحت — رغم تبعيتها لمصر — ولاية إسلامية مستقلة الشخصية بعض الشيء ، وهذه هي الخطوة الأولى نحو ظهور ولاية إفريقية إسلامية ، فقد كان الناس قبل أبي المهاجر يغزون إفريقية ، ثم ينفلون منها إلى القسطنطينية ، أما في ولاية أبي المهاجر وما بعدها ، فإنهم يقيمون بها العام كله ، ويخرجون للغزو من قيروانها ثم يعودون إليه مرة أخرى ، أي أن إفريقية أصبحت ولاية صغيرة ملحقة بولاية مصر ، لها عاصمتها وواليها الذي يختاره حاكم مصر ، وجيشها الذي يعسكر فيها طول العام .

ولاية أبي المهاجر إذن تعين بدء هذا التطور في مركز إفريقية في الدولة الإسلامية ونهايتها تعين تطوراً آخر هو تحول إفريقية إلى ولاية مستقلة الشخصية قائمة بنفسها ، يولى حاكمها من قبل الخليفة رأساً .

صاحب هذا التغير السياسي الذي جدّ على المركز السياسي للبلاد تحول جوهرى في سير الفتوح فيها ، والأساليب التي يتبعها القادة في إتمام فتحها ، إذ كانت الغزوات قبل ذلك لا يرجى منها شيء بعد الغنيمة الوفيرة والسبي الكثير . أما الآن — وقد أصبح للعرب عاصمة فيها — فقد أصبحت غاية الغزوات إخضاع نواحي

(١) ابن عبد الحكم ، فتوح ، ص ١٩٧

البلاد لهذا المركز ، وبمعنى آخر إتمام فتحها وجعلها بلاداً إسلامية كمصر والشام سواء بسواء ، ولهذا لم نجد العرب يقبلون الانصراف عن البلاد لقاء مبلغ من المال كما فعل عبد الله بن سعد قبل ذلك بوضع عشرة سنة ، ولن يتوجهوا بجهدهم نحو المدائن الغنية أو المزارع الوافرة الزروع ، وإنما إلى العواصم ذات الأهمية السياسية كقرطاجنة ، ولن يؤثروا العافية فيكتفوا بمهاجمة المدائن الضعيفة ، وإنما سيحاولون بذليل الجبال والهضاب باختراقها وفتح ما فيها من مراكز البربر ، وستكون لأكثرهم الخطة المدبرة المرسومة ، طبقاً لحالة البلاد وما يناسبها ، وهذان التغيران متلازمان في الواقع والمعنى ، ناشئان عن تغير شامل في نظر المسلمين إلى إفريقية ، فلو كانت إفريقية عندهم إذ ذاك ما كانت في الغزوات السابقة لما ألزم القائد نفسه المقام بإفريقية على نأى من مصر ودمشق ، ولعاد بما معه من الفنائم ليتقدم بها إلى أولى الأمر ، ولكنه الآن كما مكلف بإتمام فتح البلاد وتمهيد أمورها ، فلا حاجة له بالفنائم .

— ١ —

أصبح دينار أبو المهاجر — مولى مسلمة بن مخلد — أميراً على إفريقية من سنة ٥٥ هجرية ، واستمر على ولايتها مدى سبع سنوات تنتهى سنة ٦٢ هجرية ، أى بعودة عقبة بن نافع إلى إفريقية ، فكانت ولايته بذلك فاصلاً بين ولايتي عقبة أو بين شطري برنامجي ، فكان هذا سبباً في انصراف المؤرخين عنه وإهمالهم إياه ، إذ شغل الرواة بعقبة وتتبع أعماله ، فعبروا بأبي المهاجر مسرعين . بل ربما تعمد بعضهم إغفال شأنه والتهوين من أمره لما نزل بعقبة على يديه ، ولهذا كان أقل فاتحى إفريقية ذكراً وأيسرهم لفتاً لانتباه المؤرخين ، على الرغم من أن أعماله كانت على جانب كبير من الأهمية والخطورة ، لأنه أول من جعل غايته الأخيرة فتح البلاد وتثبيت قدم العرب والإسلام فيها ،

ولهذا كانت له خطة مرسومة وسياسة مقدرة يجرى عليها ويتحرى إنفاذها ،
بخلاف من سررنا بهم إلى الآن .

لم تأتنا المراجع الموثوق فيها بشيء ذى بال عن أبي المهاجر ، بل إننا نجعل
كل شيء عن أصله ومولده ونشأته الأولى ، إذ أغفله المؤرخون للأسباب التي سرّاً
بيانها . وأغفله كتاب التراجم ، لأنه ليس بصاحب ولا تابع ولا عربي ،
وإنما هو مولى ، وربما كان من أهل مصر ، أعتقه مسلمة بن مخلد أمير مصر وقربه
إليه لذكائه وفطنته ، ويبدو من قول مسلمة : « إن أبا المهاجر صبر علينا في غير
ولاية ، ولا كبير ميل ، فنحن نحب أن نكافيه »^(١) . أن أبا المهاجر أخلص في خدمة
مسلمة فرضى عنه وولاه إفريقية مكافأة له .

وكان مسلمة قد نفس على عقبة مركزه في إفريقية ، وساء منه انصرافه عنه
وعدم حظه به ، فلم يكدر يتمكن من عزله عن إفريقية ، حتى أنشأ ينتقم منه ،
فأوصى أبا المهاجر بذلك ، وتنصل هو من التهمة ، فلزمت أبا المهاجر في كتب التاريخ ،
فيقول ابن الأثير : « فاستعمل مسلمة على إفريقية مولى له يقال له أبو المهاجر ،
فقدم إفريقية وأساء عزل عقبة واستخف به »^(٢) . ثم عاد فأكد ذلك بقوله :
« ولم يزل عقبة على إفريقية إلى سنة ٦٢ هـ فعزله يزيد بن معاوية ، واستعمل
أبا المهاجر مولى الأنصار ، فحبس عقبة وضيق عليه ، فلما بلغ يزيد بن معاوية ما فعل
عقبة ، كتب إليه يأمره بإطلاقه وإرساله إليه »^(٣) . وكذلك النويرى لا يكاد
يذكر للرجل إلا هذه الإساءة التي أنزلها بعقبة : « ولما وصل مسلمة إلى مصر ،
استعمل على إفريقية مولى له يقال له دينار ويكنى أبا المهاجر ، وذلك في سنة ٥٥ هـ
وعزل عقبة ، فلما وصل كره أن ينزل في الموضع الذي اختطه عقبة ، فنزل عنه

(١) ابن عبد الحكم ، فتوح ، ص ١٩٧ (٢) ابن الأثير ، أسد الغابة ، ج ٣ ص ١٨٤

(٣) ابن الأثير ، أسد الغابة ، ج ٣ ص ١٨٥

بمسافة ميلين ، واختط مدينة يكون له ذكرها ويفسد ما عمله ، فسمّاها البربر بتكبروان ، فأخذ في عمارتها وأمر الناس أن يخرّبوا القيروان ويعمروا مدينته ، وتوجه عقبة إلى معاوية بن أبي سفيان ^(١) . ثم بلى ذلك شكوى عقبة إلى معاوية ثم رده على يد يزيد ، وبهذا أهمل الرجل إهمالا تاما . ولو لم يذكر ابن خلدون طرفاً من أخباره عرضاً ، في سياق حديثه عن قبيلة أوربة البربرية ، ولو لم يشر أبو المحاسن إشارة موجزة إلى بعض أعماله في ختام حوادث السنة الثانية عشرة ، من ولاية مسلمة بن مخلد وهي سنة ٥٩ هـ ، لما كان لدينا شيء يوثق فيه من أخبار هذا الرجل وأعماله ، ولظل تاريخه حلقة مفقودة بين حلقات الفتح العربي لشمال إفريقية .

بيد أن روايات المؤرخين الغربيين كأبي العرب والمالكي وابن أبي دينار وابن مقديش والساوى ، تسد بعض هذا النقص بما ورد فيها من الأخبار ، فعلى الرغم من أن روايات هؤلاء مشحونة بالأخطاء والزيادات التي لا يمكن الأخذ بها ، ففي الإمكان الاستعانة ببعض ما ورد فيها ، لإكمال ما أهمل المؤرخون المصريون والشرقيون ذكره .

— ٢ —

شغل الروم عن إفريقية خلال حملة عقبة الأولى ، لأن العرب كانوا إذ ذاك ، نشاط الروم يحاصرون القسطنطينية حصارهم الثاني الذي بدأ سنة ٤٨ هـ ، واستمر إلى ما بعد سنة ٥٠ هـ ، ولبثت الدولة بضعة أعوام بعد ذلك تقاسى عقابيل هذه المحنة التي كادت تودي بها ، فلم يعد إليها الهدوء الذي يسمح لها بالاهتمام بولاياتها ، إلا بعد سنة ٥٥ هـ أى بعد عزل عقبة ، وقد ذهب فورنل إلى أن معاوية تعمد أن يهاجم القسطنطينية إذ ذاك ، ليشغل الروم عن إفريقية ، فيتمكن عقبة من بناء مدينته ، وليس لدينا

(١) التويرى ، نهاية الأرب ، ص ٦٩ ب

ما يؤيد هذا الرأي ، وإن كان الواقع أن حصار القسطنطينية كان عظيم الفائدة لعقبة ، إذ سمح له بفترة هدوء تام ، استطاع في خلالها أن يخطط القيروان ، دون أن يعوقه هجوم الروم ، أو تهديدهم إياه عن ذلك .

أنشأ إمبراطور الروم إذ ذاك ، وهو قسطنطين الرابع ، يصلح من أمر الدولة ، ليتداركها قبل أن تهوى إلى درك سحيق ، فنشط نشاطاً عظيماً لذلك ، وكان يعرف أن السياسة الدينية التي جرى عليها أسلافه ، هي علة العلل في ضعف الدولة البيزنطية ، فعول على وضع حد لها ، وجمع مجلساً دينياً سنة ٦٨٠ م^(١) ، ليضع حداً لخصومات المذاهب التي باعدت بين الدولة ، وبين ما بقي لها من الرعايا في البلقان وإيطاليا وإفريقية ، فلم يلبث أثر عمله هذا أن ظهر في الولايات ، فبدأ ما كان أهل إفريقية يضمرونه للدولة من البغض والكراهية يزول ، وبدأ بعضهم يميل إلى مخالفتها ، وتلك ظاهرة جديدة أخرى ستلاحظ في الحملات المقبلة وسيكون لها أثر بعيد . كانت المقاومة التي لقيها العرب في الحملات الماضية ضئيلة لم تشتد إلا في موقعة سُبَيْطَلَة ، لأن جريجور يوس كان يدافع عن كيان ملكه ، أما عدا ذلك فلا مقاومة عنيفة ولا حرب طويلة المدى ، وإنما مناجزات قصيرة أو اعتصام خلف الأسوار ، ولهذا سقطت جلولاء وبنزرت وسوسة وقفصة على هينة ، أما من الآن فما بعد ، فنجد الروم والبربر إلّياً واحداً ، يحاربون العرب حرباً عنيفة جداً ، حتى يكاد العرب ييأسون من أنفسهم ، بل نجد العرب يفشلون في الاستيلاء على أغلب الحصون والمدائن التي يحاولون الاستيلاء عليها ، وعلة ذلك أن جهود قسطنطين أثمرت بمرور الأيام ، فعادت الحياة تدب في الولايات ومنها إفريقية ، واتصلت الأسباب بينها وبين بيزنطة لطلب الأمداد والمعونة وما إلى ذلك ، وأخذ البربر

(١) ديل ، ص ٥٧٦ ، ويذهب المؤلف إلى أن هذا المجلس ختم نزاع المونوثيلية ، وأعاد الأرثوذكس إلى حظيرة الدولة ، ويؤكد أن هذا كان بعيد الأثر في إفريقية .

Diehl, op. cit, p. 576.

يتكون ما في نفوسهم من ضيق بالروم ، لما بدا لهم من تسامح الروم ، فمدوا لهم يد المعاونة وكان منهم حلف قوى ، يبدى من المقاومة شيئاً كثيراً ، ومما يؤيد تعليل حلف البربر والروم بسبب الإصلاح الدينى الذى أدخله قسطنطين ، أن نصارى البربر وحدهم هم الذين سيحالفون الروم ويقفون معهم لرد العرب .

على أنه لا تنبغى المبالغة فى تقدير أثر هذه السياسة البيزنطية الجديدة ، فلا يقال إنها أعادت الروم فى إفريقية إلى ما كانوا عليه أيام جوستينيان ، أو اجتذبت البربر إليهم كما جذبتهم سياسة آل جريجوريوس ، وإنما يقال إن نصارى البربر اطمانوا إلى الروم ، وقبلوا حلفهم ومدوا لهم يد العون ، ولا يقال إن الدولة نشطت فأرسلت الجيوش إلى إفريقية ، وإنما يقال إنها بعثت معونة من مال ، أو والت الأهلين بالنصح والإرشاد ، وإن روم إفريقية شعروا بذلك فدب فى نفوسهم نشاط جديد .

ابتداء مقاومة
البربر

اضطلع الروم وحدهم بعبء المقاومة حتى الآن ولم يتم أصحاب البلاد — البربر — بشئ يذكر منها ، وهذا غير ما كان منتظراً منهم بعد الذى سبق بيانه ، من تحررهم من سلطان الروم فى أواخر العصر البيزنطى . بيد أن الظاهر أنهم بدأوا يتحركون للمقاومة ، إذ يقول ابن خلدون : « وكانت البطون التى فيها الكثرة والغلب ، من هؤلاء البربر البتر كلهم لعهد الفتح ، أوربة وهواره وصنهاجة من البرانس ونفوسة وزناتة ومظفرة ونفزاوة من البتر ، وكان التقدم لعهد الفتح لأوربة هؤلاء ، بما كانوا أكثر عدداً وأشد بأساً وقوة ، وكان أميرهم بين يدي الفتح ، ستردير ابن رومى بن بارزت بن برزيات ، ولى عليهم مدة ثلاث وسبعين سنة ، وأدرك الفتح الإسلامى ومات سنة إحدى وسبعين هجرية وولى عليهم كسيلة بن لزم الأوربي ، فكان أميراً على البرانس كلهم^(١) » مما يفهم منه أن البربر كانوا فى ذلك الحين ،

(١) ابن خلدون ، ج ٦ ص ١٤٦

الذى وجد فيه كسيلة على درجة من القوة والانتظام ، إذ كان فيهم ملك مثل ستردير ، استطاع أن يحكم هذه المدة الطويلة ، ولما مات خلفه ملك آخر ، هو كسيلة الأوربي المعروف ، وكانت أوربة على الخصوص كثيرة العدد شديدة البأس ، فكيف لم تشعر هذه القبائل كلها خطر العرب وتنهض لرده من أول الأمر ؟ لقد فتح العرب قسطنطينية ، وفيها مساكن نغراوة وورنجومة وقونية ، وفي جنوبها منازل زواغة وقفصة ، وعلى مقربة منها مضارب نفوسة وجلولاء ، وهي باب مواقع هوارة وجراوة ، فأين هذه القبائل كلها حتى الساعة ؟ ولماذا لا يذكر ابن خلدون من ملوكهم إلا كسيلة وسلفه ؟ ألا يمكن أن نستنتج من ذلك أن هذه القبائل ظلت في سكونها وخمولها من أول الفتح العربي ، ولم تنشط إلا قبيل ظهور كسيلة ، أي حوالى الوقت الذى أقبل فيه دينار على إفريقية ، وأصلح قسطنطين سياسته الدينية ؟

إذا جاز أن نفهم من قول ابن خلدون : « وكان التقدم لعهد الفتح لأوربة هؤلاء ، بما كانوا أكثر عدداً وقوة وأشد بأساً ، وكان أميرهم بين يدي الفتح ستردير بن رومي^(١) » أن هذه القبائل اجتمعت إلى أوربة واقتربت منها ، لصح أن يقال إن هذه القبائل كانت قد تركت مواقعها هذه زمان الفتح ، واتجهت نحو الغرب ونزل جمهورها جبال الأوراس موطن أوربة ، ويؤيد هذا الرأى أن المقاومة البربرية ستظهر حينما يحاول العرب اختراق الأوراس في حملة عقبة بن نافع الثانية ، فإذا لم يصح فهم عبارة ابن خلدون على هذا النحو ، لغلب على الظن

= ويبدو أن طبعة بولاق التى أنقل عنها ، تضم أخطاء كثيرة فى رسم الأعلام ، فالنسخ التى نقل عنها فورنل ودى سلين تكتب سقرديد لا ستردير ولزم لا لزم وهذا هو الأصح لأن المراجع العربية الأخرى تورد كسيلة بهذا الرسم .

(١) أنظر ابن خلدون ، ج ٦ الصفحات ١١٤ و ١١٥ و ١٢٩ و ١٤١ عن مواقع هذه القبائل ، ويلاحظ أن تلك الأماكن كانت مساكن فروع من هذه القبائل لا القبائل جميعها .

أنه بالغ في تقدير قوة البربر أيام الفتح ، خصوصاً وأن الظروف كلها تؤكد ضعف البربر إلى ذلك الحين وخمود نشاطهم ، فعلى فرض أنهم بدأوا ينشطون ، فيستبعد جداً أن يكونوا قد بلغوا كل ذلك المبلغ من القوة دفعة واحدة ، وإنما المعقول أن يكونوا قد بدءوا يتحركون للمقاومة فقط في ذلك الحين .

بيد أننا نستطيع أن نفهم من قول النويرى إن عقبة بن نافع أخذ معه « من أسلم من البربر وضمهم إلى الجيش الوارد عليه »^(١) حين سار في حملته الأولى سنة ٥٠ هـ ، أن نفرأ من البربر كان قد اتصل بالعرب اتصالاً مكنه من معرفة الإسلام واعتناقه ، ويؤيد ذلك قول ابن الأثير يصف ما فعل البربر حيناً رأوا عقبة يخطط القيروان : « فرآه قبيل من البربر فأسلموا »^(٢) ، إذ فيه دلالة كافية على أن بعض الصلات قامت بين العرب والبربر ، صلات ودِّ وتفاهم تؤدي ببعضهم إلى الدخول في الإسلام ، إذا صدق هذا جاز أن نستنتج منه أن العرب لم يجدوا في طريقهم قبائل قوية تنهض لردم أو تعاديهم ، وإنما جماعات قليلة ضعيفة تلتف حولهم وتصاحبهم ، فإما أسلمت أو ظلت على ما هي عليه ، وكان العرب بالطبع في حاجة إلى مثل هذا النفر للاسترشاد به على السير في البلاد على الأقل ، وذلك كله يؤيد القول بأن بعض قبائل هذه الأقاليم كانت قد فارقتها بعد خرابها إلى نواح أخرى في الغرب أو في الجنوب ، ولم يبق في مساكنها الأصلية إلا طوائف قليلة منهم « تشبثوا بمقامهم في بقايا خرابهم حناناً للموطن »^(٣) ، كما قال الإدريسي عن الذين بقوا في نَبْرَنْتَةَ إحدى قرى فزان بعد خرابها .

يقول السلاوى : « وكان كسيلة بن (أغز) الأوربي ثم البرتس من أهل المغرب الأقصى من عظماء البربر ، وكان نصرانياً قد جمع الجموع من البربر والفرنج ،

(١) النويرى ، نهاية الأرب ص ٦٨ ١ (٢) ابن الأثير ، أسد الغابة ، ج ٣ ص ١٨٤

(٣) الإدريسي ، ص ٣٥

وزحف نحو المسلمين فهزمه أبو المهاجر وأسره^(١) ، « أى أن البربر بدأوا يحسون خطر العرب فى ولاية أبى المهاجر ، فأخذ زعيمهم كسيلة يجمع القبائل ويؤلبها ، ثم سار على رأسها نحو المسلمين ، فكان ذلك حافزا لأبى المهاجر على التعجيل بفزوته الطويلة التى وصل فيها إلى تلمسان ، التى لم يفعل فيها أكثر من هزيمة كسيلة والعودة به فى ركابه ، أى أنه لم يقيم بهذه الحملة البعيدة المدى ، إلا ليقضى على هذه المقاومة ، فلما تم له ذلك عاد إلى القيروان ، وربما كان قول ابن خلدون : « ولما نزل (ابن) المهاجر تلمسان سنة خمس وخمسين ، كان كسيلة بن لزم مرتاداً بالمغرب الأقصى فى جملة من أوربة وغيرهم ، فظفر به أبو المهاجر وعرض عليه الإسلام فأسلم^(٢) » دليلاً على أن كسيلة كان على جهل تام بما فعل العرب فى إفريقية ، وأنه لم يقصدهم بشرو وإنما هم الذين سعوا إليه حتى أدركوه عند تلمسان فظفروا به ، ولكنه يؤيد السلاوى فى الواقع ، فهو يدل على أن العرب أحسوا ربح المقاومة فى هذه الناحية فاتجهوا إليها ، وكيف أحس العرب هذه المقاومة إلا أن يكون أهل هذه النواحي قد تبدل موقفهم من السكون إلى النشاط ومن الهدوء إلى المقاومة ؟ ولو أنهم كانوا على ما عهدناهم عليه من السكون ، لما كلف أبو المهاجر نفسه مؤونة السير إليهم ، لبعد الشقة وعظم الجهد الذى يتطلبه السير إلى تلمسان ، وماذا يكون سبب هذا التغير فى موقف البربر من المسلمين ، إلا إحساسهم بأن المسلمين يقتربون منهم ، ويهددون منازلهم التى اعتصموا بها فى الجبال والهضاب ؟ بهذا تتساند الروايات فتؤدى إلى نتيجة واحدة معقولة ، وتتناول الظواهر فتعطى صورة واضحة بعض الوضوح ، وللمؤرخين المغربيين آراء مختلفة فى موضوع كسيلة هذا ، فالباجي يقول فى الخلاصة إن كسيلة كان قد أسلم قبل حملة أبى المهاجر ، « ثم ارتد وخالف وجمع أمماً من البربر والروم ، فصمد لهم

(١) السلاوى ، الاستقصا ، ص ٣٧ (٢) ابن خلدون ، ج ٦ ص ١٤٦

دينار وهزمهم حول تلمسان ، وأسلم كسيلة فأطلقه وتمكن من البلاد^(١) » وفي هذه الرواية أخطاء ينبغي تصحيحها ، وهي وإن كانت في مجموعها تؤيد السلاوى وابن خلدون فيما ذهبوا إليه ، من تحرك البربر للمقاومة في ذلك الحين ، إلا أن فيها دليلاً قوياً على نشاط البربر ، يرجع في بعض أسبابه إلى شعورهم بتقدم العرب نحوهم وتحفزهم للقضاء عليهم ، أما الخطأ فقوله إن كسيلة كان قد أسلم قبل مجيء أبي المهاجر ثم عاد فارتد وهذا غير الواقع كما صر بيانه ، وإنما الحقيقة أن أوربة وأحلافها كانت قد اتخذت نواحي تلمسان والمرتفعات المجاورة لها منزلاً منذ أواخر العصر البيزنطي واطمأنت هناك زماناً طويلاً ، فلم تحس مقدم العرب إلا حين ساروا نحوها في حملة أبي المهاجر هذه .

لا يتفق المؤرخون إذن على رأى فيما يتصل بحال البربر ، يوم بدأ دينار ولايته ، وكان لا بد أن نعرف ذلك على وجه التحقيق ، حتى نستطيع ترتيب أعمال دينار ، إذ هي نفسها في حاجة إلى ترتيب ، فلنأخذ بأبسط ما يفهم من هذه الآراء جميعاً ، وهو أن البربر أحسوا خطر العرب وتنبهوا إلى غزوهم البلاد ، فبدأوا يتحركون لهذه المقاومة ، ولكن مقاومتهم لم تأخذ شكلاً ظاهراً ، إلا حين بدأ العرب يهاجمون جبال الأوراس ، وهي موطن أوربة أقوى قبائل البربر إذ ذاك ، فبدأ الصراع بين الجانبين ، وكانت قيادة أوربة لكسيلة بن لمزم أميرها من سنة ٥١٠ هـ^(٢) .

(١) الباجي ، الخلاصة النقية ، ص ٥ — ٦ وقد أيد المالكى ذلك بقوله : « إن أبا المهاجر صالح بربر إفريقية وفيهم كسيلة الأوربي وأحسن إليه » . وقد ذكر مرسيه أن جماعة البربر ثارت على العرب ، عند رحيل عقبة إلى الشرق ومقدم دينار ، وكان على رأس الثأرين كسيلة رئيس قبيلة أوربة — وهي رواية لا تؤيدها المراجع الأخرى ، ولكنها تدل على أن مرسيه يؤمن على الرأى القائل ، بأن البربر نشطوا نشاطاً مفاجئاً في ذلك الحين ، وهبوا للمقاومة .

Mercier : Hist. de l'Afrique op. cit. Sept. I, p. 204.

(٢) يقول ابن خلدون : « وكان أميرهم بين يدي الفتح سقرديد بن رومي بن بارزت =

على أن رأى جوتييه عن كسيلة جدير جداً بالنظر ، فقد استرعى انتباهه اتفاق مؤرخي العرب على أن كسيلة كان نصرانياً ، وتسميتهم سلفه بسقرديد بن رومي ، وذكرهم ما كان من حلف كسيلة مع الروم على عقبة في آخر الأمر ، فاستنتج من ذلك أن أوربة كانت على علاقات متصلة مع الروم ، وأن هذه العلاقات لم تقتصر على الاشتراك في الدين ، بل ليس هناك ما يمنع القول بأنه كانت هناك علاقات مصاهرة بين الحيين ، وقد عزز جوتييه رأيه بالقول: « بأن مركز قوة كسيلة أيام الفتح ، كانت المنطقة الجبلية الواقعة بين تاهرت ووهران ، والتي تتوسطها تلمسان ، وهذه المنطقة كانت منذ قديم الزمان ، مركز البربر الذين تأثروا بالحضارة الرومانية ، وأخذوا صبغتها وحملوا لواءها في إفريقية : مركز ما كسن وسيفاكس ويوجورثا » ، ومن هنا استنتج أن كسيلة وسقرديد وقومهما كانوا هم أكثر البربر تأثراً بالحضارة البيزنطية في أيام الفتح ، وكانت هذه الناحية نقطة اتصال بين الروم والبربر ، ثم خلاص من هذا كله ، إلى القول : « بأن مقاومة كسيلة كانت مقاومة بيزنطية في الواقع ^(١) » ، وبهذا ألقى على الموضوع ضوءاً جديداً ، واكتشف للروم إصباعاً في حركة كسيلة ، فلم يعد سبب ثورته مجرد شعوره بمسير العرب نحوه ،

= ابن برزيات ، ولى عليهم مدة ثلاث وسبعين سنة ، وأدرك الفتح الإسلامي ومات سنة إحدى وسبعين هجرية . وولى عليهم كسيلة بن لزم الأوربي فكان أميراً على البرانس كلهم » ، وبهذا تبدأ إمارة كسيلة من سنة ٧١ هـ أي في ولاية زهير بن قيس ، وهذا لا يتفق مع المعروف من أن كسيلة لقي أبا المهاجر وصحه . وقد ذهب فورنيل إلى أن ابن خلدون أراد أن يقول سنة ٥١ هـ فأخطأ النساخ ورسموه ٧١ هـ ، وهذا تعليل معقول لأن الحوادث تستقيم به ، على أن ابن خلدون يقول في موضع آخر إن سقرديد كان قائد كسيلة ، فصحح فورنيل ذلك بالقول بأن كسيلة كان قائد سقرديد ، وهو أمر قريب الاحتمال ، فمن المعقول أن يكون سقرديد قد عجز عن القيام بأعباء الحكم في أواخر أيامه ، فعهد به إلى كسيلة الذي خلفه فيه بعد موته . وقد ذهب ماسكروى إلى أن كسيلة كان واسع الملك وأن ملكه امتد إلى الأوراس وإلى ما يليها غرباً .

(١) جوتييه ، ص ٢٤٠ — ٢٤٢ وربما كان رأى باسيه أقرب إلى الصحة إذ ذهب إلى أن كسيلة ربما كان زميل سقرديد في قيادة أوربة ، التي كانت تحتل الأراضى الواقعة غربى تلمسان

وأنه كان نصرانياً فأسلم Gautier, op. cit. pp. 240—242

أنظر دائرة المعارف الإسلامية مادة كسيلة .

وإنما حرصه الروم على المقاومة ، ووضعوا يدهم في يده ، وربما كانت الحوادث التالية ، أكبر مؤيد لرأيه .

— ٣ —

لم يتفق المؤرخون على رأى واحد في ترتيب ما ينسب لأبى المهاجر من أعمال ، بل يفهم من روايات بعضهم طرف واحد دون الباقي ، فابن خلدون يذكر غزوه للبربر ، ووصوله إلى تلمسان ، ويترك حملته على قرطاجنة بدون إشارة ، وأبو الحسن يذكر حملته على قرطاجنة بتفصيل ، ثم يشير بعد ذلك إلى الحملة على البربر إشارة موجزة بقوله : « ثم افتتح أبو المهاجر المذكور ميلة (مدينة صغيرة بينها وبين بجاية ثلاثة أيام) ، وكانت إقامته في هذا الغزو نحو من سنتين^(١) » وذلك بعد أن فصل حصار العرب لقرطاجنة وانصرافهم عنها ، فإذا علمنا أن ميلة في الطريق إلى تلمسان فهمنا أنه أراد أن يجعل الحملة على قرطاجنة سابقة للحملة على تلمسان ، فروى أحداث الأولى ، ثم أعقبها بطرف من أخبار الثانية ، ولكنه يجعل سنة ٥٥٩ هـ تاريخاً لمحاصرة أبى المهاجر قرطاجنة ، فإذا كان هذا الأخير قد بدأ ولايته سنة ٥٥٥ هـ ، فأين قضى السنوات الأربع التي انقضت بين هذين التاريخين ؟ وكيف يتفق أن ينفق أربع سنوات من ولايته دون أن يؤدي عملاً مع أنه كان مكلفاً بتعقبة آثار أعمال عقبه ، بأعمال أعظم منها ، ثم ينشط بعد ذلك ليقوم بكل هذه الأعمال في ثلاث سنوات ؟

كان ترتيب أعمال أبى المهاجر مثار الجدل بين فورنل وكودل ، فذكر الأول أن أبا المهاجر لم يكذب ينزل إفريقية حتى أعلن الحرب على البربر ، وتقدم نحوهم حتى أدرك أقوى قبائلهم — أوربة — في الأوراس ، فهزمها وأسر قائدها كسيلة وكاد يقتله لو لم يعتنق الإسلام . ثم قرر — رواية عن أبى الحسن كما يقول —

(١) أبو الحسن ، النجوم الزاهرة ، ج ١ ص ١٥٧

أن إسلام كسيلة حسن بعد ذلك ، فاستصفاه دينار واتصلت بينهما صداقة موصولة الأسباب ، استطاع البربري عن سبيلها أن يؤثر في أبي المهاجر الذي أسلم له قياده ، ويدفعه إلى تخريب القيروان عقبة ، فخربها واتجه إلى الشمال بعد ذلك ، وحاصر قرطاجنة مدة طويلة فلم يقدر عليها ، فانصرف عنها بعد أن نزل له أهلها عن جزيرة شريك ، ثم توجه بعد ذلك إلى ميلة رأساً ، حيث بقي هناك سنتين ، حتى عزله يزيد بن معاوية بعقبة سنة ٦٢ هـ^(١) ، وبهذا لم يفعل أكثر من أن روى رواية ابن خلدون ، ثم أعقبها برواية أبي المحاسن ، لأن الأول حدد سنة ٥٥ هجرية لرحلة أبي المهاجر على أوربة ، والثاني جعل حملته على قرطاجنة سنة ٥٩ هـ .

أما كودل فيأبى أن يسجل لأبي المهاجر خطأ سياسياً كالذي ارتضاه له فورنل ؛ فهو يستبعد أن يكون دينار قد غامر بجنده في قلب البلاد ، وترك ظهره مكشوفاً للروم الذين كانوا يتحفزون للوثوب به من قرطاجنة ، وإنما يرجح أن ديناراً بدأ لخالف البربر ليستعين بهم على الروم أو ليضمن حيادهم على الأقل ، فإذا تم له القضاء على الروم ، توجه بهيمته بعد ذلك للبربر فغزاهم . وقد اعتمد كودل على روايات المغريين الذين لم يظهر فورنل على شيء مما كتبوا ، فقد قال المالكي : « ثم إن أبا المهاجر صالح بربر إفريقية ، وفيهم كسيلة (الأوربي) ، وأحسن إليه ، وصالح عجم إفريقية وخرج بجيوشه نحو المغرب ، ففتح كل مامر عليه ، حتى انتهى إلى العيون المعروفة بأبي المهاجر نحو تلمسان ، ولم يستخلف على القيروان أحداً ،

(١) فورنل ، ج ١ ص ١٦٠ — ١٦٥ ولاحظ أنه جعل كسيلة ، هو المسيطر على دينار وجعله يخدعه ويضربه ، ولا أصل لذلك في الواقع ، ولا يفهم ذلك من روايتي أبي المحاسن وابن خلدون ، وإنما فورنل يفسر التاريخ تبعاً لنظريته ، التي ألف من أجلها كتابه ، وهي إثبات أن البربر كانوا دائماً سادة العرب وقادتهم من أول الأمر .

Fournel, op. cit. I, pp. 160—165

ولم يبق بها إلا شيوخ ونساء ، ثم رجع إليها فأقام بها ^(١) ، وواضح أن عبارة المالكى لا تؤدي بالضبط إلى التفسير الذى انتهى إليه كودل ، فإنه يجعل الصلح بين كسيلة وأبى المهاجر سابقا على مسيره إلى تلمسان ، وليس هناك ما يؤيد ذلك ، والأصح الذى يمكن الأخذ به ، هو أن الرجلين لم يتصافيا إلا بعد ذلك ، ثم إنه يذهب إلى أن المالكى أوجز بقوله إن أبى المهاجر : « صالح عجم إفريقية » ، حوادث حملة أبى المهاجر على قرطاجنة التى انتهت بالصلح مع الروم ، وهذا تفسير واسع غير دقيق . وحجة كودل فى ذلك أن تحديد أبى المحاسن لغزوة قرطاجنة بسنة ٥٩ هـ أمر غير ذى بال ، فأبو المحاسن — فى اعتباره — لا يفتأ يخطئ فى التواريخ ، وليس هذا الخطأ بأقل من جعله حملة حسان بن النعمان سنة ٥٧ هـ . إزاء هذا التناقض والغموض ، يحسن الأخذ بظاهر روايتى ابن خلدون وأبى المحاسن ، بعد إضافة إحداها للأخرى ، فتكون حملة تلمسان سابقة على حملة قرطاجنة ، مع رفض ما ذهب إليه فورنل ، من أن تخريب أبى المهاجر للقيروان إنما كان برأى كسيلة وخداعه ، وإنه — لذلك — كان بعد عودة أبى المهاجر من حملة تلمسان .

ويعرض الباجي والسلاوى رأياً جديداً يختلف عما سلف بيانه ، خلاصته أن أبى المهاجر لم يتوجه بنفسه لمهاجمة الروم بل وجه إليهم أحد رجاله ، وهو حنش بن عبد الله الصنعاني ، ولم يبعثه إلى قرطاجنة ، بل إلى جزيرة شريك فافتتحها ، ثم توجه

(١) المالكى ، رياض النفوس ، ورقة ٧

وقد ذكر هذه الرواية بالنسبة لابن مقديش فى نزهة الأنظار ص ٧٠

أما المؤنس فأشارته مضطربة مفككة ناقصة ، ليس فيها إلا لإرسال أبى المهاجر لحنش الصنعاني إلى جزيرة شريك ، ورواية ابن الناجي ناقصة ليس فيها إلا تخريب أبى المهاجر للقيروان ، ومحاولة بناء مدينة اسمها تاكروان ، وقد فاضل كودل بين قول المالكى ، إن حملة قرطاجنة كانت سنة ٥٥ هـ وقول أبى المحاسن إنها كانت سنة ٥٩ هـ ثم رجع رأى المالكى بدون تعليل معقول . الديباغ ، معالم الإيمان ، ج ١ ص ٤٢ ، ٤٣ وكودل ، ج ٢ ص ١١٣

هو بنفسه — أى أبو المهاجر — إلى كسيلة (ابن أغز الأوربي) الذى « كان نصرانياً قد جمع الجموع من البربر والفرنج وزحف نحو المسلمين »^(١) فهزمه أبو المهاجر قرب تلمسان وظفر به ، فأظهر الإسلام فاستبقاه أبو المهاجر واستخلصه^(٢) وهذا رأى معقول جداً لولا أنه غير مؤيد بأسانيد كافية ، ولولا أن أبا الحسن وابن خلدون أرجح فى حسابنا من مؤرخين حديثين كالباجي والسلاوى^(٣) .

— ٤ —

وصل أبو المهاجر إفريقية سنة ٥٥٥ هـ ، فكان أول أعماله تنفيذ ما أوصاه به مسلمة ، من الإساءة إلى عقبة بالانتقام منه ، وتخريب هذه المدينة التى أراد أن يجعل نفسه بها والياً كمسلمة سواء بسواء ، وقد سبق إثبات براءة أبى المهاجر من جريمة ما نزل بعقبة ، فاتضح أنه لم يكن إلا منفذاً لإرادة مسلمة .

وصول
أبى المهاجر

يبدو أن المؤرخين بالغوا فى رواية ما فعله أبو المهاجر بالقيروان ، لأنه إذا كان قد خرب دورها وهدم جامعها ، لقضى عقبة فى إعادتها لأصلها زمناً طويلاً ، ولا تحدثنا المراجع بأن عقبة أنفق فى ذلك كبير جهد أو طويل وقت ، وإنما الأصح أن يقال إنه نقل الناس منها إلى جهة أخرى ، فأقفر وأوحشت ربوعها ، وهذا ما فهمه من قول النويرى : « فلما وصل كره أن ينزل بالموضع الذى اختطه عقبة ، فنزل عنه بمسافة ميلين واختط مدينة وأراد أن يكون له ذكرها ، ويفسد ما عمله عقبة فسمّاها البربر بتكثيروان ، فأخذ الناس فى عمارتها وأمر الناس أن يخربوا

هل هدم
أبو المهاجر
القيروان ؟

(١) السلاوى ، الاستقصا ، ص ٣٧

(٢) الباجي ، الخلاصة النقية ، ص ٥ و ٦

(٣) ربما كان المؤيد الوحيد الذى نستطيع الاعتماد عليه ، فى تقرير هذا الرأى هو وجود حنش الصنعاني حقاً فى هذه الحملة ، وكونه من القواد البارزين الذين يعتمد عليهم فى مثل هذا العمل ، وقد ذهب كودل ، إلى أنه من الجائز أن يكون أبو المهاجر — بعد أن عجز عن الاستيلاء على قرطاجنة ، والتحالف مع أهلها — عاد إلى القيروان ، وبث حنشاً إلى جزيرة شريك ليحتلها — كودل ، ج ٢ ص ١١٠ و ١١١ Caudel, op. cit. II. pp. 110, 111

القيروان ، ويعمروا مدينته^(١) » فأبو المهاجر لم ينزل بالقيروان ، وإنما ابتعد عنها بميلين وأخذ يختط مدينته ثم أمر الناس أن يخربوا القيروان ويعمروا مدينته ؛ أى يتركوا القيروان ويسكنوا مدينته .

ثم ما معنى قوله : « فسمها البربر بتكثيروان » ؟ لماذا سماها البربر كذلك ، ولم يسمها (العرب) مع أنهم بناتها كما تقول الرواية ؟ وإذا كان أبو المهاجر قد أراد بعمله هذا أن يخلد اسمه بهذه المدينة الجديدة ، فلم لم يختار لها اسماً عربياً يقترب بذكره ، كما اقترب ذكر عقبة بالقيروان ؟ . أليس المعقول أن يكون هذا الموضع الذى انتقل إليه أبو المهاجر ، قرية بربرية بهذا الاسم أو ما يقربه ؟ إن قول المالكى المغربى : « ثم انصرف فنزل بذكرور مدينة البربر ، بالقرب من موضع القيروان^(٢) » يعزز هذا رأى ، وهذا أقرب للواقع ، فلم يكن لدى أبى المهاجر من الوقت ما يمكنه من بناء مدينة جديدة ، وإنما اكتفى بالنزول فى قرية بربرية على مقربة من القيروان ، وأمر الناس بإخلاء مدينة عقبة فأخلوها ، ولعل قول المالكى إن أبا المهاجر حين سار إلى تلمسان : « لم يستخلف على القيروان أحداً ، ولم يبق فيها إلا شيوخ ونساء » يؤيد هذا الرأى ، فما دامت المدينة الجديدة بربرية أصلاً ، فلا محل لحراستها أو ترك حامية عندها ، ولو أنها كانت مدينة حديثة البناء لخلف عليها من يحميها .

سواء أكان كسيلة :^(٣) « مرتاداً بالمغرب الأقصى فى جموعه من أوربة^(٤) »

(١) نهاية الأرب ، النويرى ، ٦٩ ب ولا يشير ابن عبد الحكم أو ابن الأثير إلى تخريب القيروان ، واتخاذ أبى المهاجر لمدينة أخرى ، وقد رسم المؤنس هذه القرية تيكروان .

(٢) المالكى ، رياض النفوس ، ص ٧

(٣) يرسمه أكثر المستشرقين كسيلة Koçella وهذا خطأ إذ أن ابن الأثير ضبطه فى أسد الغابة هكذا ، كسيلة بفتح الكاف وكسر السين المهملة ولم يفتح اللام والراء وبينهما ميم ساكنة وآخره ميم — ابن الأثير ، أسد الغابة ، ج ٣ ص ٣٢١ (٤) ابن خلدون ، ج ٦ ص ١٤٦

كما يقول ابن خلدون ، أم كان : « قد جمع الجموع من البربر والفرنج ، وزحف نحو المسلمين »^(١) . كما يقول السلاوي ، فإن أبا المهاجر قد عجل بالمسير نحو البربر ، ليقضى على ما بدا له من بوادر مقاومتهم ، وكانت زعامة البربر إذا ذاك لأوربة وزعيمها كسيلة النصراني ، وكان مقامه في المنطقة المحيطة بتلمسان وجنوبها ، فسار إليهم أبو المهاجر حتى أدركهم في هذه المنطقة ، وعسكر إلى جوارها وقضى زمناً طويلاً في معسكره هذا ، فحفر لجيشه آباراً سميت باسمه وقضى زمناً طويلاً هناك وسميت الآبار بعيون أبي المهاجر^(٢) ، ثم اتجه بعد ذلك إلى مركز المقاومة رأساً ، ولم ينفق وقته في حصار مدن في الطريق للاستيلاء عليها والغنم منها ، وهذا يدل على أنه كان يعلم أهمية العمل الذي كان في سبيل إتمامه ، وهذا أمر جديد يختلف عن كل ما رأينا ، فقد كان السابقون لا يكادون يجرون على خطة مرسومة ، أو حتى على علم بحالة البلاد ، وكان همهم منصرفاً دائماً إلى محاصرة بعض المدن ، والغنم منها .

أبو المهاجر
وكسيلة

لا تذكر المراجع أن أبا المهاجر حارب كسيلة حرباً عنيفة ، وربما كان سبب ذلك حرصه على أن يتخذ السياسة قبل الحرب ، إذ الثابت أن هذا الرجل كان على شيء كثير من الحكمة وبعد النظر ، وإذا كان قد نصح عقبة بقوله : « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يستألف جبابرة العرب ، وأنت تعتمد إلى رجل جبار في قوله في دار غزاه ، قريب بالشرك ، (فتفسد قلبه)^(٣) » حين أخذ عقبة يستبد بكسيلة ، ويسىء إليه ، فأولى بنا أن نستنتج أن تلك السياسة كانت رائده مع كسيلة ، حين توجه لحربه في تلمسان ، ومصادق ذلك أن المراجع لم تذكر حرباً

(١) السلاوي ، الاستقصاء ، ص ٣٧

(٢) المالكي ، رياض النفوس ، ص ٧

(٣) ابن خلدون ج ٦ ص ١٤٦

بين الرجلين ، وربما أيد ذلك أن الرجلين تحابا بعد ذلك ، وأعجب أحدهما بالآخر إعجاباً شديداً ، مما يدل على أنهما تفاهما قبل أن يحتربا^(١)

وإذا كان أبو المهاجر قد بدأ حصار قرطاجنة سنة ٥٩ هـ ، فيكون قد قضى سنوات أربعاً أو ثلاثاً في رحلته إلى تلمسان وعودته منها ، وإذا كان المفهوم من المراجع أنه سار إليها وعاد منها رأساً دون أن يميل إلى قرية أو حصن ، فيكون قد لبث عند تلمسان عامين أو ثلاثة كسب فيها ودَّ ذلك الرجل ، واطمأن إلى طاعة من معه من البربر .

لسنا نعلم إذا كان أبو المهاجر قد عاد إلى القيروان بعد حملة تلمسان ، أو اتجه إلى قرطاجنة رأساً ، وعلى أى الأحوال فالغالب أن حملته على قرطاجنة كانت مدبرة حتى قبل المسير إلى تلمسان إذ يغلب أن يكون قد اتجه للبربر ، للخلاص من أمرهم ثم التفرغ للروم بعد ذلك ، فلما تم له الأمر الأول اتجه لإنفاذ الثانى رأساً .

يذكر أبو المحاسن في حوادث السنة الثانية عشرة من ولاية مسلمة بن مخلد على مصر وهى سنة ٥٩ هـ : « وفيها غزا أبو المهاجر دينار فنزل على قرطاجنة وخرج إليه أهلها ، فالتقوا وكثر القتل بين الفريقين حتى حجز الليل بينهم ، وانحاز المسلمون من ليلتهم ، فنزلوا جبلا في قبلة بولس (تونس) ، ثم عاودوهم وصالحوهم على أن يخلوا لهم الجزيرة ، ثم افتتح أبو المهاجر المذكور ميلة (ميلة مدينة صغيرة بأقصى إفريقية ، بينها وبين بجاية ثلاثة أيام) وكانت إقامته بها في هذا الغزو نحواً من سنتين^(٢) .

(١) أبدى فورنل شكاً في قيمة إسلام كسيلة ، وذهب إلى أنه مصطنع ، لجأ إليه الرجل لنبجو من القتل ، وليس هناك ما يؤيد ذلك ، والغالب أن فورنل أضافه من عنده على عادته .

(٢) أبو المحاسن ، النجوم الزاهرة ، ج ١ ص ١٥٢ .

والمراد بالجزيرة هنا جزيرة شريك ، وهو شبه الجزيرة المحصور بين الحمامات وتونس ، وإنما سماه العرب شبه جزيرة ، جريا على عادتهم في تسمية شبه الجزيرة بالجزيرة ، كقولهم =

نلاحظ في عمل أبي المهاجر هذا أمرين جديدين ، وكلاهما واضح الدلالة على التطور الذي جد على مسير الفتوح في إفريقية ، وعلى ما يمتاز به أبو المهاجر نفسه من مهارة سياسية ، فهو لم يعاهد الروم على أن ينصرف عن قرطاجنة لقاء فدية من مال ، وإنما طلب إليهم أن يتنازلوا له عن جزء من البلاد ، لأنه لم يطلب الغنم والعودة ، وإنما كان يرغب في إتمام فتح البلاد ، فأهمه بالطبع أن يحصل على جزء منها ما دام قد عجز على الاستيلاء على قرطاجنة والقضاء على الروم تماماً ، وهذا يدل على أن نية أبي المهاجر كانت معقودة على الاستيلاء على قرطاجنة ، وضرب الروم ضربة قاضية .

يذهب أبو المحاسن إلى أن أبا المهاجر لم يعد إلى القيروان بعد الفراغ من حملته على قرطاجنة ، وإنما اتجه غرباً حتى فتح ميلة^(١) على مقربة من بجاية ، ولم يفصل ما حدث في هذه السرية ، ولا الغرض الذي رمى إليه أبو المهاجر من الاستيلاء على هذه المدينة ، لأنها ليست من المدائن الكبرى ، ولا المحارس التي تستحق عناء المسير إليها هذه المسافة الطويلة ، وكان أمام أبي المهاجر لو أنه رغب في الفتح ، مدائن أخرى أعظم وأهم من الناحية السياسية أو الحربية أو حتى من ناحية الغنى

= جزيرة العرب ، ويفهم من البكري أنها كانت عامرة كثيرة الزروع في زمانه ، وأنه كانت بها عدة مدن أعظمها باشو ، وقد أكد الإدريسي أنها تحد بالحمات وتونس ، وسماها جزيرة باشو ، وقد نقل ياقوت تحديدها عن البكري ، ونلاحظ أن أحد أبواب تونس كان يسمى باب جزيرة شريك ، وقد سميت بهذا الاسم نسبة إلى شريك العيسى ، الذي غزاها في حملة عبد الله ابن سعد فلزمها اسمه ، وشريك هذا هو أبو قرعة بن شريك ، حاكم مصر المعروف ، وتقع قرطاجنة إلى شمال هذه الناحية ، وأمامها جزائر بنتلرية المعروفة ، فلا بد أن شبه جزيرة شريك كان عامراً في ذلك الحين الذي فتحها فيه أبو المهاجر . البكري — وصف إفريقية ، ص ٣٩ و ٤٠ والإدريسي ، ١١٨ — ١٢٥ . ياقوت ، مادة شريك : التيجاني ، رحلة ، رحلة ص ١٠ (أ)

(١) لا زالت هذه المدينة موجودة إلى اليوم ، وقد ذكرها البكري في المدائن الكبيرة ، التي ينزل بها المسافرون من القيروان إلى مرسى الزيتونة ، وذكر أنها تلي قسطنطينة ، وكذلك ذكرها الإدريسي — البكري ، وصف إفريقية ، ص ٦٣ — ٧٦ والإدريسي ، ص ٥٧ — ٩٤

ووفرة الغنيمة ، وأنه وإن لم يكن لدينا ما يؤيد هذا العمل ، أوحى ما يبرره ، فإننا لانستطيع إلا أن نذكره كما هو ، دون تأييد أو نفي لأنه ليس لدينا ما ينفيه . يذكر الدباغ أن أبا المهاجر عاد بعد ذلك إلى القيروان فأقام بها ويغلب أنه أراد أن يقول إنه عاد إلى تكروان المدينة التي اختارها ، لأنه كان يكره نزول قيروان عقبة ، ولبث بها حتى عزل سنة ٦٢ هـ .

وقد ذكر أبوالحاسن أن أبا المهاجر قضى في غزو قرطاجنة وميلة نحواً من سنتين ، فإذا كان قد شرع فيه سنة ٥٩ هـ فيكون قد عاد منه سنة ٦١ هـ ، فأقام في هدوء عاماً واحداً عزل في نهايته .

* * *

يذكر السلاوي أن أبا المهاجر : « كان أول أمير مسلم ، وطئت خيله المغرب الأوسط »^(١) ويريد بذلك أنه كان أول من حمل الإسلام إلى هذه النواحي ، وبشر به في ربوعها وكسب له أنصاراً من أهلها ، ولا نزاع في أن إسلام كسيلة

(١) وقف كودل من أبي المهاجر موقفاً لا يخلو من تناقض ، فقد أعجب به في أول الأمر إعجاباً عظيماً فقال — وهو يحاور فورنل — إن أبا المهاجر كان : « قائداً من الدرجة الأولى ، يفوق مجده مجد عقبة نفسه ، وكل الآخرين . . . كان دينار في الواقع رجلاً ماهراً ، لم يفره الانتصار بعد أن غلب كسيلة ، وإنما استفاد من حياء القائد البربري ورضاه ، لكي يقضى على الروم » ، ثم عاد فهبط به ونقده في أسلوب شديد قائلًا : « إن أبا المهاجر هو المثل الأول في ذلك التاريخ ، للجندى الطارىء الذي نشأ من لا شيء ، وقفز إلى القيادة برضا سيده ، لا بمواهبه الشخصية » ثم قال عن مهمته وعمله : « أراد دينار قبل كل شيء أن يرضى سيده ، وعرف أنه لا يوفق إلى ذلك إلا بالحصول على مبالغ طائلة من المال وإرسالها إلى مصر ، فذهب يلتمسها حيثما كانت ، واستعمل لإدراكها من كان يستطيع معاوته » وهذا قول خاطيء ، لأن أبا المهاجر لم يسع إلى الغنيمة ، ولم يهتم بالمال ، بل كان يرمى إلى إتمام فتح البلاد فقط ، وكان يستطيع أن يأخذ من أهل قرطاجنة ، مبلغاً طائلاً من المال حين فاوضوه ليرجع عنهم ، ولكنه أبى ذلك وعاهدهم على أن ينزلوا له عن شيء من أرضهم ، وفيما خلا ذلك أصاب كودل كل الصواب ، حتى دافع عن دينار وأكد أن كونه مولى ليس عربياً ، قد قلل من قدره في حساب المؤرخين ، وجعله عند المقارنة أقل من عقبة ، مع أنه ليس أقل منه كفاءة ولا مهارة .

راجع كودل ، ج ٢ ص ١١٤ و ١٢٢ . Caudel, op. cit. II. pp. 114, 122.

كان حادثاً عظيماً له معناه وأثره البعيدان ، فأما معناه فنجاح الفتح الإسلامي في تادية الغرض الأسمى من هذا الفتح ، وهو نشر الإسلام ، وأما تأثيره فلا نزاع في أن كسيلة لم يسلم بمفرده ، وإنما تبعه نفر كبير من قومه ، من القادة والأقارب والأنباع والأصاغر ، وربما خفيت أهمية هذا الأمر الآن ، لأنه ليس ظاهراً ملموساً ، أولأن المؤرخين الذين تأخذ عنهم لم يعنوا به ، ولم يجهدوا أنفسهم في استقصائه ، ولكن أهميته ستتضح لنا بعد ثلاثين سنة فقط ، حين نجد رجالاً من البربر وأهل البلاد ، مسلمين على ثقة وتمكن من دينهم يسرون مع العرب جنباً لجنب لفتح البلاد ونشر راية الإسلام ، وكيف نفسر ظهور رجل كطارق بن زياد عربي الإسم عربي الأب في سنة ٩١ هـ ، إلا بأن أباه زياداً قد تزوج امرأة من أهل البلاد ، في مثل هذا الوقت الذي نتحدث فيه ؟ وإنما ضربنا المثل بطارق لكي نؤكد أن حركة الاختلاط بين البربر والعرب — بالزواج والإسلام — كانت تسير جنباً إلى جنب مع الفتوح التي شغل المؤرخون بها .

الباب السادس

محاولة فتح المغرب الأقصى

حملة عقبة الثانية

(من سنة ٦٠ هـ — سنة ٦٣ هـ)

كان عقبة على وشك الخروج للغزو حين عزله مسلمة بأبي المهاجر ، فوقع هذا العزل من نفسه موقعاً سيئاً ، لأنه حرمه من الثمر الذي بذل في غراسه ما بذل ، وطال به الأمد وهو يترقب الفرصة لإنفاذه . ولو اقتصر الأمر على العزل لكان الخطر على نفسه ، ولكن أبا المهاجر كان قد أمر بأن يسيء إليه ، وينال منه ويعنى على آثاره . فأخذ الناس بترك القيروان ، فأصبحت خلاء قواء ، ولا يبعد أن يكون الخراب قد غشيها ، بعد إذ هجرها الناس وهي بعد ناشئة لا قوام لها . ثم أخذ عقبة بالمهانة السيئة والسجن الشديد ، فحملت نفس عقبة بالسخط عليه . فلما أن وصلت الأخبار بذلك إلى معاوية ساءته ، فأسرع بأمره بتخليه سبيله وإشخاصه إليه^(١) ، فمضى وقلبه يفيض بالسخط حتى أتى معاوية ، فشكا إليه ما نزل به ، فكان رد معاوية يشعر بأنه أسف لما أصابه ، وأنه رجا أن يرده ، ولكنه خشى أن يسوء ذلك مسلمة ، فقال لعقبة : « قد عرفت مكان مسلمة بن مخلد من الإمام المظلوم ، وتقديمه إياه وقيامه بدمه وبذل مهجته^(٢) » . إذ كان مسلمة ممن شهد معه — أى مع معاوية — صفين ، وقيل لم يشهدا وكان فيمن شهد قتل محمد بن أبي بكر^(٣) ، فأثر معاوية أن يدع الأمر على ما هو عليه ، مرجئاً إنصاف عقبة إلى زمن سيجيء ، وهكذا ظل إنصاف عقبة معلقاً حتى انتهت أيام معاوية . فلما مات معاوية في أول رجب سنة ٦٠ هـ وخلفه يزيد توقع عقبة الخير على يديه ، ولا بد أنه بسط له شكاته ، والتمس منه الإنصاف ، لأن الدباغ يحدثنا أن يزيد قال عقب ذلك : « أدركوها قبل أن يخربها ، ورد عقبة إليها^(٤) » . ويغلب أن ذلك لم يكن إلا عقب وفاة مسلمة ، لأن إجماع المراجع منعتقد على أن عقبة رد إلى عمله سنة ٦٢ هـ ، وما دام مسلمة قد توفي في ٢٥ رجب من هذه السنة ،

مضى سار عقبة
في حملته
الثانية ؟

(١) ابن عبد الحكم ، فتوح ، ص ١٩٧ (٢) نفس المصدر ، ص ١٩٨
(٣) ابن الأثير ، أسد الغابة ، ج ١ ص ٣٦٥ (٤) الدباغ ، معالم الإيمان ، ج ١ ص ٤٥

فالأرجح أن عقبة رد عقب ذلك^(١) ، ولو كان عقبة رد قبل وفاة مسلمة ، فلماذا تحدد المراجع سنة ٦٢ هـ بالذات أى بعد سنتين من ولاية يزيد ؟ ولم لم يردده يزيد من أول ولايته ؟ وفيما كان الانتظار ؟ بل لو كان مسلمة حياً حين رد عقبة إلى عمله لتولى حماية أبي المهاجر منه ، أو لاستغاث به هذا الأخير على الأقل ، فأما وقد كان عقبة مطلق اليد ، يفعل بأبي المهاجر ما يشاء ، فإن في ذلك لدليلاً على أن هذا الأخير كان قد فقد وليه ونصيره فهان أمره على الناس^(٢) .

بدأ عقبة عمله بالاقتصاص من أبي المهاجر ، فأوثقه في وثاق شديد ، وأساء عزله وغزا به السوس وهو في حديد^(٣) ، وأبقى عليه ليتشفى منه على مهل ، ويذهب المالكي والدباغ إلى أن عقبة وجد معه مبلغاً طائلاً من المال ، قدره بمائة ألف دينار فأخذها^(٤) ، وهي رواية ظاهرة المبالغة ، يؤيد ضعفها ما سبق بيانه من عدم اهتمام أبي المهاجر بالأموال والغنائم ، فلم تذكر النصوص أنه جمع من الأموال ما يمكنه من الحصول على هذا القدر من المال .

إصلاح
القيروان

ثم انثنى عقبة إلى قيروانه يصلحها مما نزل بها على يد أبي المهاجر ، وقد ذهب المالكي إلى أنه « جدد البناء وشيدها فعمرت وعظم شأنها^(٥) » . ولكن الغالب

(١) وقد جاء في النجوم الزاهرة سنة ٦٣ هـ ، وهي السنة الأولى من ولاية سعيد بن يزيد على مصر ، وفيها غزا عقبة بن نافع القيروان ، وسار حتى دخل السوس الأقصى ، وهذا يؤكد أن عقبة رد في أواخر سنة ٦٢ هـ ، وبدأ عمله في إفريقية سنة ٦٣ هـ . — أبو المحاسن ، النجوم الزاهرة ، ج ١ ص ٩٠

(٢) من هنا نستطيع أن نقطع بخطأ الزويري فيما زعمه من سعى مسلمة للقاء عقبة في عودته إلى إفريقية ، واعتذاره إليه عما نزل به ، لأن مسلمة كان قد مات إذ ذاك ، والغالب أن الزويري نقل هذه العبارة بالنص عن ابن عبد الحكم ، ولكنه أخطأ فجعلها في رجوع عقبة من دمشق سنة ٦٢ هـ ، في حين حدث هذا في مسيره إليها حين عزل سنة ٥٥ هـ .

(٣) ابن عبد الحكم ، فتوح ، ص ١٩٨ (٤) المالكي ، رياض النفوس ، ص ٧ الدباغ ، معالم الإيمان ، ج ١ ص ٤٣ ، ابن مقديش ، نزهة الأقطار ، ص ٧٠ (٥) المالكي ، رياض النفوس ، ص ٧

أن قول ابن أبي دينار أنه : « أعاد الناس إلى القيروان وعمرها »^(١) هو الأصح ،
إذ سبق القول بأن أبا المهاجر لم يخرب القيروان ، وأنه لم يهدم دورها كما يذكر
بعض المؤرخين ، وإنما اكتفى بنقل الناس منها فخرت ، فلما عاد عقبة أعاد الناس
إليها فعاد إليها العمران .

١ فإذا انتهى عقبة من ذلك ، فقد عجل بإنفاذ ما حالت الظروف بينه وبين
إنفاذه سبع سنوات متواليات ، وربما كان الخوف من أن يفاجأ بعزل جديد
هو الذي دفع به إلى التعجيل بالمسير دون أن يرسم لنفسه خطة أو غاية ، ولو قد تفكر
في هذا لاستطاع أن يفيد خيراً عمياً من جهود سلفه أبي المهاجر ، الذي استطاع
بالسياسة والتدبير أن يضرب الروم ضربة شديدة ، وأن يملك زمام البربر بما وفق
إليه من صحة أميرهم كسيلة وإسلامه . لو أن عقبة تبين هذا على وجهه ، لكانت
مهمته ولكان نصيبه من التوفيق أعظم وأبقى أثراً . وربما جعل ذلك لغزوته
الكبرى وجهاً آخر ، إذ كان يستطيع بما يضمن من ولاء البربر ، أن يقضى القضاء
الأخير على ما بقي للروم في إفريقية ، وأن يضمن طاعة من بقي من أهل البلاد ،
وكان يستطيع إلى جانب ذلك ، أن يكسب أمراً هو أجدى عليه من كل فتح ،
وهو تحييب الإسلام إلى أهل البلاد بالحسنى والرفق والمودة كما فعل أبو المهاجر ،
وقد حاول هذا الأخير أن يلفت نظر عقبة إلى ذلك ، ولكنه أبى الأخذ به
تحقيراً له ، فقد روى المالكي أن أبا المهاجر قال لعقبة حين هم بالمسير لحرب بربر
طنجة : « ليس بطنجة عدوك لأن الناس قد أسلموا ، وهذا رئيس البلاد
— يريد كسيلة — فابعث معه والياً ، فأبى عقبة إلا أن خرج بنفسه »^(٢) . وهكذا
أضاع عقبة على نفسه فرصة كبرى ، واستعاض عن ذلك بحرب شعواء هوجاء

(١) القيرواني ، المؤنس ، ص ٢٧

(٢) المالكي ، رياض النفوس ، ص ٨

شنها على أهل البلاد ، بلا غرض محدود ولا نتيجة ترجى ولا معنى يفهم ،
فضاع جهده هباء .

يبدو أن قول الديباغ^(١) : « إن جند عقبة كانوا خمسة عشر ألفاً » ، أقرب
إلى الصحة من قول ابن عبد الحكم إنهم كانوا خمسة آلاف فقط^(٢) ، لأن خمسة
آلاف جندي أقل من أن ينهضوا بعمل ضخم كالذي قام به عقبة في حملته
الكبرى . وإذا كان قد سار في حملته الأولى بعشرة آلاف فقط ، وسار بمثلها دينار
فليس بمعقول أن يسير هذه المرة بخمسة آلاف فقط ، وخلف عقبة على القيروان
رجل سيكون له شأن عظيم في فتوح إفريقية هوزهير بن قيس البلوى^(٣) ، على رأس
حامية صغيرة من الجند ، وفصل عن القيروان ، وقد اصطحب معه أبا المهاجر
مقيداً مكبلاً . وتذكر المراجع كذلك أنه أخذ معه كسيلة أيضاً في حديد ، وكانت
تلك أكبر أخطاء عقبة وأوخمها عاقبة ، فقد غيرت عليه البربر ، ودفعتهم إلى مقاومته
مقاومة عنيفة ، ويذهب المؤرخون إلى أن عقبة أراد بذلك أن يعاقب كسيلة
على ما أخلص لأبي المهاجر ، وما بذله من الود وحسن المعونة ، وهذا تعليل ضعيف
لا يبرر هذا الأمر ، والغالب أن عقبة خاف شر كسيلة إن هو أطلقه ، وخشى
أن تثير قومه ثاراً لصديقه أبي المهاجر ، بل الغالب أن عقبة خشى أن يدفعه
أبو المهاجر إلى ذلك ، وربما أراد عقبة بحبس كسيلة وإهانته ، أن يؤكد لأهل
البلاد استخفافه بهم وتحقيره لشأنهم ، ففضبت أوردية ومن والاهما من القبائل
لما لحق كسيلة من المهانة . وإذا كانت المراجع تتفق على أن كسيلة قد اتصل بآله

(١) الديباغ ، معالم الإيمان ، ج ١ ص ٤٣ — ونقله عنه ابن مقديش في نزهة الأقطار ، ص ٧٠

(٢) ابن عبد الحكم ، فتوح ، ص ١٦٩

(٣) ذهب ابن عبد الحكم إلى أنه ترك مع زهير شخصاً آخر اسمه عمر بن علي الفرس ،
وقد سبق أن ذكر أن عقبة خلف هذا الشخص أيضاً على غدامس حين سار في بعثه
الصحراوي ، ويغلب أن ذلك راجع إلى اختلاط أخبار حملتي عقبة — ابن عبد الحكم ،
فتوح ، ص ١٦٩

في أواخر أيام عقبة ، وأحكم معهم تدبير مصرعه ، فإن الدلائل كلها ناطقة بأنه كان على اتصال بهم من أول الأمر ، وأنه أخذ يدبر معهم الأمر لخلاصه والانتقام من عقبة .

عود النشاط
إلى الروم

سبق القول بأن روم الساحل كانوا قد نشطوا منذ أوائل أيام أبي المهاجر ، وأن هذا الأخير استطاع أن يكسر شوكتهم بما أنزل بهم في حصار قرطاجنة ، إذ أجبرهم على التنازل للعرب عن جزيرة شريك ، وأرسل قائده حنش الصفاتى فسكر فيها ، فكان بمثابة الحارس يهدد قرطاجنة ويرقب أعمال الروم بها ، ويمنعهم من التقدم نحو الجنوب أى نحو القيروان ، فاشتد خوفهم وسعوا للخلاص من ذلك القيد الثقيل . وليس في المراجع ما يدل صراحة على ذلك ، ولكنه يفهم من مجمل الحوادث التي ستلى .

يذكر ابن الأثير أن عقبة تقدم : « فسار إلى بلاد الزاب ، وهي بلاد واسعة فيها عدة مدن وقرى كثيرة ، فقصده مدينتها العظمى واسمها أربة ، فامتنع بها من هناك من الروم والنصارى^(١) » فمن هم النصارى الذين يذكركم ابن الأثير ؟ يغلب أنه يريد قوماً آخرين غير الروم لأنه يذكر الروم كذلك ، وربما أراد نصارى البربر بذلك القول ، ومن هم نصارى البربر إلا أوربة ومن والها ؟ ثم ماذا أقدم الروم بلاد الزاب وقد تركوها منذ زمن بعيد ؟ أى شيء لهم في هذه الناحية أو عاصمتها أوربة حتى يقاتلوا المسلمين عنها هذا القتال العنيف ؟ ولماذا تخير الروم هذه المنطقة بالذات ؟ أليست تلك دلائل تحمل على الظن بأنه كان هناك شبه حلف بين الروم وأوربة ؟ وأليس المعقول أن تكون أوربة قد غضبت لما نزل برئيسها ، فسعت للاتصال بالروم الذين كانوا في خوف منذ عسكر العرب في جزيرة شريك ؟ فلم يلبث هؤلاء أن أسرعوا لعون البربر ، إذ وجدوا إلى ذلك سبيلا

(١) ابن الأثير ، أسد الغابة ، ج ٤ ص ٤٢

لمقاومة العرب والقضاء عليهم . ربما استطعنا بذلك أن نفسر المقاومة الشديدة التي لقيها عقبة في مسيره ، وهي مقاومة من البربر والروم معاً لم يسبق لها مثيل فيما سلف من غزوات ، بل ربما استطعنا أن نعلل الكثير مما يلي من أعمال عقبة وما يلقاه من عنت وكيد ، وهي أمور اكتفى غالب المؤرخين بروايتها على علاقتها دون تعليق أو تحقيق ، ولا سبيل إلى فهمها إلا عن هذا السبيل .

بيد أن الغالب أن عون الروم للبربر لم يزد عن توجيههم إلى أساليب القتال ، ومعاونتهم على تحصين مدنها ومقاومة هجوم المسلمين ، فلم يكن روم إفريقية إذ ذاك على قوة تمكنهم من تجهيش الجيوش أو المعاونة المادية القوية ، ومصدق ذلك أن البربر يجرون في مقاومة عقبة على شيء يشبه الخطة المنظمة أو الحيلة المرسومة كاجتذابهم عقبة من طينة إلى تهودة لحصره هناك والقضاء عليه ، ولا يخفى كذلك أصعب كسيلة في هذا كله ، إذ كان عيناً على المسلمين ، يرسل أهلهم وذويه ويرشدهم إلى ما يجب اتباعه .

— ٢ —

ويخلط نفر من المؤرخين بين أحداث هذه الحملة وأحداث حملة عقبة الأولى ، فيذكرون فيها غزوة لقسطيلية وقفصة^(١) ، بل يزيد البعض فيخلطون بينها وبين بعثه الأول ، فيذكرون غزو فزان^(٢) وقصة ماء الفرس^(٣) ، والراجح الذي يتفق عليه أكثر المؤرخين أنه خرج من القيروان رأساً إلى باغاية ، دون أن يرج نحو الجنوب ليعيد غزو قسطيلية وقفصة ، ثم يعود إلى الشمال مرة أخرى نحو باغاية . ينقسم المؤرخون طوائف ثلاثة في تفصيل ما وقع في غزوة عقبة هذه : ففريق يوردها موجزة إيجازاً شديداً كالبلاذري وأبي المحاسن ، وفريق آخر يطيل التفصيل

(١) المالكي ، رياض النفوس ، ص ٨ — ، رحلة التيجاني ، ص ٧٠ أ

(٢) الباجي ، الخلاصة النقية ، ص ٦٣٥ (٣) ابن الأثير ، أسد الغابة ، ج ٤ ص ٤٣

في أحداثها ، ويجعل منها قصة حافلة بالوقائع والانتصارات ، والآيات الناطقة بولاية عقبة وقربه من الله ، كابن الأثير والنويرى وابن عذارى وطائفة المؤرخين المغربيين ، وفريق آخر يفصل أمرها بعض التفصيل ، ولكنه يذكر أحداثاً يختلف عما ذكر غيره وهو ابن الحكم .

فأما البلاذرى ، فيكتفى من أمر هذه الحيلة بقوله : « فلما ولي يزيد بن معاوية رد عقبة بن نافع إلى عمله ، فغزا السوس الأدنى وهو خلف طنجة ، وجول فيما هناك لا يعرض له أحد ولا يقاتله ، فانصرف ومات يزيد بن معاوية^(١) ، وهو قول موجز فيه خطأ كثير فقد أهل ذكر ما قام به عقبة والبربر والروم من حرب عنيفة عند باغاية وفي الزاب ، ولم يشر إلى استشهاد عقبة في تهودة ، وهو أمر متوارد مذكور لا معنى للاستطراد عنه ، وسيتضح من إشارات البلاذرى إلى مايلي ذلك من فتوح إفريقية أنه لم يعد يذكر شيئاً من التفاصيل الصحيحة التي تعودنا وجودها فيه ، مما يدل على أن مصادره التي كان ينقل عنها قد انقطعت عنه بعد موقعة سبيلة^(٢) .

وكذلك أبو المحاسن لا يكاد يذكر شيئاً مما حدث لعقبة في مسيره الطويل من القيروان إلى طنجة ثم إلى المحيط ، ثم يبدأ يقص مسير عقبة إلى تهودة ومصرعه هناك بتفصيل دقيق ، فلندع روايته إلى حينها من أعمال عقبة^(٣) .

ويورد ابن عبد الحكم روايتين مختلفتين : أولاهما شديدة الشبه برواية الواقدي التي ذكرها البلاذرى : « فخرج عقبة بن نافع سريعاً بحنقه على أبي المهاجر ، حتى قدم إفريقية فأوثق أبا المهاجر في وثاق شديد ، وغزا به معه إلى السوس وهو في حديد ، وأهل السوس بطن من البربر يقال لهم أنبيسة (أنثنة . أنثنة) ، فجول في بلادهم

(١) البلاذرى ، فتوح البلدان ، ص ٢٢٨ (٢) البلاذرى ، فتوح ، ص ٢٢٨

(٣) أبو المحاسن ، النجوم الزاهرة ، ج ١ ص ١٥٨ — ١٦٠

لا يعرض له أحد ولا يقاتل فانصرف إلى إفريقية ، فلما دنا من ثغرها أمر أصحابه فافترقوا عنه وأذن لهم حتى بقى في قلة ، فأخذ على مكان يقال له تهوذة (تهودة) فعرض له كسيلة بن لمزم في جمع كثير من الروم والبربر ، وقد كان بلغه افتراق الناس عن عقبة ، فاقتتلوا قتالا شديداً فقتل عقبة ومن كان معه ، وقتل أبو المهاجر وهو موثق في الحديد^(١) . وقد أهمل ابن عبد الحكم فيها كل ما وقع لعقبة حتى بدأ عودته ، وذكر بعض التفصيل عن مصرع عقبة ، ويلاحظ أنه لم يشر إلى وجود كسيلة مع عقبة في جيشه موثقاً بالحديد ، كأنما أراد أن يقول إن كسيلة كان بعيداً عن عقبة ، وأنه « بلغه » فقط افتراق الناس عن عقبة ، فعاجله عند تهودة وقضى عليه ، ولم يكن الواقع كذلك .

ثم عاد ابن عبد الحكم فروى رواية أخرى ، لا شبه بينها وبين روايته الأولى أو أية رواية أخرى لأى مؤرخ آخر ، ولم يذكر إسنادها بل اكتفى بقوله : « ويقال » بدأها بذكر خروج عقبة إلى السوس ، وتركه عمر بن على القرشى وزهير بن قيس على القيروان^(٢) ، فلم يكده فصل عن المدينة حتى هاجم القيروان رجل من العجم في ثلاثين ألفاً ، ولكن الله نصر المسلمين ورد الأعجم ، ثم يذكر ابن عبد الحكم عبارة أخرى ، إذا صححت كانت عظيمة الأهمية في تاريخ عقبة وما انتهت إليه حياته ، وهى قوله : « وخرج ابن الكاهنة البربرى على أثر عقبة ، كلما رحل عقبة من منهل (ودمه — منهل) دفنه ابن الكاهنة ، فلم يزل كذلك حتى انتهى عقبة إلى السوس ولا يشعر بما صنع البربرى ، فلما انتهى عقبة إلى البحر أغم فرسه فيه . . . وانصرف راجعاً ، والمياه قد غورت ، وتعاونت عليه البربر فلم يزل يقاتل

(١) ابن عبد الحكم ، فتوح ، ص ١٩٨

(٢) ذكر السلاوى أن عقبة جعل زهير بن قيس على مقدمة جيشه ، ولكن الغالب أنه خلفه على القيروان كما يقول ابن الأثير. السلاوى ، الاستقصا ، ص ٣٧ — ٣٨ . ابن عبد الحكم ، فتوح ، ص ١٩٧ — ١٩٩ ، والزيادة التى بين الأقواس من عمل الناشر .

وأبو المهاجر معه في الحديد ، فلما استحر الأمر أمر عقبة بفتح الحديد عنه فأبى أبو المهاجر وقال : « ألقى الله في حديدى ، قتل عقبة وأبو المهاجر ومن معهما ^(١) » إذا صح ذلك كان دليلاً على أن عقبة كان محاطاً من أول الأمر بشبكة واسعة النطاق وهو جاهل بأمرها ، فهذه الرواية تذكر أن نفراً من البربر كان يتبعه ، ويردم الآبار التي يمر بها حتى انتهى عقبة إلى المحيط ثم انقلب راجعاً ، فإذا المياه قد تلفت وأصبح المسير عليه صعباً ، فأخذ البربر يتجمعون في طريقه ، ويأخذون عليه السبيل حتى أوقعوا به عند تهودة ، إذا جاز أن نشك في هذه الرواية لانعدام ما يؤيدها من الروايات الأخرى ، لما جاز أن نستبعدا تماماً لأن فيها إشارات لها أهميتها ، فلا نزاع في أن ابن عبد الحكم عنى بابن الكاهنة هذا « كسيلة » نفسه مما ينتهى بنا إلى رأى جديد له أهميته ، وهو أن موت عقبة لم يقع بمحض المصادفة وإنما كان نتيجة لتدبير بعيد بدأ من ساعة فصله عن القيروان ^(٢) ، لأن بعض المراجع تجعل بين كسيلة وبين الكاهنة صلة وسبباً ، فكأن ابن عبد الحكم أراد أن يقول إن كسيلة كان يتبع عقبة ، ويغور الماء في طريقه ليقطع عليه خط العودة ، بيد أن المعروف أن كسيلة كان أسيراً لدى عقبة طوال حملته ، فكيف يتفق ذلك مع تفسير رواية ابن عبد الحكم على هذا النحو؟ ربما جاز القول بأن

(١) فهم روث تغوير الماء هذا على أنه تسميم الآبار والواضح من الرواية أن البربر لم يكونوا يسممون الآبار ، وإنما يطمرونها فقط كما هو ظاهر من النص .

(٢) ذكر النويرى أن عقبة خطب في أولاده خطبة نفيسة قبل رحيله ، أعلن فيها أنه مستشهد لا محالة وأوصاهم ببعض وصايا ، وقد تناول المالكي هذا الخطاب فأضاف إليه وزاده حتى أصبح ثلاثة أضعاف ما ذكره النويرى ، وكلامه ظاهر الاختراع بل فيه ما يدل على أن واضعه إفريقى أو من العرب النازلين في إفريقية ، والغالب أن هذه الخطب وضعت بعد ذلك بقليل ، أى حينما استبد أبناء عقبة بالحكم في إفريقية في أواخر العصر الأموى وأوائل العصر العباسى ، فوضعت هذه الخطب لتشد من أزرهم وتثبت من حقهم ، وكفى بهم نفراً أنهم أبناء ولى الله عقبة وأنه تركهم على البلاد ، وأوصاهم بالناس من بعده — النويرى ، نهاية الأرب ، ورقة ٧٠ (أ) المالكي ، رياض النفوس ، ص ٨

سطور ابن عبد الحكم تخفى أمراً آخر له أهميته ، وهو أن ابن الكاهنة « كسيلة » كان يدبر لعقبة من أول الأمر وهو سجين في جيشه ، يتصل بآله وذويه ويدبر معهم المكيدة لعقبة ، فجعلهم يفرون الماء في طريقه وأخذ يوافيهم بأخباره وأساره ، ويرسم لهم المؤامرة الأخيرة التي انتهت بمصرع عقبة في تهودة .

بقيت الطائفة الثانية وهم : ابن الأثير وابن خلدون والنويرى وابن عذارى وطائفة المؤرخين الغربيين . فاما ابن الأثير فقد سبق بيان اعتماده على مراجع مغربية أصلية في كتابة هذا الجزء من تاريخه ، فروايته جديرة بالاعتبار ففيها دقة مطابقة للواقع . وأما النويرى وابن عذارى فقد أخذوا — كما هو معروف — عن ابن أبي الرقيق فتشابهت روايتهما تشابهاً تاماً ، وعنهما أخذ الغربيون وزادوا على ذلك أساطير كثيرة وخطباً شتى نسبت لعقبة ، تنحصر أهميتها في أنها تعطينا فكرة عن شخصية عقبة كما يفهمها الغربيون .

ذكر ابن الأثير أن عقبة خرج من القيروان : « ثم سار في معسكر عظيم حتى دخل مدينة باغاية ؛ وقد اجتمع بها خلق كثير من الروم فقاتلوه قتالاً شديداً وانهزموا عنه ، وقتل فيهم قتلاً ذريعاً وغنم منهم غنائم كثيرة ودخل المهزموں المدينة ، وحاصروهم عقبة ثم كره المقام عليهم فسار إلى بلاد الزاب »^(١) . والرواية على هذا النحو غير مستقيمة النسق ، إذ كيف يتفق قوله إن عقبة : « دخل مدينة باغاية » ، وقوله بعد ذلك : « إنه فشل في الاستيلاء عليها فانصرف عنها » ؟ ربما كانت رواية النويرى أصح إذ يقول : « ومضى في عسكر عظيم حتى أشرف على مدينة باغاية وقاتل أهلها قتالاً شديداً ، وغنم منهم خيلاً ودخل الروم حصنهم فكره عقبة أن يقيم عليهم فمضى إلى بليش »^(٢) ، وهذا هو الأقرب للصحة . لم يستول

(١) ابن الأثير ، أسد الغابة ، ج ٤ ص ٤٢

(٢) النويرى ، نهاية الأرب ورقة ٧٠ (أ) و ٧٠ (ب) والغالب أن بليش هذه هي لميزة =

عقبة على باغاية وإنما أشرف عليها وقاتل أهلها بظاهرها ، وغنم منهم خيلاً ثم كره أن ينفق وقته في حصارها فانصرف عنها وسار إلى الغرب حتى وصل إلى لمبيزة . يدل مسير عقبة من القيروان إلى باغاية إلى لمبيزة على أنه اتبع طريق السهل الذي سبقت الإشارة إليه ، وتجنب المسير على الهضبة الوعرة . ولهذا لم يعثر على تبسا ولا الأربس لأنهما على شاهق منها . ولما كانت لمبيزة على باب الهضبة مشرفة على المخرج منها ، فلم يكن له بد من المرور بها والوقوف عندها لأنها على باب سهل متسع ، يتوسطه شط هدنة الذي تنحدر إليه وديان ونهيرات كثيرة ، فيقوم على جانبيه عمران قليل .

وقع لعقبة عند لمبيزة مثلما وقع له عند باغاية ، إذ : « مضى إلى بليش وهي من أعظم مدن الروم فلجأ إليها من كان حولها منهم ، وخرجوا إليه وقاتلوه قتالاً شديداً حتى ظن الناس أنه الفناء ، فهزمهم وتبعهم إلى باب حصنهم وأصاب غنائم كثيرة ، وكره المقام عليها فوصل إلى الزاب^(١) » كما يقول النويري . في حين لا يذكر ابن الأثير مروره بلمبيزة ، بل يذكر أنه أتجه من باغاية إلى الزاب رأساً^(٢) ، وإنما يغلب أن النويري هو الأصوب لأنه ما دام قد انحدر من الهضبة إلى وادي الزاب المتسع وما دام مقبلاً من باغاية فلا مفر له من المرور بلمبيزة .

كيف استطاع الروم أن يثبتوا هذا الثبات في هذه النواحي الداخلية ؟ لقد رأيناهم منذ حين لا يكادون يعتصمون من العرب في بنيزرت وسوسة وجلولاء وما إليها ، بل يسرعون بالتسليم مع أن القوى التي سارت إليهم إذ ذاك كانت في أحيان كثيرة بعبثاً صغيرة يقودها قواد صفار . فكيف أبدى الروم هذه المقاومة

== الحصن الروماني المعروف ، وأخطأ النساخ فكتبوها كذلك ، وقد وردت في ابن خلدون ليس ، ومعقول أن أصل ليس هذه ليس ، والتعريف من ليس إلى بليش قريب الوقوع ، وقد كتبها كودل لمبيزة دون حاجة إلى تعليل هذا التصحيح

(١) النويري ، نهاية الأرب ، ورقة ٧٠ (ب) (٢) ابن الأثير ، أسد الغابة ، ج ٤ ، ص ٤٢

الشديدة التي لم تكن تتوقع في هذه النواحي التي لم تكن لهم فيها منعة حتى في أعز أيامهم منذ زمن بعيد ؟ أليس هذا بمصادق لما سبق بيانه من عود النشاط إلى روم إفريقية ؟ وكيف يعلل هذا النشاط الجديد إلا بأن الأسباب عادت فاتصلت بين بيزنطة وقرطاجنة على أثر السياسة الجديدة التي اتبعها قسطنطين الرابع ؟ فأخذوا يفكرون في سبيل المقاومة ، ووجدوا في البربر عوناً صادقاً على مناهضة العرب وردهم ، فتشجعوا وتوغلوا — بمعاونة البربر — إلى باغاية ولبيزة ، حيث استطاعوا أن يحصنوا هذه المدائن أمام العرب ويمكنوها من مقاومة الحصار الطويل .

عقبة
في الزاب

أفضى عقبة إلى الزاب وبهذا خرج من شدة الهضبة ووعورتها إلى إقليم كثير الوديان والزرور والعمران ، تنتشر فيه القرى التي تذكر المراجع أن عددها كان ثلاثمائة وأن أكبرها كانت تسمى أربة^(١) ، ومن عجب أن عقبة لم يوفق في الاستيلاء على مدينة صغيرة كهذه تدل الدلائل كلها على أنها لم تكن إلا محرساً صغيراً قديماً ، هجره الروم منذ زمن طويل فيقول ابن الأثير : « فسار إلى بلاد الزاب وهي بلاد واسعة فيها عدة مدن وقرى كثيرة ، فقصد مدينتها العظمى واسمها أربة فامتنع بها من هناك من الروم والنصارى ، وهرب بعضهم إلى الجبال فاقتتل المسلمون ومن في المدينة من النصارى عدة دفعات ، ثم انهزم النصارى وقتل من فرسانهم ورحل إلى تاهرت^(٢) » ورواية النويرى أكثر تفصيلاً إذ يقول : « فلما أصبح أمر بالقتال فكانت بينهم حرب حتى يئس المسلمون من الحياة ،

(١) يذكرها ابن خلدون أذنة والنويرى أربة ورسمها البكرى أذنة ، بلد كثير الأنهار والعيون العذبة ، وهناك عين الكتان عين عذبة في مفارة عليها أربع نخلات ، بينها وبين المسيلة مرحلة ، ولم يذكرها الإدريسي وقد وردت في بعض النصوص أربة وربما كانت هذه الصيغة هي الأصح لأن الإقليم كله اسمه الزاب فقول أن تكون عاصمته « أربة » ، ابن خلدون ج ٤ ص ١٨٥ — النويرى ، نهاية الأرب ، ص ٧٠ (ب) — البكرى ، وصف لإفريقية ، ص ١٤٤ — ابن الأثير ، أسد الغابة ، ج ٤ ص ٤٢
(٢) ابن الأثير ، أسد الغابة ، ج ٤ ص ٤٢

فأعطاه الله الظفر فانهزم القوم^(١) » ويضيف المغريون تفاصيل لطيفة لا بأس من إثباتها ، إذ يقولون : « إن المسلمين باتوا ليلتهم تلك على حذر وأنهم خافوا أن يأخذهم الأعداء على غرة ، فتواقف القوم الليل كله لا راحة ولا فترة ولا نوم فسماه الناس اليوم وادى سهر لأنهم سهروا عليه ، فلما أصبح عقبة صلى الصبح . . .^(٢) » ويلي ذلك كلام شديد الشبه بكلام ابن الأثير والنويري .

ربما كان قول ابن الأثير : « فامتنع من بها من الروم والنصارى . . . فاققتل المسلمون ومن بالمدينة من النصارى^(٣) » ، كافياً لتعليل هذه المقاومة الشديدة . الزاب بلاد بربرية كما يفهم من قول ابن خلدون : « وفتح أذنة قاعدة الزاب بعد أن قاتله ملوكها من البربر فهزمهم^(٤) » فابن الأثير يريد أن يقول فامتنع من بها من الروم والبربر النصارى أى الروم وأوربة ومن حالقها ، ومصدق ذلك أن هذه الناحية إحدى مراكز أوربة ومركز البربر المتأثرين بالحضارة اللاتينية .

بهذا يتضح تماماً أن هذه المقاومة الشديدة كانت مدبرة محكمة ، دبرتها أوربة بإشارة كسيلة وإرشاده ، وبالاتفاق مع الروم الذين أسرعوا لنجدة البربر في الزاب بعد أن أفلحوا في رد العرب عن باغاية ولميزة ، وربما كانوا يتتبعون عقبة خطوة خطوة ليطمروا الآبار في طريقه ويكونوا على أهبة الهجوم حينما تسنح الفرصة . فرغ عقبة من سهل الزاب الخصب وأخذ يرقى جزءاً من الهضبة قليل الارتفاع كثير الشعاب والوديان والشطوط ، فعبر نهر شلف واتجه إلى تاهرت حيث سارع الحلف الرومي البربري للوقوف في وجهه مرة ثالثة ، وكان في تاهرت حصن بيزنطى قديم ، فلما بلغ الروم خبره استعانوا بالبربر فأعانوهم ونصروهم ، فقام عقبة وخطب

(١) النويري ، نهاية الأرب ، ص ٧٣ (أ) (٢) المالكي ، رياض النفوس ، ص ٨ —
الدباغ ، معالم الإيمان ، ج ١ ص ٤٥ بتغيير طفيف في الألفاظ .
(٣) ابن الأثير ، أسد الغابة ، ج ٤ ص ٤٢
(٤) ابن خلدون ، ج ٤ ص ١٨٥

الناس وحرصهم على القتال ، فالتقوا واقتتلوا فلم يكن للروم والبربر طاقة بقتالهم فقتلهم قتلاً ذريعاً ، وفرق جموع الروم عن المدينة ثم رحل حتى نزل طنجة^(١) ، ويبدو من قول ابن الأثير : « إن الأمر اشتد على المسلمين لكثرة العدد^(٢) » أن مقاومة البربر والروم اشتدت إلى درجة كبيرة مما يدل على أن جماعاتهم كانت تتسارع لتقف في وجه المسلمين ، وكلما خلف عقبة حصناً سارع أهله للوقوف مع من أمامه حتى أصبح القتال شديداً عنيفاً ، لا يكاد المسلمون يظفرون منه إلا بنصر قليل ، وربما كان الروم يتراجعون بعد القتال لكي يغربوا بالعرب ويفروهم بالتقدم والتوغل ، فالتخدد المسلمون في حماس الفتح ومضوا في وجههم لا يكادون يفطنون إلى شيء مما حولهم .

انحدر عقبة من الهضبة إلى السهل الساحلي بعد رحيله عن تاهرت وسار ساحلاً حتى انتهى إلى طنجة^(٣) ، ولا يفسر انتهاءه إلى هذه المدينة رأساً دون أن يمر بمدينة أخرى من مدائن الساحل مثل باديس ونكور وتطوان ، إلا بأنه اختار المر الضيق المحصور بين هضبة الريف وجبال الأطلس الوسطى ، لكي يجنب نفسه مشقة المرور بالساحل المليء بالمدائن الحصينة التي ربما لقي فيها مثل مالتى في باغاية ولمبيزة وتاهرت .

وجد عقبة على طنجة رجلاً تسميه المراجع العربية بيليان ، ويختلف المؤرخون في حقيقة أمره اختلافاً كبيراً . فيذهب ابن الأثير إلى أنه : « بطريق من الروم اسمه بليان^(٤) » . ويذهب النويري إلى أنه : « رجل من الروم فقط^(٥) » في حين يذكر ابن خلدون أنه بربري ويسميه : « بليان ملك غمارة وصاحب طنجة^(٦) »

(١) النويري ، نهاية الأرب ، ورقة ٧٠ (ب) (٢) ابن الأثير ، أسد الغابة ، ج ٤ ص ٤٢
(٣) ذكر الدباغ في معالم الإيمان أن عقبة فتح تلمسان قبل طنجة وهذا مشكوك فيه —
الدباغ ، معالم الإيمان ، ج ١ ص ٤٤ (٤) ابن الأثير ، أسد الغابة ، ج ٤ ص ٤٢
(٥) النويري ، نهاية الأرب ، ورقة ٧٠ (ب) (٦) ابن خلدون ، ج ٤ ص ١٨٥

ويؤكد مؤرخو الأندلس انه قوطى بجمعه اسباب كثيرة بلذريق ملك قوطية إشبانية^(١) ، فلا بد من تحقيق شخصيته لأن له علاقة وثيقة بتاريخ عقبة .

يذكر ابن الأثير أن هذا الرجل أسرع حين اقترب منه عقبة فأهدى هدية حسنة ونزل على حكمه ، ثم سأله عن الأندلس فعظم عليه الأمر ، فسأله عن البربر فقال : « هم كثيرون لا يعلم عددهم إلا الله ، وهم بالسوس الأدنى وهو مغرب طنجة^(٢) » وعبارة النويرى أوضح وأشد دلالة إذ يقول : « فسأله عن بحر الأندلس فقال له إنه محفوظ لا يرام ، فقال دلني على رجال البربر والروم ، قال قد تركت الروم خلفك وليس أمامك إلا البربر وفرسانهم ، فقال عقبة وأين موضعهم ؟ قال في السوس الأدنى وهم قوم ليس لهم دين يأكلون الميتة ويشربون الدم من أنعامهم ، وهم أمثال البهائم يكفرون بالله ولا يعرفونه^(٣) » ، وهذه أقوال يفهم منها أن الرجل لم يكن برومى ولا ببربرى ، فقد قال لعقبة : « إن الروم وراءه وإن البربر أمامه » . ثم إن تحذيره لعقبة من العبور إلى الأندلس يدل على أنه كان حريصاً على أن يجنب الأندلس شر المسلمين ، ولا يتفق هذا إلا إذا كان هو نفسه من أهل الأندلس ومن يهتمهم أسرته ، وهذا يؤيد القول بأنه قوطى معين من قبل ملوك القوط في أسبانيا ، فكان عليه أن يحرس مدخل البلاد ويرد العرب وغيرهم عنها .

وإذا كان هذا الرجل رومياً أو بربرياً ، فماذا منعه من الاستعانة بالحلف الرومى البربرى الذى أثبت قدرته على صد المسلمين وحماية البلدان منهم ؟ ما الذى حال دون أن يستدعى أجناد الروم وفرسان البربر لمنازلة العرب دون طنجة والاحتماء منهم خلف أسوارها ؟ لقد كان تصرفه مع عقبة ناطقاً بأنه غريب عن البلاد لا صلة له برومها أو ببربرها ، وإنما أهمه أن يعرف العرب عن نزول

(١) البيان المغرب ، ابن عذارى ، ج ٢ ص ٧ و ٨ (٢) ابن الأثير ، أسد الغابة ، ج ٤ ص ٤٢

(٣) النويرى ، نهاية الأرب ، ورقة ٧١ أ و ب

الأندلس فوق إلى ذلك ، ولو كان الرجل بطريقاً رومياً لكان معه من الجند ما يكفيه مئونة المصانعة والاحتيايل ، ولو كان أمير غمارة لما انتظر في طنجة وعقبة يجتاز بلاد غمارة منذ انحدر إلى السهل بعد رحيله عن تاهرت ، وإذا كان النويرى صادقا فيما روى من وصف يليان للبربر هذا الوصف السيء ، لجاز أن تقطع بأن هذا الرجل لم يكن بربريا غماريا [كما قال ابن خلدون] .

بيد أن تصرف عقبة مع يليان جدير بالنظر ، فقد سارع هذا الرجل حين تسامع بمقدم العرب فأهدى هدية حسنة إلى عقبة وتلطف في معاملته ، فكان هذا كافياً لينصرف عنه العرب ولا يمسّه عقبة بأذى . فهل كان عقبة طالباً لهذه الهدايا الحسنة فقط ، فمن بذلها جاز أن يعفى من قبول الإسلام أو بذل الجزية أو الحرب ؟ أو أن عقبة اكتفى بما بذل هذا الرجل من طاعة إسمية فأعفاه من كل قيد ، وقبل نصيحته وعمل بها ؟ إن الرواية لا تستقيم على هذا النسق ، خصوصاً إذا كان هذا التصرف منسوباً إلى عقبة ، لما نعرف من عدم حفله بالسياسة وبعده عن أساليبها . ثم إن قول ابن الأثير : « إن يليان نزل على حكم عقبة » غير مفهوم على وجه صحيح لأنه لم يحدث في غير هذه المناسبة أمر كهذا : جيوش إسلامية غازية تقبل على بلاد لتفتحها ، فيقدم ملك هذه البلاد بالهدايا الحسنة والنصيحة الطيبة ، فينصرف عنه المسلمون لا إسلام ولا جزية ولا قتال .

ثم إن رأى القائل بأن يليان هذا هو نفس يليان صاحب طارق بن زياد بعد ذلك بثلاثين سنة يحتاج هو الآخر إلى ما يعززه .

ربما جاز أن نشك في وجود هذا الرجل في ذلك الحين ، وأن نعلل ذكر العرب له بما هو معروف من طريقة العرب في تسمية الأعلام الأجنبية : فكل من وجد على القسطنطينية هرقل ، وكل من وجد على مصر مقوقس ، وكل من وجد في إفريقية جرجير ، وكل من أقام في طنجة يليان ، ولا يبعد أن يكون وجود

يليان صاحب طارق ذا أثر رجى على الشخص الوهمى الذى وجد على طنجة
إذ ذاك ، وقد أنكر وجوده نفر من المؤرخين مثل ماسديو ورومى .

كان على عقبة أن يعود أدراجه بعد ذلك ، وربما كان فى استطاعته — لو أنه
سار مساحلا — أن يعود إلى القيروان سالماً ، فطريق الساحل مأمون على ما فيه
من المدائن والمحارس ، أما الداخل فكثير الشعاب والهضاب والمفاوز التى يخشى
الضلال فيها والمكيدة فى شعابها ، ولكنه آثر أن يتوجه إلى البربر بعد أن عرف
مكانهم فأنحدر نحو الجنوب إلى السوس الأدنى .

وصول عقبة
إلى المحيط

بين المؤرخين خلاف على الطريق الذى سلكه عقبة حتى أشرف على المحيط
الأطلسى ، فيذكر ابن الأثير أنه سار حتى وصل إلى السوس الأقصى ، فقاتل
جمعاً عظيماً من البربر وسبى منهم سبياً كثيراً وسار حتى بلغ البحر المحيط ، فقال :
« يارب^(١) » وبهذا لا يكون عقبة قد سار إلى الجنوب فى السهل الساحلى الغربى ،
وإنما عاد أدراجه فى السهل الساحلى الشمالى حتى أدرك ماليان^(٢) ، ومن ثم اتجه
شمالاً حتى أشرف على البحر الأبيض . أما ابن خلدون فيذكر أن : « يليان دل
عقبة على بلد البربر وراءه بالمغرب مثل وليلي عند زرهون وبلاد المصامدة وبلاد
السوس ، وكانوا على دين المجوسية ولم يدينوا بالنصرانية ، فسار عقبة وفتح وغنم
وسبى وقتل فيهم وانهى إلى السوس ، وقاتل مسوفة من أهل اللثام وراء السوس ،
ووقف على البحر ثم عاد راجعاً^(٣) » أى أن عقبة انحدر إلى الجنوب وراء السوس ،
ولا يعرف بالضبط ما أراده ابن خلدون من قوله : « وراء السوس » ، أراد غربه
أم جنوبه ؟ الراجح الغرب ، لأن عقبة أشرف منه على المحيط ، وهنا يقلب

(١) ابن الأثير ، أسد الغابة ، ج ٤ ، ص ٤٣

(٢) ذكر فانيان فى تقييده على ترجمة ابن الأثير «ماليان» ولم أجد هذا الاسم فى مرجع
آخر ، ولا يذكره النويرى .

(٣) ابن خلدون ، ج ٤ ، ص ١٨٦

أنه سرّ بولبل ثم انحرف من عندها إلى المحيط . أما النويرى فلا يحدد شيئاً ، وإنما يقول عبارة مبهمه يفهم منها أن عقبة أتجه إلى الجنوب ثم انحرف إلى الغرب حيث أشرف على المحيط ، فدخل فيه حتى بلغ الماء صدر فرسه ورفع يده إلى السماء وقال : « يارب لولا هذا البحر المحيط لمضيت في البلاد إلى ملك ذى القرنين ^(١) ، مدافعاً عن دينك ومقاتلاً من كفر بك وعبد غيرك ^(٢) » .

ومهما يكن من اختلاف هذه الروايات فقد أشرف عقبة بجنده على المحيط الأطلسى ، بل أوقف فرسه في مياهه وأسف لعجزه عن اجتيازه ، ثم انقلب بعد ذلك عائداً أدراجه ليعود إلى القيروان دون أن يترك بأى ناحية مر بها أمراً يذكر .

يبدو أن عقبة كان يخشى أن يسعى أبو المهاجر للغدربه ، وكان هذا مكبلاً بالحديد كالأسير في جيشه ينتقل به من مكان إلى مكان ، فكان عاجزاً بذلك عن الانتقام وإن فكر فيه ، فخشى عقبة أن يسمى لثأر منه مستعيناً بكسيلة وقومه ، فسارع بحبس هذا الأخير فساء ذلك أبا المهاجر ، لأنه حال بينه وبين الانتقام وإنما لأنه رأى عقبة يرتكب بهذا العمل خطأ سياسياً كبيراً . وقد سبق بيان سياسة أبي المهاجر التي كانت ترمى إلى تقريب البربر إليه وكسبهم بالمودة وحسن المعاملة ، فلما رأى عقبة يفعل هذا فزع وخشى العاقبة وتقدم ينصحه وقال : « ما هذا الذى صنعت ؟ كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يستألف جبابرة العرب كالأقرع بن حابس التميمي وعيينة بن حصن ، وأنت تجيء إلى رجل هو خيار قومه في دار غزه قريب عهد بالكفر فتفسد قلبه ! توثق من الرجل فإني أخاف فتكه ^(٣) » فكانت نصيحة أبي المهاجر تأكيداً لشكوك

(١) المالكي ، رياض النفوس ، ورقة ٨ (٢) النويرى ، نهاية الأرب ، ص ٧١ ب —

(٣) المالكي ، رياض النفوس ، ورقة ٩

عقبة فبالغ في تحقير كسيلة والنيل منه ، ليؤكد لأبي المهاجر أنه لا يخشى البربر ولا غدرهم وليسفه رأيه وسياسته في تقريب أهل البلاد ومصانعتهم .

ظل كسيلة أسيراً في جيش عقبة يلقى من المهانة شيئاً كثيراً ، وربما بالغ المؤرخون في تصوير الأساليب التي كان عقبة يلجأ إليها للنيل من الزعيم البربري ، فيفتقون على ما رواه ابن الأثير من أن عقبة : « أتى بنغم فأمر كسيلة بذبحها وسلخها مع السانحين ، فقال كسيلة : « هؤلاء فتيانى وغلماي يكفوننى المثونة » فشتمه وأمره بسلخها ، ففعل^(١) » ، لأن مثل هذا الأمر إذا صدر عن عقبة كان دليل فساد في رأيه وميل شديد للاستبداد الفاشم ، وهى صفات نزه عنها عقبة ونستبعد اتصافه بها مهما كان من جهله بشئون السياسة وأساليبها . وإنما يغلب على الظن أن عقبة أهل أمر الرجل وازدراه ، ولم يضعه في الموضع الذى كان أبو المهاجر يضعه فيه ، فنال هذا من نفس كسيلة وآذاه خصوصاً وأنه رجل شريف في قومه عظيم المنزلة بين البربر والمسلمين جميعاً . ومصادق هذا رأى أن كسيلة استطاع أن يفر دون أن يشعر به عقبة ، ولو كان هذا الأخير كبله بالحديد واهتم بالنيل منه وركوبه بالسخر والإساءة في كل حين لما استطاع أن يفر دون علمه ، فأما وقد أهمله وأبعده عن مجلسه وازدراه فقد كان من السهل عليه الهروب إلى قومه لتدبير المؤامرة معهم ، فظل الرجل في جيش عقبة حيناً ، ثم غادره دون أن يهتم عقبة لذلك أو يفرزع منه^(٢) ، وآية ذلك أن أبا المهاجر ساءه من عقبة إهماله الرجل وعدم حذره منه وقال لعقبة : « توثق من الرجل فإنى أخاف فتكه^(٣) » فزاد عقبة تهاونا ،

(١) ابن الأثير، أسد الغابة ، ج ٤ ، ص ٤٣ ، وابن خلدون ، ج ٤ ، ص ١٨٦ ، وأبو المحاسن ، النجوم الزاهرة ، ج ١ ، ص ١٨٥ والنويرى ، نهاية الأرب ، ص ٧٢ أ

(٢) ويفهم من قول ابن خلدون : « فانتبه فيه الفرصة وأرسل للبربر فاعترضوا عليه في تهودة » أن كسيلة كان يتغافل عقبة ليراسل أهله — ابن خلدون ، ج ٤ ، ص ١٨٦

(٣) المالكي ، رياض النفوس ، ورقة ٩

فلبث كسيلة في جيشه زمانا يرقب الأمر ثم فر هاربا ، فكان هروبه إيذانا بثورة البربر ، وفي هذا يقول المالكى : « فلما انصرف نكت البربر ما كانوا عليه ^(١) » . واستمر عقبة في طريقه يحتاج بلاد البربر وينزل بها من الأذى شيئا كثيرا ، فأفرعها ذلك ودفع بأهلها إلى التفكير في الانتقام ، وشجعهم عليه قلة من مع عقبة من الجند وإهماله ما ينبغي اتخاذه من الحذر والحيلة في مثل غزوته تلك ، وأقبل الروم فشدوا أزرهم وعقد الحيات الخناصر على القضاء على ما بنى المسلمون في إفريقية ، وأنشأ كسيلة يتصل بهم ويرشدهم إلى ما يجب اتباعه ، ويؤيد هذا ابن الأثير الذى يذهب إلى أن الروم كانوا يرسلون كسيلة « فسعى هذا حتى جمع أهله وبنى عمه وقصد عقبة ^(٢) » .

إذا جاز أن نحكم بما يفهم إجمالا من رواية ابن عبد الحكم الثانية التى سبقت الإشارة إليها ، لصح القول بأن كسيلة فر في وقت مبكر جداً أى قبل وصول عقبة إلى طنجة ، لأن ابن الكاهنة (أى كسيلة) كان يتعقبه ويردم الآبار خلفه ليقطع عليه سبيل العودة . وإذا لم يصح الأخذ بها كان كسيلة قد فر من جيش عقبة بعد ارتداده من السوس وعوده إلى إفريقية .

يغلب أن عقبة اتخذ في عوده طريق السهل المتوسط ، فسلك وادى سبواً ووادى ملوية حتى أدرك الهضبة ، فمضى شمال شط هدنة حتى أدرك مدينة طنبنة ، ويبدو أنه كان مسرعاً في عودته لأنه لم يقاتل أحداً في رجوعه ولم يمل إلى حصار بلد مما مر به ، وربما كان سبب هذا الإسراع بدء إحساسه بما كان الروم

(١) المالكى ، رياض النفوس ، ورقة ٩ نفس المصدر والصفحة .

(٢) ابن الأثير ، أسد الغابة ، ج ٤ ، ص ٤٣ ، ويفهم من نص عبارته : « وراء الروم قلة ممن مع عقبة فأرسلوا إلى كسيلة وأعلموه حاله ، وكان في عسكر عقبة مضراً بالغدر وقد أعلم الروم ذلك وأطمعهم ، فلما راسلوه أظهر ما كان يضمره وجمع أهله وبنى عمه وقصد عقبة » .

والبربر يدبرونه له ، وربما أحس من فساد الماء في طريقه بشيء من المكيدة المدبرة فآثر العودة مسرعاً ، ويؤيد ذلك ما تنفق عليه المراجع من أن عقبة أذن لبعض فرق جنده في أن تسرع إلى القيروان بعد وصوله طبنة ، مما يدل على أن الجيش كله كان شديد الرغبة في الإسراع بالعودة ، فأخذوا يتسابقون في إدراك القيروان ، وأذن لهم عقبة في ذلك لأنه وجد الطريق خالياً أمامه لأن أهل البلاد — ممن لم يأتروا مع المؤتمرين — كان قد أفزعهم منازل بهم على يد عقبة في مسيره الأول ، فأفسحوا له طريق الرجعى .

أسرع البربر والروم بالعمل بعد إذ أدرك عقبة طبنة ، فقد سنحت الفرصة لذلك بانصراف أكثر جنده وبقائه في نفر قليل ، وخافوا إن هم تركوه بعد ذلك أن يدرك القيروان أو يكون على مقربة منها فيمكنه الاستعانة بمن فيها ، ويغلب أن يكون من انصرف من جند عقبة قد اتجه إلى الشرق في طريق تمجاد مثلاً ، فحرص البربر والروم على أن ينحرفوا بعقبة عن ذلك الطريق ، فحاولوا أن يجذبوه إلى الجنوب الغربي في اتجاه تهودة ، حتى لا يستطيع جنده العثور عليه إذا هو استنجد بهم أو يعجز عن اللحاق بهم إذا طلبهم وجد في أثرهم .

يذكر ابن الأثير أن أبا المهاجر قال لعقبة حين رأى تحفز كسيلة ومسيره نحو المسلمين : « عاجله قبل أن يقوى جمعه »^(١) ، ثم يقول : « فزحف عقبة ، فتنحى كسيلة عن طريقه ليكثر جمعه »^(٢) « أى أن كسيلة انحرف عن طريق عقبة ، وتراجع أمامه حتى وصل أمام حصن رومى قديم عند تهودة ، كان الروم قد عسكروا فيه وتحفزوا

(١) كان موقف أبي المهاجر طوال حملة عقبة مما يستدعى الإعجاب ، فإن المراجع كلها تؤكد إلحاحه في نصح عقبة والإخلاص للمسلمين مما يبرئه تمام التبرئة من جرعة إهانة عقبة الأولى ، وما يؤكد أنه كان مسلماً مخلصاً متقانياً واسع الإدراك صادق الفهم ، ومن هنا لا محل لقول المالكي : « وقيل إن كسيلة إنما آتى ناصراً لأبى المهاجر » مما يفهم منه أن أبا المهاجر كان عضواً في الحلف البربرى الرومى وشريكاً في المؤامرة على عقبة وهذا غير صحيح — المالكي ، رياض النفوس ، ص ٨ (٢) ابن الأثير ، أسد الغابة ، ج ٤ ، ص ٤٣

للقاء عقبة عنده واجتهد الروم في اجتذابه إلى حصنهم ، وطمعوا فيه وأغلقوا أبواب حصونهم دونه وشتموه ورموه بالنبل والحجارة ، وهو يدعوهم إلى الله عز وجل^(١) ، وقد أوضح النويرى خطة كسيلة وأحلافه بقوله : « فزحف عقبة إلى كسيلة فتنحى عنه ، فقال البربر له ، لم (تنحى) من بين يديه ونحن في خمسة آلاف ؟ فقال إنكم كل يوم في زيادة وهو في نقصان ، ومدد الرجل قد افترق عنه فإذا طلب إفريقية زحفت إليه^(٢) » ، مما يفهم منه أن جوعاً من البربر كانت تهرع إلى صفوف كسيلة كل يوم ، فيزداد جنده بينما جند عقبة في نقص ، وقد انقطع طريق الإمداد إليه بانحرافه نحو تهودة وأصبح من العسير وصول شيء إليه .

دارت الموقعة الأخيرة على مقربة من تهودة ، وأدرك عقبة وأصحابه أنهم واقع تهودة هالكون لا محالة ، واحتاط بهم الأعداء ولم يبق لهم مهرب ، فرحب عقبة وأصحابه بالموت واستقبلوه في شجاعة جديرة بالذكر والإعجاب ، وجعلوا يتنازعون فخر الاستشهاد ، فلما رأى أبو المهاجر ذلك تمثل بقول أبي محجن الثقفي :

« كفى حزناً أن ترتدى الخيل بالقنا وأترك مشدوداً على وثاقيه
إذا قت عناني الحديد وأغلقت مصارع من دوني تصم المناديه^(٣) »

فبلغ عقبة ذلك فأطلقه فقال له : « إلق بالمسلمين وقم بأمرهم . وأنا أغنم الشهادة » ، فلم يفعل وقال : « وأنا أيضاً أريد الشهادة ! فكسر عقبة والمسلمون أجفان سيوفهم وتقدموا إلى البربر وقتلواهم ، فقتل المسلمون جميعهم ولم يفلت منهم أحد ، وأسر محمد بن أوس الأنصارى ، فخلصهم صاحب قفصة وبعث بهم إلى القيروان^(٤) » ، وهكذا كانت خاتمة عقبة وأصحابه استشهاداً جليلاً خلد ذكرهم

(١) النويرى ، نهاية الأرب ، ص ٧٢ أ (٢) نفس المصدر والصفحة .

(٣) أخطأ المالكي في رواية البيت الأول فقال : « أليس عظيماً أن تفرع الخيل بالقنا ... الخ »

المالكي ، رياض النفوس ، ص ٩

(٤) ابن الأثير ، أسد الغابة ، ج ٤ ، ص ٤٣ — وقد ذكر المالكي أن الأعداء أحاطوا =

في هذه البلاد ، وزادته الأفاصيص الكثيرة التي نسبت إلى عقبة جلالاً فاجتمع منها في ذهن الناس « عقبة أسطوري » آخر غير الذي نعرفه في التاريخ .

ما الذي نفهمه من قول ابن الأثير : « إن صاحب قصة سعى لخلاص من أسر من المسلمين وردهم إلى القيروان ؟ » لقد أيد كثير من المؤرخين قوله هذا وزاد بعضهم فسمى صاحب قصة هذا ابن مصاد^(١) ، وإذا أضفنا إلى ذلك ما يذكره السلاوي من أن عقبة حين وصل إلى جبل درن : « نهضت زناته وكانت خالصة للمسلمين منذ إسلام مغراوة » وقوله : « إن عقبة أثنى في المصامدة حتى حملهم على طاعة الإسلام^(٢) » تكونت لدينا صورة واضحة بعض الوضوح عن نشوء جماعات بربرية إسلامية ، أو تميل إلى المسلمين على الأقل في ذلك الحين ، وأن هذه الجماعات لم تكن قليلة وإنما كانت كثيرة نوعاً ، فيها بعض زناته وبعض نفوسة وبعض مصمودة . وإذا لوحظ أن هذه القبائل التي بدأت تدخل الإسلام أو تميل إليه من ذلك الحين كانت تسكن الجنوب فتدخل فيها برغواطة^(٣) وزناته^(٤) ونفوسة^(٥) ، كان من السهل تكوين فكرة عن بدء إسلام إفريقية الفعلي

= بعقة من المساء وأن اللقاء والاستشفاد كانا في صبيحة اليوم التالي — المالكي ، رياض النفوس ، ص ٩ — الدباغ ، معالم الإيمان ، ج ١ ، ص ٤٨

(١) ابن خلدون ، ج ٤ ، ص ١٨٦ — أبو المحاسن ، النجوم الزاهرة ، ج ١ ، ص ١٥٩

(٢) السلاوي ، الاستقصاء ، ص ٣٨ — ويفهم من ذلك أن بعض زناته ومغراوة كانتا

قد أسلمتا منذ زمن لأنهما نهضتا للدفاع عن المسلمين .

(٣) ذكر السلاوي أن عقبة : « أثنى في المصامدة حتى حملهم على طاعة الإسلام » أي أن

نقرأ منهم اعتنق الإسلام على يديه ، وقد قال ابن خلدون مؤيداً ذلك وموضحاً له : « وكانت

التقدم فيهم — أي في المصامدة — قبيل الإسلام وصدره لبرغواطة ، ثم سار التقدم بعد ذلك

لمصامدة جبل درن » أي أن هاتين القبيلتين كانتا أول قبائل المصامدة لإسلاماً ، ومساكن

القبيلتين في الجنوب : إحداهما بين السوس الأدنى والأقصى (برغواطة) والأخرى جنوب

الأطلس المتوسط — السلاوي ، الاستقصاء ، ص ٣٨ — ابن خلدون ، ج ٦ ، ص ٢٠٦

(٤) مساكن زناته جنوبي المنطقة التي تلي الأوراس ويمتدون حتى الأطلس الأدنى وهم بدو .

(٥) سبقت الإشارة إلى أن نقرأ من نفوسة أسلم على يدى عقبة في بعته الأول سنة ٤٣ هـ =

واتجاهه : بدأ عند القبائل الجنوبية الكثيرة الشبه بالعرب التي تميل للرحلة وتحيا حياة مشطورة بين الظعن والإقامة ، ثم أخذ يمتد إلى الشمال شيئاً فشيئاً كما سيرى ، وواضح جداً أن سبب انصراف القبائل الشمالية عن الإسلام ونهوضها لمقاومته وقيادتها حركة العداء راجع إلى أن أغلبها كان مسيحياً أو مسيحياً الصبغة ، أى أن جواره لللاتين والروم جعل بينه وبين النصرانية بعض الأسباب ، ثم إن هذه القبائل — إلى ذلك — كانت متأثرة إلى حد بعيد بالحضارة البيزنطية ، وكان البيزنطيون على جانب من القوة ما يزلون ، فصعب على المسلمين اجتذاب أهل هذه القبائل في أول الأمر ، وكان لا بد لكسبهم من القضاء التام على كل أثر للروم وللتفكير اللاتيني من شريط الساحل ، حتى ينقطع هذا المدد الذي كان يقوى أهل هذه القبائل وحتى يمكن الإسلام أن يجتذبهم إليه .

وإذا جاز اتباع التقسيم الاصطلاحي الذي اتبعه مؤرخو البربر — وفي مقدمتهم ابن خلدون — في جعل البربر طائفتين : طائفة البتر وطائفة البرانس ، لصح القول بأن البتر كانوا أول إسلاماً لأن نفوسة ولواتة وزناتة كلها بترية ، وأن البرانس ظلوا على المقاومة زماناً طويلاً ، لأن الروم كانوا يمدونهم بالعون ، وقد لاحظنا أن حركة المقاومة قادها قائد البرانس إذ ذاك كسيلة بن لمزم الأوربي البرنسي ، وسيظل على قيادتها حتى يقضى عليه زهير فتتولى القيادة بعده الكاهنة ، وهي وإن كانت بترية من جراوة ، إلا أنها هي نفسها كانت شديدة الصلة بالروم إذ كان لها زوج رومي (إغريق) أولدها أحد ابنيها اللذين سيأتي ذكرهما .

لهذا لم يكن موت عقبة وأصحابه بقاؤهم على كل أثر للمسلمين فيما فتحوه من البلاد ولكنه كان قاضياً على بعض الأثر السياسي ، لأن عمل عقبة لم يكن

= وأنه أخذ معه من أسلم منهم حين أمره معاوية بالسير سنة ٥٠ هـ ، وكانت طائفة أخرى من نفوسة تسكن شمال شط الجريد ، وهذا إقليم تتوسطه قصبة مما يدل على أن ابن مصاد صاحبها سعى لخلاص المسلمين لأنه كان مسلماً — ابن خلدون ، ج ٦ ، ص ١١٤

سياسياً وإنما كان دينياً ، وقد لاحظنا إسلام نفر كبير من البربر حين رأوا بناء القيروان وطرده الحيات ، ولا بد أن نفراً كبيراً منهم كذلك كان يتبعه في مسيره في البلاد ويسلم وينقل أخباره إلى طوائف البربر فيسلمون أو يميلون إلى الإسلام ، حتى إذا كان استشهاد اهتزت له البلاد كلها وأصبحت « ناراً » كما يقول المالكي ، وترامت أنباء هذه الفاجعة وما أظهره عقبة والمسلمون فيها من الشجاعة والتضحية في سبيل الله ، فبدأت نفوس أهل البلاد تهوى إلى الإسلام شيئاً فشيئاً ، ومن هنا لا نخطئ إذا قلنا إن عمل عقبة كان نجاحاً من الناحية الدينية وإن كان فشلاً من الناحية السياسية .

نترك ذكر حياة عقبة ومغامراته وأعماله واستشهادته تنتقل على ألسن أهل البلاد ، ويضيفون إليها ما تتذكره أخيلتهم ويتذكرونها بين الدهش والإعجاب ، لنتركها تختمر في نفوسهم ولنخلف ذكرها راقدة في أذهانهم لنعود إليها بعد حين .

ماذا أراد عقبة من حملته الكبرى ؟ وما هي الخطة التي رسمها لنفسه لإدراك ما أراد ؟ سؤالان لأجواب عليهما ، لأن الواضح أن الرجل لم يكن يرمي إلى غاية معينة ، وربما كان هذا موضع نقد شديد لو أن الذي فعل ذلك اسرءأ آخر غير عقبة . فقد مضى دور المحاولات والمقدمات وكان لابد لكل من يتولى قيادة الفتح في إفريقية أن تكون له الخطة المرسومة . أما عقبة فالأمر معه على خلاف ذلك ، فلم يكن الرجل من أصحاب السياسات المرسومة المدبرة ولا الغايات البعيدة ، وإنما كان ولياً من أولياء الله كما تصفه المراجع وكما كان أصحابه يسمونه . وماذا يرجي من ولي الله إلا أن يمضي في طريقه متوكلاً على خالقه لا غرض له إلا محاربة المشركين والتمسك الشهادة في سبيل الدين ؟ بل لم يكن نشر الإسلام غاية واضحة في ذهن عقبة ، إذ لو كان يطلب هذا فليست تلك هي السبيل التي تؤدي إلى إدراك

هذه الغاية ، إنما تدرك بالوقوف بكل قوم و بلد وعرض الإسلام ، وتخيير الناس بينه وبين الحرب والجزية ، فإن أبوا كانت الحرب . هكذا كان الفاتحون في الشام ومصر يفعلون ، بل هكذا فعل عبد الله بن سعد مع جرجير . أما عقبة فكان ينقض على المدائن محارباً مقاتلاً ويلبث على ذلك فترة ثم ينصرف دون أن ينتهي مع أهل البلد إلى شيء معلوم . بل لو كان يرجو نشر الإسلام لخلف فيما سر به من البلاد نفعاً يعلم أهله الإسلام . أما هذه التحايا الحربية التي دأب على توزيعها طوال مسيره ، وهذا التمدد في المسير والمجازفة في التوغل والوقوف بالحيط ، والأسف على العجز عن الاسترسال في الفتح فأمور لا معنى لها ولا غناء فيها ، ولو لم تكن قد انتهت بمأساة تهودة لكنت عاقبتها أَوْخَمَ على عقبة . إذ ماذا يكون جوابه لو سأل الخليفة ماذا فعلت ؟ وماذا جنيت من تضعيتك هذه الآلاف من الجند التي سارت معك ؟ إنما كان عقبة شديد الشبه بفرسان الصليبيين الذين كانوا يخرجون من دورهم ويعبرون البحر إلى غير غاية معلومة ، فما يدري أحدهم أخلاص بيت المقدس أراد أم مجرد قتال المسلمين أم كسب الثروة والعودة بالمال ! بل لم يكن عقبة بالقائد الماهر أو المحارب ذى الشأن ، فليس هناك قائد واحد يسترسل هذا الاسترسال دون أن يؤمن ظهره وخط رجعتيه تاركاً أعداءه متحصنين خلف ظهره . وليس بالقائد الماهر من يستمع نصيحة رجل من أعدائه دون تبصر أو حذر كما فعل عقبة ، فسهل على أعدائه اجتذابه إلى خانق ضيق بين طبنة وتهودة والإيقاع به والقضاء عليه في سهولة ويسر .

وكم كان المؤرخون موقفين في صياغة الخطب التي نسبوها لعقبة قبل نزوله الميدان ، إذ ليست فيها إشارة واحدة إلى خطة القتال أو مكيدة الحرب ، وإنما هي مواظب حسنة فيها حث على أخذ العلم عن آله وتحذير من الاستماع إلى المنافقين الذين يدعون العلم ليغرروا بالناس ، والنصح بمجانبة الدين حفظاً للكرامة وغير ذلك

مما هو أليق بالأولياء والوعاظ منه بالقادة أو الساسة ، لأن عقبة كان في نظرهم ولياً واعظاً متديناً لا قائداً سياسياً ، وتلك هي الصورة الصحيحة التي ينبغي أخذها عن عقبة بن نافع ، ولا بد من مراعاتها في تتبع أعماله ودراستها ولا يمكن فهمها بغير ذلك .

ويبدو أن الرجل كان يخشى أن يفاجأ بعزل جديد فعجل بإفخاذ ما أراد دون تريث أو إبطاء ، ولهذا كان لا يكاد يحاصر بلداً حتى ينصرف عنه إلى غيره حتى انتهى إلى أقصى البلاد . ولا يخطيء كذلك من يقول إن الحقد على أبي المهاجر والرغبة في التقليل من شأنه كانا بعض ما أضل سبيله ، فقد وصل أبو المهاجر إلى تلمسان فكان لابد لعقبة من الوصول إلى أبعد من تلمسان . ولا يبعد أن يكون قد عيب عليه ما أنفق من الوقت في حملته الأولى دون فتح كبير ، فعول هذه المرة على أن يفتح الفتح الذي لن يأتي بمثله أحد من بعده ، فيصل إلى المحيط ويقع فرسه في مائه ويشهد الله على أن الاسترسال إلى أبعد من ذلك محال .

وقد كان كسيلة بيد عقبة ما كان قيرس بيد عمرو ، كلاهما سيد في قومه عظيم المهابة فيهم شديد الإجلال للعرب وثيق الصلة بالروم . وقد أفاد عمرو من قيرس ما نعرف وجنى من صداقته ومصانفته أعظم الغنم . وكان عقبة يستطيع أن يفوز من كسيلة بأعظم من هذا لو كانت له سياسة عمرو ، ولكن الحقد أضله في هذا الأمر ونأى به عن الصواب ، فأخذ كسيلة بجزيرة أبي المهاجر فتغير قلب الرجل على العرب والإسلام ، وكان الرجل على صلة بآله فتغيروا هم الآخرون على العرب والإسلام ، وانقلبوا فأصبحوا أنصار الروم . وبهذا فسد ما كان قد أثمر من جهود الفاتحين قبله ، وأصبح المسلمون في نظر أهل هذه البلاد طلاب غنم ودماء ، يحبون الحرب للغنيمة والظفر ، فكان ذلك وخيم العاقبة

على مسير الفتوح راح عقبة ضحيته واستنفذ جهود فاتحين عظمين هما
زهير وحسان .

كان عقبة قد خلف على القيروان حامية صغيرة ذكر ابن عبد الحكم أن عدتها
كانت خمسة آلاف رجل على رأسهم زهير بن قيس البلوى^(١) ، فلما وصلته أخبار
مذبحة تهودة عزم على القتال وأخذ يتأهب له ، ولكن الظاهر أن أخبار تهودة
أفزعت نفراً كبيراً من الجند فمالوا إلى العودة ، والغالب كذلك أن إجهاد عقبة لم
بهذا الغزو الطويل كان قد أسأمهم ، وجعلهم عاجزين عن القيام بأى عمل آخر
فترة من الزمان . وجاءت فاجعة تهودة فأضافت الفزع إلى الإجهاد وجعلتهم يميلون
إلى العودة ميلاً شديداً ، وكان على رأس هؤلاء الراغبين في العودة حنش الصنعاني
الذي كان دينار قد أرسله إلى جزيرة شريك^(٢) ، خالف زهيراً وعاد إلى مصر فتبعه
أكثر الناس ، فاضطر زهير إلى العودة معهم فسار إلى برقة وأقام بها .
وأما كسيلة : « فاجتمع إليه جمع أهل إفريقية وقصد إفريقية (يريد القيروان) ،
وبها أصحاب الأتقال والذراري من المسلمين فطلبوا الأمان من كسيلة فآمنهم ،
ودخل القيرواني واستولى على إفريقية وأقام بها إلى أن قوى أمر عبد الملك
ابن مروان ، فاستعمل على إفريقية زهير بن قيس البلوى وكان مقياً ببرقة
مرابطاً^(٣) » .

(١) ينسب ليني بروفنسال إلى أن زهيراً لم يبق على القيروان وإنما سار على رأس طليعة
فتقدم عقبة في حملته الكبرى وليس هناك ما يؤيد ذلك . مقال عقبة — أنظر د . م . ل .
(٢) المالكي ، رياض النفوس ، ص ٩

(٣) ابن الأثير ، أسد الغابة ، ج ٤ ، ص ٤٣ — وقد روى الباجي لزهير خطبة في استنهاض
الناس في تلك المناسبة وربما كانت موضوعة — الخلاصة النقية ، ص ٦ — وقد جاء في النجوم
الزاهرة : « جيش الصفاني » وهذا خطأ طباعاً ، ثم قال بعد ذلك إن حنشا حين هم بالقول إلى
مصر : « تبعه أكثر الناس من العساكر المصرية من جند سعيد حاكم مصر » مما يؤيد القول
بأن عقبة إنما سار إلى إفريقية بعد موت مسلمة وولاية سعيد فبعث هذا معه بنفر من الجند ،
والمراد بالمصريين هنا هم العرب النازلون بمصر — أبو المحاسن ، النجوم الزاهرة ، ج ١ ، ص ١٥٩

آمن كسيلة من بقى بإفريقية من المسلمين ، وهذا يدل على أنهم لم يكونوا كلهم من العرب وإنما كان فيهم نفر كبير من أهل البلاد فلم يرحلوا مع العرب ، فكان كسيلة مضطراً إلى منحهم الأمان لأن لهم قبائلهم القوية التي ربما ثارت عليه إذا هو مسهم بأذى ، وهذا هو السبب في بقاء مسلمي إفريقية — العرب منهم وغير العرب — بخير حتى عود جنود المسلمين لفتح البلاد مرة أخرى. ولو كان هؤلاء المسلمون الذين بقوا في البلاد — بعد رحيل زهير — كلهم من العرب لما توانى كسيلة عن قتلهم والقضاء عليهم كما قضى على إخوانهم في تهودة لأنه كان مسيراً برأى أحلافه من الروم. أما وفيهم نفر كبير من أهل البلاد : بعضهم من نفوسة وبعضهم من أهل درت وبعضهم من زناتة ، فلم يكن له بد من أن يؤامنهم ليكسب ودهم وطاعتهم في هذا الظرف العصيب ^(١) .

كان ارتداد زهير إلى برقة « هزيمة إلى مصر » كما قال ابن حيان الحضرمي أحد أصحاب زهير ، فقد خرجت إفريقية عن أيدي العرب مرة أخرى وحكمها كسيلة البربري النصراني ، فكان لا بد من فتحها من جديد ، ولكن فرق بين ارتداد زهير اليوم وارتداد عبد الله بن سعد بالأمس ، فعلى الرغم من أن ابن أبي سرح ارتد منتصراً وأن زهيراً ارتد منهزماً ، وعلى الرغم من هذا الفرق الجوهرى بين الحالين ، فإن ابن أبي سرح ارتد عن بلاد كان هو معتدياً عليها ولا شيء له فيها ، أما زهير فارتد عن بلاد للمسلمين فيها القيروان ومساجد وحقوق كسب بعضها بمعاهدات ثابتة ، ولم فيها طوائف كبيرة من المسلمين أو ممن يميل كل الميل

(١) ويبدو أن كسيلة كان منصرفاً — بعد دخوله القيروان — إلى تأمين إفريقية من العرب ، فذكر ابن عبد الحكم أنه أرسل جنداً وصلوا باب قابس وأنه جعل يرسل أجناده في كل وجه ليقضوا على كل أثر لجند العرب . « ثم سار كسيلة ومن معه حتى نزلوا الموضع الذى كان عقبة اختطه فأقام به ، وقهر من قرب من باب قابس وما يليه ، وجعل يبعث أصحابه في كل وجه »

إلى عودة المسلمين ، أى أن المسلمين ارتدوا عن بلادهم . وبينما كان عبد الله ابن سعد حراً فى أن يعود أو لا يعود إلى إفريقية ، فإن زهيراً كان لا بد أن يعود ليستعيد ما فقد من أرض إسلامية وليستنقذ القيروان وليخلص الشعب الإفريقى الإسلامى الناشئ من يد مستبد ككسيلة .

ويفهم من قول المالكى عن كسيلة : « وزحف على القيروان فانقلبت إفريقية ماراً^(١) » ، أن ثورة عظيمة شملت البلاد بأسرها بعد انصراف المسلمين وسقوط القيروان فى يد كسيلة ، فكيف نعلل هذه الثورة إلا بأنه كان فى إفريقية فى ذلك الحين نفر عظيم لم يرضهم سقوط القيروان فى يد كسيلة فأثارهم ذلك وثارت المنازعات بينهم وبين أنصاره ؟ ومن يكون هؤلاء الذين ثاروا تلك الثورة إلا بربراً مسلمين أو أنصاراً للمسلمين ؟ ذلك أن كل جند العرب قد عادوا إلى برقة مع زهير ، فكان أولى بإفريقية أن يهدأ حالها بعد انصراف المسلمين منها وخلاصها للبربر والروم .

(١) المالكى ، رياض النفوس ، ص ٩

obeykandi.com

الباب السابع

تمام الفتح

— ١ —

حملة زهير بن قيس البلوى على إفريقية

ارتدّ المسلمون بعد « تهودة » إلى برقة ، وسقطت القيروان في يد البربر ، وقام في سهل تونس شبه دولة بربرية مسيحية ، وبهذا خيّل للرأى أن كل أثر للمسلمين قد امحى من البلاد ، فعادت سيرتها الأولى كأن لم تمسها أقدامهم ، وأكد ذلك فورنل بقوله : « وهكذا بعد أن أريق كل هذا الدم العربي مدى سبع وثلاثين سنة ، أصبح البربر سادة لإفريقية والقيروان نفسها ^(١) » . أى أن دولة بربرية قوية قامت محل العرب وحكمت إفريقية من برقة إلى المحيط ، وهي دعوى ظاهرة الخطأ قال الأستاذ كودل في مناقشتها : « إلى هذه الغاية يريد المؤلف أن ينتهى ، لقد انتصرت نظريته المحببة إليه ^(٢) — فيما يبدو — انتصاراً لا يقبل مناقشة ولا جدالاً : أصبح البربر سادة في القيروان ! وهذا هو الواقع ، ولكنه في رأى فورنل فتح عظيم لا مجرد معسكر أقامه جماعة من اللصوص وأسّسوه تأسيساً واهياً على قدر ما يسمح الفن الحربى البربرى ، بلغ من ضعف تحصينه أن أصحابه اضطروا إلى التخلي عنه عندما تهدده الأعداء أول مرة . . . إذا كان البربر في القيروان قبل إنهم أصبحوا سادة إفريقية ؟ بالطبع لا . لقد خُذع فورنل هنا بأقوال رواة العرب ، فهؤلاء لا يفهمون من موت عقبة في تهودة إلا أن إفريقية قد ضاعت من المسلمين وأصبح كسيلة سيدها وصاحبها ^(٣) » . ثم يقول بعد ذلك بقليل في وصف حكومة كسيلة التى أقامها في القيروان : « لم تكن هناك حكومة ولا يستطيع المرء أن يقول إن البلاد — التى حكمها جرجير من قبل ونهبها العرب صراراً عديدة — أصبحت اليوم محكومة بسلطان كسيلة ، لأن هذا الأخير لم يفعل

(١) Fournel, op. cit. I. p. 181

(٢) ألفت فورنل كتابه للدفاع عن البربر وإظهار أنهم خير من العرب وسادة لهم ، وحاول أن يبرهن في كل صفحة من صفحاته على أن العرب إن هم إلا لصوص ، لا يحفلون إلا للسلب والتهب ، وتلك هى النظرية المحبوبة التى سخر منها كودل في هذا التعليق — أنظر صفحة ١٤١ من هذه الرسالة .

(٣) Caudel, op. cit. II. p. 141

أكثر من احتلالها ، وهذا أمر يختلف عن الحكم تمام الاختلاف ، فلم يزد الأمر على أن حلت القبيلة البربرية محل جموع العرب ، وضربت خيامها جوار العيون التي كان العرب يستقون منها . . . فلم يكن كسيلة يحكم بالمعنى الذي نفهمه من هذه الكلمة ، إذ لو كان يحكم حقاً لتوقع عود العرب ولاتخذ العدة لذلك ، وسترى أن شيئاً من ذلك لم يكن^(١)» أصاب كودل في مناقشة فورنل ، ووفق إلى وصف حكومة كسيلة وصفاً قريباً من الحقيقة ، ولكن غابت عنه أمور أخرى على جانب عظيم من الخطورة والأهمية ، وهي الآثار التي خلفها العرب في البلاد بعد هذه الحملات الكثيرة .

أنصار العرب
من أهل
البلاد

سبقت الإشارة إلى ما كان من مناصرة بعض قبائل البربر للعرب وانضمامهم لهم ، وما كان من دخول بعضهم في الإسلام ، وسبق القول بأن أغلب هؤلاء الأنصار كانوا من بربر الجنوب لا من بربر الشمال أو من قبائل الأوراس أو من نواحي مرطانية ، أي أنهم كانوا من قبائل البدو من أمثال نفوسة ولواتة وبعض زناتة ونفر من برغواطة ، وأن مناصرة هذه القبائل للعرب لم تقتصر على مجرد الترحيب بهم أو التزام الحياد معهم — كما فعل قبط مصر مثلاً — بل كانوا يخفون لعون العرب كلما تخرج بهم الأمر ، كما خفت زناتة لنجدة العرب عند ويلي ، وكما أسرع ابن مصاد صاحب قفصة لاستنقاذ أسارى المسلمين بعد تهودة ، بل لم يسكن هؤلاء الأنصار بعد مبارحة العرب للبلاد ، وإنما لبثوا يشغبون على كسيلة ومن معه من البرانس بحيث أصبحت البلاد « ناراً » طوال الفترة التي غابتها العرب عنها كما قال النويري .

لذلك لا يصح القول بأن كل أثر للعرب قد امحى من البلاد ، وإن كان على خليفة عقبة أن يبدأ كما بدأ عمرو بن العاص قبل ذلك بنحو خمسين سنة ، وإنما

Caudel, op. cit. II. pp. 142,143 (١)

الأصح أن يقال : إن مهمته كانت إخماد ثورة في بلاد كانت للعرب وانتقضت عليهم . وإذا كان أصحاب الأمر في الدولة الإسلامية مخيرين فيما مضى بين أن يواصلوا الفتوح أو ينصرفوا عنها ، وإذا كانت الغزوات على المغرب قد ظلت إلى الآن رهناً برغبة الخليفة أو إلحاح عامل مصر ، فقد أصبحت إعادة ما كان قد تم فتحه إلى الطاعة وإتمام فتح بقية البلاد ضرورة لا بد منها ، لا للمسلمين وحدهم بل للمغرب وأهله كذلك . فأما المسلمون فلمهم رعية في البلاد وأنصار ينبغي إقناؤهم من الأسر الذي خضعوا له بانتصار كسيلة ، وما برحت القيروان ومسجدها الجامع يذكران المسلمين بضرورة العود ؛ وأما البربر فقد وجدت بعض قبائلهم في المسلمين نصيراً لهم على الروم وأحلافهم من القبائل المسيحية أو المتأثرة بالحضارة اللاتينية ، ورحبت بمجنودهم التماساً للفتح معهم والاشتراك في الأسلاب وإيائهم فأنحازت إلى جانبهم . فلما كانت هزيمة تهودة وارتد المسلمون إلى برقة ، لبثت على عداء كسيلة وحكومته ، وظلت تنتظر عود العرب لتنضم إليهم وتؤازرهم على القضاء على كسيلة ومن معه ، وذلك هو الأمر الذي غاب عن فورنل وكودل ، وهو على أكبر جانب من الأهمية والخطورة ، لأنه الثمرة الوحيدة التي نتجت عن جهود العرب طوال هذه السنوات ، ولأنه يفسر لنا السهولة الظاهرة — نسبياً — التي استطاع بها العرب إخضاع البلاد . وكان كسيلة نفسه يشعر بذلك ويبدل وسعه في اتقاء شره : كان يعلم أن البلاد ليست خالصة له ولأنصاره ، ولهذا حرص على أن لا يمس من بالقيروان من المسلمين بأذى حتى في الساعة التي أنذره العرب فيها بعودهم ؛ فمع أن وجود هؤلاء المسلمين كان يقلقه ويثير مخاوفه ، ومع أنه كان في استطاعته أن يتخلص منهم دون أن يكون عليه بأس من ذلك ، فإنه لم يفعل ثمالات انتقال بنفسه من القيروان إلى تمش حذراً من وثوبهم به . وقد سبق القول بأن هؤلاء المسلمين الذين خلفهم زهير في القيروان إنهم إلا : « الدراري وذوو الأثقال

من التجار» كما يقول المالكي ، فكيف يعلل خوف كسيلة منهم وقوله :
« فإن بالقيروان خلقاً كثيراً من المسلمين ، ولهم علينا عهد فلا تغدر بهم ، ونخاف
إن قاتلنا زهيراً أن يثب هؤلاء من ورائنا ، فإذا نزلنا ممس أمنام^(١) » ؟ ليس
من المعقول أنه فعل ذلك اتقاء غضب العرب أو مصانعة لهم ، ولا يصح تعليله بميل
الرجل إلى العدل وكرهه للدماء ، فإن المذبحة التي دبرها لعقبة تنفي ذلك ، وإنما
تعليلها الوحيد أنه وجد هؤلاء المسلمين أنصاراً من أهل البلاد تثيرهم الإساءة
إليهم ، ولا بد أن هؤلاء الأنصار كانوا من الكثرة بحيث يخشاهم كسيلة ويؤثر
مصانعتهم ، ولا بد كذلك أنه كان يعرف أنهم يضمرون له الشر ويتربصون
به الدوائر ، فحرص أشد الحرص على أن لا يثير ثائرتهم في اللحظة التي أبصر فيها
خيل العرب مسرعة نحوه للأخذ بثأر تهودة .

— ٢ —

سكن الروم فترة طويلة بعد هزيمة سبيطة ، لأن أحوال الدولة المركزية
اضطربت وتهدها العرب من الشرق ومن الغرب بالإغارات والهجمات المتوالية ،
فانقطعت الأمداد عن إفريقية ، وأخذ أمر رومها في الضعف حتى انعدمت
مقاومتهم أصلاً كما رأينا في حملة معاوية بن حديج والسرايا الصغيرة التي بعث بها
إلى بنزرت وسوسة وغيرها من كبريات مدائن الروم . وقد لوحظ كذلك أن روم
إفريقية بدأوا يظهرن بعض النشاط بعد هذا الخمول ، وكان ذلك بعد خلاص الدولة
من حصار القسطنطينية الثاني الذي استمر تأثيره عليها حتى نهاية حملة أبي المهاجر .
فلما بدأ عقبة حملته الكبرى سنة ٥٥ هـ ظهر بجلاء أن الروم نشطوا نشاطاً مفاجئاً ،
ترجع أسبابه إلى استرداد الدولة عافيتها بفضل جهود قسطنطين الرابع وإصلاحه
الديني ، واجتهاده في وصل ما كان قد وهى من علاقات الدولة مع أملاكها في إفريقية

(١) ابن الأثير ، أسد الغابة ، ج ٤ ، ص ٤٢

وغيرها ، وإلى انتفاض كسيلة على العرب ومحالفة الروم وتعاون الحيين معاً على مقاومة عقبة . ويبدو أن الروم تشجعوا بعد تهودة وانهزوا فرصة انشغال كسيلة بتنظيم أمره فاستعادوا بعض ما كان لهم في البلاد ، وحرصوا على أن يثبتوا أقدامهم من جديد . فيؤكد ديل أن : « رجال الإمبراطورية ظلوا يحتلون الولاية القنصلية احتلالاً قوياً ، والشريط الساحلي من الولاية الداخلية والجزء الأكبر من نوميديا . وكانوا في القرن السابع كذلك لا يقتصرون على محارس الساحل وحدها مثل سوسة (Hadrumentum) وقرطاجنة وبنزرت Hippone Diarrete وبنو Hippone بل وضعوا يدهم على عدد كبير من الحصون الداخلية . وقد كان الرباط الثاني سليما لم يمسه الهجوم بعد . وكانت الحاميات باقية على حالها في نوميديا حتى في المحارس التي تحمي الأوراس ، بل يمكن القول بأن علاقة ما — تشبه ما بين السيد والتابع — كانت تصل الحكومة البيزنطية في إفريقية بملكة كسيلة ، وعلى أي الأحوال فقد كان الأمير الوطني على صلة ضعيفة بالبيزنطيين^(١) ، وربما جاز أن نشك إلى حد ما في بعض ما جاء بعبارة ديل هذه ، فالقول بأن : « الرباط الثاني كان إلى ذلك الحين سليما لم يمسه هجوم » غير صحيح ، لأن المعروف أن معاوية بن حديج اخترقه في بعثه الذي أرسله إلى بنزرت والبعث الآخر الذي وجهه إلى سوسة ، وأن دينار أبا المهاجر هاجم قرطاجنة وحاصرها ولم ينصرف عنها إلا بعد أن نزل الروم له عن جزيرة شريك الواقعة داخل الرباط الثاني ، ثم إن مركز أعمال العرب كان منطقة ساحلية تنحصر بين الهضبة وساحل سوسة وهي منطقة قونية الداخلية في هذا الرباط . وليس هناك كذلك ما يدل على وجود الحاميات التي ذكرها ديل في محارس الأوراس وحصونه ، وإنما لا شك أنه لم يخطئ حين أكد وجود صلة ما بين روم إفريقية وكسيلة .

(١) Diehl, op. cit. p. 519.

وإنما يمكن تصحيح عبارة ديل بالقول بأن روم إفريقية أخذوا يستعيدون نشاطهم بعد سنة ٥٥ هـ ، وأن ظروفهم وظروف الدولة نفسها أعانت على ذلك ، فاستطاعوا أن يستعيدوا مدائن الساحل وبعض محارس الداخل وأن الدولة نشطت فأخذت توافيهم بالأمداد ، ولم يرد لهذه الأمداد ذكر صريح في هذه السنوات التي نقص أخبارها ، وإنما سنجد أحدها في برقة سنة ٧١ هـ أثناء عود زهير ابن قيس من إفريقية ، وكان انشغال العرب بكسيلة وتوجه اهتمامهم للقضاء عليه فرصة طيبة استطاع الروم فيها أن يشدوا أمرهم ويثبتوا أقدامهم استعداداً لصراع حاسم يشتد أواره في حملة حسان بن النعمان سنة ٧٨ هـ .

— ٣ —

تتفق المراجع كلها ما عدا فتوح مصر والمغرب على أن زهيراً أقام ببرقة طوال السنوات الأربع التي انقضت بين انسحابه من إفريقية سنة ٦٥ هـ ثم مسيره إليها سنة ٦٩ هـ ، ولكن ابن عبد الحكم ينفرد هذه المرة — كما انفرد في سابقتها — برواية شديدة الغموض بينة الاختلاف عما انعقد عليه إجماع غيره ، فيقول بعد ذكر عدة حوادث فيها خطأ كثير : « إن الروم أغاروا على أنطابلس (برقة) وبقوا فيها أربعين ليلة أنزلوا بها أثناءها من الفساد شيئاً كثيراً ، وبلغ ذلك عبد العزيز ابن مروان ، فأرسل إلى زهير بن قيس وكان خرج مع حسان ، فلما بلغ مصر أقام بها ، فأمره عبد العزيز بالنهوض إلى الروم ، ولم يجتمع لزهير من أصحابه إلا سبعون رجلاً ، وكان عارض من الصدف يقال له جندل بن صخر — وكان فظاً غليظاً — فقال زهير لعبد العزيز بن مروان : أما إذا أمرتني بالخروج فلا تبعن معي جندلاً عارضاً فيحبس على (عني) الناس لشدة وفظاظته ، وكان عبد العزيز عاتباً على زهير بن قيس ، لأنه كان قاتله حين وجهه أبوه مروان بن الحكم من ناحية أبلّة من قبل أن يدخل مصر ، فقال له : ما علمتك يا زهير إلا جلفاً جافياً ! فقال

زهير يعود
إلى مصر بعد
انسحابه من
إفريقية

له زهير . . . : أنا منطلق فلا ردني الله إليك ! فخرج^(١) . وهذه الرواية منسوبة إلى الليث بن سعد ، ونقلها عن يحيى بن بكير ، وليس هناك ما يؤيدها ، ولكنها تضم إشارات على جانب عظيم من الأهمية مما يميل بنا إلى قبول معناها جملة . فهي تدل على أن زهيراً لم يلزم برقة طوال هذه السنوات الأربع وإنما عاد إلى مصر وأقام بها فترة من الزمن ، وعاد معه أصحابه كذلك وتفرقوا يلتمسون الراحة وتقاعد أكثرهم عنه حين هم بالعود إلى إفريقية . ويفهم منها كذلك أن ملاحاة وقعت بينه وبين عبد العزيز بن مروان إما للسبب الذي ذكره ابن عبد الحكم أو لأي سبب آخر ، وربما أيد ذلك ما ورد في الإصابة من تشاحن عبد العزيز ابن مروان مع زهير بن قيس ووقوع النفرة بينهما إذ يقول : « وذكر له قصته مع عبد العزيز بن مروان وقد توجه إلى برقة ، فخطبه بشيء فأجابه زهير : أقول لرجل جمع ما أنزل الله على نبيه قبل أن يجمع أبواك هذا ؟ ونهض إلى برقة^(٢) » وهذا برهان صريح على ما كان بين الرجلين من بغض وكراهية ، وهذا المقام بمصر يفسر لنا السبب الذي دفع بابن عبد الحكم والبلاذري^(٣) إلى القول بأن عبد العزيز ابن مروان هو الذي أرسله ، وهي دعوى لا صحة لها ، وأبسط ما ينهض من الأدلة لدحضها هي الملاحاة والمعاداة التي كان بين الرجلين . ويفهم من هذه الرواية كذلك أن سعى عبد العزيز بن مروان لضم إفريقية إلى ولايته بدأ قبل حملة زهير ، فحرص على أن يبعث معه نفراً ممن يكرههم زهير كجندل الصدفى هذا ليعرقل مساعيه ، وهو سعى سيوفى إلى تحقيقه بعد ذلك بزمان طويل ، أي حوالى سنة ٨٤ هـ حين يتمكن من عزل حسان بن النعمان بتابعه موسى بن نصير^(٤) .

(١) ابن عبد الحكم ، فتوح ، ص ٢٠٢ — ٢٠٣

(٢) الإصابة : مادة زهير بن قيس .

(٣) ابن عبد الحكم ، فتوح ، نفس الصفحة — البلاذري ، فتوح ، ص ٢٢٦

(٤) أما أخطاء ابن عبد الحكم التي صحت الإشارة إليها قوله : « إن كسيلة قتل =

أقام زهير إذن بعض هذه الفترة في مصر وبعضها الآخر في بركة ، وكان لا يكف أثناء ذلك مستغيثاً بعبد الملك بن مروان حتى يبعث إليه بالجند ليستنقذ المسلمين الذين خلفهم في إفريقية حين عاد ، ولكن عبد الملك كان في شغل عنه بما حربه من أمور وما تهدده من أخطار ، فقد قضى السنوات العشرة الأولى من ولايته في صراع مع أعدائه الذين توائبوا عليه تباعاً من بدء ولايته ، بل كان قد ولي الخلافة والثورة قائمة في نواح كثيرة من الدولة ، كالمدينة التي لم يخمد ثورتها انتهاك مسلم بن عقبة المري إياها وتخريبها سنة ٦٣ هـ ، والكوفة التي تحرك بها الشيعة وظهر التوابون فيها سنة ٦٥ هـ ، واستمرت هذه الاضطرابات قائمة على حدتها ولم يبدأ أمرها في السكون إلا بعد سنة ٧٠ هـ ، أي بعد مقتل مصعب ابن الزبير بدير الجاثليق ومقتل أخيه عبد الله بن الزبير في جمادى الآخرة سنة ٧٣ هـ . ولهذا كان طبيعياً أن تذهب صرخات زهير دون جدوى ، ولو تأخر عبد الملك في إمداده حتى بعد سنة ٧٣ هـ لكان له العذر في ذلك ، ولكن الغالب أن عبد الملك ورجاله كان لهم اهتمام بأمر إفريقية ورغبة في تخليص من بها من المسلمين ، فعلى الرغم من أن ثورة ابن الزبير وأخيه واضطرابات الشيعة كانت على أشدها في سنة ٦٩ هـ ، فقد استطاع عبد الملك أن يبعث بالأمداد إلى زهير في هذه السنة ويأمره بالمسير إلى إفريقية ، وفي هذا دليل على أن أمور إفريقية أصبحت تهم أولى الأمر في الدولة الإسلامية كما تهمهم أمور العراق والحجاز مثلاً ، فقد بعث زهير إلى إفريقية سنة ٦٩ هـ في حين لم يسر عبد الملك نفسه لقتال مصعب بن الزبير في العراق إلا سنة ٧١ هـ ، بل نستطيع القول بأن سبب الاهتمام باسترجاع إفريقية لم يكن مجرد استنقاذ من بها من المسلمين وإنما كان الرغبة

عبد الملك
يسير زهيراً
إلى إفريقية
سنة ٦٩ هـ

== سنة ٦٤ هـ « وهذا أمر لا يستقيم ، لأن زهيراً لم يشرع في حملته إلا سنة ٦٩ هـ ، وقوله : « إن عبد العزيز هو الذي بعث زهيراً إلى إفريقية » .

في تهدئة أمورها وإتمام فتحها ، لأن الخلافة أصبحت تنظر إليها كبلاد إسلامية لا مفر من الاهتمام بأمرها اهتماماً لا يقل عن الاهتمام بالموصل والجزيرة . ومصدق هذا أن هزيمة زهير ومقتله في برقة لم تثن عبد الملك عن مواصلة العمل على استرجاع إفريقيا ، فبعث حسان بن النعمان في نفس الوقت الذي كان الحجاج يعمل فيه لإخماد ثورة الصفرية في الموصل والجزيرة سنة ٧٦ هـ .

ومما يؤيد اهتمام عبد الملك بأمر إفريقيا وتقديره أهمية إتمام فتحها أنه عني بأن يعد الحملة التي يرسلها إليها عناية خاصة ، فأرسل إلى أشراف العرب ليحشدوا إليه الناس من الشام ، وأفرغ عليهم أموال مصر فسارع الناس إلى الجهاد ، واجتمع منهم خلق عظيم فأمرهم أن يلحقوا بزهير فلما وصلوا إليه خرج بهم إلى إفريقية^(١) .

اهتمام
عبد الملك
بحملة إفريقية

بين المؤرخين اتفاق على تاريخ هذه الحملة ، فكلهم عدا ابن خلدون^(٢) يجعلونها سنة ٦٩ هـ (٦٨٨ م) ، وإذا صدق المالكي فيما ذكر من أن زهيراً وصل القيروان في عيد الأضحى كان من الممكن القول بأنه شرع في السير في ذي القعدة سنة ٦٩ هـ .

كان اختيار عبد الملك لزهير^(٣) قائماً على معرفته به وثقة رجال الدولة فيه . فقد روى النويري أنه : « لما أشير على عبد الملك بن مروان بإرسال الجيش

(١) المالكي ، رياض النفوس ، ص ٩

(٢) ذكرها ابن خلدون سنة ٦٧ هـ : طبعة دي فرجير ص ٤

(٣) جاء في الإصابة ما يلي عن زهير : قال ابن يونس : « يقال له صحبة ، ويكنى أباشداد ، وشهد فتح مصر ، وروى عن علقمة بن رمثة البلوي ، وروى عنه سويد بن قيس ، وقتله الروم ببرقة سنة ٧٦ هـ » ثم أعقب ذلك بكلام يؤيد ما سيرد ذكره من وقوع الجفوة بين زهير وعبد العزيز بن مروان عامل مصر إذ ذاك إذ يقول : « وذكر له قصته مع عبد العزيز بن مروان وقد نذبه إلى برقة فخطبه بشيء فأجابه زهير : أتقول لرجل جمع ما أنزل الله على نبيه قبل أن يجمع أبواك هذا ؟ ونهض إلى برقة فلقى الروم في عدد قليل فقاتل حتى قتل شهيداً » .

إلى إفريقية قال لا يصلح للطلب بشار عقبة بن نافع من المشركين إلا من هو مثله في دين الله عز وجل ، فاتفق رأيهم على زهير بن قيس ، وقالوا هو صاحب عقبة وأعرف الناس بسيرته وأولاهم بطلب ثأره^(١) . وكان قد صحب عقبة منذ سنة ٤٣ هـ واشترك في فتوح إفريقية من ذلك الحين ، ويبدو أنه كان أعظم رجاله شأنًا لأنه خلفه على جنده حين سار في بعثه الصحراوي ، ثم خلفه مرة أخرى على القيروان حين سار بحملته الكبرى ، وكانت صحبة عقبة الطويلة قد أثرت فيه فغلبت عليه هو الآخر مسحة دينية زادها قوة ووضوحاً علوّ سنه حين قام بحملته هذه .

انضمام نفر
من البربر
إلى زهير

يفهم من قول ابن عذارى : « فكتب إليه (أى إلى عبد الملك) زهير يعرفه بكثرة من اجتمع على كسيلة من البربر والروم ، فأمدّه بالخييل والرجال والأموال ، وحشد إليه وجوه العرب وبعثهم إليه ، فوفدت الجيوش على زهير وتسرع الناس معه إلى إفريقية^(٢) » أن الاستعداد لحملة زهير كان عظيماً ، وأن الخليفة لم يقتصر على حشد قوة عظيمة إليه بل دعا الناس للمسير معه ، فلبت الدعوة إقبالاً من الناس فتسارعوا للاشتراك مع زهير . ويذهب المالكي إلى أن زهيراً لم يقتصر على ما وصله من مدد بل ضم إليه نفراً كبيراً من البربر تبلغ عدتهم ألفين في حين كان العرب أربعة آلاف^(٣) ، ويغلب أن العرب كانوا أكثر من هذا العدد الذي أورده المالكي ولكن روايته تدل على أن جيش زهير كان فيه نفر كبير من البربر على أى حال . وتلك ظاهرة ستلاحظ في كل الجيوش العربية التي ستتولى إتمام الفتح وسيبهم مؤرخو العرب بتسجيلها ، إذ سنجد

(١) النويرى ، نهاية الأرب ، ص ٧٣ ١ و يروى المالكي رواية تشبه هذه من ناحية المعنى وتخالفتها في بعض ألفاظها ، ويفهم منها أن اختيار زهير كان بناء على رغبة نفر كبير من المسلمين لا عبد الملك ورجال بلاطه فقط ، إذ يقول : فاتفق رأيهم ورأى المسلمين على زهير بن قيس البلوى وكان من رؤساء العابدين وأشرف المجاهدين — المالكي ، رياض النفوس ، ص ١٥

(٢) ابن عذارى ، البيان المغرب ، ص ١٦

(٣) المالكي ، رياض النفوس ، ص ٩

المالكي يقول : « إن حسناً كانت ترافقه طائفة من البربر يقال لهم البتر^(١) » ،
ويؤكد ذلك ابن الأثير حين يقول : « وجمع كسيلة له البرانس^(٢) » وكل أولئك
دلائل تعزز ما سبقت الإشارة إليه من أن البربر البدو الجنوبيين أخذوا جانب
العرب ، وانحصرت المقاومة في القبائل الشمالية التي يسميها نسبة البربر البرانس
لأنها كانت بعيدة التأثير بالحضارة البيزنطية والمسيحية ، ولا نزاع في أن الروم كانوا
يوالونها بالعون والإرشاد ، وسيلاحظ بجلاء أن مقاومتها تضعف تماماً بعد قضاء
حسان على الروم .

ظل كسيلة مقياً بالقيروان على حذر من العرب طوال هذه المدة ، فلم تكذب
الأخبار ترد إليه بمسير زهير نحوه حتى تولاه جزع شديد ، « وجمع حشد البربر والروم
وأحضر أشراف أصحابه وقال : قد رأيت أن أرحل إلى ممش^(٣) فأنزلها ،
فإن بالقيروان خلقاً كثيراً من المسلمين ولم علينا عهد فلا نعذر بهم ، ونخاف
إن قاتلنا زهيراً أن يثب هؤلاء من ورائنا ؛ فإذا نزلنا ممش أمنّاهم وقاتلنا زهيراً
فإن ظفرونا بهم تبعناهم إلى طرابلس وقطعنا أترهم من إفريقية ، وإن ظفروا بنا
تعلقنا بالجبال ونجونا ، فأجابوه إلى ذلك ورحل إلى ممش^(٤) . »

أما تعليل انسحاب كسيلة إلى ممش بخوفه من المسلمين الذين بالقيروان فقط

قرع كسيلة
لمسير العرب

لماذا انتقل
كسيلة
إلى ممش ؟

(١) المالكي ، رياض النفوس ، ص ٩ (٢) ابن الأثير ، أسد الغابة ، ج ٤ ، ص ٤٤
(٣) ممش أو ممس Mamma مدينة يزنطية حصينة قديمة ، كانت من محارس الرباط
الثاني الكبرى ، وقد ذكر البكري عن محمد بن يوسف : « أنها قرية عامرة آهلة بها مسجد
وفندق ، مما يدل على أنها كانت مزدهرة إلى أيامه ، ويسمى ساقية ممش ، وقد وردت بصور
مختلفة في الروايات العربية فذكرها ابن الأثير ممش ، وذكر ابن خلدون ميس ، والنويري
ممش ، وقد أخطأ الأستاذ دي فرجير في قراءة لفظ ممش فقرأها عس وأثبتها بالعريصة
والإفريقية ، وربما كان ابن مقديش أشد المؤرخين تحريفاً لهذا اللفظ فقد أورده : « مصرة » —
البكري ، وصف إفريقية ، ص ١٤٦ — ابن الأثير ، أسد الغابة ، ج ٤ ، ص ٤٤ — النويري ،
نهاية الأرب ، ص ٧٣ أ — ابن خلدون ، ج ٤ ، ص ١٨٧ — دي فرجير ، ص ٤ و ٢٣ — ابن مقديش ،
نزهة الأقطار ، ص ٧٣ (٤) ابن الأثير ، أسد الغابة ، ج ٤ ، ص ٤٤

فضعيف ، لأن هذا النفر كان قليلا لا يخشى منه بأس ، وكان أكثره من غير المقاتلين أو القادرين على المقاومة . وكذلك لا يستقيم تعليل المالكي لهذا الانتقال بأن ممس أكثر ماء من القيروان^(١) ، لأن هذا غير صحيح . والحقيقة أن القيروان لم تكن حصينة في حين كانت ممس كذلك ، وكانت القيروان في وسط السهل مما يسهل الالتفاف حولها ومهاجمتها من أى ناحية ، ولو هاجمها العرب من الغرب لقطعوا عنها المدد من الجنوب . وأما ممس فعلى شرف من الهضبة تطل بحصنها على السهل وتقف حائلا يصد المتقدم من السهل ولا يستطيع العرب مهاجمتها من خلف ، ثم كانت على اتصال بالهضبة وجبال الأوراس ، فيمكن الحصول على الأمداد والمؤن ، فإذا دارت الدائرة على كسيلة تعلق بالجبال كما قال .

ولا بد كذلك أن القيروان كانت محوطة بطوائف من البربر المواليين للعرب . فقد رأينا بعضهم يسلم وعقبة قائم بيناء القروان ؛ وأعان على ذلك قرب موقعها من منازل نفوسة التي ثبت ولاؤها للعرب وإسلام بعضها من أيام عقبة ، وربما كان قول كسيلة : « فإن بالقيروان خلقا كثيرا من المسلمين ولهم علينا عهد فلا نغدر بهم ، ونخاف إن قاتلنا زهيرا أن يثب هؤلاء من ورائنا^(٢) » إشارة إلى ذلك . فإن خوفه من هؤلاء المسلمين وتفضيله تركهم والانتقال إلى مكان آخر لا يعطل إلا بأنهم كانوا عددا كبيرا يخشى بأسه . وقد عرفنا أن زهيرا لم يخلف بإفريقية إلا عددا ضئيلا من العرب فلا بد أن كسيلة أراد بذلك مسلمي البربر أو أنصار العرب منهم . اتخذ زهير الطريق الساحلى الذى سلكه عبد الله بن سعد في حملته الأولى حتى أفضى آخر الأمر إلى جوار القيروان^(٣) وعسكر جوارها دون أن يدخلها^(٤) ،

(١) المالكي ، رياض النفوس ، ص ١٠ (٢) ابن الأثير ، أسد الغابة ج ٤ ، ص ٤٤

(٣) يقول ابن عبد الحكم : « نخرج زهير في جمع كثير ، فلما دنا من قونية وبها عسكر كسيلة بن لزم عبأ زهير لقتاله » والأغلب أنه أراد بقونية هذه قونية ، أى موضع القيروان — ابن عبد الحكم ، فتوح ، ص ٢٠٠

(٤) اتفق ابن الأثير والنويرى على القول بأنه أقام بظاهر القيروان دون أن يدخلها =

وربما كان هذا موضع تساؤل لأنه إذا كان قد طلب الراحة هذه الأيام الثلاثة ،
فإنما بداخل المدن لا بظاهرها يستريح الناس . وربما جاز تعليله بأنه كان مسرعا
فخشى أن يطول به الأمد إن هو دخل القيروان ، وربما خشي أن يفاجئه
العدو وهو بداخلها وقد خلع لباس الحرب ، ففضل البقاء كما هو على استعداد
لكل طارئ .

زهير يهادن
الروم

يورد المالكي تفصيلات عظيمة الأهمية في توضيح أعمال زهير ، فيذكر أن
زهيراً لم يسر إلى ممس وإنما ثبت في القيروان « حتى زحف كسيلة في جمع كثير
من البربر والروم ، ونقض الروم العهد وخرجوا من حصونهم ، ووافق جميعهم
عيد الأضحى فاعتذر زهير ومن معه : أربعة آلاف (كذا) : ألسان من البربر
وأربعة آلاف من العرب » فلما رأى زهير ما حل به من الروم والبربر أرسل إلى
الروم وقال لهم : « وإنا وإياكم أهل الكتاب وقد حضرنا يوم نعظمه ... بنا
حتى ينقضى العيد فأجابوه إلى ذلك ، فلما انقضى العيد زحف إلى كسيلة فقاتله
قتالا شديدا ، فانهزم كسيلة وقتل من أصحابه ما لا يحصى وتفرقوا ، فأقام زهير
بالقيروان يسيراً ثم رحل إلى مصر^(١) » وبذلك لا يكون زهير قد أقام بظاهر
القيروان ثلاثة أيام « حتى استراح وأراح ، ثم رحل إلى كسيلة والتقيا^(٢) » وإنما
كان مقام زهير بظاهر القيروان للتدبير وبمحت الحالة عن كتب .

وجد زهير أن الحلف الرومي البربري لا زال قوياً يخشى بأسه ، ولاحظ

= وخالفهما المالكي فأكد أنه دخلها ، وقد غلبت رأى الإثنين الأولين — ابن الأثير ،
أسد الغابة ٤ ، ص ٤٤ والنويري ، نهاية الأرب ، ص ٧٣ أ — المالكي ، رياض النفوس ، ص ٩
(١) المالكي ، رياض النفوس ، ص ٩ — وقد عاد المالكي فأورد بعد ذلك رواية أخرى
تتفق تماماً مع ما أجمع عليه المؤرخون الآخرون دون أن يذكر إسناد أى الروايتين ، وبفهم
من سياق حديثه أنه يقرر حملتين لزهير وهذا خطأ ؛ ويؤكد خطأ قوله : إن اتجه
الحملتين مما كان ممس وكسيلة وأنه قتله في كل منهما

(٢) النويري ، نهاية الأرب ، ص ٧٣ أ

أن الروم لا زالوا محتفظين بحصونهم القديمة إلى شمال القيروان وشرقها ، ولا حظ أن البربر رُصد له بباب الهضبة يردونه عنها إن هو حاول اقتحامها ، ومن ثم خشي أن يتجه إلى إحدى الناحيتين مخافة أن تهيم به إحدى الطائفتين من خلف ، فأحب أن يبعد الروم عن الميدان ريثما يخلص من أمر البربر وكسيلة ثم يعود ليرى ما يكون من أمر الروم معه . ويبدو أن الروم مالوا إلى أن يتركوا العرب والبربر يكافح بعضهم البعض ليخلصوا من أيهم فيسهل ذلك لهم استرجاع سلطانهم في البلاد^(١) .

مسير زهير
إلى كسيلة

واقعة ممس

خلص زهير من الروم فانطلق للقاء كسيلة في ممس التي تحصن بها ولبت ينتظر العرب عندها . وتتفق المراجع كلها على أن اللقاء كان بممس عدا المالكى الذى يذهب إلى أن ذلك كان بناحية قريبة من ممس تسمى قصر عبيدة^(٢) . ويبدو من مختلف الروايات أن المعركة بين زهير وكسيلة كانت شديدة عنيفة إذ : « اشتد القتال وكثر القتلى في الفريقين ، وانجلت الحرب عن قتل كسيلة وجماعة من أصحابه ، وانهزم من بقي منهم وتبعهم الجيش فقتلوا من أدركوه منهم ، فذهب رجال البربر والروم وأشرفهم وملوكهم في هذه الموقعة وعاد زهير إلى القيروان^(٣) » كما يقول النويرى . ولم تزد المراجع الأخرى على ذلك شيئاً ، مما يدل على أن الموقعة كانت قصيرة الأمد على رغم أهميتها ، وربما صح تعليل ذلك بأن العرب كانوا مدفوعين لقتال كسيلة بتشوق إلى الانتقام فشد ذلك من عزائمهم ، ولم يثبت لهم كسيلة ولا أحد ممن كان معه . ولا تفوتنا ملاحظة ضعف القوى البربرية أمام العرب حينما تخلف الروم عنهم ، ولو أن الروم كانوا بجانب البربر أثناء موقعة ممس لربما كان شأن العرب فيها كشأنهم في باغاية

(١) المالكى ، رياض النفوس ، ص ٩ (٢) المالكى ، رياض النفوس ، ص ٩

(٣) النويرى ، نهاية الأرب ، ص ٧٣ أ و ب

أو لميزة وغيرها من الحصون . ولكن كيف لم يفر كسيلة ومن معه حين اشتد عليهم الأمر ؟ لقد عرفنا أن أحد الأسباب التي ألجأت كسيلة إلى ممس هو اقترابها من الهضبة وسهولة الفرار إلى الجبال منها ، فكيف لم يتمكنوا من الفرار ؟ ربما صح تعليل ذلك بأن كسيلة وكبار الزعماء قتلوا في بداية المعركة ، أو بأن زهيراً أجاد توزيع قواته ساعة الهجوم فلم يستطع البربر تنفيذ ما كانوا عزموا عليه من التقهقر إلى الهضاب . وبهذا تم القضاء على مقاومة البرانس في موقعة واحدة . ويبدو أن زهيراً كان يعرف أهمية هذه الموقعة فأصر على القضاء على البرانس قضاء تاماً ، فحينما انهزم نفر منهم إلى الجبال وطلبوا النجاة « تتبعهم الجيش فقتلوا من أدركوه منهم ، فذهب رجال البربر والروم في هذه الموقعة وعاد زهير إلى القيروان ^(١) » .

التأثير
السياسي
لواقعة ممس

تعرض السلاوي لإيضاح النتائج السياسية لهذه الواقعة ، فأكد أنها كانت شديدة الأثر على البربر والروم كذلك (ويسميه الفرنجة خطأ) ، وأضاف أن البربر رعبوا من العرب بعدها رعباً عظيماً ، فلبجأوا إلى الحصون والقلاع وفارقوا الأوراس وتحصنوا بالمغرب الأقصى « في ويلي بين فاس ومكناس بجوار جبل زرهون ^(٢) » وليس هذا الكلام صحيحاً على إطلاقه ، لأن مركز المقاومة لم ينتقل من الأوراس إلى المغرب الأقصى بعد ذلك مباشرة ، وإنما الصحيح أن هذه الموقعة كسرت شوكة البرانس وقضت على مقاومتهم ، وقضت على ما كان معقوداً بينهم وبين الروم من تحالف على العرب وتعاون على طردهم . وسلاحظ أن خليفة زهير وهو حسان بن يحارب البرانس وإنما البتر ممثلين في قبيلة جراوة . أما قوله إن البربر تحصنوا بالمغرب الأقصى بعد ذلك « في ويلي بين فاس ومكناس بجوار جبل زرهون » فلا تؤيده الحوادث التي وقعت بعد ذلك ، فقد كان مركز

(١) نفس المصدر والصفحة . (٢) السلاوي ، الاستقصاء ، ص ٤٣

المقاومة التي لقيها حسان في الأوراس أيضاً ، ولن يجحد موسى بن نصير في المغرب الأقصى إلا أيسر المقاومة^(١).

يذهب المالكي إلى أن العرب تتبعوا الفارين من البربر إلى المغرب الأقصى ، « وتمادت العرب في طلبهم حتى سقوا خيلهم من ملوية وادي طنجة^(٢) » ، وربما كانت تلك مبالغة ، لأن ملوية قريب من طنجة ولا يسهل الاسترسال إليه بهذه السهولة التي تفهم من رواية المالكي .

الاستيلاء
على شقبنارية

١ كفى زهير بانتصاره في ممس فعاد أدراجه يريد القيروان ، ويبدو من قول المالكي : « وفتح شقبنارية وقلاعاً أخرى ورجع وقد خرج جميع الروم والبربر^(٣) » أنه لم يعد إلى القيروان رأساً ، وإنما اتجه إلى الشمال حتى أدرك شقبنارية Sicca Vaneria البيزنطية (الكف الحالية) وبضع قلاع أخرى كما استولى عليها قبل العود إلى القيروان .

— ٥ —

الروم
يدبرون
لزهير

ترك الروم زهيراً يفعل مع البربر ما يستطيع وانصرفوا هم لتدبير أسر آخر شديد الشبه بما دبروه لعقبة ، وربما دفعهم إلى ذلك أن زهيراً وقع في نفس الخطأ الذي وقع فيه عقبة ، فلم يؤمن طريق عودته بل تمادى إلى إفريقية دون أن يخلف في برقة أو طرابلس من يحمى طريق عودته ، فاتصلوا بالدولة واستنجدوا بها ، وفصلوا لها حال إفريقية حتى توافيهم بالإمداد ؛ وفي هذا يقول ابن الأثير : « وكان قد بلغ الروم بالقسطنطينية مسير زهير من برقة إلى إفريقية لقتال كسيلة ، فاغتنموا خلوها فخرجوا إليها في سراكب كثيرة وقوة عظيمة من جزيرة صقلية ، وأغاروا على برقة

(١) كذلك أخطأ البلاذري في قوله : « إن زهيراً فتح تونس » لأن تونس كانت قد فتحت قبله مراراً ، ولا يعد انتصار ممس فتحاً لها ، وربما أراد البلاذري بذلك الغزوات القصيرة التي شنّها زهير بعد ذلك على بعض مدائن السهل مثل شقبنارية — البلاذري ، فتوح البلدان ، ص ٢٢٩ (٢) المالكي ، رياض النفوس ، ص ١٠ (٣) نفس المصدر والصفحة .

فأصابوا منها سبياً كثيراً وقتلوا ونهبوا ، ووافق ذلك قدوم زهير^(١) ، مما يدل على أن الروم انتهزوا فرصة اشتغال زهير بحرب كسيلة وأخذوا يدبرون سبيل الخلاص منه مع روم بيزنطة .

وصول
مدد من
القسطنطينية

يفهم من رواية ابن الأثير السابقة أن مدداً رومياً وصل إفريقية إذ ذاك ، وألقى مراسيه في برقة وأغار عليها وأسر نفراً ممن كان بها من المسلمين ، فلماذا اختار هذا المدد برقة دون سواها ؟ وقد كان أولى به وفي مقدوره أن ينزل قرطاجنة نفسها ، أو أية مدينة أخرى من مدائن إفريقية البيزنطية ؟ لا يمكن تعليل ذلك بالقول بأنهم إنما قصدوا بعملهم هذا مجرد السلب والنهب كما يفهم من رواية ابن الأثير ، فلو كان هذا هو غرضهم الوحيد لما كلفوا أنفسهم عناء قتال زهير حين مر بهم ، ولأقلعوا في سفنهم سالين موفورين ، بل لكانوا تخيروا مكاناً لسلبهم غير برقة ، إنما الصحيح الذي يفهم من رواية ابن الأثير أن هذه المراكب الرومية^(٢) أتت بناء على دعوة من الروم (روم إفريقية) وتغامر معهم ، وأنها تخيرت برقة بناء على رأيهم وبنصيحتهم ، فإذا صدق ذلك جاز القول بأنهم وجدوا زهير يسترسل في فتوحه دون أن يترك خلفه حامية تؤمن طريقه ، ففضلوا تركه مع البربر يقاتلهم ويضعف من قواته في حربهم ، حتى إذا كان في طريق العودة إلى مصر رابطوا له في برقة فسهل عليهم القضاء عليه ، كما سهل عليهم القضاء على عقبة بأسلوب مشابه لذلك .

وكان نفر من المسلمين قد تخلف عن الجيش ببرقة ، وربما كان هذا النفر

(١) ابن الأثير ، أسد الغابة ، ج ٤ ، ص ٤٤

(٢) يؤكد ابن الأثير أن هذه السفن أقبلت من صقلية ، بينما يذهب ابن خلدون إلى أنها أتت من القسطنطينية نفسها ، وربما صح التوفيق بين الرأيين بالقول بأن الدولة البيزنطية قامت بإعداد هذا الأسطول في صقلية ووجهته من هناك — ابن الأثير ، أسد الغابة ، ج ٤ ، ص ٤٤
ابن خلدون ، ج ٤ ، ص ١٨٧

عن درج المؤرخون على تسميتهم : « أصحاب الذراري والأثقال » تخلفوا هناك ليروا ما يكون من أمر زهير مع كسيلة ، فإن انتصر مضوا إلى إفريقية وإلا فهم على مقربة من مصر يسهل عليهم إدراكها في حالة الهزيمة ، ويبدو من قول ابن عبد الحكم : « وأغارت الروم بعد حسان على أنطابلس وأهل ذمتها في أيدي الروم فهرب إبراهيم بن النصراني ، وخلي أهل أنطابلس وأهل ذمتها في أيدي الروم فرأسوها أربعين ليلة حتى أسرعوا إليها الفساد ^(١) » أن زهيراً كان قد خلف على برقة إبراهيم بن النصراني هذا ، وربما كان من قبض مصر كما يبين من اسمه ، وسيورد ابن عبد الحكم ذكره في مناسبة أخرى لمعرفة البلاد ولغة أهلها ، فلما فاجأ الروم برقة ولى هارباً ، وربما كان قول ابن عبد الحكم « وأهل ذمتها » معيناً على فهم مهمة إبراهيم هذا ، إذ كان وسيطاً بين أهل الذمة والمسلمين ، ولم يكن هؤلاء قد تعلموا العربية بعد .

لماذا ارتد زهير عن إفريقية مسرعاً لغير سبب ظاهر بعد انتصاره في ممس ؟
 يبدو أن تعليل المراجع ^(٢) لذلك بقولها : « إنه رأى بإفريقية مأساً عظيمة فأبى أن يقيم وقال : إنما قدمت للجهاد وأخاف أن أميل إلى الدنيا فأهلك ، وكان عابداً زاهداً »
 تعليل ضعيف ، لأن الزاهد الورع الذي يخاف على نفسه فتنة الدنيا هو الذي يقيم على الثغور ويرابط على باب دار الحرب ، فإذا فضل على ذلك العود إلى العواصم والمدن لم يكن ذلك دليلاً على الورع أو بدافعه بل دليل أمور أخرى وبدافعها .
 ثم أين هي رفاهة العيش وسعة الملك التي خافها على نفسه فآثر الانصراف عنها

(١) ابن عبد الحكم ، فتوح ، ص ٢٠٢ وقد ذكر اسم حسان خطأ لأنه يقول بعد ذلك : « وبلغ ذلك عبد العزيز بن مروان ، فأرسل إلى زهير بن قيس ، وكان خرج مع (حسان) ، فلما بلغ مصر أقام بها ، فأمره عبد العزيز بالتهوض إلى الروم ولم يجتمع لزهير من أصحابه إلا سبعون رجلاً . . . » ثم يلي ذلك بقية أحداث غزوة زهير ، والراجع أنه أراد أن يقول عقبه فذكر « حسان » .

(٢) ابن الأثير ، أسد الغابة ، ج ٤ ، ص ٤٤ — النويري ، نهاية الأرب ، ص ٧٣ ب — المالكي ، رياض النفوس ، ص ١٠ — الفيرواني ، المؤنس ، ص ٣٠ — ابن خلدون ، ج ٤ ، ص ١٨٧ — الباجي ، الخلاصة النقية ، ص ٩ — والرواية الواردة هنا هي رواية ابن الأثير والنويري معاً .

زهذا فيهما ؟ لقد كانت إفريقية حتى هذا الزمان دار حرب صرف ، لا أمان فيها ولا سعة في العيش ولا بسطة في السلطان ، وسترى من أعمال خليفته حسان أن هذه البلاد لن تصبح دار استقرار وأمان للعرب إلا بعد عشرين سنة ، وبعد حروب طويلة تكاد تعدل أضعاف ما قام به زهير ، فما هي الأسباب الحقيقية التي اضطرت زهيراً إلى هذا العود السريع ؟ يبدو أن زهيراً اعتبر مهمته انتهت بعد قتل كسيلة وتخليص من بإفريقية من المسلمين ، وقد كان هذا الرجل صديقاً لعقبة مقرباً إليه ، فألمه غدر كسيلة به وقتله إياه ، فخره ذلك إلى طلب المسير إلى إفريقية والإلحاح في ذلك ، حتى إذا أمكنته الفرصة بادر بانتهازها وتوجه مسرعاً إلى إفريقية ، فلما وفق إلى إدراك ثأر عقبة رأى أنه بلغ بذلك غايته من المسير إلى إفريقية ، فترك بالقيروان حامية وأمن أهلها وعاد مسرعاً . ويبدو كذلك أن زهيراً لم يكن مطمئناً إلى عبد العزيز بن مروان ، وقد رأينا الجفاء يسود علاقتهما ، فخشى الرجل أن يشى به عبد العزيز عند أخيه عبد الملك ففضل العود السريع . ويبدو كذلك أن الرجل كان مسنناً حين هم بحملته تلك ، وأنه لم يقم بها إلا طلباً لنأر صاحبه عقبة ، فلما فرغ منه عجل بالعود . ذلك قصارى ما يمكن افتراضه لتعليل تلك العودة ، وعلى الرغم من ذلك يبدو أن الأمر لا زال غامضاً يحتاج إلى كثير من الإيضاح .

تتفق المراجع كلها على ما تذكر من الحوادث التي وقعت لزهير ببرقة وانتهت بمقتله ، فيقول المالكى وهو أكثر المؤرخين تفصيلاً في تلك المناسبة : « ولما بلغ الروم أن زهيراً خرج (إلى) برقة أمكنهم ما يريدون ، فخرجوا إليها في سراكب كثيرة وقوة عظيمة ، وأغاروا عليها فسبوا وقتلوا ، فوافق ذلك قدوم زهير من إفريقية إلى برقة ، فأخبر بنجرهم فأمر عسكره أن يمضى على الطريق ، وعدل هو في خيل كثيرة من فرسان أصحابه ، وطمع أن يدرك العدو فيستنقذ منه أسارى

مقتل زهير
برقة

المسلمين^(١) . وفي هذه الرواية عبارتان على درجة عظيمة من الأهمية ، أولاهما قوله : « إن زهيراً أمكن الروم الغرض بعوده إلى مصر » مما يفهم منه أن الروم كانوا متربصين له منتظرين فرصة سروره ليبادروها ، وثانيهما قوله : « إنه عدل إلى الساحل في خِف من أصحابه » ، فقد كان أولى به بعد أن سمع بوجود الروم بالساحل أن يسرع نحوهم بكل من معه ليلقاهم ، ولا يعمل ذلك إلا بأن زهيراً لم يكن يتوقع أن يجد الروم في قوة عظيمة أو عدد كبير ، وإنما بلغه أن مراكب روميسة ألقت مراسيها بالساحل فحف بنفر يسير من أصحابه ليستطلع أمرهم وليستولى على هذه السفن إذا قدر ، فلما أشرف على الساحل وجد الأمر أعظم مما كان قدر إذ كان الروم في مراكب كثيرة ، ولم يقتصر أمرهم على مجرد النزول بالساحل بل إنهم أسروا من مسلمي المدينة عدداً عظيماً ، فلم يكده هؤلاء الأسرى يرونه حتى استغاثوا به ، فلم يجد بداً من مهاجمة الروم لاستنقاذ من معهم من المسلمين ، ومصدق ذلك قول المالكي بعد ذلك : « فلما وصل إلى الساحل أشرف على الروم فإذا هم خلق عظيم ، فاستغاث ذراري المسلمين وصاحوا والروم يدخلون بهم في المراكب وعسكر الروم في البر ، فنادى زهير في أصحابه أنزلوا رحكم الله ، فنزل المسلمون وبرز الروم لقتالهم^(٢) » مما يدل على أن الروم كانوا معسكرين في البر على أهبة القتال ، فخافهم من مع زهير وفكروا في العود ، فاستحلفهم زهير ورجاهم في النزول ومبادرة الروم فأجابوا ونشب القتال بين الفريقين .

هكذا كانت خاتمة حياة زهير ، إذ استشهد استشهاداً لا يقل روعة ولا جلالاً عن استشهاد عقبة ، فأثار مصرعه نائرة العرب وحفزهم على مواصلة الفتح لإدراك ثأر زهير وأصحابه ، وقد كان لمقتله على يد الروم أثر عظيم في مسير الفتوح ، إذ كان

(١) المالكي ، رياض النفوس ، ص ١٠

(٢) المالكي ، رياض النفوس ، ص ١٠

زهير قد حسب — بعد قتله كسيلة — أن كل مقاومة للبلاد قد خمدت ، البلاد وأن أصبحت آمنة مطمئنة ، فكان مقتل زهير منبهاً للعرب إلى ما ينجم عن ترك الروم من خطر ، وإلى ما يمكن أن يسببوه للعرب من المتاعب إذا تركوا في مدائن الساحل يستعيدون ماضع من قوتهم ويستمدون العون من بيزنطة نفسها . وكما كان مصرع عقبة محدداً لمهمة زهير ، فصرف همه في القضاء على مقاومة برانس البربر ، كان مقتل زهير محدداً لمهمة حسان : فأنفق ما قدر عليه من جهد في القضاء على الروم حتى تمكن من ذلك تماماً .

قضى زهير على مقاومة البرانس فكان هذا القضاء عظيم الأثر في مستقبل الفتوح ، فقد سبقت الإشارة إلى أن بُثِر البربر كانوا إلّبا مع العرب أنصاراً لهم ، وأن برانسهم حملوا لواء المقاومة يدمم الروم بالعون ، فكانت ضربة زهير قاضية على رأس المقاومة وخاتمة لآمال الروم في الاستعانة بأهل البلاد على العرب^(١) ، وبقيت ضربة أخرى توجه إلى بقايا الروم في البلاد ليقال بعدها إن البلاد قد فتحت تماماً .

(١) أما ثورة الكاهنة فلم تكن أكثر من ثورة وقتية لها أسبابها الخاصة ، وسيأتى بيان ذلك .

الباب الثامن

تمام الفتح

- ٢ -

حسان بن النعمان

ودوره في فتح إفريقيا

أثر مقتل
عقبة في سير
الفتوح

كان مقتل عقبة على يد البربر منبهاً للفاطميين المسلمين إلى ناحية انصرفوا عنها فيما انقضى من المحاولات ، ومبيناً لخلفه زهير بن قيس إلى الخطة التي يتبعها حتى يكون عمله أدنى للغاية وأقوم سبيلاً ، ومن ثم كان عمله عظيم الأهمية من الناحية السياسية لأنه جرى على خطة ثابتة واضحة ، إذ قضى على مقاومة بربر الشمال وهم أقوى عناصر المقاومة ، ولكنه أغفل شأن الروم — وهم عنصر المقاومة الثانى — فلم يحفل لهم لأن ريمهم كانت قد سكنت منذ زمن طويل ، ولم يكن يتوقع أن يستيقظ الروم مرة أخرى ويعودوا إلى محاولة استعادة البلاد ، ففاجأوه هذه المفاجأة التي استشهد فيها ببرقة .

لهذا كان مقتل زهير على يد الروم ببرقة منبهاً لخلفه إلى العمل على استدراك ما فاتته ، ومبيناً له الخطة التي ينبغي اتباعها حتى يكون عمله خطوة موفقة في إتمام هذا الفتح ، إذ عرف العرب من هذا الحادث أنه لا تمام لفتح هذه البلاد إلا إذا أزيل من ربوعها كل أثر للروم .

ومن الجلى أن حركة المقاومة كانت تختلف ضعفاً وشدة تبعاً لحالة الروم في إفريقية وفي بيزنطة كذلك ، فقد ركبت المقاومة بعد سيطرة ركوندأ طويلاً استمر طوال السنوات التي شغلت فيها الدولة البيزنطية بصراع العرب في المشرق . فلما خفت حدة هذا الصراع وتنفست الإمبراطورية الصعداء بعد سنة ٥٥٠ هـ ، تنفس الروم في إفريقية وسرى النشاط إليهم ، ومن ثم نشطت المقاومة نشاطاً لوحظ أثره في المقاومة العنيفة التي لقيها عقبة في مسيره ، وفي هذا التدبير الذي انتهى بموته . وأعقب ذلك محاولة صريحة من الدولة لاستعادة إفريقية ، فأقنع من بيزنطة الأسطول الذي لقي زهيراً في برقة ففضى عليه ، فكان معنى ذلك انتصارهم عليه وعودهم إلى ما كانوا عليه من النشاط في البلاد ، ومن هنا كان على الفاتح الجديد أن يتوجه بهمة نحو الروم ، فإما قضى عليهم فيكون ذلك حداً فاصلاً بين إفريقية

البيزنطية وإفريقية الإسلامية ، وإما غلبوه ومحو الآثار التي تخلفت عن حملات معاوية وعقبة ودينار وزهير وعادت البلاد سيرتها الأولى قبل سيطرة .

وكان مقتل زهير بعد عقبة عظيم الأثر في موقف الخلافة من إفريقية ، فقد حفزها إلى إتمام فتحها حفاظاً لهيبة الدولة الإسلامية أن تهبط في أعين الروم ، فلو وقف المسلمون بالفتوح قبل مقتل هذين القائدين الكبارين لما نتج من ذلك كبير ضرر ، أما وقد هزمت جيوش الإسلام وقتل قوادها على يد الروم ، فلا بد من العمل على إزالة أثر هاتين الهزيمتين وتلافي ما يكون قد نجم عنهما من مساس بسمعة الجيوش الإسلامية ، وهذا هو سر الاهتمام العظيم الذي سيبدية عبد الملك ابن مروان بأمر إفريقية ، وتعجيله بإرسال الجيوش إليها على الرغم من كثرة مشاغله ووثوب الشيعة في العراق في تلك السنوات .

— ١ —

عود النشاط
للروم
وأسباب
ذلك

تتفق المراجع اليونانية على القول بأن انتصار الروم في برقة أعقبه اهتمام عظيم من جانب الدولة بأمر إفريقية ، فيؤكد ديل (عن صاحب الكتاب البابوي) أن إفريقية عادت إلى طاعة الدولة حوالي سنة ٦٨٥ م (٦٦ هـ)^(١) ، ولم يحدد المصدر البيزنطي تاريخاً لتلك العودة ، ولكن ديل جعلها سنة ٦٨٥ م ، وهو تاريخ لا يتفق كثيراً مع ما سبق تفصيله من أحداث إفريقية ، إذ في ذلك الحين كانت حركة كسيلة في عنفوانها ، فالأصح جعلها بعد مقتله أي بعد سنة ٦٩٠ م (٧١ هـ) وبهذا يكون الترتيب منطقياً . انتصر الروم في برقة سنة ٦٩٠ م فكان ذلك كافياً ليحكم المؤرخ البيزنطي بمقتضاه بأن إفريقية عادت إلى طاعة الدولة وسلطانها ، وقد أيد ديل ذلك بقوله : « يبدو أن البيزنطيين أفادوا من الاضطرابات

Diehl. op. cit. p. 581. (١)

التي أعقبت مقتل عقبة وانتفاض البربر لكي يعيدوا الولاية الداخلية إلى سلطانهم بشكل أقوى» .

تؤيد الحوادث التالية رأى المؤرخين البيزنطيين ، ويعززه ما يعرف من أن جستنيان الثاني إمبراطور الدولة إذ ذاك كان قد استبان اشتغال عبد الملك بن مروان بالخارجين عليه ، فبادر بالاستفادة من تلك الفرصة وهدد بالهجوم على تخوم الدولة الإسلامية في المشرق سنة ٥٧٠ هـ ، ولم يرجع إلا بعد أن صالحه عبد الملك على جزية يؤديها إليه كل عام ، وربما فكر جستنيان في انتهاز هذه الفرصة والمبادرة بإرسال جيش يستعيد إفريقية ففضى في إعداد ذلك ، ولكن النية عاجلته ، فكان إنفاذ هذا المشروع من نصيب خلفه ليونس الذي استهل به حكمه سنة ٧٩٥ م (٥٧٩) .

وصاحب هذا التغيير في موقف الدولة تغيرٌ يناسبه ويؤيده في موقف روم إفريقية من البربر ، إذ لم تكد تتوارد عليهم الأخبار بعودة الدولة إلى التفكير في أمرهم وإجابتها مطالبهم — بإرسالها إليهم السفن التي لقيت زهيراً في برقة — حتى وجدوا أنفسهم في غير حاجة إلى عون البربر أو الإتحاد معهم ، ومن ثم أخذت عرى الحلف البربري الرومي تنحل شيئاً فشيئاً ، وقد استبان ذلك حسان ففكر من بادى الأمر في القضاء على كل من الفريقين على حدة .

أثر ذلك في
روم إفريقية

وربما كان قول جوتييه في معرض الكلام على الكاهنة : « كان للروم إذ ذاك الحاميات المتفرقة في الحصون المستعصية على الجيش العربي ، وكانت الأسباب موصولة بين قرطاجنة وبيزنطة ، وكانت المدائن بيزنطية ما تزال — في الواقع الملموس أو المفهوم — وكانت بيزنطة توالى البربر بالمال والجند والرأى ، فوجد العرب حينذاك حلفاء يضم المغرب جميعه : روماً وبربراً ، بدواً وحضراً ، وكانت مهمة حسان هي محاولة تحطيم هذا التحالف بالاستيلاء على قرطاجنة ، ولكنه لم يوفق إلى النتيجة المرجوة من ذلك ، لأنه هزم تماماً بعد ذلك بقليل

واضطر إلى إخلاء إفريقية^(١) « موضحاً لحال الروم يوم دخل حسان البلاد ،
ومبيناً الخطة التي كان عليه أن يسير عليها .

— ٢ —

متى سار
حسان ؟

بين المؤرخين اختلاف على تاريخ حملة حسان ، فيذكر ابن عبد الحكم
أنه سار سنة ٧٣ هـ وأنه انتهى من حملته سنة ٧٦ هـ ، ثم عاد فروى عن الليث بن سعد
أن الانتهاء من الحملتين كان سنة ٧٨ هـ^(٢) ، وذكر ابن الأثير سنة ٧٤ هـ^(٣) ، وأيده
ابن خلدون^(٤) في ذلك ، وحدد ابن عذارى سنة ٧٨ هـ^(٥) ، وتردد القيرواني بين
سنوات ٧٦ و ٧٧ و ٧٩ هـ^(٦) ولم يحدد إحداها ، وذكر الباجي سنة ٧٩ هـ^(٧) . فما علة
هذا التباين الشديد ؟ ربما جاز تعليل ذلك بأن حسان قام بحملتين واحدة ،
فتح في الأولى قرطاجنة ثم اتجه نحو الكاهنة فانهزم ، واتجه في الثانية نحو الكاهنة
ثم فتح قرطاجنة مرة أخرى ، فاختلف الأمر على المؤرخين لتشابه أعمال الرجل
في كليهما ، وترددوا بين كل السنوات التي انقضت بين مسيره الأول ومسيره
الثاني ، ويبدو إلى ذلك كما سيري أن ابن عبد الملك أعد حملة حسان ثم أبقاها
في مصرفة من الزمن نظراً لما كان يحيط به من أحداث في المشرق ، حتى إذا اطمأن
على مركزه أذن لحسان في المسير فصار ، فوقع في ظن المؤرخين أن حسان أفضى
إلى إفريقية منذ أتمره عبد الملك على الجيش وأعدده للمسير .

فإذا كان عبد الملك قد فعل ذلك فيغلب أنه شرع في التفكير في أمر إفريقية جدياً
بعد فراغه من ابن الزبير في جمادى الآخرة سنة ٧١ هـ ، ويستبعد أن يكون قد أعد
جيش إفريقية بعد ذلك بسنتين أو ثلاث سنوات فقط أي سنة ٧٣ هـ ، لأنه كان محاطاً

(١) Gautier, op. cit. p. 248 (٢) ابن عبد الحكم ، فتوح ، ص ٢٠٠ — ٢٠٢

(٣) ابن الأثير ، أسد الغابة ، ج ٤ ، ص ١١٣ (٤) ابن خلدون ، ج ٤ ، ص ١٨٧

(٥) البيان الغرب ، ابن عذارى ، ص ٢٤ (٦) القيرواني ، كتاب المؤنس ، ص ٣١

(٧) الباجي ، الخلاصة النقية ، ص ١٠

إذ ذاك بالخارجين عليه والواثين به من طوائف الشيعة وغيرهم ، وإنما يغلب أن الحملة سارت سنة ٧٦ هـ أو سنة ٧٨ هـ لأن عبد الملك ما كان ليستغنى عن أربعين ألفاً من جنوده إلا بعد خمود الفتن واستقرار الأحوال ، ولم يكن ذلك إلا بعد سنة ٧٥ هـ . يتفق المؤرخان البيزنطيان تيوفانيس ونقفور^(١) على القول بأن حسان هاجم قرطاجنة هجومه الأول سنة ٦٩٥ م أى سنة ٧٦ هـ ، أى أنهما يؤيدان رأى القيروانى ، وقد وافق كودل على ذلك بعد تردد كثير^(٢) إذ قال : « إنه يرجح هذه السنة مع إضافة شكوكه إلى شكوك فورنل وأمارى وديل^(٣) » . وليس هناك ما يمنع قبول رأيه هذا وتحديد سنة ٧٦ هـ لهذه الحملة .

— ٣ —

لم يرد لحسان بن النعمان ذكر فى فتوح إفريقية قبل ذلك ، و « كان أول أمير شامى يدخل إفريقية أيام الأمويين^(٤) » كما يقول المالكي . ويبدو أنه كان من رجال بنى أمية المقربين الموثوق فيهم ، لأن الباجي والسلوى يذكران أنه كان يلقب بالشيخ الأمين^(٥) ، وسيتضح من أعماله وخططه أنه كان على شيء كبير من القدرة السياسية والمهارة الحربية وبعد النظر ، مما يدل على أن ذلك لم يكن أول عهده بالإمارة والقيادة ، وعلى أن عبد الملك تخيره بالذات لإتمام هذا الفتح الذى انقضت إلى الآن خمسون سنة ونيف دون أن ينتهى إلى نتيجة حاسمة .

اهتمام
عبد الملك
بحملة حسان

اهتم عبد الملك اهتماماً عظيماً بأمر الجيش الذهاب إلى إفريقية ، فلما قتل ابن الزبير

Theophanes, op. cit. p. 370. — Neciphore, op. cit. p. 39. — Diehl, (١)

op. cit. p. 583.

Cauzel, op. cit. p. 159. (٢)

(٣) اختار فورنل سنة ٧٧ هـ أى وقف موقفاً وسطاً بين سنة ٧٦ هـ وسنة ٧٨ هـ وتردد

أمارى بين سنة ٧٤ هـ وسنة ٧٥ هـ معتمداً على ابن الأثير ، وقبل ديل سنة ٧٣ هـ قلا عن ابن عبد الحكم ، وفي عباراتهم جميعاً ترجيح لا قطع .

(٤) المالكي ، رياض النفوس ، ص ١١

(٥) الباجي ، الخلاصة النقية ، ص ١٠ — السلوى ، كتاب الاستقصاء ، ص ٤٢

واجتمع المسلمون عليه جهز جيشاً كثيراً واستعمل على إفريقية حسان بن النعمان الفسائي ، وسيرهم إليها في هذه السنة (٧٤ هـ) فلم يدخل إفريقية قط جيش مثله^(١) . ولم يبالغ ابن الأثير فيما ذكر ، لأن عدة الجيش كانت أربعين ألفاً^(٢) ، ويبدو أن عبد الملك تردد قبل أن يبعث بهذا العدد الكبير من الجند إلى إفريقية ، لأنه كان محاطاً بالمصاعب والأعداء الذين كانوا يتهددونه بالوثوب به بين ساعة وأخرى ، « فأمر حسان بن النعمان بالمقام في مصر في عسكر عدته أربعون ألفاً وتركه عدة لما يحدث ، فكتب إليه بالهوض إلى إفريقية ويقول : إنى أطلقت يدك في أموال مصر فاعط من معك ومن ورد عليك من الناس واخرج على جهاد إفريقية على بركة الله^(٣) » . ولا نعلم متى أمر حسان بالمقام في مصر ولا متى شخص إلى إفريقية ، ولكن الظاهر أن حسان لم ينفق هذه الفترة التي قضاها في مصر سدى ، وإنما جعل بعد جنده لهذا الفتح ، لأن القيرواني يذكر أن عبد الملك أطلق يده في أموال مصر يطمئ منها ما شاء لمن يرد عليه من الناس^(٤) .

سار حسان إلى إفريقية مسرعاً ، فاجتاز برقة وطرابلس دون أن يلتقي مقاومة مبرححات حتى أفضى إلى سهل تونس ، ولا نزاع في أنه كان قد رسم لنفسه خطة العمل قبل مسيره ، لأنه سيتجه إلى قرطاجنة رأساً للقضاء على الروم وسيلج في ذلك إلحاحاً شديداً حتى يتم له ما يريد ، ويذكر ابن عبد الحكم رواية يفهم منها أنه وجد بطرابلس نفراً من المسلمين — ما بين عرب وبربر — فأخذهم معه إذ يقول : « ثم قدم حسان بن النعماني والياً على المغرب ، أتمره عليها عبد الملك بن مروان في سنة ٧٣ هـ ، ففضى في جيش كبير حتى نزل طرابلس ، واجتمع إليه بها من كان

(١) ابن الأثير ، أسد الغابة ، ج ٣ ، ص ١١٣

(٢) يتفق ابن عذاري والنويري والقيرواني والباحي والساوي على ذلك ، وينفرد المالكي بالقول بأن عدة الجيش كانت ستة آلاف وهو ظاهر الخطأ .

(٣) النويري ، نهاية الأرب ، ص ٧٤ (٤) القيرواني ، المؤنس ، ص ٣١

خرج من إفريقية وطرابلس ، فوجه على مقدمته محمد بن أبي بكير وهلال بن شروان (في بعض النسخ مالك بن مروان وفي بعضها الآخر ابن تومان) وزهير بن قيس^(١) . ولم يرد هلال اللواتي هذا ذكر في غير ابن عبد الحكم ، ولم يوضح لنا هذا الأخير حقيقة أمره ، ولكن ذكره هنا عظيم الأهمية فهو يدل على أحد أمرين : إما أن هلالا هذا أسلم وانضم للعرب ، وإما أنه ناصرهم وأخذ جانبهم فوثقوا فيه ، وأقاموه في مقام كبير من جيشهم ، ويفهم منه في كلتا الحالتين أن المسلمين كسبوا لأنفسهم أنصاراً من أهل البلاد ، يدلونهم في مسيرهم وينصرونهم ويقاثلون معهم جنباً إلى جنب ، وهذا أمر عظيم الأهمية لهذا القتح ، وكونه لواتياً يعزز الرأي الذي سبق بيانه من أن جل أنصار العرب في البلاد كانوا من البربر الجنوبيين البدو ، وقد سبقت إلى ذلك إشارات طفيفة ، ولكن عبارة ابن عبد الحكم هذه صريحة لا تحتمل إلا تأويلاً واحداً ، وهو أن نفراً من لواتة دخل في الإسلام أو حارب في صفوف العرب ودخل في خدمتهم ، إذ لا نزاع في أن العرب كسبوا منها أنصاراً كثيرين غير هلال هذا .

وصل حسان إلى القيروان ودخلها وأقام فيها آمن السرب لا يهدده أحد ، وهذا ينهض دليلاً على بطلان دعوى « ديل » أن الروم استعادوا الولاية الداخلية كلها بعد انتصارهم في برقة ، فلو قد صدق في ذلك لوجد حسان للروم أثراً في مسيره في هذه الولاية التي دخلها بعد عبوره بقابس ؛ بيد أن قول النويري إن حسان سأل عن أعظم ملك بقي بإفريقية فقبل له صاحب قرطاجنة^(٢) ، يدل على أن الموقف السياسي تغير في البلاد بعد مقتل كسيلة ورحيل العرب ، فانتقلت الزعامة من البربر إلى الروم ، وأن قرطاجنة نهضت مرة أخرى واشتد ساعدها وأقام فيها حاكم

وصول
حسان
ملك القيروان

(١) ابن عبد الحكم ، فتوح ، ص ٢٠٠

(٢) النويري ، نهاية الأرب ، ص ٧٤ أ

سرهوب الجانب من أهل البلاد ، فيعترفون بأنه أعظم ملك بقى بإفريقية . ولا يبعد أن تكون الدولة البيزنطية قد عينت في إفريقية بطريقاً جديداً يقوم بشئونها بعد إذ تركها العرب وعادت سيرتها الأولى .

مسير حسان
إلى إفريقية

والغالب أن الروم لم يكونوا يتوقعون مسير العرب إليهم بهذه السرعة ، ففوجئوا بجيش حسان قبل أن يتخذوا الأهبة لرده ، وعرف حسان أهمية التعجيل بالعمل فلم يبطئ ، بل جمع جنده ومضى إلى الشمال ، على أن الغالب أن عودته ومسيره نحو قرطاجنة ألقى الروم ونفراً من البربر فتسارعوا نحو هذا البلد ، ويقول ابن الأثير : « فلما ورد القيروان تجهز منها وسار إلى قرطاجنة وكان صاحبها أعظم ملوك إفريقية ، ولم يكن المسلمون قط حاربوها (كذا) فلما وصل إليها رأى بها من الروم والبربر مالا يحصى كثرة ، فقاتلهم وحصرهم وقتل منهم كثيراً ، فلما رأوا ذلك اجتمع رأيهم على الهرب ، فركبوا صراكبهم وسار بعضهم إلى صقلية وبعضهم إلى الأندلس ، ودخلها حسان بالسيف فشبى ونهب ^(١) » ثم ابدأ على أن وموقف حسان بقرطاجنة لم يطل ، وأنه لم يكد ينزل الروم بظاهرها حتى طلبوا النجاة ، فأسلموا المدينة وفروا في سفنهم وبهذا سقطت قرطاجنة بدون عناء كبير ^(٢)

(١) ابن الأثير ، أسد الغابة ، ج ٤ ، ص ١١٣

(٢) روى البكري أن : « حسان بن النعمان سار إلى أرطة فقاتل الروم بفحص تونس ، فسأله الروم أن لا يدخل عليهم وأن يضع الحراج عليهم ويقوموا له بما يحمله وأصحابه ، فأجابهم إلى ذلك ، وكانت لهم سفن معدة من ناحية الباب الذي يقال له باب النساء ، فاحتلوا فيها أهلهم وأموالهم وهربوا ليلاً وأسلموا المدينة ، فدخلها حسان لفرق وخرب وبنى فيها مسجداً وبقى هناك طائفة من المسلمين » وهذا كلام غير مفهوم ، لأن تونس لم تكن قامت حتى الآن ، ولم تكن القرية التي أقيمت عليها واقعة على البحر حتى يقطع الروم منها في سفنهم ، مما يدل على أن هذا القتال لم يقع في تونس بل في مدينة أخرى ، ثم يعقب ذلك بذكر حادث جرى لحسان مع صاحب قرطاجنة في تلك الحملة ، مما يؤكد أن البكري أراد بقوله هذا حملة حسان على قرطاجنة ، فإذا صدق ذلك كان دليلاً على أن قرطاجنة كان فيها بطريق إذ ذاك يقال له مرناق ، وأن أهلها فوجئوا بحسان فلم يجهزوا بها من الفرار ليعودوا مع مدد قوى كما يرى ، وهذا =

لم يلبث حسان أن انصرف عن قرطاجنة عائداً إلى القيروان ، وكان أهلها الذين هربوا منها قد تفرقوا فيما يحيط بها من النواحي طلباً للنجاة . فلما وجدوه يبرحها على عجل عادوا إليها مسرعين للاعتصام فيها . وكان الخوف من العرب قد بلغ منهم مبلغاً عظيماً ، فأسرعوا يحصنون المدينة ويصاحون أسوارها ، فتسامع حسان بذلك فأهمه ، وعرف أن لهذا الأمر معناه ، فعاد بمن معه مرة أخرى إلى قرطاجنة « ونزل عليها فحاصرها حصاراً شديداً حتى دخلها بالسيف ، فقتلهم قتلاً ذريعاً وسباهم ونهبهم ، وأرسل لمن حوالها فاجتمعوا إليها مسارعين خوفاً من عظيم سطوته وشدة بأسه ، فلما أتوه ولم يبق منهم أحد أسرمهم بتخريب قرطاجنة وهدمها فخرّبوها حتى صارت كأمس الغابر»^(١) ويبدو أن ابن عذارى بالغ في وصف ما فعل حسان بقرطاجنة ، لأن الأحداث المقبلة تدل على أن المسلمين لم يخرّبوها تماماً ، وإنما بقيت على درجة كبيرة من المنعة ، حتى أن الروم سيتحصنون بها مرة أخرى بعد ذلك بسنوات ، وهذا ما يفهم من قول النويري : « فهدم المسلمون ما أمكنهم منها»^(٢) . تنبه حسان بعد ذلك الحادث إلى أن الروم لا زالوا على شيء من القوة والكثرة في نواحي كثيرة مما يحيط بقرطاجنة ، وأنه لا زالت لهم مدائن وحصون يحتمون بها بعد إذ انقطع رجاؤهم من قرطاجنة نفسها ، أي أن المقاطعة القنصاية كانت عامرة الجوانب بهم ما تزال ، ولهذا لم يعجل بالعود إلى القيروان وإنما أعد العدة لضربة أخرى ينزلها بالروم .

يقول ابن الأثير : « ثم بلغه أن الروم والبربر قد اجتمعوا له في صَظْفُورَةٍ وَبَنَزِرَتِ وَهَما مَدِينَتَانِ ، فسار إليهم وقاتلهم وأتى منهم شدة وقوة ، فصبر لهم المسلمون = يدل على أن فتح المدينة لم يكن إلا مجرد محاولة كما يفهم من قول ابن عبد الحكم : « وخرج إلى مدينة قرطاجنة وفيها الروم فلم يصب فيها إلا قليلاً من صنائعهم فانصرف » — وقد نقل ابن الباجي رواية البكري حرفياً .

عودته
إلى قرطاجنة

ابن عبد الحكم ، فتوح ، ص ٢٠٠ . البكري وصف لإفريقية ، ص ٣٧
(١) ابن عذارى ، البيان ، ج ١ ص ٢٠ (٢) النويري ، نهاية الأرب ، ص ٧٤ ب

فانهزمت الروم وكثر القتل فيهم واستولوا على بلادهم ، ولم يترك حسان موضعاً من بلادهم إلا وطئه ، وخافه أهل إفريقية خوفاً شديداً ، ولجأ المنهمزمون من الروم إلى مدينة باجة فتحصنوا بها ، وتحصن البربر بمدينة بونة ، فعاد حسان إلى القيروان ، لأن الجراح قد كثرت في أصحابه فأقام بها حتى صحوا^(١) » وقد نقل النويرى هذه الرواية عنه ، وأوردها ابن خلدون وابن عذارى باختلاف قليل في الألفاظ^(٢) مما يؤيد صدقها ويؤكد أن حسان أعقب حملته على قرطاجنة بسير إلى الشمال حيث لقي جموعاً من الروم اعتصمت في هذا الجزء البحرى للهروب في السفن في الغالب ، ويبدو من افتراق الروم عن البربر واتجاه كل منهما ناحية أن الفزع والجنين معاً استوليا عليهم فلم يعودوا يطلبون إلا النجاة .

بهذه الضربات الثلاث اطمأن حسان إلى أنه قضى على الروم القضاء الذى لن تقوم لهم بعده قائمة ، ويبدو أن طول القتال قد نال من أصحابه وأصاب منهم كثيراً ، فمال إلى العودة إلى القيروان ليريحهم بعد ذلك العناء الطويل ، فانصرف عائداً إلى القيروان غير عالم بأنه مادام روم إفريقية^(٣) محتلين بعض مدائن الساحل مستطيعين الاتصال ببلاد الدولة لطلب المدد والعون فلا قضاء عليهم .

(١) ابن الأثير ، أسد الغابة ، ج ٤ ، ص ١١٣ . وسطفورة إقليم بحرى وصفه ابن حوقل بأنه إقليم بحرى فسيح ، يضم ثلاث مدن قريبة جداً من تونس وهى : أنبلونة وباجة وبنزرت ، أما الإدريسي فيذكر ثلاثة المدن هكذا : أشلونة وشنجة وبنزرت وكلا الوصفين غير دقيق ، وربما صح القول جملة بأن إقليم سطفورة هو شبه الجزيرة الواقع شمال تونس الذى تقع فيه بنزرت ، وقد ذكرها ياقوت سطفورة ، وابن الأثير اصطفورة ، وقد اعترض فورنل على ذكر باجة في هذا الموضع حاسباً أن المراد بها بجاية .

(٢) النويرى ، نهاية الأرب ، ورقة ٧٤ ب — ابن خلدون ، ج ٤ ، ص ١٨٧ — ابن عذارى ، البيان المغرب ، ج ١ ، ص ٢٠

(٣) أخطأ المالكي فذكر أن حسان أنشأ دار الصناعة في تونس في هجومه هذا على قرطاجنة لأن ذلك تم في حملته الثانية التى سبقت ذكرها ، وقد واقفه كودل في ذلك على عادته — المالكي ، رياض النفوس ، ورقة ١١

ثورة
الكاهنة

عاد حسان إلى القيروان ليريح أصحابه مما أصابهم في حملة قرطاجنة ، وأغلب الظن أن أخبار الكاهنة لم تكن قد وصلت إلى أسماعه قبل ذلك العود ، لأن المراجع تذكر أنه عرف أخبارها وسأل عنها بعد عوده إلى القيروان ، فيذكر ابن الأثير أنه قال : « دلوني على أعظم من بقى من ملوك إفريقية ؟ فدلوه على امرأة تملك البربر تعرف بالكاهنة^(١) » ويؤيده في ذلك مؤرخون كثيرون .

من هي
الكاهنة ؟

يختلف الناس في شأن الكاهنة اختلافاً بيناً ، بل يميل بعضهم إلى إنكارها أصلاً معتمداً على ما يشوب أخبارها كلها من المسحة الأسطورية ، ومن هؤلاء لیبو الذى يزعم أن هذه الكاهنة ما هي إلا البطريق يوحنا نفسه^(٢) ، مؤكداً أن ذلك الرأى قال به نفر من أوثق العلماء ذكر في مقدمتهم أوتر Otter ، وهذا مذهب لا يقل خيالا أو خطأ عن روايات المؤرخين المسلمين الذين سخرهم منهم ، فعلاوة على ما سيتضح بعد قليل من أن البطريق يوحنا وحملته مذكوران في الكتب العربية بوضوح إلى جانب قصة الكاهنة ، فقد أكد فورنل أن لیبو اختلق على أوتر ذلك القول ، إذ لم يقل الرجل منه شيئاً .

تجتمع الآراء كلها على وجود الكاهنة وعلى ذكر الدور العظيم الذى قامت به أثناء فتوح إفريقية ، ولكن شخصيتها وحقيقة أمرها لازالت غامضة في حاجة إلى كثير من التوضيح والتفصيل .

(١) ابن الأثير ، أسد الغابة ، ج ٤ ، ص ١٤٣

(٢) قال لیبو : « أحاط العرب — الذين يفرمون بغريب الحديث غراماً شديداً — قصة هذه الثورة بجو من الخيال ، فيذهبون كما تزعم رواياتهم إلى أنه كانت هناك ملكة للبربر تسمى الكاهنة تمكنت من هزيمة العرب أول الأمر ، وهذه الكاهنة — كما استبان لنفر من أوثق العلماء — ليست إلا البطريق يوحنا نفسه ؛ أظهره المؤرخون في شكل امرأة لأنه كان خصباً » وقد ذكر أنه أخذ ذلك الرأى عن أوتر ولكن فورنل أكد أن أوتر لم يقل ذلك .

يذكر السلاوي رواية عن هانيء بن نكور الضريسى : « أن الكاهنة كان لها ثلاثة أبناء ورثوا رياسة قومهم عن أبيهم » ويبدو أنهم كانوا صغاراً ، « فاستبدت بهم وصارت رياسة قبيلة جراوة لها » ثم يذكر أنها ملكت البربر خمساً وثلاثين سنة وأن انتفاضها على حسان لم يكن أول عهد لها بكفاح العرب ، وإنما كان لها ضلع في مقتل عقبة إذ أغرت به بربرة الزاب فقتلوه ، وأن زعامة البربر صارت إليها بعد مقتل كسيلة ، إذ اجتمعوا إليها ونصرها منهم نفر غفير فيهم : « بنو يفرن ومن كان بإفريقية من قبائل زناتة وسائر البتر^(١) » ويذكر ابن عذارى أنه : « كان لها ابنان : أحدهما بربرى والآخر يوناني^(٢) » وهاتان هما الروايتان الوحيدتان اللتان تعطياننا فكرة واضحة بعض الشيء عن حقيقة هذه المرأة وأصلها .

كانت الكاهنة إذن في أول أمرها زوجاً لرئيس من رؤساء قبيلة جراوة ، وجراوة إحدى قبائل البتر الحضر المقيمين في الأوراس ، ويفهم من رواية ابن عذارى أن جراوة كانت على صلة بالروم وثيقة بعض الشيء في هذه الأيام ، صلة تسمح بالمصاهرة والنسب ، ثم توفي عنها زوجها وخلف لها ابنين أوصى لها برياسة القبيلة من بعده ، والظاهر أنها كانت مسموعة الكلمة في قومها ، مهيبة الجانب بين ذويها ، فاستطاعت أن تحفظ الأمر لابنيها القاصرين ، ويستبعد أن تكون استأثرت بالأمر من دونهما أو استبدت بهما كما يذكر السلاوي ، لأن الحوادث التالية تدل على أنها كانت شديدة الحب لها ، لا تتردد عن تضحية نفسها في سبيلهما .

أما علاقة الكاهنة بكسيلة وقومه وثورته فغير واضحة ، ويبدو أنها غير صحيحة ،

(١) السلاوي ، الاستقصاء ، ص ٤٢ — ٤٣

(٢) ابن عذارى ، البيان المغرب ، ج ١ ، ص ٢١

بل يغلب أن القول بأن الكاهنة قادت ثورة البربر بعد كسيلة ضعيف لا تؤيده الحوادث ولا المعروف عن البلاد وأهلها ونظام قبائلها ، والحقيقة أن لا صلة بين كسيلة والكاهنة ولم تكن بين الاثنين علاقة ما .

ثورة كسيلة هي مقاومة البرانس المستقرين يعزهم الروم وينصرونهم لأنهم نصارى أو آخذون بأسباب الحضارة البيزنطية ، ودفاعهم كان عن النواحي العامة الفسيحة التي كان هؤلاء البرانس الحضري يعمرونها ويفلحون أرضها ويرسلون سوانهم في مراعيها وسفوحها ، وهي ثورة مدبرة مرسومة الخطة فيها معنى الانتقام لما أصاب كسيلة من المهانة على يد عقبة .

أما ثورة الكاهنة فثورة قبيلة يهودية احتفظت ببقايا من الحضارة القديمة ، وطال عهدا بالاستقلال لضعف الحكام البيزنطيين وعجزهم من إخضاع البتر في الصحراء والهضاب ، والراجح أن هذه المرأة لم ترفع راية العصيان إلا حين تسامعت بمسير حسان إليها ، وأنها كانت مطمئنة في نواحيها ترقب مصير كسيلة ثم مصير الروم على يد حسان ، فلما رأت حسان ينوى السير نحوها أخذت تستعد للقاءه وردة عن بلادها ، ويغلب أنها ما كانت لتثور أو تنتفض لولا مسير حسان نحوها وتهديده ببلادها ، فإذا أضفنا إلى ذلك أنها كانت شديدة الحب لابنها عظيمة الحرص على أن تستبق لها الملك الذي خلفه لها أبوها ، عرفنا أن مسير حسان نحوها أفرعها على مصيرها ، ودليل هذا أنها مالت إلى التسليم حين اطمأنت على مصير ولديها عند حسان ، وأن القبيلة كلها بدأت تدخل الإسلام وتأخذ جانب العرب عقب مقتل الكاهنة مباشرة .

حقيقة ثورة
الكاهنة

أما رفض قصة الكاهنة والشك في أمرها لجرد أنها امرأة فحجة ضعيفة ، يؤكد بطلانها أن المرأة لانكاد تقل مقاماً أو احتراماً عن الرجل عند كثير من قبائل البربر ، بل من النساء البربريات صالحات يقمن إلى اليوم مقام الأولياء الرجال ،

يتكهن ويستشيرهن الناس ويحجون بالزيارة والدعاء إلى أضرحتهن^(١)، بيد أن ذلك لا يمنع من القول أن المؤرخين بالغوا في وصف سلطان الكاهنة مبالغة غير محمودة، يقول ابن عذاري: «فدأوه على امرأة بجبال أوراس يقال لها الكاهنة وجميع من بإفريقية من الروم منها خائفون وجميع البربر لها مطيعون.... فإن قتلها دان لك المغرب كله ولم يبق لك مضاد ولا معاند»^(٢)، يوم بأن سلطان هذه المرأة كان يشمل المغرب كله وأنها كانت مرهوبة الجانب في كافة أنحاء البلاد، وليس هناك دليل واحد يؤيد ذلك، ولعل أقرب أقوال هؤلاء المؤرخين إلى الصحة هو قول ابن خلدون يصف حال البربر بعد استشهاد زهير: «واضطربت إفريقية نارا وافترق البربر وتعدد سلطانهم في رؤسائهم، وكان من أعظمهم شأنا يومئذ الكاهنة داهيا بنت مانية بن تيفان ملكة جبل أوراس، وقومها من جراوة ملوك البتر وزعمائهم»^(٣). فهذا تصوير صحيح يضع الأمور في نصابها ويجعل الكاهنة زعيمة على جراوة فقط.

(١) راجع: Fournel, op. cit. I. p. 217، وقد ذكر الدكتور إدوارد وسترمارك أن هؤلاء الصالحات كثيرات الوجود بمراكش، وأن هذه البلاد تنفرد بذلك عن عامة بلاد المسلمين، وأكد أن مسلمي مراكش استبقوا ذلك من أيام وثنيته الأولى. وذكر ليفير امرأة شديدة الشبه بالكاهنة كانت لها شبه زعامة على بعض البربر الذين كانوا يناوئون الفرنسيين واسمها لالا فاطمة Lalla Fatma أنظر: E. Westermarck, Ritual and belief in Morocco, vol. I. p. 51
Enc. de l'islam : Kahina (G. Yver).

(٢) ابن عذاري، البيان المغرب، ج ١، ص ٢٠

(٣) ابن خلدون، ج ٦، ص ١٠٩. ولا يستطيع تحقيق هذا الاسم الذي أطلقه ابن خلدون على الكاهنة، وقد حرفه غيره فجعله دامية، وظاهر أن «الكاهنة» لقب أطلقه العرب عليها لا اسم علم، ولكن جوتييه حاول أن يثبت أنه اسم علم أصله فينيقي، لأن كلمة «كاهنة» عبرية لا عربية، وأنها مؤنث كوهين، وذلك رأي غير مستقيم أساسه عبث بالألفاظ، وقد علل ابن الأثير سبب إطلاقه عليها بقوله: «وكانت تخبرهم بشيء من الغيب فسميت الكاهنة»
Gautier, op. cit p 245. — ابن الأثير، أسد الغابة، ج ٤، ص ١٤٣

بيد أن المؤلفين الفرنسيين يرون في الكاهنة رأياً آخر ، و يفسرون حركتها
تفسير تذهب بالقارىء مذاهب لا تنقل خطأ عن آراء من اتبع الخيال من العرب ،
فهم يرون فيها زعيمة للجنس البربرى منافخة عن استقلاله أمام العرب الغاصبين
المعتدين ، حتى كودل وجوتيه على الرغم من اعتداهما وإنصافهما (فى أكثر الأحيان)
فأنهما رأيا فى الحركة لوناً من الوطنية ، بل أكد كودل أن الكاهنة أثارت
فى البلاد روحاً وطنياً ^(١) ، وبهذا أصبح هذا الحادث العادى مشكلة من
مشاكل التاريخ البربرى ، لا يكاد الفكر يستقر فيه على رأى بين خيال الرواة
ودعاوى الفرنسيين .

أغلب الظن أن الكاهنة كانت تتوقع مسير العرب إليها ، لأنها لم تكذب تتسامع
بمسير حسان إليها حتى رحلت من الجبل فى عدد « لا يحصى ولا يدرك بالاستقصا »
كما يقول ابن عذارى ^(٢) ، فلو لم تكن تتوقع مسيره لما سهل عليها جمع هذا العدد
العظيم والانتقال بهم إلى الجبل بسرعة ، وحطت رحالها عند بآغاية وهى مدينة
حصينة على سفح الأوراس تقوم من الجبال مقام الباب من الدار ، وقد أرادت

خوف
الكاهنة
من مسير
حسان

(١) من ذلك قول مرسيه يعلق على انتصار الكاهنة على حسان ومعاملتها لأسرى المسلمين:
« وهكذا ضرب البربر المتوحشون — للمرة الثانية — مثلاً فى الإنسانية لهؤلاء الذين لم يكونوا
يتخذون أساليب أخرى غير العنف والقتل » ثم قال مرة أخرى فى معرض الكلام عن تخريب
الكاهنة لإفريقية : « كانت هذه تضحية وطنية ، وقد أقدم عليها الوطنيون أكثر من مرة
لذ يفضلون خراب بلادهم على الاستعباد » أما فورنل نصير البربر الذى ألف كتابه ليظهر أنهم
أشرف من العرب وأفضل ، وأنهم أصحاب البلاد والعرب دخلاء فقد حرص أثناء كلامه على
أن لا يكف مندداً بالعرب ساخراً منهم كقوله عن الكاهنة : « والمرأة عند البربر مخلوق محترم
وايست كما هى عند العرب مخلوقاً محترماً مهاناً » وهكذا . ويؤكد كودل أن الكاهنة أثارت
فى البلاد روحاً وطنياً وحفزت القوم إلى الاستعداد للقاء العرب ، وستأتى مناقشة آراء جوتيه
لأنها على جاب كبير من الأهمية فى توضيح الحالة السياسية للبلاد .

Mercier, op. cit. I, pp. 214-215 . Fournel, op. cit. I, pp. 217-219.

(٢) ابن عذارى ، البيان المغرب ، ص ٢٠ ، وقد ذكر مرسيه أن الكاهنة كانت — أثناء
اشتغال حسان بالحملة على قرطاجنة — تثير القبائل وتحمسها لقتال العرب ، وليس هناك
ما يؤيد ذلك وإن كان ممكن التصديق . Mercier, op. cit. vol. I. p. 211.

الكاهنة بذلك أن تكون على مقربة من مواطن جراوة الأصلية في الأوراس ، لكي تستمد منها العون أو تطلب النجاة فيها إذا دارت الدائرة عليها ، ولم يكد المقام يستقر بها هناك حتى خشيت أن يتحصن العرب في باغاية ، فيحتلوا ذلك المحرس الهام الذي يشرف على مدخل الأوراس ، فأمرت بهدمها فهدمت وهذا العمل يدل دلالة واضحة على أن الكاهنة كانت تحارب منفردة بدون عون من الروم ، ولو كان هؤلاء إلى جانبها كما كانوا إلى جانب البربر أثناء حملة عقبة وثورة كسيلة لنصحوا لها بالتحصن في باغاية والاحتواء من العرب فيها ، فقد سبق أن استطاع هذا الحصن أن يصمد للعرب ويستعصى عليهم ، ولكن حركة الكاهنة كانت حركة بربرية صرفة لا تعرف حرب الحصون ولا المناجزة خلف الأسوار ، وإنما أسلوبها هو اللقاء في الأرض الفضاء بالحرب والسيوف وما إلى ذلك ، وكان حسان مثلها لا يفكر في الاحتواء بالحصون ، فلم يرجع على ذلك الحصن وسار إليها فالتقوا على نهر نيني^(١) .

بذلك يمكن تصور الطريق الذي اتخذته حسان : خرج من القيروان وسار محاذياً « واد فِكا » الذي يسمى في مجراه الأدنى « واد حاطوب » ومضى حتى أدرك تَبَسَّة على الجرى الأعلى لواد مِلْج ، ومن تبسة اتجه شمالا بشرق في واد كثير النهرات والأخوار والزرور حتى أدرك واد نيني ، ويغلب أنه أحد النهرات التي تصب في « جرة الطرف »^(٢) ، وهناك عسكر وجعل ينتظر الكاهنة .

(١) ابن الأثير ، أسد الغابة ، ج ٤ ، ص ١٤٤

(٢) يسميه ابن عذارى وادي سكتانة ، وابن خلدون مسكيانة ، ولم يرد لنهر نيني ذكر إلا في ياقوت الذي وصفه بأنه واد شهير في طرف إفريقية ، وقد جاء في شو أن نيني Neey مدينة كبيرة شرق بجاية — ابن عذارى ، البيان المغرب ، ص ٢١ — ابن خلدون ، ج ٤ ، ص 164 Shaw, Voyages, op. cit. I, p. 164 وقد ذهب إيفير إلى أن مسكيانة قريبة من موضع

قسنطينة الحالية Enc. de L'Islam : Kahina.

كانت معركة نينى شديدة حامية اضطر حسانُ جندَه إلى خوض غمارها وهم بعد مجهدون من آثار حملة قرطاجنة وما تلاها ، ولهذا تخونهم التوفيق والعزم . وإذا أضفنا إلى ذلك أن العرب كانوا يقاتلون هذه المرة قوماً مثلهم ؛ بدواً يجيدون النزال في الميدان ، طال عهدهم بصراع البيزنطيين ، وأن الكاهنة استطاعت بما لها من السلطان عليهم والمكانة من نفوسهم أن تثيرهم وتحفز همهم لقتال العرب وردهم عن الأوراس ، إذا ذكرنا هذا كله أمكننا أن نتصور كيف ثبت البربر للعرب هذه المرة ، بل كيف استبانوا ضعفهم فتحمسوا تحمساً شديداً وهجموا عليهم جميعاً هجوماً لم يكونوا يتوقعونه ، فدارت الدائرة على العرب واضطروا إلى التقهقر بعد قتال شديد يصفه ابن عذارى بقوله : « فلما أصبح الصباح التقى الجمعان وصبر الفريقان صبراً لم ينسبه أحد إلى بعضه فضلاً عن كله ، إلى أن انهزم حسان بن النعمان ومن معه من المسلمين الشجعان ، وقتلت الكاهنة العرب قتلاً ذريعاً وأسرت ثمانين رجلاً من أعيان أصحابه ، وسمى ذلك الوادى وادى العذارى ، واتبعت الكاهنة حتى خرج من عمل قابس^(٢) » وبهذا لم تكف الكاهنة بهزيمة العرب في قلب الأوراس وإنما تتبع حسان حتى أخرجه من حدود إفريقية واطمأنت على سلطانها منه ثم عادت أدراجها .

(١) قال كودل : « تقاربت القبائل البربرية تحت ضغط العرب ، وجعوا جمعهم وبخثوا عن رئيس ، فوجدوا في المرة الأولى الحاكم اليونانى جرجير فانضوا تحت لوائه فجرم معه حين انهزم ، فلم يلبثوا أن تجمعوا مرة أخرى واختاروا أميراً من جنسهم وهو كسيلة فقاموه الظفر ثم الهزيمة الأخيرة ، وفي هذه المرة ارتضوا لأنفسهم امرأة رئيسة » ثم أعقب ذلك كلام عن مراكز المرأة في المجتمع البربرى ، وفي هذا ما يفهم أن البربر أمة واحدة تشعر بشعور واحد وتحس إحساساً وطنياً ولا تفتأ تقاوم العرب ، وأنهم — بتراب وبرانيس يونان وبربر — كانوا إلباً واحداً على العرب ، وليست الحقيقة كذلك ، بل كودل نفسه يكذب هذا الرأى في الجزء الأول من كتابه : Caidel, op. cit. II. pp. 160-161

(٢) ابن عذارى ، البيان المغرب ، ج ١ ، ص ٢٠ — ٢١

انهزام حسان
إلى برقة

اكتفت الكاهنة بذلك ، وكان في إمكانها أن تسير إلى القيروان ولكنها لم تفعل ، مما يدل على أنها لم تكن على تمام العلم بما أناه كسيلة حين انتصر على عقبة ، ثم سار إلى القيروان رأساً فطرد زهير واتخذ العاصمة الإسلامية له مركزاً ، ولو كانت الكاهنة تريد أن تقيم إمبراطورية كالتى ينسبها إليها كودل^(١) لما ترددت في المسير إلى القيروان ، ولكنها لم تكن ترجو شيئاً بعد خلاص منازل قبيلتها وملك أبنائها في الأوراس ، فاكتفت بإبعاد العرب ، وكانت القيروان إذ ذاك و بعد انصراف حسان عامرة بالمسلمين كما يفهم من قول ابن عبد الحكم ، « وأفلت حسان ونفذ من مكانه إلى أنطابلس ، فنزل قصوراً من حيز برقة ، فسميت قصور حسان واستخلف على إفريقية أبا صالح^(٢) » ويبدو كذلك أن حسان لم يجد من الفراغ ما يسمح له بالمرور بالقيروان واصطحاب من كان خلفه بها من المسلمين ، وإنما اضطر إلى التعجيل بالتقهقر إلى قابس ، فلم يجد بداً من أن يرسل أحد رجاله — أبا صالح — إلى القيروان ليبليغ أهلها ما نزل بالمسلمين ولينبههم للفرار أو اتخاذ الحذر ، وهذا ما يفهم من قول الدباغ في معالم الإيمان : « وطفق يرفق في سيره طمعاً فيمن نجا من أصحابه أن يلحقوا به^(٣) » .

القيروان
في غياب
المسلمين

ومهما يكن من شيء فقد بقيت القيروان على حالها لم تمسسها الكاهنة بسوء ، فأقام من بها من المسلمين يقوم بأمرهم أبو صالح هذا ، ولم تحفل الكاهنة لهم وإنما عادت إلى الأوراس ، وبهذا لا نخطئ إذا وصفنا حركة الكاهنة بأنها لم تكن أكثر من ثورة محلية في ناحية من نواحي البلاد لا حركة انتفاض تام ، وكان حسان يفهم الحركة هذا الفهم ، ولهذا أقام في طرابلس ينتظر المدد وينظم أموره هناك ، فابتنى لنفسه منازل على مقربة من صرت سميت قصور حسان ؛ « وكانت أنطابلس ولوبية

(١) Caudel, op. cit. II, p. 160

(٢) ابن عبد الحكم ، فتوح ، ج ١ ، ص ٥٧ (٣) الدباغ ، معالم الإيمان ، ج ١ ، ص ٥٧

ومراقبة إلى حد أجداية من عمل حسان^(١) » وأرسل حسان يسطر
لأمير المؤمنين عبد الملك ما حدث له ، فوصل كتاب حسان إلى عبد الملك في فترة
اصطلحت عليه فيها الأحداث ، فأرسل يستهل حسان ويأمره أن يقيم حيث
هو : « فكتب حسان إلى أمير المؤمنين عبد الملك يخبره بذلك ، وأن أم المغرب
ليس لها غاية ولا يقف أحد منها على نهاية ، كلما بادت أمة خلقتها أم وهم من الحفل
والكثرة كسائمة النعم ، فماد له جواب أمير المؤمنين يأمره أن يقيم حيثما وافاه
الجواب ، فورد عليه في عمل برقة فأقام بها وبنى هناك قصوراً تسمى إلى الآن
قصور حسان^(٢) » .

— ٥ —

يبدو من مجموع الروايات أن البلاد لم يهدأ أمرها بعد مسير العرب منها ،
فيذكر ابن الأثير : « وملك الكاهنة إفريقية كلها وأسأت السيرة
في أهلها وعسقتهم وظلمتهم »^(٣) أي أن الاضطرابات سادت البلاد طوال الفترة
التي تغيب العرب عنها خلالها ، وذلك طبعاً لأن البربر لا يميلون بطبعهم إلى الخضوع
لقوم منهم ، فلما حاولت الكاهنة أن تؤلف منهم جبهة لاتقاء هجوم العرب عارضها
ففر منهم فاضطرت إلى اصطناع الشدة معهم فثاروا بها . فانتشر الاضطراب في البلاد
بل فكر بعضهم في الاستنجاد بالعرب واستدعائهم كما سيري . فلم يخطئ ابن الأثير
فيما ذهب إليه ، وإنما أخطأ مرسديه حين قال : « بهذا خضع الغرب من أقصاه
إلى أقصاه لطاعة الكاهنة » .

حال البلاد
بعد انصراف
حسان

وكانت الكاهنة قد أسرت نفرأ من المسلمين في موقعة نيني ولم تشأ أن تقتلهم ،

(١-٢) ابن عذاري ، البيان المغرب ، ج ١ ، ص ٢١

(٣) ابن الأثير ، أسد الغابة ، ج ٤ ، ص ١٤٣

وإنما فضلت الإبقاء عليهم لتتعرف منهم أخبار العرب وحقيقة أمرهم^(١) ولهذا تجمع الروايات على أنها أحسنت معاملة هؤلاء الأسرى وأنزلتهم منزلاً كريماً ، بل يذهب بعض المؤرخين إلى أنها أطلقت سراحهم ، وكان من بين هؤلاء الأسرى رجل من المقربين إلى حسان وهو خالد بن يزيد العبسي ، فتخيرته من بين هؤلاء الأسرى ، ورأت أن تستميله إليها ليعلمها بنوايا حسان ومراميها ، وبالفيت في إكرامه حتى آخته بولديها ، وجعلته كأحد قومها حتى يأنس إليها ويتخذ جانبها ويتخون قومه العرب ، وهذا هو التعليل المعقول لقول ابن عذارى : « وحبست عندها خالد بن يزيد ، فقالت له يوماً : ما رأيت في الرجال أجمل منك ولا أشجع ، وأنا أريد أن أضعك فتكون أخاً لولدي ، وكان لها ابنان : أحدهما بربري والآخر يوناني ، وقالت له : نحن جميع البربر لنا رضاء إذا فعلناه نتوارث به ، فعمدت إلى دقيق الشعير فلفته بزيت وجعلته على ثديها ، ودعت ولديها وقالت : كلا من على ثديي ، وقالت لهم : قد صرتم إخوة »^(٢) .

ولكن خالداً لم يكن عند ظن الكاهنة به ، فانتهاز فرصة عناية الكاهنة بأمره وإبعاد الرقباء عنه ، وجعل يرأسل حسان ويصف له أمر الكاهنة وحال إفريقية في حكمها ، فكان عينا على البربر ، وأفاد حسان من ذلك فائدة كبرى كما سنرى . ثم لاحظت الكاهنة أن العرب ما يكادون ينزلون البلاد حتى تتوجه همهم إلى المدائن والنواحي العاصرة يبذلون وسعهم في الاستيلاء عليها ، فإذا تم لهم ذلك انقضوا على الخيرات والنفائس والأموال فانتهبوها ولم يخلفوا وراءهم منها شيئاً ، ثم ينصرفون بعد ذلك عن إفريقية كأنما كانوا يأتون لهذا وحده ، فوقع في ظنها

الكاهنة
تغرب
إفريقية

(١) انتهز مرسيه موقف الكاهنة هذا ليقول : « وهكذا ضرب البربر التوحشون العرب — الذين زعموا أنهم رسل الله والذين كانوا لا يستعملون وسائل أخرى غير العنف والقتل والتخريب — مثلاً عظيماً في الكرم والعفو » Mercier, op. cit. vol. I. p. 214

(٢) ابن عذارى ، البيان المغرب ، ج ١ ، ص ٢٢

أن العرب لا يريدون من فتح هذه البلاد إلا أمراً واحداً : الأموال والغنائم والأسلاب والسبي ، فأحبت أن تقطع رجاء العرب في البلاد بأن تقضى على كل معالم العمران فيها فتجعلها قاعاً صافصفاً لا أرب فيها لنهاب أو سالب ، وقد أخطأت في ذلك وخفي عنها التطور الكبير الذى شمل حركة الفتوح الإسلامية من بدء حملة عقبة الأولى وبعد قيام القيروان ، فقد كانت وجهة الفتوح قبل ذلك لا تختلف كثيراً عما رأته الكاهنة ، ولكنها أصبحت بعد ذلك ترمى إلى استكمال فتح البلاد وإدخال أهلها في الإسلام ، ومن ثم نزلت الأسلاب والغنائم إلى الموضع الثانى من اهتمام العرب ، ولم تعد همهم منصرفة إلى المدائن والمزارع وإنما إلى أهل البلاد أنفسهم ، ولهذا لن يكون لعمل الكاهنة هذا أثر فى نفس حسان ولا سياسته ، ولم تجن الكاهنة منه إلا سخط أهل البلاد عليها وتركهم إياها وميلهم إلى جانب العرب ، وهذا ما يفهم من قول ابن عذارى : « فلما رأيت إبطاء العرب عنها قالت للبربر : إن العرب إنما يطلبون من إفريقية المدائن والذهب والفضة ، ونحن إنما نريد منها المزارع والمراعى ^(١) » ، فلا نرى لكم إلا خراب بلاد إفريقية كلها حتى يئأس منها العرب فلا يكون لهم رجوع إليها إلى آخر الدهر ، فوجهت قومها يقطعون الشجر ويهدمون الحصون ، فذكروا أن إفريقية كانت ظلاً واحداً ^(٢) ،

(١) هذا القول يؤكد أن حركة الكاهنة حركة بترية خالصة ، فلم يكن في صفوفها أحد ممن يسكنون المدن أو يتناولون الصناعة ، ولهذا أجابوها إلى ما سألت ، أما الذين عارضوها فهم البرانس والمستقرون وأهل المدائن .

(٢) سبقت الإشارة إلى هذا الوصف عند الكلام على حال إفريقية عندما فتحها العرب ، وهى أوصاف مبالغ فيها بعض الشيء كقول ابن عذارى : « فذكروا أن إفريقية كانت ظلاً واحداً من أنطابلس إلى طنجة : قرى متصلة ومدائن منتظمة حتى لم يكن فى أقاليم الدنيا أكثر خيرات ولا أوصل بركات ولا أكثر مدائن وحصوناً من إقليم إفريقية » ، والمغرب مسيرة ألفا ميل فى مثله ، وهذا مبالغ فيه مبالغة ظاهرة ، وقد روى النويرى هذا الوصف بعارة أكثر اعتدالاً ولكنها ظاهرة المبالغة كذلك ونسبها إلى رجل أسماه عبد الرحمن بن زياد بن أنعم — النويرى ، نهاية الأرب ، ورقة ٧٥ أ — ابن عذارى ، البيان المغرب ، ج ٦ ، ص ٢١

فخر بت الكاهنة لعنها الله ذلك كله ، وخرج يومئذ من النصارى والأفارقة خلق كثير مستغيثين مما نزل بهم من الكاهنة ، ففترقوا على الأندلس وسائر الجزر البحرية^(١) »
 أضر هذا العمل بقضية الكاهنة ضرراً عظيماً ، لأنه إذا كان قد وُجد من أهل البلاد من يؤيدها في مناهضة العرب وطردهم من البلاد ، فليس فيهم من يقف مكتوف الأيدي إزاء هذا التخريب الذريع الذى اختارته الكاهنة للبلاد على يديها . وفيهم جهادهم العرب إذن ؟ وعلام يبذلون النفس في صدمهم عن البلاد إذا كان مصير البلاد إلى الخراب على أى الحالين ؟ سواء أدخل العرب أم لم يدخلوا ؟ ولهذا لم يلبث الاستياء أن عم البلاد من تصرف الكاهنة ، وأمرع بعض أهلها فاستغاث بحسان واستقدمه ، وأخذوا يعارضون الكاهنة ويفاجزونها ، فاضطرب الأمر بيدها وزادت البلاد سوءاً على سوء ، ولما كان رجاء الناس قد انقطع من الروم فقد تعلق آمالهم كلها بالعرب ، ويؤكد النويرى ذلك بقوله : « فلما قرب حسان من البلاد لقيه جمع أهلها من الروم يستغيثون به من الكاهنة ، فسر ذلك وسار إلى قابس فلقية أهلها بالأموال والطاعة^(٢) » أى أن أهل البلاد أصبحوا ينظرون للعرب كمخلصين ، وهذا تطور له أهميته فى علاقة البربر بالعرب واعتبار كل منها للآخر ، وسيكون له أبعد الأثر فى إتمام فتح البلاد .

- ٦ -

وجد الروم فى خروج حسان من إفريقية فرصة سانحة لاستعادتها وبسط سلطانهم عليها من جديد ، وكان الإمبراطور الجديد ليونتيوس — الذى خلف جستنيان الثانى سنة ٦٩٥ م^(٣) (٧٤ هـ) — قد أهماه سقوط قرطاجنة فى يد العرب

(١) ابن عذراى ، البيان المغرب ، ج ٦ ، ص ٢١ (٢) النويرى ، نهاية الأرب ، ورقة ٧٥ أ
 (٣) فى سنة ٦٩٥ م ثار ليونتيوس (لبونس) على جستنيان الثانى فتمكن من عزله — بعد أن حكم سنة وبضعة أشهر — ثم عذبه وقطع أشفه وأعلن نفسه إمبراطوراً .

{ Theophanes, op. cit I, p. 566
 { Fournel, op. cit. I. p. 214.

وتخريب حسان لها إذ: « لم يجد تسليم هذا الجزء الكبير من الإمبراطورية — دون مقاومة — أسراً سهلاً على نفسه^(١) » كما يقول ديل . فلم تكذب أخبار هزيمة حسان على نهر نينى ترد إليه حتى عجل بالعمل .

أعد الإمبراطور حملة كبيرة لإفريقية ، ويبدو أنه بذل في إعدادها جهداً عظيماً ، لأنه تخير لقيادتها قائداً من أشهر قواد الدولة وأقدرهم وهو البطريق يوحنا Patricius Jean^(٢) وأعد أسطولاً كبيراً لنقل الجند إلى إفريقية .

ظهر الأسطول البيزنطي في مياه قرطاجنة في سنة ٦٩٧ م (٥٧٨ هـ) ، وتمكن من الاستيلاء على المدينة في يسر ، وطرد المسلمين الذين كانوا فيها (الذين كان على رأسهم أبو صالح) ، وقسا في معاملة من وقع تحت يده من المسلمين قسوة زائدة حتى أنه كان ليقتل الكفار بيده كما يقول تيوفانس ونقفور^(٣) ، فلما تم له ذلك اكتفى به وأراح في قرطاجنة طيلة شتاء هذه السنة غير حاسب لعودة العرب حساباً ، فلم يكلف نفسه عناء الشروع في عمل آخر .

الروم
في إفريقية

ذهب فورنل إلى أن أخبار استيلاء الروم على قرطاجنة غابت عن العرب فلم يذكرها منهم أحد ، وعلى ذلك بأنهم شغلوا بأخبار الكاهنة فلم يتبينوا حملة يوحنا^(٤) ، ولكنه لم يكن موقفاً في ملاحظته تلك ، لأن اثنين من أعلام مؤرخي هذا الفتح أشارا إليها إشارة مقتضبة ولكنها صريحة الدلالة : أولهما البكري الذي يقول : « وأغارت الروم من البحر على من كان بقي من المسلمين بمدينة تونس (كذا) ، خرجت إليهم في المراكب ، قتلوا من بها وسبوا وغنموا ولم يكن للمسلمين شيء يحصنهم من عدوهم ، إنما كانوا معسكرين هناك ، وبلغ حسان ذلك (فرحل

(١) Diehl, op. cit. p. 583

(٢) Diehl, op. cit. p. 581

(٣) Theophanes, op. cit. p. 370—Neciphore, op. cit. p. 39 — Diehl, op. cit.

p. 583

(٤) Fournel, op. cit. I. p. 213

إلى تونس) وأرسل أربعين رجلا من أشرف العرب إلى عبد الملك بن مروان ، وكتب إليه بما نال المسلمين من البلاء ، وأقام هناك مرابطا ينتظر رأى عبد الملك^(١) « وثانيهما التيجاني الذي قال : « وكان الروم أغاروا عليها (أى على قرطاجنة) في ولاية عبد الملك بن مروان في مراكب لهم فقتلوا من بها وسبوا وغنموا » ثم يذكر بعد ذلك أن حسان انتقل إليها وأقام بها مرابطا ، وبعث أربعين من أشرف المسلمين إلى عبد الملك يستنجدون به ويخبرونه بما نال المسلمين من الجهد فعظم ذلك عليه^(٢) .

بهاتين الحركتين — حركة الكاهنة وحركة البطريق يوحنا — تم انتقاض إفريقية على العرب وخرجت من يدهم جملة ، ولم يبق في طاعتهم شبر واحد من الأرض مما يلي قابس غربا ، وكان التقاسم بين البطريق والكاهنة سهلا لا اختلاف فيه : أقامت هي في الجنوب في السهل الداخلي بينما اهتم يوحنا بأن يعيد الرباط الذي يمتد من سوسة Hadrumentum إلى شقبنارية^(٣) .

— V —

أقام حسان هذه السنوات على مقربة من صرت — في المكان المسمى قصور حسان — يلح على الخليفة في موافاته بما طلب من العون والمسد ، وكان الخليفة على مقربة من صرت

(١) البكري ، وصف إفريقية ، ص ٣٧ — ٣٨ ويلاحظ أن البكري يخطئ دائما فيذكر تونس محل قرطاجنة ، لأن تونس لم تكن قد اتخذت مدينة للمسلمين بعد ، بل كانت إذ ذاك قرية صغيرة اسمها Tynes ، وقد أخطأ البكري كذلك في قوله : « فرحل إلى تونس » لأن حسان بقى حيث هو وأرسل يستجد بعبد الملك .

(٢) رحلة التيجاني ، ورقة ٣ أ ، ويلاحظ أن التيجاني نقل هذه العبارة بالنسبة للبكري ، وربما أخذ الإثنان من مرجع واحد ، ولما كان المعروف أن التيجاني يستق النقط التي يذكرها من هذا الفتح من ابن الرقيق ، فربما صح القول بأن البكري اعتمد على إبراهيم بن الرقيق في بعض تاريخه .

(٣) Caudel, op. cit. II. p. 171.

قد أمره : « بالمقام إلى أن يأتيه أمره^(١) » فأقام بعمل برقة خمس سنين ، فلما فرغ عبد الملك من مشاغله صارع بإرسال المدد إلى حسان وأمره بالمسير إلى إفريقية في أواخر سنة ٨١ هـ .

ويبدو أن المراسلات كانت متصلة أثناء ذلك بين حسان وخالد بن يزيد ، فلما توافت عليه — أى على حسان — فرسان العرب ورجالها من قبل أمير المؤمنين دعا برجل يثق به وبعثه إلى خالد بن يزيد بكتاب فقرأه وكتب في ظهره : « إن البربر متفرقون لانظام لهم ولا رأى عندهم فاطو المراحل وجّد في المسير^(٢) » وتجمع المراجع على أن الكاهنة كانت تشعر بضعف أمرها وتتوقع مسير العرب إليها وقضاءهم عليها بين الحين والحين ، والمؤرخين في ذلك روايات أشبه ماتكون بالقصص مثل قول ابن عبد الحكم إن حسان لما توجه إليها : « خرجت ناشرة شعرها فقالت : يا بني انظروا ماذا ترون في السماء ؟ قالوا : نرى شيئاً من سحب أحمر ، قالت : لا وإلهي ولكنّها وهج خيل العرب^(٣) ! » وفي هذه العبارة وأمثالها تصوير قصصى لطيف لهذا الخوف الذي داخل الكاهنة من العرب « حتى كانت تنظر إلى رأسها يركض به إلى ناحية المشرق^(٤) » كما يقول القيرواني ، وتلك كلها دلائل على أنها استيقنت أن البربر بدءوا ينفضون من حولها ، وأن كثيرين منهم كانوا ينتظرون عود حسان بفارغ الصبر لينقضوا عليها ويثبوا بها ، فأخذت تفكر

(١) النويري ، نهاية الأرب ، ورقة ٧٥ أ — المبرد ، الكامل ، ج ٣ ، ص ١٤٣ — ويبدو أن مقام حسان ببرقة لم يطل هذه المدة كلها ، لأن المعلوم أن مسيره الأول إلى إفريقية كان سنة ٧٦ هـ ، وليس لدينا تحديد ثابت لتاريخ عودته إلا ما ذكره ابن عذارى من أن حسان فرغ من أمر الكاهنة وعاد إلى القيروان في رمضان سنة ٨٢ هـ ، وعلى هذا الحساب يكون قد بدأ المسير إلى الكاهنة في أوائل سنة ٨٢ هـ أى أن مقامه ببرقة استمر إلى ما بعد سنة ٨١ هـ ، وبهذا يكون قد أقام ببرقة ثلاث سنوات وبضعة شهور لا خمس سنوات — ابن عذارى ، البيان المغرب ، ج ١ ، ص ٢٢

(٢) ابن عذارى ، البيان المغرب ، ج ١ ، ص ٢٣

(٣) ابن عبد الحكم ، فتوح ، ص ٢٠١ (٤) المؤنس ، القيرواني ، ص ٣٥

فى وسيلة تنقذ بها ولديها اللذين دفع بها حبهما إلى مناهضة العرب وحررهم ، فأحبت أن تسالم العرب وتستأمن لنفسها وأولادها من حسان ، ولكنها خشيت إن هى فعلت ذلك أن ينقض عليها من بقى على الولاء لها ، وتؤكد المراجع أنها استحييت أن تسلم نفسها لحسان ووجدت ذلك عاراً عليها ، وربما خشيت أن يأسرها العرب ويحملوها سبية إلى دمشق ، ففضلت أن تستأمن لولديها عند حسان وأن تظل هى — ومن بقى على الولاء لها — على حرب العرب ، فاستقدمت خالد ابن يزيد وقالت له : « إنما كنت تبنيّتك لمثل هذا اليوم ، فأوصيك بأخويك هذين خيراً ، فقال خالد : إني أخاف إن كان ما تقولين حقاً ! ألا يُستبقيا ؟ قالت : بلى ويكون أحدهما عند العرب أعظم شأنًا من اليوم ، فانطلق فحُذَّ لهما أمانا ، فانطلق خالد فلقى حسان فأخبره خبرها وأخذ لابنيها أمانا ، وكان مع حسان جماعة من البربر البتر فولى عليهم حسان الأكبر من ابني الكاهنة وقربه »^(١) كما يقول ابن عبد الحكم ، ورواية ابن عذارى تضم إشارات على جانب عظيم من الأهمية إذ يقول : « فرحل حسان إليها وبلغ الكاهنة خبره ، فرحلت من جبل أوراس فى خلق عظيم ، ورحل إليها حسان ، فلما كان فى الليل قالت لابنيها : إني مقتولة ! وأعلنتهم أنها رأت رأسها مقطوعاً موضوعاً بين يدي ملك العرب الأعظم الذى بعث حسان ، فقال لها خالد : فارحلى بنا وخلي له عن البلاد ، فامتنعت ورأته عاراً لقومها ، فقال لها خالد وأولادها : مانحن صانعون بعدك ؟ فقالت : أما أنت يا خالد فتدرك ملكاً عظيماً عند الملك الأعظم ، وأما أولادى فيدركون سلطاناً مع هذا الرجل الذى يقتلنى ، ويعقدون للبربر عزراً ، ثم قالت : اركبوا واستأمنوا إليه »^(٢) ، ورواية الحوادث على هذا النسق أدخل فى باب القصص منها فى التاريخ ، ولكن جوتيه

(١) ابن عبد الحكم ، فتوح ، ص ٢٠١

(٢) ابن عذارى ، البيان المغرب ، ص ٢٢ — ٢٣

يؤكد أنه لا يبعد أن يكون هذا هو الواقع بعينه بدون زيادة أو اختراع ، ويورد مثلاً حياً حدث أثناء حرب الفرنسيين مع البربر شديد الشبه بقصة الكاهنة ، إذ استأن من زعيم بربرى لأولاده عند القائد الفرنسى ، وأقام هو على الحرب فكان أولاده يقاتلونه فى الميدان ^(١) فى الموقعة التى مات فيها .

عودة حسان
إلى إفريقيا

على أى الأحوال يمكن القول بأن حسان وجد الكاهنة سنة ٨١ هـ على غير الحال التى خلفها عليها سنة ٧٨ هـ ، فقد خلفها بالأمس قوية الجانب عزيزة الأنصار وعاد اليوم ليجد الروم والبرانس ونفرأمن البترمنفضين عنها يستحثون حسان فى القضاء عليها ، بل يبدو إلى جانب ذلك أن أهل البلاد كانوا قد سثموا طول كفاح العرب ومالوا إلى التسليم ، ولهذا لن تطول المقاومة هذه المرة إلا ريثما تقتل الكاهنة ، ثم يهدأ الأمر بعد ذلك ويسود البلاد هدوء ، فيبدأ العرب فى تنظيم أمورهم . بل يبدو من قول النويرى : « فلما قرب حسان من البلاد ، ولقيه جمع من أهلها من

(١) قال جوتيه فى التعليق على هذه القصة : « هذه القصة فى الواقع بربرية لحماً ودماً سببها تقسيمهم إلى بتر وبرانس ، ويعبد الإنسان شبيهاً لها - فى مراكش فى القرن العشرين - حدث للقاتع الفرنسى ، إذ استطاع رئيس قبيلة جبلية يسكن منطقة زيان واسمه موحا أو حو أن ينتصر على القاتع الفرنسى انتصاراً حاسماً ، وبعد انقضاء بضع سنوات أيقن أن جانبه قد ضعف وأن المقاومة مستحيلة ، فماذا يعمل ؟ لجأ إلى حل خاص جداً ، هو بعينه ما فعلت الكاهنة ، وهو عمل يدهشنا كما أدهش العرب عملها منذ خمسمائة وألف سنة ، هل يدع القتال ؟ لا ! كما فعلت الكاهنة ، رأى ذلك عاراً عليه ، ولكنه أمر أولاده أن يستأنوا عند القاتع ويسلموا له ، وأطاع هؤلاء دون تفكير واشتركوا فى الموقعة الفاصلة الأخيرة التى قتل فيها أبوم ، أى أنهم اشتركوا فى قتله ، ثم أصبحوا بعد ذلك أنصاراً أعزاء لبوعمر او Poeymirau خليفة حسان البعيد » ثم قال بعد ذلك معلقاً : « لقد فسرت فى مكان آخر العامل النفسانى فى تصرف غريب كهذا ، ويكنى الآن أن يقال إن البربر فى القرن العشرين - كما كانوا فى القرن السابع - لا يعرفون معنى الوطنية ، بل لا يفهمون المغرب كوحدة عليهم واجبات نحوها ، بل هم لا يحسون بالحسب نحو وطنهم الصغير مثل نوميديا أو منطقة زيان ، فليست لديهم هذه الفكرة ، أما الأمر الوحيد الذى يتحس له البربرى ولا يتردد فى بذل نفسه فى سبيله فهو قومه وقبيلته . والمرجع الذى كتب فيه المقال الذى فسره فيه ذلك هو مجلة Hespéris عدد الثلاثة أشهر الثالثة لسنة ١٩٢٤ وعنوان المقال : « Un passage d'Ibn Khaldun et du Bayan »

الروم يستغيثون به من الكاهنة ، فسره ذلك ، وسار إلى قابس فلقية أهلها بالأموال والطاعة ، وكانوا قبل ذلك يتحصنون من الأسماء^(١) « أن أهل البلاد تسارعوا للقاء العرب وانضموا تحت لوائهم ، ويؤيد ذلك قول ابن عذارى : « وكان مع حسان جماعة من البربر يستأمنون إليه^(٢) » .

ينفرد الدباغ بإيراد بعض التفاصيل التي تتصل بالصراع الأخير بين العرب والكاهنة ، فيذكر أن حسان لم يكذب يعبر بقابس حتى : « لقيته الكاهنة في جيوش عظيمة ، فقاتلهم حسان ، وهزمهم الله وهربت الكاهنة منهزمة تريد قلعة بشر تتحصن بها ، فأصبحت القلعة لاصقة بالأرض ، فضت تريد جبال أوراس ومعه صنم كبير من خشب تعبده ، فتبعها حسان حتى أدركها وانتصر عليها وقتلها عند بئر الكاهنة ، فنزل حسان الموضع الذي قتلت فيه ، ويقال إنها قتلت عند طبرقة^(٣) » .

هكذا قضى العرب على آخر حركة قام بها أهالي البلاد لردم ، إذ كانت الكاهنة هي الحصن الأخير الذي احتسى وراءه أهل البلاد ، فلما سقطت انتهت كل مقاومة ، ولم يبق أمام العرب بعد ذلك إلا « غبار قبائل » كما يقول جوتييه : « ولم تبق إلا ضربة صغيرة تنفض عن البلاد هذا الخيال البيزنطي الذي استقر في قرطاجنة » حتى يمكن القول بأن فتح البلاد قد تم .

يشير البكري والمالكي والدباغ بإشارات طفيفة إلى مسير حسان إلى قرطاجنة وإجلاله الروم عنها ، ولكن المؤرخين البيزنطيين تيوفانيس ونقفور^(٤) يسدان هذا

(١) النويري ، نهاية الأرب ، ص ٧٥ أ

(٢) ابن عذارى ، البيان المغرب ، ص ٢٣

(٣) الدباغ ، معالم الإيمان ، ج ١ ، ص ٦٠ — ٦١ ويستبعد أن تكون المعركة الأخيرة التي قتلت فيها الكاهنة قد دارت عند طبرقة ، لأن هذه المدينة تقع على البحر شمال قرطاجنة ، وإنما المقول أنها كانت في جبل أوراس .

Theophanes, op. cit. p. 370—Neciphore, (٤)

op. cit. p. 39. — Diehl, op. cit. p. 584.

النقص وبنفصالان هذا الأمر بعض التفصيل ، فيذكر أن الأسطول البيزنطي هزم في موقعة كبيرة سقطت بعدها قرطاجنة في يد حسان ، فأدرك اليأس البطريق يوحنا ، فجمع أجناده وتولى إلى بيزنطة ليعود منها مرة أخرى بعدة أقوى ، ولكنه كان واحداً لأن الظروف لم تسمح له بعد ذلك بالعودة إلى قرطاجنة قط^(١) .

بهذا خلصت إفريقية لحسان ، ولم تعد هناك قوة تعارضه أو تنتقص من إمارته على البلاد ، نعم بقيت بضع نواح لم يصل إليها العرب بعد ، وبضع قبائل لم تعلم بمقدمهم ، ولكن ذلك لا يمنع من القول بأن الفتح الحربي قد تم ، وأن واجب الأمير العربي الآن أن يرفع السيف ليهتم بناحية أخرى ، وهي نشر الإسلام في البلاد وتقرير أمورها وخراجها وشؤونها وما إلى ذلك .

إنشاء تونس بيد أن حسان لم يطمئن إلى ما نزل بقرطاجنة على يديه ، ووجد أن سقوطها في يده لا يمنع الروم من الإغارة عليها من البحر مرة أخرى والتحصن فيها من جديد ، فأحب أن يضع حداً لمحاولات الروم ويقفل باب إفريقية في وجههم ، ففكر في أن لا يكتفى باحتلال الداخل وترك الساحل ، وإنما يحتل الساحل نفسه وينشئ فيه محرساً قوياً حصيناً يلقي الروم إذا حاولوا النزول إلى البر . هكذا بدأ حسان يفكر في إنشاء ميناء جديدة في إفريقية لتحل محل قرطاجنة ، فلا يعود أهل البلاد يفكرون في تعمير هذه الأخيرة وسكنائها لشئون التجارة البحرية ، ولتكون محرساً لإفريقية الإسلامية من الروم الذين كانوا لا يفتأون ينقضون على الساحل بين الحين والحين ، ويهددون البلاد كلها ، وليبنى فيها أسطولاً يغير به على « ساحل الروم فيشفلهم بأنفسهم عن الإغارة على إفريقية »^(٢) كما يقول التيجاني .

(١) يحدد المؤرخان البيزنطيان لهذا الحادث سنة ٦٩٨ م أي سنة ٧٩ هـ ، ولما كنا نعلم أن حسان لم يفرغ من أمر الكاهنة إلا في رمضان سنة ٨٢ هـ ، فلا بد أن مسيره إلى قرطاجنة كان بعد ذلك بقليل ، أي في شهر شوال أو ذي القعدة أو ذي الحجة سنة ٨٢ هـ أو أوائل سنة ٨٣ هـ أي سنة ٦٩٩ م وهذا هو التاريخ الصحيح لهذا الأمر . (٢) رحلة التيجاني ، ص ٢٣ أ

لهذه الأسباب أنشأ حسان يبحث عن موضع على البحر يستطيع أن ينشئ فيه ميناءه الجديدة ، فوجد إلى جنوب قرطاجنة بلداً قديماً يطل على سبخة فسيحة لا يفصلها عن البحر غير برزخ صغير فاسترعى انتباهه ، لأن وقوعه على شاطئ السبخة أى إلى الداخل قليلاً يحجب العرب في سكنى المدينة التى تنشأ عنده ، لأنهم لم يكونوا إذ ذاك يطمثون كثيراً إلى سكنى المدن الساحلية الصرفة ، ثم إن موقعها هذا يجعلها بمأمن من غارات الروم المفاجئة ، فيكفى احتراس مدخل السبخة لكي يتنبه أهل الميناء الجديدة إلى الخطر قبل وقوعه ، وكان هذا البلد القديم ميناء يونانية قديمة ذكرها ديودور الصقلي ووصفها بالبيضاء ، لميل التلال المحيطة بها إلى البياض لكثرة ما تحويه تربتها من أملاح بيضاء AEYKON TYNEIA وزاد حسان إعجاباً بموقعه أن كان له فُرصة صغيرة على البحيرة تسمى آدس (Ades) ^(١) فلم يلبث أن وقع اختياره عليه فأقبل إلى موضعه وبدأ يخططه من جديد ، ويبدو أن المدينة اليونانية كان قد اضمحل أمرها حين أنشأ العرب يعيدون بناءها ، ولم يبق منها إلا دير يقيم فيه بعض الرهبان ، ومصادق ذلك قول ابن أبي دينار : « وذكر غيره — أى غير ابن الشّام — أن العرب كانوا يسمعون أصوات بعض الرهبان طول الليل فى صلواتهم فيتأنسون بهم فقالوا : هذه البقعة تونس » ^(٢) . كان عليه أن يبدأ بحفر البرزخ الذى يفصل البحيرة عن البحر ، وأن يحفر فى ماء البحيرة الضحلة قناة عميقة تسير فيها السفن حتى تصل إلى البلد ، وبهذا تتصل البحيرة بالبحر وتصبح تونس ميناء بحرية تحميها البحيرة الواسعة من أمواج البحر ، ثم يعقب ذلك بإنشاء ميناء بحرية « دار صناعة » للبلد الجديد حتى تستطيع السفن

(١) Shaw : Observations, pp. 155-156 وهذا الميناء هو الذى جملة جغرافيو العرب

رادس ، فيقول ابن أبي دينار مثلاً : « ويقال لبحرها بحر رادس » القيروانى ، المؤنس ، ص ٦

(٢) القيروانى ، المؤنس ، ص ٨

أن ترسو فيها وتقلع منها في أمان ، وهذا ما أراده القيرواني بقوله : « إن حسان هو الذي خرق البحر إلى تونس^(١) » ثم أراد أن يستعين بنفر من أهل مصر في إنشاء الميناء ، فأرسل إلى الخليفة يطلب إليه نفراً ممن لهم خبرة بإنشاء دور الصناعات وبناء السفن ، « فكتب عبد الملك بن مروان إلى أخيه عبد العزيز وهو والي مصر ، أن يوجه إلى معسكر تونس ألف قبضي بأهله وولده ، وأن يحملهم من مصر ويحسن عونهم حتى يصلوا إلى ترشيش^(٢) وهي تونس ، وكتب إلى ابن النعمان أن يبني لهم دار صناعة تكون قوة وعدة للمسلمين إلى آخر الدهر ، وأن يجعل على البربر جر الخشب لإنشاء المراكب ليكون ذلك جارياً عليهم إلى آخر الدهر وأن يصنع بها المراكب ويجهز الروم في البر والبحر ، وأن يغير منها على ساحل الروم فيشتغلوا عن القيروان نظراً للمسلمين وتحصيناً لشأنهم ، فوصل القبط إلى حسان وهو مقيم بتونس ، فأجرى البحر من مرسى رادس إلى دار الصناعة ، وجر البربر الخشب وجعل فيها المراكب الكثيرة وأمر القبط بعمارتها^(٣) » .

بهذا استطاع حسان أن ينشئ مدينة ثانية بإفريقية ، وإذا كانت القيروان قد أصبحت من يوم أنشئت محرساً لبلاد الداخل ومعسكراً للجند الإسلامي ،

(١) القيرواني ، المؤنس ، ص ٣٣

(٢) يذهب كثيرون من العرب أن اسم تونس — قبل تعريب العرب لها — كان ترشيش أو طرشيش ، وقد علق دي سلين في ترجمته للبكري على تلك الدعوى بقوله : « طرشيش هي Tharsis التي ورد ذكرها في التوراة ، وقد ذهب العرب في القرن الأول الهجري يطلقون هذا اللفظ على تونس ، والحقيقة أنه لا وجود لمدينة باسم تارسيس في إفريقية ، ولم يورد أحد من اللاتين أو اليونان مدينة بهذا الاسم فيها . وقد ذهب وستنفلد إلى أن هناك مدينة اسمها Tartessus جنوب أسبانيا ، وقد تكونت تلك هي التي ورد ذكرها في الإنجيل Journ. Asiat. 1844, p. 505.

(٣) البكري ، وصف إفريقية ، ص ٣٨ — ٣٩ ويلاحظ أن حسان لم يتصل بمعد العزيز ابن مروان رأساً وكان يستطيع ذلك — ولكنه اتصل بالخليفة مما يدل على أن العلاقة بينهما لم تكن على ما يرام ، وستؤكد الحوادث التالية ذلك .

فستصبح تونس كذلك رباطاً يحمي القيروان ومحرساً للبحر وميناء جديدة للبلاد يقوم مقام قرطاجنة ، ولو قد أوتى حسان من فراغ الوقت أكثر من ذلك لتمهد المدينة بالرعاية وأكمل إنشاءها ، فأقام فيها مسجداً وخطط دورها وما إلى ذلك ، ولكن العزل عاجله ، فبقى إنشاء المدينة ناقصاً حتى بدأ إكمال عبيد الله بن الحجاب بعد ذلك بثلاثين سنة ، فأنشأ مسجد المدينة وبدأ يخططها وينظم أمورها^(١)

تساع
قيام تونس
بقيام هذه المدينة حيل بين الروم وبين إفريقية ، فلم يعودوا يستطيعون النزول إلى أرضها ، فأمن العرب شرم وأصبح جهدهم منصرفاً إلى تنظيم البلاد وتمهيدها للإسلام ، دون أن يزعمهم الروم بهجاتهم المفاجئة بين الحين والحين ، وكان حسان موفقاً كل التوفيق حين اهتم بتعمير تونس بهذه العائلات التي جلبها من مصر ، لتخلق في المدينة الجديدة جواً بحرياً حتى تصبح ميناء ، وحتى ينشأ أهلها على حب البحر ومعرفة صناعة السفن ، وسيلاحظ أن المسحة البحرية ستسود المدينة الجديدة ، وسيكون لها أبعاد الأثر في تاريخ البحر الأبيض المتوسط ، إذ كانت هي النافذة التي أطل منها عرب المغرب على غربي هذا البحر ، والباب الذي خرجوا منه إلى صقلية وسردانية وإيطاليا ، ليلعبوا دورهم الخطير في هذه النواحي^(٢).

— ٨ —

العلائق
بين حسان
وعبد العزيز
ابن مروان
سبقت الإشارة إلى ما كان من فساد العلائق بين عامل مصر عبد العزيز ابن مروان وعامل إفريقية زهير بن قيس ، وكيف حاول عبد العزيز أن يستبد

(١) ابن خلدون ، ج ٤ ، ص ١٨٨

(٢) خلقت الكاهنة بمد ممتها أثراً عميقاً في نفوس الأهلين . وتحولت بمرور الزمن إلى شخصية أسطورية يتداول أهل البلد قصصها وأخبارها ، ومن ذلك ما ورد في رحلة التيجاني في سياق وصفه لمدينة ألبم (الأبحام) : « ويقال إن الكاهنة المعروفة بكاهنة لوانة حصرها عدوها في ذلك الحصن ، فغمرت منه سرداباً في الحجر الصلد نفذت منه إلى مدينة سلقطة ، وكانت أختها هناك فكان الطعام يجلب إليها في ذلك السرداب على ظهر الدواب » — رحلة التيجاني ، ص ٢٣ أ و ب .

بزهير فتلاحيا ، ودأب عبد العزيز على أن يدس لزهير في جيشه من يعصاه فيفسد عليه الأمر ، ويبدو أن عبد العزيز كان يرجو أن يتخلص من زهير حتى يتخلص له أمر إفريقية ، فيفيد منها الغنائم الوفيرة والسبي الكثير ، فلما قتل زهير وتولى حسان خاب ظنه واضطعن على حسان ، وأخذ يتربص الفرصة للإيقاع به والخلاص منه ، وقد سبقت الإشارة إلى أن حسان كان يشعر بذلك ، فرغب عن كل اتصال بعبد العزيز ، ولهذا سأل عبد الملك المعونة حين أراد القبط وكان يستطيع أن يسألها عبد العزيز بن مروان ، ويروي ابن عبد الحكم رواية يفهم منها أن الرجلين كانا يتبادلان سوء الظن والريبة ، وقد أراد عبد العزيز أن ينتهز فرصة هزيمة حسان الأولى وتقهقره من إفريقية ليطعن في قدرته ويتذرع بذلك لعزله عن إفريقية ، فوجه إلى طرابلس رجلا من عنده يقوم بأمرها ، فلما قدم حسان في مسيره الثانى إلى إفريقية ، قال لعبد العزيز : « أكتب إلى عبدك بالإعراض عن أنطابلس ، فقال له عبد العزيز : ما كنت لأفعل بعد إذ ضيعتها فاستولت عليها الروم ، فقال حسان : إذن أرجعُ إلى أمير المؤمنين ، فقال عبد العزيز : ... أرجع »^(١) وهذا حديث أقل ما يدل عليه أن عبد العزيز كان يرجو أن تكون له إفريقية مع مصر ، وأن حسان كان يخشاه ويرتاب في أمره ، فكان لا يفتأ يحمى في الخليفة ويستعين به كلما بدت له بوادر الشر من جانب عبد العزيز . أقام عبد العزيز بمصر يتسقط أخبار حسان في حملته الثانية ، فسأه ماوفق إليه من نصر وتوفيق ، وعول على أن لا يدعه يفلت بما فاز به من أموال وغنائم ، فأقام يرقبه بمصر حتى يأتى بالغنائم فيأخذ منه ما يريد ، فعلم حسان ما أراد عبد العزيز بن مروان أخو عبد الملك ، فعمد إلى الجوهر والذهب والفضة فجعله في قرب الماء ، وأظهر ما سوى ذلك من الأمتعة وأنواع الدواب والرقيق وسائر

(١) ابن عبد الحكم ، فتوح ، ص ٢٠٣

أنواع الأموال ، فلما قدم على أمير مصر عبد العزيز بن مروان أهدى إليه مائتي جارية من أبناء ملوك الروم والبربر ، فسلبه عبد العزيز جميع ما كان معه من الخيل والجمال والأمتعة والوصائف والوصفان ، ورحل حسان بالأنقال التي بقيت له حتى قدم على الوليد ، فشكا له ما صنع عبد العزيز فغضب الوليد لذلك ، ثم قال حسان لمن معه : « إتوني بقرب الماء » ففرغ منها من الذهب والفضة والجوهر والياقوت ما استعظمه الوليد ، وعجب من أمر حسان فقال له الوليد : « جزاك الله خيراً يا حسان » فقال : « يا أمير المؤمنين إنما خرجت مجاهداً في سبيل الله ، وليس مثلي يخون الله ولا الخليفة » فقال له الوليد : « أنا أردك إلى عملك وأحسن إليك وأنوه بك » فخلف حسان : « لا ألى لبني أمية أبداً ! »^(١) وبهذا لم يستطع حسان — على رغم ما بذله من جهد — النجاة من انتقام عبد العزيز ، وكان هذا يستغل مكانه من الخليفة ويسىء استعماله فأساء إلى زهير كما سبق . ثم آذى حسان ولم يزل به حتى أخرج إفريقية من يده وجعلها من ولايته . وقد اتضح بجلالة الرجل لم يكن يريد لها ليصلح أمرها أو يتم إسلام أهلها ، وإنما كان يريد لها للفنائم والأسلاب . ولهذا لم يرض عن الفاتحين الأمناء المخلصين من أمثال زهير وحسان ، وسارع فأسند أمرها لرجل من أتباعه ومن هم على شاكلته وهو موسى بن نصير . ويبدو أنه أوصاه بالاهتمام بالأموال والفنائم ، فصرف موسى همه إلى ذلك . وكان عبد العزيز يقوم في مصر بين الخليفة وإفريقية ، فكان قيناً أن يقتدر على الكيد إذا هو أراد . وكان أخا للخليفة يستطيع أن يأتي من الأمر ما ينبغي . وكان حسان إذ ذاك رجلاً مسناً وقوراً لا قبل له بالكيد أو التدبير ، فأثر النجاة بنفسه وأبى أن يعود . لعله كان يريد أن يقول : « لا ألى لبني أمية أبداً » مادام عبد العزيز في مصر فخشي مغبة ذلك ، فأصر على رفضه وسكت .

(١) ابن عذارى ، البيان المغرب ، ص ٢٣ — ٢٤

ولم يذكر لنا المؤرخون مصير حسان بعد ذلك ، وكل ما يقولونه أنه لم يلبث إلا يسيراً حتى توفي^(١). مما يدل على أنه قضى الفترة القصيرة التي بقيت من حياته هادئاً مطمئناً . ونستطيع القول بأنه توفي نهاية سنة ٨٥ هـ . لأننا نعلم أن موسى ابن نصير بدأ عمله في إفريقية في أواخر أيام عبد الملك أى في أواخر سنة ٨٥ هـ . وبهذا تكون عودة حسان من إفريقية في أواخر هذه السنة كذلك . فإذا صح تقدير هذه الفترة القصيرة التي لم يلبث حسان أن توفي بعدها — ببضعة شهور — جاز القول بأن حسان توفي في أوائل سنة ٨٦ هـ .

(١) ابن عبد الحكم ، فتوح ، ص ٢٠٣

الباب التاسع

انتشار الإسلام في المغرب
والنظام الإداري الذي وضعه العرب له

لماذا طالت
مدة الفتح
العربي
للمغرب ؟

ليس من السهل تحديد تاريخ ثابت لانتها الفتح الإسلامي لبلاد المغرب ، لأن هذه البلاد ليست قطراً واحداً يتم خضوعه بمعاهدة شاملة أو بموقعة فاصلة . وليس من اليسور كذلك أن تقطع بأن أهل المغرب تم إخضاعهم وإسلامهم في سنة بعينها ، لأن : « أم المغرب ليس لها غاية ، ولا يقف أحد منها على نهاية ، كلما بادت أمة خلفتها أم ، وهم من الحفل والكثرة كسائمة النعم^(١) » كما قال ابن عذارى على لسان حسان بن النعمان ، وربما كان هذا الاضطراب الذي يسود تكوين المغرب السياسي والاجتماعي والطبيعي هو السبب الأول في طول مدة الفتح واختلاط سبله على الفاتحين .

ولنصف إلى ذلك الصعوبات الأخرى التي لقيها العرب ، والتي لم تنشأ عن طبيعة البلاد أو أحوال أهلها وإنما عن ظروف العرب أنفسهم ، وما نزل بهم من الأحداث التي شغلته عن الفتح أو حالت بينهم وبين أن يتعهدوه بما ينبغي له من العناية والاهتمام ، كالفتن الطويلة التي كانت تحول بين أولى الأمر من العرب وبين إرسال الحملات إلى إفريقية ، وبعده المغرب الذي جعل إرسال الحملات والبعوث إليه أمراً يتطلب العدة العظيمة والنفقة البالغة ، والخصومات بين جند العرب مما كان له أسوأ الأثر في سير الفتوح كالذي حدث بين عبد الله بن سعد وعبد الله بن الزبير مما كان من أسباب فشل حملة عبد الله بن سعد على رغم ما أدركه العرب من نصر فيها ، والنزاع بين ولاية مصر وقواد إفريقية ، ورغبة الأولين في السيطرة على هذه البلاد والتصرف في مالها وغنائمها ، مما رأينا أثره في تعطيل الفتح ومنع الفاتحين من إنفاذ برامجهم وإدراك الغايات التي سعوا إليها بعد أن بذلوا الجهد العظيم لإدراكها ، كما رأينا في عدوان مسلمة بن مخلد على عقبة وعزله إياه وحرمانه من ثمره جهوده ومنعه من تنفيذ برنامجه ، وعداء عبد العزيز بن مروان لزهير بن قيس

(١) ابن عذارى ، البيان المغرب ، ص ٢١

وحسان بن النعمان مما انتهى بعزل الثاني وحرمان البلاد من خبرته واقتداره ،
وتحويل الفتح نحو وجهة مادية لا تبغى ضم البلاد إلى العرب وإدخالهم في الإسلام
بقدر ما تعنى بالمغنم الحافل والمال الوفير .

ولا ننسى كذلك فتح إسبانيا الذي اجتذب اهتمام العرب وأنظارهم ، فانصرف
الكثيرون منهم عن إتمام فتح إفريقية وإسلام أهلها وقد كاد الأمران يتنا
على خير وجه من أواخر أيام حسان بن النعمان ، والعصبيات العربية التي شغلت
جانبا عظيما من اهتمام حكام المغرب وصرفتهم عن الاهتمام الواجب بفتح البلاد
وإسلام أهلها ، مما يلاحظ أثره بشكل واضح جداً في خصومة المضريين والقيسين
التي سادت إفريقية طوال العصر الأموي ، وجعلت البلاد مسرحاً لحوادث شتى
من الاضطهاد والظلم والمصادرة مما سيتضح أثره السيء بعد قليل . ولا ينبغي أن ننسى
الأخطاء الشديدة في الحرب والسياسة التي وقع فيها جند العرب وقادتهم ،
والتي كانت ناشئة عن ضعف كفايات بعضهم وعن جهلهم بطبيعة البلاد .

انصراف
الخليفة عن
فتح المغرب

ويلاحظ كذلك أن فتح المغرب لم يأخذ هيئة الفتح المنظم الذي تصدر الدولة
في إتمامه عن خطة مرسومة أو سياسة ثابتة ، وإنما كان الساعون في إتمامه نفرأ
من جند العرب في مصر في أغلب الأحيان ، وربما كان سبب انصراف الخلفاء
عن الاهتمام الواجب بفتح هذه البلاد هو تبينهم صعوبة فتحها وعظم الجهد الذي
يستلزمه إتمام ذلك الفتح ، فقد كان عثمان قد اهتم بأمر إفريقية وأولى فتحها جانبا
ملحوظاً من عنايته ، ولا نزاع في أنه كان يؤمل كثيراً من وراء إتمام هذا الفتح ،
فكانت عودة عبد الله بن سعد بدون نتيجة تذكر قاضية على كثير من آمال
العرب فيها لم ثم كانت فتن المشرق وأحداثه قاضية على ما بقى من الأمل في سرعة
فتح هذه البلاد ؛ فانصرفت الخلافة عنه انصرافاً يكاد يكون تاماً فترة طويلة
من الزمان .

جند العرب
في مصر
يسرون على
فتح إفريقيا

طبيعى إذن أن لاتكون عند أولى الأمر من العرب فكرة واضحة عن أحوال بلاد المغرب وعن الخطة التى ينبغى اتباعها لإتمام فتحها ؛ وأن تظل جهودهم فيها أشبه الأشياء بالغارات السريعة التى لاتنتهى إلى شىء ؛ هذا بينما كان جند العرب فى مصر لايفتأون بين الحين والحين يخرجون إلى إفريقيا فى غارات بسيطة ؛ ولم يمنهم عن الخروج لغزوها فى حملات كبيرة إلا اشتغال الدولة عنهم وانصرافها عن إمدادهم بما تحتاج إليه هذه الغزوات ، فتكونت لديهم فكرة عن طبيعة البلاد وأسلوب فتحها ؛ وجعلوا ينتظرون الفرصة المواتية للقيام بهذا الفتح ؛ إما جهاداً فى سبيل الله أو رغبة فى مغنم أو طلباً لحظوة عند الخلفاء .

عقبة بن نافع

وكان عقبة بن نافع أكثر جند مصر اتصالاً بإفريقية وأشدهم تعلقاً بفتحها وأطولهم مقاماً فى ربوعها ، فكان أقربهم إلى فهم طبيعتها وطبيعة أهلها ؛ ومن ثم تقطن إلى أهمية إنشاء بلدة للمسلمين فيها تكون محطاً لرحالهم ومنزلاً لمن أراد المقام منهم فيها ومستودعاً لسلاحهم ومركزاً تصدر منه الغزوات فى كل وجه .

التأثير
السياسية
لإنشاء
القيروان

استتبع إنشاء القيروان نتائج على درجة عظيمة من الأهمية سواء فى موقف المسلمين من المغرب أو موقف المغرب من المسلمين ، إذ لم يكديتم تخطيطها حتى ظهرت « ولاية المغرب » وانضحت خاصيتها بعض الشئ وبدأت أنظار العرب تتجه إليها ، إذ أصبح لهم فيها عاصمة يتبعها الإقليم المحيط بها ، وقام بها مسجد جماعة يخطب فيه باسم أمير المؤمنين ، ونزلتها طوائف من المسلمين فأصبح الخليفة مكلفاً رسمياً بالدفاع عنها وحماية أهلها من أى اعتداء خارجى أو داخلى ، وبدأت وجهة القواد الذين تولوا الفتح فيها تتغير ، فأصبحوا يحرصون على اكتساب حقوق سياسية لا على أخذ أموال ومغانم . وقد سبقت الإشارة إلى ما كان من تفضيل معاوية ابن حديج أخذ جزيرة شريك وإقامته والياً عليها لكي يراقب منها قرطاجنة ويؤمن القيروان وما حولها .

طمع عمال
مصر في ولاية
المغرب

لهذا أخذت أنظار عمال مصر تتجه نحو هذا الميدان الجديد ، فقيه اتساع
لسلطانهم ومجال للغزو والفتح وميدان للغنم العظيم ، وتنبه الخلفاء لذلك فحرصوا
ما أمكنهم على أن يحولوا بين ولاية مصر وما يريدون ، وعلى أن يشرفوا بأنفسهم
على أمور المغرب ، ومن هنا بدأ نزاع طويل استمر بين الخلفاء وعمال مصر على
حكومة إفريقية .

النزاع بين
عمال مصر
والخلفاء على
ولاية إفريقية

استمر هذا النزاع زماناً طويلاً وكان سبباً في تأخر ظهور شخصية المغرب
الكاملة وأخذ صفة الولاية المستقلة فظل تابعاً لمركز الخلافة رأساً رسمياً خاضعاً
لسلطان عمال مصر فعلاً ، ومن هنا أخطأ الكثيرون من مؤرخي إفريقية فذهبوا
إلى أن ولاية المغرب كانت جزءاً تابعاً لمصر حتى نهاية ولاية حسان بن النعمان ،
وأنها لم تصبح ولاية مستقلة الشخصية إلا من بدء ولاية موسى بن نصير ، والحقيقة
أن الخلفاء اعتبروها ولاية قائمة بنفسها من أول الأمر ، وحاولوا أن يلوا أمورها
بأنفسهم فنازعهم في ذلك ولاية مصر ، وسمح الخلفاء لهم بذلك كارهين ، إما لقرب
عامل مصر منهم ومكانته عندهم كمسلمة بن مخلد ، أو لقربته من الخليفة كما حدث بين
عبد الملك بن مروان وأخيه عبد العزيز .

ومصادق ذلك أن معاوية حرص على أن يخرج المغرب عن يد عامل مصر
وتولاه هو بنفسه ، فلم يقر القائد الذي كان عمرو بن العاص أرسله في فتوحه وهو
عقبة بن نافع ، بل تخطاه وندب لهذا الأمر رجلاً من رجاله وهو معاوية بن حديج ،
وحرص كذلك على أن يكون إليه مرجع شئون الحملة وأمرها ، فإذا اختصم معاوية
ابن حديج مع عبد الملك بن مروان على قسم فيء جلولاء ، رفع الأمر إلى معاوية
ابن أبي سفيان لا إلى أخيه عقبة عامل مصر إذ ذاك .

ومن الواضح أن معاوية لم يكن راضياً عن تعدى مسلمة على شئون المغرب ،
ولم يمنعه من إيقافه عند حده إلا عرفانه ليد مسلمة عنده ومكانه من عثمان ،

ومن الواضح كذلك أن عبد الملك بن مروان كان ساخطاً أشد السخط على أخيه عبد العزيز لتدخله في أمور المغرب وعزله واليه وتوليته موسى بن نصير عليه ، وهذان شاهدان على أن الخلفاء كانوا يرون أن المغرب ولاية قائمة بذاتها لهم وحدهم إدارة شئونها ، وربما كان دافع الخلفاء إلى استخلاص المغرب من يد عمال مصر هو عرفانهم أن عامل مصر لا يريد له ليم فتحه أو لينشر الإسلام بين أهله ، وإنما لمغائمه وأسلابه وخيراته .

وقد كان الخلفاء على الحق فيما تخوفوا من نيات عمال مصر ، فقد أصاب المغرب من تدخل عمال مصر ضرر كبير ، ويكفي أن نذكر أن تدخل عبد العزيز ابن مروان في شئون المغرب ومخاصمته زهير وحسان أوقف السياسة التي كان حسان قد بدأ ينفذها ، والتي كانت ترمي إلى تنظيم البلاد وإصلاح ما بين أهلها والعرب وتحبيب الإسلام إليهم ، وكان سبباً في بدء سياسة جديدة لا ترمي إلى شيء من خير البلاد أو خير الدولة الإسلامية ، وإنما إلى عسف الأهلين وإرهاقهم بالمغارم والجبايات مما نفرهم من الإسلام وبغض العرب إليهم ، وأوجد بين الحيين — من بادىء الأمر — شعوراً من الخوف والريبة والحذر ، ودفع بأهل المغرب إلى أحضان الدعاة والخارجين .

الأضرار التي
لحقت المغرب
من تدخل
عمال مصر
في شئونه

لم يكن المغرب إذن ولاية تابعة لمصر رسمياً إلا فترة قصيرة جداً من الزمان ، انتهت بتولية معاوية بن أبي سفيان معاوية بن حديج قيادة الفتوح فيه ، ومن ذلك الحين كان المغرب معتبراً في نظر الخلفاء ولاية تابعة لهم ، يتولون أمورها بأنفسهم واعتبروا تدخل عمال مصر عدواناً لا حق لهم فيه .

وتعتبر ولاية موسى بن نصير آخر مظهر من مظاهر تدخل عمال مصر في شئون المغرب ، إذ حرص الخلفاء أشد الحرص على أن لا يدعوا عمال مصر يفتصبون هذا الحق بعد ذلك .

ولما كانت غزوات موسى بن نصير قد أتمت إخضاع المغرب كله من برقة إلى المحيط ومن ساحل البحر إلى واحات الصحراء ، فإن محمد بن يزيد — خلف موسى — يعتبر أول ولاية المغرب الإسلامي بمعناه المعروف لدينا ، بل أضيفت إليه الأجزاء التي فتحها المسلمون في إسبانيا .

— ٢ —

وكان حسان قد أعد للمغرب العدة ليصبح ولاية قائمة بنفسها مستقلة بإدارتها النظام الإداري الذي وضعه المغرب للمغرب لا تعتمد على مصر في شأن من شئونها ، « فدوّن الدواوين وصالح على الخراج وكتبه على عجم إفريقية وعلى من أقام معهم على دين النصرانية^(١) » ، واهتم اهتماماً ملحوظاً بعاصمة الولاية الجديدة ، فأراد أن يجدد بناء مسجدتها فهدمه « — حاشى الحراب — وبناء وحمل إليه الساريتين الحراوين الموشاتين بصفرة ، اللتين لم ير الرءون مثلها من كنيسة كانت للأول في الموضع المعروف اليوم بالقيسارية بسوق المغرب^(٢) » ، ولا نزاع في أن القيروان كانت في حاجة إلى الإصلاح وإعادة التنظيم لكي تليق بالولاية الكبيرة التي أصبحت عاصمتها ، ولكن حسان لم يهتم بإعادة تخطيطها وإصلاحها ، وربما كان سبب ذلك أنها لم تكن أصبحت سوقاً تجارياً أو مركزاً كبيراً حتى ذلك الحين ، وأنها لم تكن أكثر من مركز للجند ومأمن لنسائهم ومستودع لسلّاحهم .

ولاحظ حسان أن بقاء قرطاجنة خطر على الولاية الجديدة فهدمها ، وأراد أن يأخذ الساحل على الروم فأنشأ شمالاً القيروان محرس تونس ، واجتهد في أن يجعل منها ميناء بحرياً تشرف منه ولاية المغرب على البحر الأبيض كما سبق بيانه^(٣) .

(١) ابن عذارى ، البيان المغرب ، ج ١ ، ص ٢٣ (٢) البكري ، وصف إفريقية ، ص ٢٢

(٣) البكري ، وصف إفريقية ، ص ٢٧ وما بعدها .

ليس لدينا نص ثابت نستطيع التعويل عليه في معرفة النظام الإداري الذي وُضع للمغرب إذ ذاك ، وكل ما لدينا إشارات طفيفة أوردها بعض مؤرخي المغرب في سيرٍ صالحى إفريقية وعلمائها وقضاتها وملاحظات يمكن استنتاجها من أحداث البلاد إبان العصر الأموي، ولو قد كان المغرب شبيهاً بغيره من الولايات الإسلامية لجاز القول بأن العرب طبقوا فيه أنظمتهم المعروفة في الإدارة والمال ، أما المغرب فريد في نظامه فليس من المأمون قبول فرض كهذا ، لأن أرض المغرب ليست أرض زروع يقدر على محصولها خراج مقدر ، بل أغلب أرضها مراعي وقفار لا تغل شيئاً مذكوراً ولا يقدر عليها شيء ثابت ، فكيف نظم العرب أمور المغرب ؟

يقول المالكي : « ثم إن الروم والبربر تخوفوا بعد ذلك ، واجتمعوا على قتال حسان وقاتلوه فهزمهم الله تعالى ، فلم يقبل أمانهم حتى أعطوه من جميع قبائلهم إثني عشر ألف فارس تكون مع العرب مجاهدين ، فأجابوه وأسلموا ، فعقد لولدي الكاهنة بعد إسلامهما لكل واحد منهما على ستة آلاف فارس من البربر واليأ عليهم ، وأخرجهم مع العرب يفتحون إفريقية ويقتلون الروم ومن كفر من البربر ، فمن ذلك صارت الخطة للبربر بإفريقية ، فكان يقسم الفئ بينهم والأرض ، وحسنت طاعتهم فدانت له إفريقية ودون الدواوين ، ثم قدم القيروان فأمر بتجديد بناء المسجد الجامع فبناه بناء حسناً ، وجدده في شهر رمضان سنة ٨٤ هـ ^(١) . ومن هذه العبارة نستنتج بضعة أمور :

١ — أن حسان حرص على أن يشرك معه نفراً من أهل القبائل في حروبه وجعل اشتراكهم معه في الحرب شرطاً لتأمينهم ، ومن هذا نفهم أن جند المغرب من ذلك الحين لم يكونوا من العرب وحدهم ، بل اشترك فيه نفر من أهل البلاد . وكانت تلك خطة موقفة استطاع بها حسان أن يضمن ولاء البربر ، وأن يحجب

(١) المالكي ، رياض النفوس ، ص ١١

إليهم الإسلام ، فالبربر شعب محارب ميال إلى الغزو والسلب ، فأرضاهم
اشترأهم مع المسلمين في الحرب جنباً إلى جنب ، ولم يلبثوا أن أسلموا بدليل قول
المالكي إنهم : « أجابوه وأسلموا » .

ولم يكتف حسان بأن يشرك هؤلاء البربر في حروبه ويجعل لهم نصيباً
من الغنائم ، وإنما رتب لهم أعطيات تصرف لهم من بيت المال ، وسار على ذلك
موسى بن نصير بعده ، فقد عثر الأستاذ حسن حسني عبد الوهاب على قطع من العملة
النحاسية والبرنزية ، ضربها موسى بن نصير في إفريقية يرجع تاريخها إلى سنة ٩٢ هـ^(١) ،
لكي يعطى من انضم إلى جيشه من البربر أعطياتهم ، وذهب إلى أن استعمال
العرب للنقود في إفريقية لا يرجع إلى تاريخ ضرب هذه العملة فقط ، وإنما كان عمال
إفريقية قبل ذلك يستعملون نقوداً رومية مما وجدوه في إفريقية ، أو أخذوه في الجزى
والجبايات والمضارم ، ولا نزاع في أن هذه النقود الرومية كانت واسطة التعامل
بين العرب في إفريقية ، وظلت كذلك حتى ضرب موسى عملته فاستعملها الناس .

٢ — أن حسان قسم المغرب خططاً للبربر ، أي اختص كل قبيلة بخطة
تتصرف فيها وتؤدي مالها وتكون مسئولة عنها ، وهذا نظام معقول يتفق مع طبيعة
البلاد ونظام أهلها الاجتماعي ، فلم يكن في المغرب إذ ذاك مزارع واسعة تتركها
الحكومة في يد أصحابها يزرعونها ويؤدون مالها للدولة ، وإنما نواح اختصت
كل قبيلة بناحية منها تكون مسئولة عنها أمام عامل المغرب .

٣ — أن حسان كان يسوى بين العرب والبربر في قسم في الحروب ومغانمها ،
أي أنه لم يعتبر العربي حاكماً والبربري محكوماً ، بل تساوى الإنسان في الحقوق

(١) راجع مقال الأستاذ عبد الوهاب الذي عنوانه « Un témoin de la conquête de l'Espagne » ، La Revue Tunisienne, 1932 No. 10 ، ويلاحظ أن موسى لم يضرب غير
عملة برنزية ، لأن النقود الذهبية (الدينار) والفضية (الدرهم) كانت من حق الخلافة
المركزية وحدها .

والواجبات ، وفي الاشتراك في الحرب واقتسام الغنيمة ، ويبدو أن حسان راعى في اشتراع هذا المبدأ طبيعة البربر وأخلاقهم ، فهم ليسوا زراعاً ألفوا الخضوع والسكون وتأدية المال لسيد الأرض وصاحبها ، وإنما هم شعب محارب قوى أنوف لا يقل عن العرب غراماً بالحرية ، فكان أمثل السبل لقيادته هي معاملته معاملة الند للند .

وسلاحظ أن البربر حرصوا دائماً على أن لا يعاملهم العرب معاملة شعب خاضع محكوم ، وأنهم لم يترددوا في الثورة على العرب حين حاول هؤلاء الترفع عليهم أو اعتبارهم رعايا يجوز للحاكم عسفهم والتصرف في شئونهم كما يهوى .

٤ — أن حسان اعتبر أرض المغرب مفتوحة صلحاً لا عنوة ، فأقر البربر على ما يبدون من الأرض ، وهذا ما أراده المالكى من قوله : « فمن ذلك صارت الخطط للبربر بإفريقية ، فكان يقسم النىء بينهم والأرض » . أى أنه جعل لكل قبيلة خطة تُسأل عنها وتؤدي العشر منها ، والغالب أنه لم يفعل ذلك إلا مع الذين أسلموا منهم ، لأن الشرع يبيح ترك الأرض لمن أسلموا يتوارثونها ويتبايعونها^(١) .

٥ — أن حسان دَوَّن الدواوين ، أى نظم شئون الحكومة ، وأقام العمال على نواحي الإدارة من خراج وزكاة وجند وما إلى ذلك ، مما كان موجوداً في غير إفريقية من بلاد الدولة إذ ذاك .

ويبدو أن المسلمين اتبعوا في بعض نواحي حكومة إفريقية النظام العام الذى جروا عليه في حكم غيرها من ولاياتهم ، فكان الخليفة لا يعين العامل فقط بل القاضى أيضاً ، وهذا ظاهر من قول الدباغ : « إن عمر بن عبد العزيز اختار لقضاء إفريقية

(١) راجع كتاب الخراج لأبى يوسف ، الفصل الذى عنوانه : « في إسلام قوم من أهل الحرب وأهل البادية على أرضهم وأموالهم » .

عبد الله بن المغيرة بن بردة الكنانى^(١) . ولكن الخلفاء لم يعينوا قائداً لجند المغرب وإنما تركوا ذلك للعامل ، فإما قاد الجند بنفسه أو ندب لقيادته من أراد .
وكان عامل المغرب مطلق اليد فى اختيار العمال لشتى نواحى الإدارة ، ودليل ذلك أن موسى بن نصير ولى أبناءه قيادة الفتوح فى مختلف النواحى ، وأن : « حسان ابن نعمان (كذا) ولى على صدقات الناس والسعى عليهم حنش بن عبد الله الصنفانى التابعى رضى الله عنه^(٢) » .

والبيانات كثيرة على أن حسان حرص على أن يترضى أهل البلاد ويكرمهم وأن لا يمسهم بأذى ، وأن النظام الذى وضعه كان يحمى حقوقهم ويجعلهم وأموالهم فى مأمن من عدوان الحكام ، فمن ذلك ما ذكره البكرى من أن عامل هشام ابن عبد الملك على إفريقية كتب إليه يعلمه : « أن الجامع يضيق بأهله ، وأن بجوفيه جنة كبيرة لقوم من فهر ، فكتب إليه هشام يأمر بشريها وأن يدخلها المسجد^(٣) » ، مما يدل على أن الخلفاء حرصوا على إقامة العدل فى البلاد . ومن دلائل ذلك أيضاً أن يزيد بن حاتم عامل إفريقية سنة ١٥٥ هـ : « اشترى العمود الأخضر بمال عريض جزل ووضعه فيه^(٤) » فلم ينصبه أصحابه ولم يبخسهم حقهم .

ويبدو أن المسلمين اعتبروا من بقى فى البلاد من الروم والأفارقة موالى لهم ، ولم يعتبرهم كالبربر مساوين لهم فى الحقوق والواجبات ، وربما كان دافعهم إلى ذلك تخوفهم من الروم والأفارقة ، واعتبارهم إياهم شعباً مفتوحاً لهم حق التصرف فيه ، والغالب أن الروم والأفارقة قبلوا هذا الوضع على مضض ، وأنهم كانوا يترقبون الفرصة للوثوب بالحكم الإسلامى وإثارة البلاد ، ودليل ذلك كله ما ذكره أبو المحاسن فى حوادث سنة ١٢٢ هـ إذ قال : « فيها خرج بالمغرب ميسرة الحخير

(١) الديباغ، معالم الإيمان، ج١، ص ١٥٤ (٢) نفس المصدر، ج ١، ص ٦٣ — والمراد هنا الصنفانى

(٣) البكرى ، وصف إفريقية ، ص ٢٣ (٤) نفس المصدر والصفحة .

وعبد الأعلى مولى موسى بن نصير متعاضدين ومعهما خلائق من الصفرية^(١) ،
أى أن عبد الأعلى هذا كان مولى لموسى بن نصير ، وأنه كان من أول الوائين
على المسلمين ، وأنه كان معه نفر كبير من جنسه ، فإذا عرفنا أن عبد الأعلى هذا
هو « عبد الأعلى بن جريج الإفريقي رومى الأصل ومولى للعرب^(٢) » ، لا تضح
أن الروم والأفارقة كانوا يعتبرون موالى للمسلمين ، إذ لم يكن عبد الأعلى وحده
وإنما كان : « إمام الصفرية فى انتحال مذهبهم فقام بأسرهم مدة^(٣) » .

ومن هذا نستطيع أن نستنتج أن العرب اعتبروا الأراضى التى كانت للروم
مفتوحة عنوة ، فاستحلوها واعتبروا أهلها ومن وجدوه عليها موالى لهم ، يتصرفون
فى شئونهم كما يريدون ، فى حين اعتبروا الأراضى التى كانت للبربر مفتوحة صلحاً ،
فتركوها فى يد أصحابها يؤدون عنها المال للدولة ، واعتبروا البربر أنفسهم أحراراً ،
لهم ما للعرب من الحقوق وعليهم ما عليهم من الواجبات ، فكانت النتيجة للموسى
لهذه السياسة هى اختفاء العنصر الرومى واللاتينى من البلاد شيئاً فشيئاً حتى انعدمت
آثارهم من البلاد تقريباً ، ولم تبق إلا آثار قليلة منهم فى الجريد ونواحي ساحلية
أخرى ، واختفت تبعاً لذلك اللغات اليونانية واللاتينية والفينيقية التى كان يستعملها
هؤلاء الروم والأفارقة ، وأدت هذه السياسة كذلك إلى نهوض الشعب البربرى
وأخذ به بأسباب الحضارة الإسلامية وتعلقه بلغة العرب ودينهم ، مما انتهى به
إلى درجة من الرقى مكنته من أن يقيم حضارات زاهرة فى البلاد بعد ذلك بسنوات
طويلة ، وينشئ دولا ذات قوة وإدارات منتظمة ، وبهذا كانت السياسة
الإسلامية فى إفريقية أساساً لهذا التطور العظيم فى تاريخ هذه البلاد ، فلم تعد
شريطاً ساحلياً يسكنه جماعة من المستعمرين المتحضرين ، وفيما يلى ذلك « أهال »

(١) أبو المحاسن ، النجوم الزاهرة ، ج ١ ، ص ٢٨

(٢) السلاوى ، الاستقصاء ، ج ١ ، ص ٤٩ (٣) نفس المصدر والصفحة .

متوحشون على درجة يسيرة جداً من الرقي ، وإنما أصبحت بلاداً واحدة يسكنها شعب مسلم قوى متحضر ، ينشئ الدول ويساهم في العلم والحضارة الإنسانية بنصيب مشكور .

وكان الوالى مكلفاً بأن يعطى من معه من الجند والعمال مما يجيبه من الأموال وما يفيئه الله عليه من الغنائم ، والغالب أن الجند كانت لهم أرزاق وأعطيات غير ما يصيبونه في الحروب ، ودليل ذلك ما ذكره اليعقوبى من أن يزيد بن أبى مسلم حين قدم إفريقية وجد عبد الله بن موسى سجيناً بها : « فقال له أعط الجند من مالك أرزاقهم لخمس سنين ، فقال : لا أقدر على ذلك ^(١) » ، مما يدل على أن أرزاق الجند كانت تصرف من أموال المغرب .

يبد أن تاريخ المغرب إبان العصر الأموى لا يدل على أن العمال كانوا يجرون في حكم هذه البلاد على سياسة موضوعة ثابتة ، أو أن الخلفاء كان لديهم نظام ثابت يأخذون به حكمها ، إنما كان الحكم يسرون في سياستها على غير هدى ، وكان النزاع الدائم بين أهل البلد والحكام دليلاً على أنه لم يكن هناك نظام موضوع . ولم يكن جهد الحكام متجهاً إلى وضع نظام للبلاد أو البحث عما يلائمها من أساليب الحكم والإدارة ، وإنما اقتصر على إقامة العدل على قدر ما استطاعوا ، ولم يكن الخلفاء يطلبون إلى الحاكم أكثر من ذلك ، لأنهم كانوا يعرفون صعوبة حكم هذه البلاد وسياسة أمورها ، ومصدق ذلك ما ذكره النويرى من أن سليمان ابن عبد الملك استعمل : « محمد بن يزيد مولى قريش ، وقال له عند ولايته : يا محمد اتق الله وحده لا شريك له ، وقم فيما وليتك بالحق والعدل ، اللهم اشهد ! فخرج محمد وهو يقول : مالى عذر إن لم أعذل ^(٢) » وهذه العبارة وحدها تدل على صعوبة

(١) تاريخ اليعقوبى ج ٢ ، ص ٣٧٦ — ويلاحظ أن عبارة اليعقوبى يفهم منها أن الرجل تأخر في دفع الأعطيات خمس سنوات . (٢) النويرى ، نهاية الأرب ، ص ٨٢ ب

حكم هذه البلاد وحيرة الحكام في الطريق الذى يسلكونه في حكومتها وعلى شعور الخلفاء بذلك .

— ٣ —

كانت سياسة الروم في إفريقية سبباً في القضاء على ما كان قد انتشر من المسيحية بين أهلها إذ وقف الأهليون موقف العدو من الروم وكل ما يتصل بهم من دين وحضارة ، بل أخذ بعضهم يهاجم الأديرة والكنائس : « وحينما ضعف أمر الإمبراطورية الرومانية في القرن الخامس أخذت قبائل شتى من هذا الشعب العظيم — الذى سماه الرومان المورأو النوميديين والليبيين — تُغير من الجنوب لتخرب المدائن العاصرة الغنية التى على الساحل ، وكان هؤلاء الغزاة وثنيين من غير شك ، فأخذ الليبيون — الذين يصف لنا سينيقيوس القيرواني أعمال تخريبهم — ينهبون الكنائس ويحرقونها ويأخذون منها الآنية المقدسة إلى معابدهم الوثنية ، وكان من أثر هذا التخريب أن الرخاء لم يعد أبداً إلى ولاية برقة ، بل كادت المسيحية أن تكون خيالا زائلا إبان الفتح الإسلامى للبلاد^(١) » ، كما قال الأستاذ أرنولد ، ويمكننا تصور اضمحلال المسيحية في إفريقية إذ ذاك إذا ذكرنا أن عدد الأسقفيات في البلاد كان قبيل الغزو الوندالي خمسمائة بينما لم يزد عددها على مائة أسقفية في سنة ٥٣٤م ، أى قبيل الفتح العربى ، ولا بد أن يكون عدد المسيحيين قد تضاعف جداً بعد الاضطهاد الشديد الطويل المستمر الذى نزل بهم خلال الفترة الأخيرة من الحكم البيزنطى ، وفى خلال القرن الذى انقضى قبل إقبال العرب : « اجتمعت غارات البربر — الذين حصروا الروم في المدائن ومراكز العمران الأخرى واحتفظوا لأنفسهم بالجبال والصحارى والسهول إلى الفوضى الشاملة وسوء الإدارة ، إلى الطوائع الخربة التى وفدت على البلاد

اضمحلال
أمر المسيحية
في البلاد

Th. Arnold, Preaching of Islam. p. 122. (١)

في النصف الثاني من القرن السادس ، اجتمعت هذه كلها على خراب البلاد ^(١) .
يضاف إلى ذلك أن الكنيسة الإفريقية لم تكن — خلال العصر البيزنطي —
على حال تبعث على الأمل في مستقبل المسيحية في البلاد، فكانت إدارتها مختلفة:
« إذ تلاشى النظام الكنسي واقترب القسس ذنوباً كثيرة تدل على العصيان
أو التدهور الأخلاقي والفساد ، وكان قساوسة الولاية الداخلية يعارضون أسقفهم
الأكبر فيما يصدر لهم من أوامر ، وكان آخرون يبذرون الشقاق في الأديرة بإثارة
الرهبان على رؤسائهم ، وكانت الكنيسة كلها في اضطراب دائم وتدهور مستمر ،
إذ كانت وظائفها تباع جهاراً ، ولم يكن كبار القساوسة يتأخرون عن معاقبة صفار
الرهبان بعقوبات بدنية ، واشتهر من المفسدين أسقف تيجس الذي كان يبيع
وظائف الكنيسة » ^(٢) .

وكانت الدوناتية وخصومتها المشبوبة مع الكنيسة البيزنطية عاملاً آخر
من عوامل إضعاف المسيحية في البلاد ، إذ كان دعايتها يفرون إلى داخل البلاد
نجاة من العقاب ، ويندسون بين القبائل والأهلين ويشيرونهم على الكنيسة ففروا
منها الناس ، بل أخذ البعض يعمد نفسه من جديد وفق طقوس الدوناتيين .
لهذا لم يخطئ بيكيه حين قال : « ويبدو أن البر لم تكن لهم أديان ثابتة قبل
الإسلام ، كانوا وثنيين أو يهوداً ، وكانوا قد اعتنقوا المسيحية في القرون
الأولى ثم نسوها حين استعادوا استقلالهم ^(٣) » وإن كان قد أخطأ في تعليل تلك
الظاهرة بقوله : « إنهم شعب غير متدين » وكان ينبغي أن يرد ذلك إلى مساوئ
الحكم البيزنطي ، وفساد كنيسة إفريقية .

(١) Th. Arnold, Preaching of Islam, pp. 122-123.

{ Greg, Epist. p. 24. (٢)
{ Diehl, op. cit. pp. 506 Sq.

V. Piquet, op. cit. p. 60 (٣)

وإذا كان قد بقي في البلاد نفر من المسيحيين فقد أخذوا يغادرونها أثناء
الفتح العربي ، بحيث يمكن القول بأن البلاد لم يكن فيها إلا أقل آثار من المسيحية
بُعِيدَ تمام الفتح العربي لها .

يروى ابن خلدون رواية يفهم منها أن أهل البلاد أقبلوا على الإسلام من زمن
مبكر جداً ، فيقول : « وانساح المسلمون في البسائط بالفارات ، ووقع بينهم وبين
البربر أهل الضواحي زحوف وقتل وسبي ، حتى لقد حصل في أسرهم يومئذ
من ملوكهم وزمار بن صقلاب جد بني حذر وهو يومئذ أمير مغراوة وسائر زناتة
ورفعوه إلى عثمان بن عفان فأسلم على يده ومنّ عليه وأطلقه وعقد له على قومه » (١)
أي أن وزمار هذا بادر إلى الإسلام منذ الساعة الأولى التي دخل العرب البلاد
فيها ، وبديهي أن ابن خلدون أراد أن يقول إن قوم صقلاب تبعوه فيما فعل .

هل أقبل
البربر على
الإسلام من
زمن مبكر ؟

وللبلاذري رواية تؤيد رأى ابن خلدون هذا يفهم منها أن إسلام أهل
البلاد إذ ذاك لم يكن بسيطاً أو محدوداً ، وإنما أقبل عليه نفر غفير استدعى التنظيم
والعناية ، فيقول : « إن عمرو بن العاص أرسل إلى عمر بن الخطاب كتاباً : يعلمه
أنه قد ولي عقبة بن نافع الفهري المغرب ، فبلغ زويلة ، وأن من بين زويلة وبرقة سلم
كلهم ، حسنة طاعتهم ، قد أدى مسلمهم الصدقة وأقر معاهدهم بالجزية ، وأنه قد وضع
على أهل زويلة ومن بينه وبينها ما رأى أنهم يطيقونه ، وأمر عماله جميعاً أن يأخذوا
الصدقة من الأغنياء فيردوها في الفقراء ، ويأخذوا الجزية من الذمة فتحمل إليه
بمصر » (٢) فكيف استطاع العرب أن يوفقوا هذا التوفيق كله في ذلك الزمن
المبكر ؟ وإذا كان هذا مبلغ إقبال أهل البلاد على الإسلام من أول الأمر ، فكيف

(١) ابن خلدون ، ج ٦ ، ص ١٠٨

(٢) البلاذري ، فتوح البلدان ، ص ٢٢٤

تأخر تمام إسلامهم قرناً آخر من الزمان فلم يظهر بشكل واضح إلا في حكومة
عمر بن عبد العزيز؟ .

الواقع أن رواية ابن خلدون مشكوك في صحتها ، لأن أحداً من مؤرخي المشرق
لم يشر إلى حضور وزمار هذا إلى عثمان ، وأمر كهذا له أهميته ، ولم يكن ليفوتهم
وهم الذين كانوا يحصون كل شاردة وواردة مما كان يحدث بالمدينة في هذه الأيام .
أما رواية البلاذري فقد سبق ترجيح أن عمراً كتب كتابه هذا في ولايته الثانية
على مصر لافي ولايته الأولى ، وأنه كتبها لمعاوية بن أبي سفيان لا إلى عمر بن الخطاب
وأنه — إن كان قد كتبها حقاً — لم يرد بها تقرير الواقع ، وإنما أراد بها أن يستحث
معاوية على موافاته بالجند والمال لفتح إفريقية التي كان قد أرسل عقبة بن نافع
ليهد لغزوها إذ ذاك ، هذا إلى أنه لا يسعنا إلا الشك في قيمة هذا الكتاب ودلالته ،
فإن ما يلي ذلك من الأحداث لا يدل على أن الإسلام لقي من أهل فزان وودان
وطرابلس هذا القبول العظيم الذي يفهم منها .

X بيد أن المراجع تؤكد لنا أن نفراً من أهل البلاد دخل الإسلام بعد ذلك
بسنوات قلائل ، أي خلال السنوات الخمس التي قضاها عقبة في تخطيط القيروان ،
فاتفق ابن الأثير والنويري في القول بأن بعض البربر أسلم حين رأى عقبة يخرج
الحيات من موضع القيروان ^(١) ، ثم عاد ابن الأثير فأكد أن الإقبال على الإسلام
زاد بعد بنائها ، إذ أن عقبة : « كان في أثناء عمارة المدينة يغزو ويرسل السرايا
فتغير وتنهب ، ودخل كثير من البربر في الإسلام ، واتسعت خطط المسلمين وقوى
جنان من هناك من الجنود بمدينة القيروان ، واطمأنوا على المقام ، فثبت الإسلام
فيها ^(٢) » فهل أسلم كثيرون من أهل هذه النواحي حقاً بين سنتي ٥٠ و ٥٥ هـ ؟

(١) ابن الأثير ، أسد الغابة ، ج ٣ ، ص ١٨٤ — النويري ، نهاية الأرب ، ج ٢٢ ، ص ٦٨ أ

(٢) ابن الأثير ، أسد الغابة ، ج ٣ ، ص ١٨٤

إننا نعرف أن القبائل التي كانت تسكن الناحية التي أقيمت فيها القيروان أو تحيط بها إنما هي لواتة ونفزاوة ونفوسة ، وأن هذه القبائل معدودة من قبائل البدو الذين لبثوا على عدااء الروم زماناً طويلاً ، ونعرف أن تأثير المسيحية في هذا الفريق من البربر كان طفيفاً جداً ، فهل يكون ذلك مؤيداً لرواية إسلامهم السريع ؟ أى هل كان عداؤهم للروم وكرهيتهم لهم سبباً من أسباب دخولهم الإسلام ؟

ينبغي أن نذكر قبل ذلك أن البربر الذين أكد البلاذري إسلامهم في روايته التي سبق بيانها هم لواتة ونفوسة وهوارة ، أى أنهم من البدو ، وأن المراجع تذكر لنا فيما تلا ذلك من الأحداث أن هذا الفريق من البربر كان مؤازراً للعرب مناصراً لهم من أول الأمر ، واستمر على ذلك زماناً طويلاً . وأن رجاله كانوا يدلون العرب على مسالك البلاد وطرقها ، فيذكر ابن عبد الحكم أن حسان بن النعمان : « وجه على مقدمته محمد بن أبي بكر وهلال بن شروان اللواتي ^(١) » وأنه : « كان معه جماعة من البربر من البتر ^(٢) » وقد سبقت الإشارة إلى : « نشوء جماعات إسلامية لم تكن قليلة ، وإنما كانت كثيرة نوعاً : فيها بعض زناتة وبعض نفوسة وبعض مصمودة » ، وإذا لوحظ أن هذه القبائل التي بدأت تدخل الإسلام أو تميل إليه من ذلك الحين كانت تسكن الجنوب فتدخل فيها برغواطة وزناتة ونفوسة ، كان من السهل تكوين فكرة عن بدء إسلام إفريقية الفعلية واتجاهه : بدأ عند القبائل الجنوبية الكثيرة الشبه بالعرب التي تميل للرحلة وتحيا حياة مشطورة بين الظعن والإقامة ، ثم أخذ يمتد إلى الشمال شيئاً فشيئاً » أى أن حركة الإسلام في إفريقية أوحركة الانضمام للعرب بدأت أول الأمر عند القبائل المتبدية الجنوبية ، أما القبائل المتحضرة نوعاً فيبدو — من هذه الروايات أن إسلامها وانضمامها للعرب تأخر بعض الشيء .

وربما أعاننا على تفسير هذا الأمر أن نذكر ما نعلم من عدااء هذا الفريق

(١) ابن عبد الحكم ، فتوح ، ص ٢٠٠ (٢) نفس المصدر ، ص ٢٠١

من البربر للروم من قديم الزمان ، وحرهم الطويلة وإياهم ، ووقوفهم من الروم دائماً موقف العدو الذى يأبى الخضوع ويرفض الطاعة ، وتلمسهم الأسباب للخلاص منهم وطردهم من البلاد ، ونظرة واحدة إلى تاريخ العلاقات بين هؤلاء البربر والروم تؤكد أن الذى حدث هو الطبيعي المحتمل الوقوع .

وليس معنى هذا أن أهل البلاد انقسموا إلى قسمين عظيمين : أحدهما يضم قبائل الحضرة والآخر يضم قبائل البدو ، وأن الأولين ظلوا على عدااء العرب فى حين سارع الآخرون إلى عونهم واعتناق دينهم ، لأن هؤلاء البربر الحضرة كانوا أقلية ضئيلة جداً إذا نسبت إلى البدو ، وبقاؤهم على عدااء العرب فترة من الزمان لا يعنى أن نصف البربر ظل بعيداً عن الإسلام . فلم يكن هؤلاء البربر الذين تأثروا بالحضارة البيزنطية إلا بضع قبائل قليلة تسكن نواحي الزاب وتحيط بالرباطات ، وكانت بعد هذه الجهود الطويلة التى أنفقتها العرب فى فتح البلاد قد ضعف أمرها بحيث لم يعد يحسب لها حساب ، ومن هنا لم يكن جوتيه موقفاً حين علق على هذا الفريق من البربر أهمية عظمى وبنى على هذا الأساس نتائج خطيرة تتصل بإسلام أهل البلاد ، وظاهر أن سبب خطئه هو أنه ذهب إلى أن كل القبائل التى سماها نسبة البربر برانسَ حضرة ، وكل التى سموها بترابدو ، وليست الحقيقة كذلك كما هو ظاهر من ابن خلدون نفسه ومن اعتراض الأستاذ وليم مارسيه على هذا الرأى^(١) . والغالب أن حركة إسلام البربر كانت قد بدأت من زمن مبكر جداً ، إذ لا خلاف فى أن نفراً منهم أسلم والعرب يختلطون القيروان ، وأن الإقبال على الإسلام استمر من ذلك الحين ، ومصادق ذلك ما تنبئنا به المراجع من إسلام الزعيم البربرى — كسيلة — بعد ذلك بنحو ثمان سنوات ، وقد سبقت الإشارة إلى أهمية حادث كهذا ودلالته ، قلنا إنه : « لا نزاع فى أن كسيلة لم يسلم بمفرده وإنما تبعه

(١) A. Julien, pp. 323-325. راجع الفصل التمهيدى الأول .

نفر كبير من قومه من القادة والأقارب والأصاغر وستتضح أهمية هذا الحادث بعد ذلك بثلاثين سنة فقط حين نجد رجالاً من البربر وأهل البلاد مسلمين على ثقة وتمكن من دينهم ، يسرون مع العرب جنباً لجنب لفتح البلاد ونشر راية الإسلام ، وكيف نفسر ظهور رجل كطارق بن زياد عربى الاسم عربى الأب فى سنة ٥٩١ هـ ، إلا بأن أباه زياداً قد تزوج من أهل البلاد فى مثل هذا الوقت الذى نتحدث فيه ؟ ، وإنما ضربنا المثل بطارق لى نؤكد أن حركة الاختلاط بين العرب والبربر — بالزواج والإسلام — كانت تسير جنباً إلى جنب مع الفتوح التى شغل الرواة بأخبارها ^(١) .

بهذا بدأت حركة الإسلام بين البربر من زمن مبكر ، ثم كانت حملة عقبة الثانية ومغامراته فيها واستشهاده فى ختامها ذات أثر بعيد فى نفوس الأهلين ، تؤيد ذلك الروايات التى بين أيدينا عن هذه الغزوة ، فهى تصورنا كما انطبعت فى أذهان الأهلين : قصة طريفة حافلة بأعمال الشجاعة والإيمان والمعجزات والكرامات والاستهانة بالموت ، وهذا التصور دليل ناطق على أن الأهلين كانوا ينظرون لعقبة بالإعجاب ، وأنهم ظلوا على ذلك زماناً طويلاً ، وإذا كنا قد لاحظنا أن بعض القبائل هم لنصر عقبة وأصحابه حين كاثروا الأعداء ، فبديهى أن يقال إن البلاد وجدت بها — من ذلك الحين — جماعات إسلامية ، أو تميل إلى المسلمين على الأقل ، وأن يقال إن حركة الإسلام كانت سائرة سيراً حثيثاً بين الأهلين .

— بهذا لا يكون إقبال أهل البلاد على الإسلام أيام حسان أمراً غير طبيعى أو ظاهرةً ينبغى الشك فى حقيقتها ، لأن المقدمات كلها تنتهى إليها ، فهؤلاء البربر الذين أقبلوا على الإسلام إقبالا ضعيفاً من نحو ثلاثين سنة ، واستمروا على ذلك طوال السنوات الماضية ، فكان طبيعياً أن يشتد إقبالهم عليه حين يتم نصر العرب

(١) راجع ص ١٧٥ — ١٧٦ من هذه الرسالة .

وحين يوفقون إلى القضاء على كل لون من المقاومة في البلاد . وإذا كان العرب قد اعتبروا أهل المغرب أنداداً لهم وأشركوهم في جيوشهم وأعطوهم الأعطيات وسمحوا لهم بالاشتراك في المغنم، فمن الطبيعي أن يقبل على الإسلام من لم يكن قد أقبل عليه منهم بعد ، فلم يعد الإسلام كسباً روحياً فقط وإنما مادياً يعود على من يعتنقه بالخير الوفير . يقول ابن عذارى في ختام أعمال موسى بن نصير في إفريقية ، أى بعد عوده إلى القيروان : « وفي هذا التاريخ ^(١) تم إسلام المغرب الأقصى ، وحولوا المساجد التي كانت بنتها المشركون إلى القبلة ، وجعلوا المنابر في مساجد الجماعات ، وفيها صنع مسجد أغمت هيلانة » ^(٢) فإذا يريد ابن عذارى من قوله : « المغرب الأقصى ؟ » ولماذا لم يقل المغرب فقط ؟ أيريد أن أهل إفريقية والمغرب الأوسط كان قد تم إسلامهم قبل ذلك ولم يكن قد بقي إلا أهل المغرب الأقصى ؟ أم يريد أن بربر المغرب الأقصى فقط هم الذين تم إسلامهم وبقيت في بقية نواحي المغرب أحياء من البربر لم تسلم بعد ؟ فأما الفرض الأول فلا يؤيده ما سبقت الإشارة إليه من أن برغواطة — إحدى قبائل السوس — كانت من أول القبائل إسلاماً ، وأن أهل هذه النواحي أقبلوا على الإسلام من زمن بعيد ، وأما الفرض الثاني فلا يستقيم مع ما سبق ذكره من إسلام زناتة وصنهاجة وهوارة ، وهي ثلاثة القبائل الكبرى التي تعمّر المغرب الأوسط ، فلم يبق إذن إلا القول بأن ابن عذارى أراد المغرب كله بهذا القول . وربما جاز أن نفهم من قوله : إن هؤلاء الذين أسلموا في ذلك الحين : « حولوا المساجد التي كانت بنتها المشركون إلى القبلة ، وجعلوا المنابر في مساجد الجماعات » ، أن معظمهم كان من الحضر الذين يسكنون المدن التي فيها كنائس ، يمكن تحويلها إلى مساجد بتحويلها إلى القبلة وإقامة المنابر فيها ، فإذا صح هذا

(١) يذكر ابن عذارى سنة ٨٥ هـ وهو خطأ وقد سبق بيان ذلك .

(٢) ابن عذارى ، البيان المغرب ، ص ٢٨

التأويل ، كانت عبارة ابن عذارى على جانب عظيم من الأهمية ، لأنها تدل على أن طائفة البربر الحضر — الذين كانوا متأثرين بالحضارة اللاتينية واعتنق النصرانية منهم نفر — بدأت تقبل على الإسلام ، وأن إسلامها كان صحيحاً بحيث اقتضى إقامة المساجد عندهم ، ومما يؤيد ذلك قول ابن عذارى قبل ذلك ، إن موسى ترك عند بربر طنجة : « سبعة عشر رجلاً من العرب يعلمونهم القرآن » ويعزز ذلك رأى أيضاً قول ابن عذارى : « وقد كان عقبة بن نافع الفهري ترك فيهم بعض أصحابه يعلمونهم القرآن والإسلام ، منهم شاكر وغيره ، ولم يدخل المغرب الأقصى أحد من ولادة خلفاء بني أمية بالشرق إلا عقبة بن نافع الفهري ، ولم يعرف المصامدة غيره ، وقيل إن أكثرهم أسلموا طوعاً على يديه ، ووصل موسى بن نصير بعده »^(١) مما يدل على أن شخصية عقبة كانت شديدة الأثر في أهل هذه النواحي ، وأن ذكره ظلّت عالقة بأذهانهم حتى أيام موسى بن نصير . وإذا كانت الوقائع لا تؤيد ابن عذارى فيما ذكره من إسلام أهل هذه النواحي من ذلك الحين ، فلا أقل من مجاراته في القول بأن المصامدة لم يعرفوا غير عقبة ، أى أنه كان الدافع الأول للإسلامهم .

بيد أنه ليس من الصواب أن يقال إن جميع هؤلاء البربر الذين أسلموا إنما فعلوا ذلك عن إيمان وثيق واقتناع بالدين الجديد ، لأنه إذا كان نفر منهم قد أقبل على الدين مدفوعاً بهذا الشعور ، فلا نزاع في أن كثيرين أقبلوا عليه طمعاً في غنيمة أو فراراً من جباية أو بدافع العداء للروم أو خوفاً من العرب ، فقد قال المقرئ بعد أن سرد حروب موسى بن نصير : « فلما رأى بقية البربر ما نزل بهم استأمنوا »^(٢) أى أنهم خافوا أن ينزل بهم موسى ما أنزل بغيرهم من القبائل من الحرب الشديدة والسبي وما إلى ذلك ، فتسارعوا إليه يعلنون إسلامهم حتى يأمنوا على أنفسهم

(١) نفس المصدر ، ج ١ ، ص ٢٨ (٢) المقرئ ، فتح الطيب ، ج ١ ، ص ١١١

وعلى أموالهم ، وحتى يصبح لهم الحق في ملكية ما بيدهم من الأرض وحتى يتاح لهم الاشتراك فيما يقبل من فتوح العرب وغنائمهم .

والبيانات كثيرة على أن الخلفاء كانوا على نية الخير لإفريقية وأهلها ، فقد سبقت الإشارة إلى وصاة سليمان بن عبد الملك لمحمد بن يزيد وقوله له : « اتق الله وحده لا شريك له ، وقم فيما وليتك بالحق والعدل ، وقد وليتك إفريقية والمغرب كله ^(١) » ، مما يفهم منه أن سليمان كان يحرص الحرص كله على أن تحسن معاملة أهل إفريقية ويُعدّل فيهم ، وقد لوحظت كذلك رغبة الخلفاء في أفراد إفريقية بولاية خاصة ، وتخليصها من سلطان عمال مصر خوفاً من أن يستبد هؤلاء بأهل البلاد ويعنتوهم ، وقد استمر الخلفاء على حرصهم هذا طوال العصر الأموي ، ومن دلائل ذلك ما وقع بين موسى ابن نصير وسليمان بن عبد الملك ، مما يؤول دائماً بأنه كان سخطاً من سليمان على موسى لإسراعه بمآمعه من الأموال حتى أدرك الوليد ، وسببه في الواقع أن سليمان لم يكن يرضى عن سياسة موسى ، وساءه منه تعاظمه وتصرفه تصرف الملك المستبد بأمره لا العامل المولى من قبل الخلافة ، وأحفظه إسرافه في عسف الناس وظلمهم وسبيهم وتقسيمه نواحي المغرب والأندلس بين أبنائه وذويه ، ومن دلائل ذلك أيضاً أن يزيد بن عبد الملك لم يسخط على أهل إفريقية لقتلهم عامله عليهم يزيد بن أبي مسلم ، وإنما أجابهم بالرضا وأقر محمد بن يزيد على عمله ^(٢) ، مما يفهم منه أنه هو الآخر كان ساخطاً على يزيد لمسلكه في البربر لأنه : « عزم أن يسير فيهم بسيرة الحجاج في أهل العراق الذين سكنوا الأمصار ممن كان أصله من السواد من أهل الزمة فأسلم بالعراق ، فإنه ردهم إلى قراهم ، ووضع الجزية على رقابهم على نحو ما كانت تؤخذ منهم وهم كفار ^(٣) » ، ومصدق ذلك أن يزيد بن عبد الملك كتب إليهم يقول : « إني لم أرض عما صنع يزيد بن أبي مسلم ^(٤) » .

(١) ابن عذارى ، البيان المغرب ، ج ١ ، ص ٣٢ — ٣٣

(٢) ابن خلدون ، ج ٤ ، ص ١٨٨ (٣) ابن الأثير ، أسد الغابة ، ج ٥ ، ص ٣٨

(٤) نفس المصدر والصفحة .

لهذا لا ينبغي القول بأن المسلمين أساءوا السيرة في إفريقية ، أو أن غرض الحكم الإسلامي إنما كان عسف البربر والاستبداد بهم والفوز منهم بالغنائم والأسلاب ، وإنما الأصح أن يقال إن العمال أنفسهم هم الذين أساءوا السيرة ومالوا إلى الاستبداد بالناس إسرافاً منهم في إرضاء الخلفاء بالإكثار من الهدايا والمغالات فيما يرسل إلى الدولة من المال كل عام ، وقد سبقت الإشارة إلى ما كان من إسراف موسى ومغالاته في ذلك حتى قال الناس : « ابن نصير والله أحق ؛ من أين له عشرين ألفاً ! » ولابن عذارى رواية تدل على ذلك صراحة ، وذلك حيث يقول في نقده لسياسة عبد الله بن الحبحاب في إفريقية : « وكان الخلفاء بالمشرق يستحبون طرائف المغرب ويبعثون فيها إلى عامل إفريقية ، فيبعثون لهم البربريات المسببات ، فلما أفضى الأمر إلى ابن الحبحاب مناهم بالكثير ، وتكلف لهم أو كلفوه أكثر مما كان ، فاضطر إلى التعسف وسوء السيرة^(١) » ، ففي هذا القول إشارة صريحة إلى تكلف عامل المغرب في هداياه للخلفاء ، وإسرافه في ذلك ، ودليل على أنه كان قد عقد الغزم يوم تولى على أن يبعث للخلفاء بالهدايا الوافرة الكثيرة في كل عام ، ويلاحظ كذلك أن إشارة ابن عذارى إلى رغبة الخلفاء في لطائف المغرب لا تدل على أنهم لم يكونوا يريدون الكثير منها ، « وإنما كانوا يستحبونها فقط^(٢) » ولدينا الدليل على أن الخلفاء لم يكونوا ليرضوا من عمالهم هذا الإسراف في إرسال الأموال والهدايا وما إليها ، وأنهم كانوا يتعففون في كثير من الأحيان عن أخذ ما يصل إليهم من المال إذا تبينوا أن العامل لم يعدل في قسمة أو أسرف في جمعه من أهل البلاد ، فقد روى ابن عبد الحكم أن سليمان بن عبد الملك حينما وصلته هدايا موسى بن نصير انبعث رجل من أصحاب موسى يقال له عيسى بن عبد الله الطويل من أهل المدينة ، وكان

(١) ابن عذارى ، البيان المغرب ج ١ ، ص ٣٩

(٢) ابن عذارى ، البيان المغرب ، ج ١ ، ص ٣٩

على الغنائم فقال : « يا أمير المؤمنين إن الله قد أغناك بالحلال عن الحرام ، وإني صاحب هذه الغنائم ، وإن موسى لم يخرج خمساً من جميع ما أتاك به ، فغضب سليمان وقام عن سريرته فدخل منزله ثم خرج إلى الناس فقال : نعم قد أغناني الله بالحلال عن الحرام ، وأمر بإدخال ذلك بيت المال ^(١) » .

وكان البربر أنفسهم يعرفون أن الخلافة تنوى بهم الخير ، وأن ما قد ينزل بهم من العسف والجور إنما سببه العمال ، ولهذا لم يسخطوا على الخلفاء وإنما على العمال ، ومن دلائل ذلك قول ابن الأثير : « وكانوا — أى أهل إفريقية — يقولون : لا نخالف الأئمة — أى الخلفاء — بما تجنى العمال ، فقالوا — أى الدعاة الذين كانوا يحرضون البربر على الفتنة — لهم إنما يعمل هؤلاء بأمر أولئك ، فقالوا : حتى نخبرهم ! فخرج ميسرة في بضعة وعشرين رجلاً ، فقدموا على هشام فلم يؤذن لهم ، فدخلوا على الأبرش فقالوا : أبلغ أمير المؤمنين أن أميرنا يغزو بنا وبجنده ، فإذا غنمنا نفلهم ولم ينفلنا ويقول : هذا أخلص لجهادكم ... ، فقلنا : لم نجد هذا في كتاب ولا سنة ونحن مسلمون ، فأحببنا أن نعلم أعن رأى أمير المؤمنين هذا أم لا ؟ فطال عليهم المقام ونفذت نفقاتهم ، فكتبوا أسماءهم ودفعوها إلى وزرائه ، وقالوا : إن سأل عنا أمير المؤمنين فأخبروه ، ثم رجعوا إلى إفريقية ، وبلغ الخبر هشاماً فسأل عن النفر فعرف أسماءهم فإذا هم الذين صنعوا ذلك » مما يدل على أن أهل البلاد كانوا يشعرون أن ما يصيبهم من الأذى إنما كان عن رأى الأمراء لا الخلفاء ، وربما لاحظنا من هذه الرواية أنه حيل بينهم وبين الخليفة حتى لا تصل شكواهم إلى مسامعه ، وهو فرض محتمل الحدوث في هذه الأيام ، فلا يبعد أن تكون بطانة الخليفة من نفس الحزب أو القبيلة التي ينتمى إليها العامل الذي أقبل البربر يشكونه ، فعملوا على أن لا يصل صوتهم إلى الخليفة ، وربما أيد ذلك قول ابن الأثير : « إن الخليفة سأل عن وفد

(١) ابن عبد الحكم ، فتوح ، ص ٢١١

البربر بعد انصرافه « مما يدل على أنه كان يريد مقابله والتعرف على شكواه .
بيد أن حركة فتح الأندلس كانت عظيمة الأثر في إفريقية ، فقد كان النصر
السريع الذي حازه الفاتحون الأول حافزاً لمن تخلف من البربر المسلمين إلى عبور البحر
والاشتراك في الحرب والمساهمة في الغنم الوفير ، ثم دافعاً لمن كان قد بقي على دينه
إلى الدخول في الإسلام حتى يتاح له الالتحاق بجند المسلمين ، ومن ثم كان فتح
الأندلس معجلاً بإسلام البربر على رغم سوء سياسة أمراء إفريقية وعدم حفلهم
بنشر الإسلام بينهم ، وسواء أكان إسلام هؤلاء الذين اشتركوا في الفتح عن عقيدة
أو لمطامع أخرى ، فإن غلبة الروح الديني على الفتح ، واختلاط جند البربر بالعرب
المسلمين قد أدى إلى تثبيت إسلام البربر وإظهارهم على اللغة العربية ، وقد كان
العرب قد أخذوا يفدون بكثرة إلى الأندلس للحرب وللإقامة ، فكثرت مرورهم
في إفريقية واختلاطهم بالبربر ومصاحبتهم لهم ، ومن ثم أتاحت للبربر الفرصة
ليتعلموا أصول الإسلام عن العرب ، فإذا أضفنا إلى ذلك أن كثيراً من مهاجري
العرب إلى الأندلس كانوا من أعرق القبائل العربية وأعرفها بالدين واللغة ،
وأن خصومة المضرية والقيسية كانت تحمل إلى الأندلس كل يوم نفراً من أهل
المدينة وعرب الشام ، ممن يعرفون الإسلام والعربية حق المعرفة ، لأمكن تصور
الأثر الكبير الذي أحدثه فتح أسبانيا في إفريقية ، ذلك أن المغرب كان الطريق
الذي يسلكه هؤلاء كلهم في سبيلهم إلى الأندلس ، فكثرت مرورهم بين القبائل
البربرية ، وربما تخلف فيها نفر منهم وأقام بين البربر رجاء أن يعتز بنصرهم
أو يكسبهم إلى جانبه ، فأخذت القبائل عنهم الدين واللغة مما كان له أبعد الأثر
في الإسراع بهذه البلاد نحو الإسلام والعربية .

وكانت منازعات الأحزاب على أشدها طوال العصر الأموي ، وعصفت
برجال الدولة ثارات العصبية ، فكثرت الاضطهاد وتعددت الخوصومات ، وكان

الأمويين طائفة عظيمة من الأعداء السياسيين لا يكفون عن الشغب ولا يكف الأمويون عن تعقبهم بالأذى ، فكثير فرار هؤلاء من البلاد والتماهم الأمان في ناحية بعيدة عن مركز الدولة ، وكان المغرب من النواحي التي كثر التماس هؤلاء الفارين للأمان فيها لاتساعها وتشعب مسالكها وكثرة قبائلها ، وكان الكثير من هذه القبائل ينطوى على السخط على العمال لما يصيبها من الأذى على أيديهم ، فكانت ترحب بهؤلاء اللاجئين لأنهم وإياها على هوى واحد ، ولهذا كثر وفودهم على المغرب والتجأؤهم إلى قبائله ، وهذا ظاهر ملموس من رواية ابن الأثير التي سبق ذكرها ، ففيها تحريض من هؤلاء الفارين من العرب للبربر على الثورة والعصيان ، فإذا قال البربر إن سبب الشرهم الأسراء لا الخلفاء قالوا لهم : « إنما يعمل هؤلاء بأمر أولئك » .

ويبدو مما وقع بعد ذلك من الأحداث أن هؤلاء المحرضين لم يكونوا قليلين ، وإنما حفلت البلاد بنفر غفير منهم ، بل بلغ من كثرتهم أنهم استطاعوا أن يؤثروا في كثير من هذه القبائل ويدفعوها إلى الثورة على الأمويين ، ويبدو أن هؤلاء المحرضين كانوا لا يدخرون وسعاً لإدراك هذه الغاية ، وأنهم كانوا يسلكون كل سبيل يمكن أن يؤدي إلى ثورة البربر على الخلافة ، ومن ذلك أنهم أخذوا يتحجبون إلى البربر بامتداحهم ، واختلاق الأحاديث النبوية التي تعظم إفريقية وتعد المجاهدين من أهلها أجزل الثواب ، ومن هنا لا غرابة في أن نجد في كتب التاريخ المغربي طائفة عظيمة من الأحاديث النبوية عن البلاد وبعض نواحيها كالمستير ورادس^(١) وغيرها ، وربما كان هذا هو السبب في انتساب بعض قبائل البربر الكبرى كصنهاجة وكتامة إلى العرب ، إذ لا يبعد أن يكون الدعاة قد اختلقوا

(١) لفظ المستير لا يتبى الأصل ولا زال باقياً إلى اليوم في لفظة Monastère الفرنسية ، وقد سبق بيان أصل لفظ رادس ، وهناك طائفة أخرى من الأحاديث تنم إفريقية وأهلها ، يرجع أنها هي الأخرى مظهر من مظاهر الطاعن العربي .

الأنساب العربية لتلك القبائل ، حتى يوجدوا بين أنفسهم وبين البربر نسباً يمكنهم من الزعامة عليهم ويمكن لهم في نفوسهم ، وأعان على ذلك الشبه الشديد بين الشعبين في الطبيعة والظروف الاجتماعية .

من هنا نشأ ما يسمى في تاريخ المغرب بحركات الشيعة والخارجية ، إذ أن المعروف أن كثيراً من أعداء الأمويين كانوا من هذين الفريقين ، وأن كثيراً منهم فر إلى المغرب حيث صادفت دعايتهم مرعى خصباً بين القبائل البربرية ، ولهذا كان ظهور حركات الخارجية والصفورية سريعاً في المغرب ، إذ اندلعت نيران الثورة الخارجية في ولاية عبيد الله بن الحبحاب في سنة ١٢٢ هـ . قادها : « ميسرة السقاء ثم المدغرى وكان خارجياً و صفرياً ^(١) » لم وهي ثورة لا تحتاج إلى دليل لإثبات يد هؤلاء الدعاة من الشيعة والخوارج فيها .

أصل حركات
الخارجية في
المغرب

بيد أن هذه العوامل كلها كانت عظيمة الأثر في انتشار الإسلام بين أهل البلاد ، فهؤلاء الدعاة الذين انبثوا بين القبائل كانوا يعملون على نشر الإسلام بينها ، وربما كان وجودهم بين هذه القبائل حافزاً لها على تعلم العربية ومحاولة معرفتها حتى تستطيع التعرف على ما يدعون إليه ، وأعان على ذلك سخط الجانبين — القبائل والدعاة — على عمال الأمويين ، فأقبل البربر على هؤلاء الدعاة والتفوا حولهم وأولواهم العون العزيز ، وصح إسلام الكثيرين منهم وكل عن هذا السبيل .

بهذا سار إسلام البربر سيراً حثيثاً من غير أن يكون للخلفاء أو الأمراء أثر ظاهر في ذلك ، بل لو كان إسلام البربر قد توقف على سياسة هؤلاء واهتمام أولئك ، لما تقدم على النحو الذي مر بيانه ، لأن كثرة المشاغل وتعدد الثورات والفتن حالت بين الخلفاء وبين الاهتمام بناحية دقيقة كهذه ، وجعلت يد الأمراء مطلقة ، فساقوا

(١) ابن الأثير ، أسد الغابة ، ج ٥ ، ص ٧٠ .

أهل المغرب سوقاً عنيفاً ، وانصرفوا كل الانصراف عن الاهتمام بإسلامهم ، بل منهم من كان يرى أن هذا الإسلام لا يتفق وصالح الدولة ، فأخذ يفرض الجزية على من أسلم من الأهلين ، وهو أعلم الناس بأن سياسة كهذه من شأنها أن تنفرهم من الإسلام والعرب جملة .

فإذا كانت هذه هي سبيل البربر إلى الإسلام ، فطبيعي أن يكون إسلام الكثيرين منهم حتى ذلك الوقت — خلافة سليمان بن عبد الملك ٩٦ — ٩٩ هـ — سطحياً لا يقوم على أساس صحيح من العلم بالدين وقواعد الإسلام .

فلما تولى عمر بن عبد العزيز تنبيه لذلك وأحس خطره ، وكانت لعمر سياسة إسلامية تفحو إلى نشر الإسلام وإدخال رعيته كلهم في رحابه ، ويبدو أن سياسة سلفه سليمان في إفريقية لم تلق عنده القبول ، فعزل واليه محمد بن يزيد القرشي وولى على إفريقية والياً من لدنه ، يشق فيه ويطمئن إلى اهتمامه بإسلام أهل البلاد وهو إسماعيل بن عبيد الله فولاه : « في المحرم سنة ١٠٠ هـ على حربها وخراجها وصدقائها ^(١) »

تتفق المراجع على أن إسماعيل بن عبيد الله : « دعا من بقي من البربر إلى دين الإسلام ^(٢) » وأنه : « كان خير أمير وخير وال ، وما زال حريصاً على دعاء البربر إلى الإسلام حتى أسلم بقية البربر بإفريقية على يديه في دولة عمر بن عبد العزيز ، وهو الذي علم أهل إفريقية الحلال والحرام ^(٣) » وأنه : « لم يزل حريصاً على دعاء البربر للإسلام حتى تم دينهم على يده ^(٤) » .

(١) ابن عبد الحكم ، فتوح ، ص ٢١٣ (٢) النويري ، نهاية الأرب ، ج ٢٢ ، ص ٨٣ أ

(٣) ابن عذارى ، البيان المغرب ، ج ١ ، ص ٣٤ (٤) السلاوي ، الاستقصا ، ص ٤٦

التابعون
العشرة الذين
أرسلهم عمر
ابن
عبد العزيز
إلى المغرب

أوصى عمر واليه على إفريقية بأن يبذل كل ما يملك من جهد في سبيل إسلام
البربر، ويبدو أن إسماعيل نفسه كان على إسلام وثيق وإيمان ثابت، إذ يصفه
الدباغ بأنه: « كان فقيهاً صالحاً فاضلاً زاهداً^(١) »، وقال ابن الناجي:
« قال معن التنوحي ما رأيت في هذه الأمة غير اثنين: محمد بن عبد العزيز وإسماعيل
ابن عبيد الله الخزومي، وبلغ من زهده أنه كان إذا أقبل من الغزو في الصايفة افترش
درعه فنام عليها، وكان هو وأم ولده وفرسه في بيت واحد زهداً منه في الدنيا
وتواضعاً^(٢) » فكان خير من يعهد إليه بمثل هذه المهمة، وكان عمر قد بعث معه
« عشرة من التابعين أهل علم وفضل، ومنهم عبد الرحمن بن نافع وسعيد بن مسعود
التجيبى وغيرهما^(٣) ».

ويغلب أن هؤلاء التابعين انبثوا بين البربر وأخذوا يعلمونهم أصول الدين
ويبصرونهم بقواعده وأشراطه، ويبدو أن أهل إفريقية كانوا على جهل تام بتلك
القواعد والأصول، لأن ابن عذارى يقول: « وكانت الخمر بإفريقية حلالاً حتى
وصل هؤلاء التابعون فبينوا تحريمها رضى الله عنهم^(٤) »، ولم يفصل لنا مؤرخو
المغرب أعمالهم على الرغم من عنايتهم بتتبع أخبارهم، ولا السبيل التي سلكوها في
تحويل الأهلين إلى الإسلام، وإنما الغالب الذي يمكن استنتاجه من تواريخهم
أن معظمهم أقام بالقيروان حيث ائبنوا مساجد يعلمون فيها الإسلام، ويبدو
أن الأهلين كانوا يفتدون على هذه المساجد فيستمعون إلى هذه الدروس التي
كانت تلقى بها. ومن المساجد التي بنيت على يد هؤلاء التابعين: مسجد « الرباطي »
بناه أبو عبد الرحمن عبد الله بن يزيد المعافى الإفريقى، و « جامع الزيتونة »
بناه إسماعيل بن عبيد الله المعروف بتاجر الله^(٥)، وقد أخذ عن هؤلاء التابعين

(١) الدباغ، معالم الأيمان، ج ١، ص ١٥٤ (٢) نفس المصدر والصفحة.

(٣) ابن عذارى، البيان المغرب، ج ١، ص ٣٤ (٤) نفس المرجع والصفحة.

(٥) الدباغ، معالم الأيمان، ج ١، ص ١٣٨ و ١٤٨

نفر طيب من أهل إفريقية، ذكر المالكى منهم : سودة الجرامى وعبد الرحمن بن سياد (أخذا عن اسماعيل بن عبيد الأنصارى^(١)) ، بل يبدو أن هؤلاء التابعين كانوا على درجة وافرة من العلم ، بحيث انتشر صيتهم ووفد الناس من شتى النواحي للأخذ عنهم ، فقد روى المالكى أن : « عمران بن عوف الغافقى من أهل مصر أخذ العلم عن اسماعيل بن عبيد^(٢) » .

وكان هؤلاء المتعلمون من أهل المغرب يقضون بعض الوقت فى الدراسة فى القيروان ، ثم يعودون إلى قبائلهم ونواحيهم فيولون وظائف الدين والقضاء ، ويعلمون الناس أصول الإسلام ، فقد جاء فى سيرة أسد بن القرات بن سنان أن أباه : « قدم إفريقية وأمه حامل به ، فولد أسد بتونس سنة ١٤٥ هـ ، وقرأ على علي بن زيادة ولزمه وانتفع به وتعلم منه وتفقه عليه ، ثم تصدى بعد ذلك لصناعة التعليم فأقرأ القرآن فى بعض قرى بجرّدة^(٣) » .

ويبدو أن العرب الذين نزلوا إفريقية إذ ذاك حرصوا على أن يتخذوا لأبنائهم المعاهد الصغيرة الملحقة بالمساجد ، يدرسون فيها القرآن والحديث والدين واللغة ، فوفد عليها نفر من أهل إفريقية يتعلمون العلم ، فقد قال الأستاذ حسن حسنى عبد الوهاب : « إنهم عندما أناخوا بمعسكرهم وخطوا «قيروانهم» أول ما أنشأوا الدور والمساجد ، ثم التفتوا إلى تعليم صبيانهم ، فاتخذوا لهم محلا — كتاباً — بسيط البناء ، يجتمعون فيه لقراءة كتاب الله العزيز^(٤) » ، ويبدو أن هذه الكتابات قد تمت منذ زمن مبكر جداً ، أى من أول إنشاء القيروان ، لأن الدباغ يقول : « حكى غياث ابن أبى شبيب قال : كان سفيان بن وهب صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم يمر علينا ونحن غلّة بالقيروان ، فيسلم علينا فى الكتاب وعليه عمامة قد أرخاها من

(١) المالكى ، رياض النفوس ، ص ١٩ (٢) نفس المرجع والصفحة . (٣) الأستاذ

حسن حسنى عبد الوهاب ، فى ذيل : « آداب المعلمين » ، صفحة ز (٤) نفس المصدر ، ص ١٨

خلفه ^(١) . فإذا علمنا أن سفيان بن وهب هذا دخل إفريقية سنة ٧٨ هـ ^(٢) ، عرفنا أن الكتاتيب كانت قائمة قبل ذلك التاريخ بالقيروان .

بهذا كله انتشر الإسلام في المغرب وعم قبائله ، وليس من المعقول طبعاً أن يكون البربر كلهم قد أسلموا على يد إسماعيل بن عبيد الله — كما تقول المراجع — وإنما لا خطأ في القول بأن معظم البربر كان قد أسلم حتى ذلك الحين ، بل لا مبالغة في القول بأن المغرب الإسلامي يبدأ إذ ذاك ، وإذا كانت قد بقيت في البلاد أقلية لم تدخل في الإسلام بعد ، فستدخله على مرّ الأعوام .

وإذا كان انتشار العربية قد تأخر في قطر كمصر لأن أهله كانت لهم لغتهم الواحدة التي يتكلمون بها جميعاً ويكتبونها بعضهم ، فإن أهل المغرب كانوا في حاجة إلى لغة يتفاهمون بها كلهم ، وطريقة يكتبون بها ما يريدون كتابته ، ولما كانت العربية هي لغة الإسلام والقرآن فقد بدأوا يقبلون عليها ويتعلمونها ، ويبدو أن إقبالهم هذا كان عظيماً واسع المدى ، لأن كثيرين منهم لم يلبثوا أن اتجهوا إلى المشرق للاستزادة من العلم والتثبت من اللغة ، فلم تلبث العربية أن انتشرت بينهم ، ولم يلبث أن ظهر فيهم — خلال القرن الثاني — فئات تكتب العربية وتؤلف بها ، وقد أعان على ذلك دعاة العرب الذين مر ذكرهم والكتاتيب التي أنشأها المسلمون ، وساعد على ذلك أيضاً أن البربر كانوا في حاجة إلى لغة يتفاهمون بها جميعهم ويكتبون بها ، فكان إقبالهم على التعلم عظيماً ، بل لم تلبث القيروان أن أصبحت مركزاً من مراكز العلم والثقافة في العالم الإسلامي ونبيغ من بين أهل البلاد أعلام لهم مقامهم في العلم والدين واللغة مثل سحنون بن سعيد صاحب المدونة المعروفة .

(١) الديباغ ، معالم الأيمان ، ج ١ ، ص ١٢٠

(٢) الأستاذ حسن حسني عبد الوهاب : آداب المعلمين ، ص ١٩

بهذا اكتملت للمغرب الأسباب ليصبح بلاداً إسلامية صرفة يحكمها عامل
الخليفة المسلمين ، ويدين أهلها بالإسلام ، ويتخذون العربية لغة « فمن الآن فصاعداً
دخل في الإسلام كل من كان ذا علم من أهل المغرب ، وكل من أحس بالحاجة الماسة
إلى لغة مكتوبة أو إلى أدب ، كل هؤلاء دخلوا الإسلام جملة دون تحفظ ، وذلك
حدث عظيم ، فعنه تطور المغرب جميعه ^(١) » كما يقول جوتييه ، وسواء أكان
السبب الأكبر في ذلك هو بساطة العقيدة الإسلامية ^(٢) أو لم يكن ، فإن المغرب
القديم اختفى بأديانه ومذاهبه المختلفة ، وحضاراته الواهنة ، وحل محله المغرب
الإسلامي : أمة واحدة ذات دين واحد ولغة واحدة وحضارة واحدة ووجهة
واحدة ، وبدأ هذا القطر المتحد يأخذ طريقه ليلعب دوره المجيد في تاريخ الإسلام
والحضارة العالمية ، وكان فاتحوه من العرب قد مهدوا له الطريق لذلك ، فمهدوا له
الساحل ، وأنشأوا عليه تونس الميناء الإسلامي الجديد ، الذي أطل منه أهل
المغرب على البحر الأبيض ، ليلعبوا دورهم الخطير فيه ، وفتحوا له أبواب إسبانيا
فانبسط أمام أهله ميدان جديد للفتح والعمل والحياة ، إذ كان الأندلس ميداناً
فسيحاً أظهر البربر المسلمين فيه كفاية وقدرة ما كانتا لتظهرهما لولا الفتح العربي . وكان
المغرب القرطاجني أو الرومي لا يعدو الساحل ، فشمل المغرب الإسلامي شمال إفريقيا كله
وامتدحت حتى أدرك درعة ، وصافح واحات الصحراء القاصية عند تارودانت وغيرها ،
فبدأت الحياة تنفس في هذه النواحي التي ظلت حتى الساعة شيئاً مهملاً في حساب
الحضارة والتاريخ ، وبدأت في ظل الإسلام تأخذ سبيلها إلى الحياة السياسية والعقلية ،
وأخذ أهل هذه النواحي ينتظمون دولاً قوية ذات حضارة تقوم بأدوار ذات
خطر في التاريخ ، وتساهم بنصيب مشكور في بناء صرح الحضارة البشرية .

(١) Gautier, op. cit. p. 257.

(٢) P. quet, op. cit. p. 60.

obeykandi.com

ذيل عن

مصادر هذا البحث

(أ) مصادر عربية .

(ب) مصادر إفريقية .

(ج) بحوث ومقالات .

١ — المصادر العربية :

مشرقية :

١ — ابن عبدالحكم (المتوفى سنة ٢٥٧ هـ) « فتوح مصر والمغرب والأندلس »

كتب عبد الرحمن بن عبد الحكم كتابه هذا في النصف الأول من القرن الثالث الهجري ، فهو بذلك أقدم من وصلت إلينا كتاباتهم عن فتح المغرب ، وتقسم كتابه يدل على أنه عني بفتح المغرب استكمالاً لتاريخ فتح مصر ، ولهذا لم يختصه إلا بصفحات لا تكاد تعدل نصف ما كتبه عن أخبار مصر قبل الفتح العربي ، أو ربع ما أورده عن قضائها .

بيد أن أخباره — رغم إيجازها — دقيقة على جانب عظيم من الأهمية ، وسياق روايته وإسناده يدل على أنه استقى أخباره من رواة مشرقين ومغربيين ، وربما كان هؤلاء الآخرون من طلبة العلم الذين كانوا يفدون من إفريقية إلى مصر ليدرسوا على علمائها في ذلك الحين ، ولهذا نجد في روايته إشارات شديدة الدلالة على أنه استقاها من أهل البلاد أنفسهم ، كما اشارته إلى إبراهيم بن شروان اللواتي الذي اشترك في حملة حسان ، وقوله : « وكان مع حسان جماعة يقال لهم البتر » ثم قوله :

« إن حرس يزيد بن أبي مسلم كانوا من البتر — من البتر خاصة ليس فيهم برنسى »
وغير ذلك من الإشارات التي لا تصدر إلا عن علم دقيق ببلاد المغرب ونظام أهلها .

ورواية ابن عبد الحكم لفتح إفريقية كاملة ، بدأها من المحاولات الأولى
في بنطابلس وطرابلس وانتهى بها في نهاية العصر الأموي تقريباً ، ولم يكتف
في كثير من الأحيان برواية واحدة للخبر الواحد ، بل أورد روايتين مختلفتين .
ولا نزاع في أن كتابه كان مرجعاً خصباً استقى منه معظم الذين تناولوا تأريخ فتح
المغرب بعده ، ويلاحظ هذا بوضوح فيما أورده البكري وابن الأثير والسيوطي ، بل
ربما نقل بعضهم عنه رأساً كما فعل البكري في مناسبات عدة .

وأخبار ابن عبد الحكم خالية من المبالغات التي تفص بها كتابات غيره ، وتنفرد
بعبارات على جانب عظيم من الأهمية لأنها شديدة الاتفاق مع منطق الحوادث ،
ولأنها — في كثير من الأحيان — تفسر الأحداث تفسيراً خاصاً معقولاً ، ومثال
ذلك إشارته إلى تتبع كسيلة (ابن السكاهنة) لعقبة وتغويره الماء في طريقه مما أيد
الرأي القائل بأن كسيلة دبر مصرع عقبة ، وجعل الحوادث تترابط وتتصل على نسق
لطيف مفهوم ، ولهذا لا مبالغة في القول بأن أخباره أهم ما بين أيدينا عن هذا
الفتح ، خصوصاً وقد كان الرجل يتحرى الدقة فيما ينقل من الأخبار ، ومن دلائل
ذلك شكه في قصة عبد الله بن الزبير ودوره في الفتح . وقد أعانه على ذلك أنه كان على
علم دقيق بأخبار مصر ، وكانت مصر إلى ذلك الحين مرجع إفريقية ، ولهذا وردت
في كتابه عبارات لها أهميتها كذكره ما قاله مسلمة عن دينار أبي المهاجر حين ولاء
إفريقية مكان عقبة مما ألقى شعاعاً من الضوء على حياة هذا الأخير . وروايته الحديث
بين حسان بن النعمان وعبد العزيز بن مروان ، وهي رواية ثقة ملم بالحوادث دقيق
الفهم ، وكذلك ذكره رأى الناس في أعمال موسى وغير ذلك كثير مما لا حاجة
لإثباته بالشواهد والبيانات .

وأخطاء ابن عبد الحكم قليلة إذا قيس إلى غيره ، وأكثرها في تحديد التواريخ ،
وهذا خطأ شائع يشترك فيه مع غيره من المؤرخين ، كقوله إن : « معاوية بن حديج
غزا إفريقية ثلاث مرات في سنوات ٣٤ و ٤٠ و ٥٠ هـ » وغير ذلك ، ولم تغل روايته

من بعض القصص كتفاصيل بعث عقبة في الصحراء وقصة ماء الفرس واختطاط القبروان وغير ذلك :

وقد نشر شارل تورى Torrey النص الكامل لروايته سنة ١٩٢٠ م في مطبعة جامعة ييل ، وترجم دى سلين الجزء الخاص بفتح إفريقية حتى غزوة عقبة الكبرى ونشره كذيل لترجمة تاريخ البربر لابن خلدون .

٢- البلاذرى - (توفى سنة ٢٦٠ هـ) « فتوح البلدان » : كتب البلاذرى أخباره عن فتوح إفريقية حوالى التاريخ الذى دون فيه ابن عبد الحكم أخباره ، ولهذا كانت لأخباره قيمتها لأنها من أقدم ما وصل إلينا .

وأخبار البلاذرى مقتضبة اقتضاباً يجعل الفائدة منها قليلة ، وربما كان هذا الإيجاز الشديد هو الذى نأى بأخباره عن الخطأ ، إذ يلاحظ أن الفقرات التى أورد فيها بعض التفاصيل حافلة بالأخطاء ، وقد روى معظم أخباره عن الواقدى وهذا سبب من أسباب أهميتها ، إذ أنها تكاد تكون البقية الباقية الموثوق فيها من مغازى إفريقية الذى كتبه الواقدى . بدأ البلاذرى روايته مفصلاً بعض التفاصيل ولكن تفاصيله ليست فى أخبار الفتح وإنما فيما يتصل بها فى المشرق كما أورد لنا رأى اثنين من التابعين فى برقة ، وكما أورد الخطاب الذى بعثه عمرو إلى عمر بن الخطاب سنة ٢٢ هـ وغير ذلك ، وليس فى أخباره من جديد يتفرد به ولكنها موثوق فيها ، وربما وردت فيها لمحات ذات أهمية كتجديده عقوبة لمكان موقعة سبيطة وتأكيده أن عبد الله ابن سعد عاد : « ولم يول على إفريقية أحداً ولم يكن بها يومئذ قيروان ولا مصر ولا جامع » وهى رواية ألفت بعض الضوء على معنى لفظ قيروان . وقد ذكر البلاذرى بعض الصحابة والتابعين ممن صاحبوا عبد الله بن سعد فى غزواته ، فورد بينهم ذكر المسور بن مخرمة بن نوفل بن أهيب بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب ، فكان ذكره لهذا الرجل بنسبه الكامل معينا على تعرف شخصية الزهري الذى نسب إليه النويرى طائفة كبيرة من أخباره ، ولولا هذه الإشارة العارضة لظلت شخصية هذا المحدث - الذى يعتبر مصدراً لكثير مما بأيدينا من أخبار إفريقية - خافية بعد أن حاول دى سلين كشفها من غير توفيق .

وقد أورد البلاذرى قصة عبد الله بن الزبير ودوره فى الفتح مقتضبة اقتضاباً

شديداً ، وأسندها إلى عبد الله بن الزبير نفسه ، فأعطانا بذلك مفتاح هذه الأسطورة التي شغلت جانباً عظيماً من اهتمام مؤرخي المغرب ، وأثبت بالبرهان القاطع أنها مكذوبة لا أساس لها من الصحة .

وما يلي ذلك من أخبار الفتح التي رواها البلاذري كثيرة الخطأ بحيث لا يؤمن التعويل عليها كقوله : « إن معاوية بن حديج ولي عقبة بن نافع إفريقية » وقوله في أخبار حملة عقبة الكبرى إنه : « جـول فيما هناك لا يعرض له أحد ولا يقاتله فانصرف » مما يدل على أن أخبار إفريقية انقطعت عنه وإلا فلم تكن لتغيب عنه أخبار مقتل عقبة في تهودة ، وهي أخبار متواردة معروفة عند من لهم أقل العلم بشؤون المغرب ، وربما كان سبب ذلك أن البلاذري كان يعتمد على مراجع شرقية قليلة العلم بإفريقية ، إذ أنه علاوة على اقتضابه يخلط خلطاً شديداً في أخبار ما يلي حملة عقبة ، فيذكر مثلاً أخبار ولاية كلثوم بن عياض وولاية محمد بن الأشعث قبل أخبار موسى بن نصير .

٣ — اليعقوبي (المتوفى سنة ٢٨٢ هـ) أحمد بن يعقوب بن جعفر بن وهب : « تاريخ اليعقوبي » و « كتاب البلدان » .

٤ — الطبري (المتوفى سنة ٣١٠ هـ) « تاريخ الأمم والملوك » : لم ينل المغرب وأخباره من عناية الطبري إلا جانباً يسيراً جداً ، فلم ترد فيه إلا شذرات يسيرة لا يخلو بعضها من خطأ ، ومثل ذلك قوله : « إن معاوية بن حديج كان من عمال مصر لمعاوية بن أبي سفيان » واعتباره عقبة بن نافع عاملاً لمعاوية بن حديج على إفريقية ، ولما كان الطبري هو المرجع الأول لمعظم مؤرخي المشرق فقد نقل الكثيرون عنه هذه الأخطاء ، فنجدها متواردة عند الكثيرين منهم بحيث لم يسلم من الوقوع فيها إلا من راجع أخباره على مؤرخين مغربيين كابن الأثير ، وقد اشتد الطبري في الحكم على عبدالله بن سعد فكان ذلك سبباً في تحامل الكثيرين من المؤرخين عليه وتقليلهم من شأنه .

وعلى أي الأحوال فأخبار المغرب الواردة في الطبري تصور لنا موقف أهل المشرق من المغرب وحظه من عنايتهم .

٥ — الكندي (توفي سنة ٣٥٠ هـ) « كتاب الولاة » : أورد الكندي في أخبار قضاة مصر وولاتها أخباراً طريفة عن محاولات المسلمين الأولى في إفريقية ،

خصوصاً ما يتصل منها بفتح برقة وطرابلس ، إذ الغالب أن الكندي كان يرى أن هاتين الولايتين كانتا تابعتين لمصر في أول الأمر فذكر أخبارهما ملحقةً بأخبارها ، إذ لا تتم أعمال والى مصر إلا إذا ذكرت جهوده في إفريقية ، ولهذا أحصى أعمال عمرو بن العاص وعبد الله بن سعد ومعاوية بن حديج ، وأورد تفصيلات على جانب عظيم من الأهمية كمحاولات عمرو في إفريقية في ولايته الثانية ، وقد وردت في سياق ذلك أطراف من المفاوضات بين سكان البلاد والفاحين العرب ، كشفت لنا عن موقف العرب من هذه البلاد ، وحال أهلها من الناحية الشرعية في سنوات الفتح الأولى .

وقد أخذ الكندي عن نفر من أقطاب الرواية الأولى كعلي بن قديد وعبيد الله ابن سعد بن عفير وابن لهيعة ، ولهذا كانت لأخباره أهميتها ، ولا سبيل إلى استكمال أخبار فتوح إفريقية إلا بالاطلاع على ما ورد بهذا الكتاب من أخبارها .

وقد طبع في مطبعة الآباء اليسوعيين في بيروت سنة ١٩٠٨ م ضمن مجموعة

Gibb - Memorial Series

٦ — البكرى — (المتوفى سنة ٤٦٠ هـ) لم يبق لنا من كتاب : « المسالك والممالك » للبكرى غير هذا الجزء اليسير عن إفريقية ، وجزء آخر أصغر منه — وأقل قيمة — عن مصر . وقد كتب البكرى كتابه في السنوات العشر الأولى من النصف الثاني من القرن الخامس الهجرى ، أى بعد وفاة إبراهيم بن أبي الرقيق بسنوات قلائل ، فلم تكن المراجع التى اعتمد عليها هذا الأخير قد اندثرت وخفيت معالمها ، فاستطاع أن يرجع البكرى بنفسه إلى المراجع الأولى ويأخذ عنها ، ولهذا نجده يسند بعض أخباره إلى الليث بن سعد ومسلمة بن عبد الملك وابن لهيعة . ولم يكتب البكرى كتابه هذا وصفاً لرحلة قام بها أو مشاهدات صاغتها عينه ، وإنما جمع هذه المعلومات الوافرة مما وقع تحت تصرفه من الوثائق والمؤلفات والبيانات الرسمية التى عثر عليها فى الأندلس ، ولهذا جاء وصفه لإفريقية واقياً دقيقاً عظيم الفائدة على الرغم من أنه لم يزرها قط .

حرص البكرى على أن يذكر بين الحين والحين ما يتفق له من المعلومات التاريخية التى تتصل بالمكان الذى يصفه ، ويغلب أن يسند معلوماته هذه تارة إلى محمد بن يوسف الوراق المؤرخ المغربى أو إلى الليث بن سعد المحدث المصرى ، فأما الأخبار

التي أسندها إلى الثاني فتكاد تتفق حرفاً بحرف مع ما رواه ابن عبد الحكم مسنداً إلى هذا المحدث ، مما يدل على أن الرجل اطلع على المراجع الأولى التي اطلع عليها ابن عبد الحكم نفسه ، وأما الأخبار التي ينسبها إلى الوراق (٢٩٢ - ٣٦٣ هـ) الذي يلقب بالتاريخي فعلى جانب عظيم من الأهمية لأن كتاب الوراق - الذي لا يوجد الآن - كان مرجعاً من أوثق وأخصب ما كتب عن المغرب .

وإشارات البكري التاريخية التي تتصل بالفتح الأول قليلة لأن اهتمامه كان منصرفاً إلى ذكر أخبار البلد الذي يصفه في أيامه أو قبلها بقليل ، ولهذا نجد أخبار الفتح شذرات متفرقة لا يعثر عليها القارئ إلا بجهد جهيد ، وربما أخطأ البكري في رواية بعضها كقوله : « شريك بن سحيم المرادي » وصحته شريك بن سمي ، وقوله : « ابن عقبة بن نافع اتجه إلى القيروان بعد أن أتم بعثه الصحراوي » مع أنه عاد إلى برقة لا إلى القيروان التي لم تكن قد اختطت بعد .

وقد أورد البكري تحت عنوان : « ذكر إفريقية وبلادها ولم سميت إفريقية » معلومات طريفة ، لخص فيها رأى الإسلاميين في أصل اسم إفريقية وحدودها التي كان متعارفاً عليها في أيامه وأورد طرفاً من الأحاديث النبوية وجانباً من أخبار القيروان ومسجدها ، ويبدو أن جزءاً من هذا الوصف سقط لأن المؤلف يشير بعد ذلك إلى أشياء ذكرها في الكلام على القيروان فإذا التمسناها في الوصف لم نجد لها .

وقد نشر هذا الجزء دي سلين بين سنتي ١٨٥٧ و ١٨٥٨ م بعنوان :

Description de l'Afrique Septentrionale

ثم عاد فنشر النص وصححه سنة ١٩١١ م في الجزائر وقدم له بمقدمة عن البكري ومؤلفاته .

٧ - ياقوت - شهاب الدين أبو عبد الله الحموي (توفي سنة ٦٢٦ هـ) :

« معجم البلدان » طبع القاهرة سنة ١٣٢٣ هـ

اعتمد ياقوت في بعض ما أورده من وصف نواحي إفريقية وأعلامها على البكري وروى بعضه الآخر عن رواة آخرين كابن عبد الله القضاعي ، ويبدو أن أمثال هؤلاء الرواة كانوا ممن استوطنوا إفريقية ولهذا جاءت أخبارهم طريفة تضم أخباراً لا تخلو من أهمية وقد اعتمد على الطبري في بعض ما كتب .

وقد ضبط ياقوت أكثر ما أورد من الأعلام الجغرافية فأعان ذلك على صحة قراءتها ، ومن هنا غلب الاعتماد على الصورة التي وردت فيه ، وقد حاول أن يتعرف أصل لفظ إفريقية فأورد في ذلك رأياً جديداً يختلف عن كل ما أورد البكرى ، وروى لتدعيم رأيه شعراً لا نزاع في أنه مصنوع وقد حقق ياقوت معظم الأماكن المغربية الهامة ولم يفته إلا القليل منها .

٨ — ابن الأثير — (المتوفى سنة ٦٣٠ هـ) « الكامل في التاريخ » كتب عز الدين بن الأثير تاريخ فتح إفريقية في أوائل القرن السابع الهجري تقريباً أي بعد أن كتب ابن عبد الحكم والبلاذري بخمسة قرون ، وبعد أن أصبحت إفريقية بلاداً إسلامية صرفه يتحدث أهلها العربية ويؤلفون في تاريخ بلادهم . فإذا كان ابن عبد الحكم والبلاذري قد اعتمدا على رواية العرب وحدهم فقد كان ابن الأثير في غنى عن ذلك بما ذاع في أيامه من المعلومات بإفريقية وما تواتر على سمعه من أخبارها وما ذكره له من اتصل به من أهلها وما وقع له من مؤلفاتهم ، فجاء كتابه أو فرمادة وتفصيلاً وأكثر دقة لما اجتمع له من وسائل التثبت بتعدد الروايات ، ولا نزاع في أن ابن الأثير قد وقعت له بعض مؤلفات عن تاريخ إفريقية ، فقد ذكر صراحة أنه يعتمد على ما كتب المغريون عن بلادهم ، وقال إنه يفضل أخبار هؤلاء على ما يتصل به من أخبار المغرب عن طريق المؤلفين الشرقيين .

وتاريخ ابن الأثير أول الكتب التي أفاضت في أخبار إفريقية وألقت ضوءاً مبيناً على أحداثها ، ولا نزاع في أن كتابه كان مرجعاً اعتمد عليه كثيرون ممن تعرضوا للكتابة عن فتوح إفريقية . وقد انفرد بتفاصيل كثيرة لها أهميتها كإشارته الواضحة إلى غزوات عقبة في إفريقية ابتداء من سنة ٤١ هـ مما جعل حداً فاصلاً بين ما فعله عقبة بين سنتي ٢٢ و ٢٣ هـ وما فعله بعد ذلك ، وقد خلط معظم المؤرخين في ذلك خلطاً شديداً ، ولم يشترك معه في إيراد هذه الأخبار إلا الكندي في كتاب الولاية . وله كذلك ملاحظات طيبة تكشف الكثير من أسرار الفتح وحقائقه عند تأملها وتدبرها كقوله : « وكان قد بلغ الروم بالقسطنطينية مسير زهير من برقة إلى إفريقية . . . وخرجوا إليها في مراكب كثيرة » مما دل على أن الروم كانوا يتربصون لزهير وأن مصرعه في برقة لم يكن مصادفة كما يفهم من روايات غيره .

٩ - ابن عذارى - (حوالى نهاية القرن السابع الهجرى) « البيان المغرب
فى أخبار المغرب » ج ١ و ٢

تكاد رواية ابن عذارى تلى رواية ابن الأثير فى كثرة التفاصيل ووفرة المادة ،
ولانزاع فى أنه اعتمد اعتماداً تاماً على ابراهيم بن أبى الرقيق وأخذ عنه معظم أخباره .
غير أننا لا نرى أن أهمية كتاب البيان المغرب تنحصر فى ذلك فقط كما ذكر
الأستاذ رينيه باسيه فى دائرة المعارف الإسلامية ، وإنما يفرد ابن عذارى بأخبار لها
أهميتها استقاها من مراجع أخرى يغلب على الظن أنها مغربية ، كتبها نفر من أهل
البلاد ، ومثال ذلك التفاصيل الوافية التى أوردها عن موقعة سببيلة ، وهى تفاصيل
لا يشوبها إلا القليل من القصص ، وتصور لنا الواقعة تصويراً دقيقاً لا نظفر به عند
غيره من المؤرخين ، ولولم تكن نسخة ابن عذارى - التى بين أيدينا والتى نشرها
دوزى - ناقصة فى مواضع كثيرة ، تالفة فى مواضع أخرى ، لكانت روايته
عن أخبار هذا الفتح أوفى ما بين أيدينا من الروايات .

وقد روى ابن عذارى قصة الفتح كاملة من مقدمات عمرو إلى نهاية العصر
الأموى ، وكلما اقترب من نهاية هذا العصر كانت أخباره أوفى وأكمل وأكثر تفصيلاً
وأهمية . والجزء الثانى من البيان يتناول أخبار الأندلس فاعتمدت عليه فما مست
الحاجة إليه من أخبار فتح الأندلس وعلاقته بإفريقية .

وقد نشره دوزى بين سنتى ١٨٤١ و ١٨٥١ م ، وترجم فانيان الجزء الخاص
بإفريقية إلى الفرنسية ، ونشره بعنوان : Histoire de l'Afrique et de l'Espagne
فى الجزائر سنة ١٨٩١ م .

ونشر ليفى بروفسال الجزء الثالث الخاص بالأندلس سنة ١٩٢٩ م
١٠ - النورى - (توفى سنة ٧٣٢ هـ) « نهاية الأرب فى فنون الأدب » :
كتب النورى هذا الجزء الخاص بإفريقية فى أوائل القرن الثامن الهجرى ،
ولا نعرف بالضبط موقعه من تاريخه لأنه لم يصل إلينا متصلاً بما قبله وما بعده ، وإنما
وجدته جزءاً منفصلاً فى كتاب مخطوط قائم بذاته ، والغالب أن المؤلف أورد هذه
الأخبار عقب أخبار مصر . ولم يورد النورى للمراجع التى أخذ عنها فى كثير من
الأحيان ، والغالب أنه نقل عن مؤلفات كانت موجودة فى أيامه .

أسند النويرى طائفة كبيرة من أخباره إلى شخص يسميه الزهرى ، وهذا بدوره يروى عن ربيعة بن عباد الديلى . وقد حاول دى سلين أن يتعرف شخصية الزهرى هذا ، وانتهى إلى أن النويرى اصطنعه اصطناعاً ليعطى لتاريخه هيئة التاريخ الصحيح المسند ، وكان ذلك من أقوى المآخذ التى أخذها على النويرى فى كتابه الطويل الذى وجهه إلى السيوهاز فى شأن النويرى فى المجلة الأسبوعية سنة ١٨٤٨ م .

ولكنه لم يكن موفقاً فى ذلك لأن مرجعين من أوثق مراجعنا يكشفان عن حقيقة شخصية الزهرى هذا ، ويؤكدان أنه كان راوية معروفاً أخذ الكثيرون عنه كثيراً من أخبار فتح إفريقية . فقد ذكر البلاذرى بين الصحابة الذين صاحبوا عبد الله بن سعد رجلاً يسمى المسور بن مخزومة بن نوفل بن أهيى بن عبد مناف ابن زهرة بن كلاب ، أى أن المسور هذا زهرى من زهرة ولا غبار على تسميته بالزهرى اختصاراً ، ثم إن المالكى روى طائفة كبيرة من أخباره عن المسور بن مخزومة هذا ، أى أن هذا الشخص كان من المحدثين الذين أخذ عنهم أهل المغرب أخبار بلادهم ، لأن المالكى استوعب فى تاريخه كثيراً من الأخبار التى وردت فى الكتب المتقدمة التى كتبت فى المغرب . وعلى هذا فالزهرى الذى أخذ عنه النويرى شخصية معروفة لها قيمتها العلمية ونسبة أخباره إليها يزيد بها ثقة ولا يضعفها .

كتب النويرى تاريخه فى عصر كثرت فيه الأخبار والمعارف عن إفريقية وأهلها ، بل بعد أن ظهر فى ميدان العلم مؤلفات وضعها نفر من ثقات أهل البلاد كابن الرقيق وابن رشيى وابن شداد ويوسف الوراق وغيرهم ممن تناولوا الكتابة فى تاريخ المغرب ، مما مكن النويرى من أن يكتب كتابة وافية مسبهة . بيد أن ما بين النويرى وأيام الفتح من طول الأمد جعل الأحداث تختلط بكثير من القصص ، خفلت رواية النويرى بطائفة عظيمة من الأقاصيص والأساطير .

يتوارد معظم أخبار النويرى فى كتب المؤلفين المغريين الذين سيرد ذكرهم ، بل هى أشد شهاً برواية المالكى ، فإذا علم أن الإثنين يعتمدان على المسور بن مخزومة الزهرى ، وإذا لاحظنا أن النويرى لم يفعل فى أحيان كثيرة أكثر من أنه اختصر رواية المالكى ، لكان فى استطاعتنا القول بأن النويرى كان يكتب فى وفرة من المراجع والأسانيد ، ولكننا لا نستطيع القول بأن النويرى أخذ عن المالكى ، لأن

رواية الأخير تنفرد بمعلومات وتفاصيل غاية في الأهمية ما كانت لتفوت النويرى لو أنه كان ينقل عن المالكى ، ولكن الغالب أن كليهما كان ينقل عن كتاب مفصل فى تاريخ إفريقية وفتوحها ، كُتب فى زمن مبكر وبقي حتى أيام النويرى ثم ضاع بعد ذلك .

وقد أكدلى الأستاذ حسن حسنى عبد الوهاب أن الأدلة كثيرة على أن كتاباً اسمه : «مغازى إفريقية» كتبه مؤلف مجهول مات فى حدود القرن الهجرى الثانى، وأن فقرات كثيرة من هذا الكتاب لا تزال فى كتاب البكرى وغيره من أوائل المؤرخين ، فإذا ذكرنا أن البلاذرى يروى طائفة كبيرة من أخباره عن الواقدى ، فغلب على الظن أن هذا الكتاب الذى كتب عن فتوح إفريقية واعتمد عليه معظم المؤرخين إن هو الا مغازى الواقدى الذى ضاع . والأدلة قليلة على أن كتاب الواقدى هذا عمر كبيراً ، فلو أنه بقى حتى القرن الثامن الهجرى لأخذ عنه النويرى والتيجانى ولكنتا نجد المؤرخين ابتداء من القرن السابع ينسبون أخبارهم إلى إبراهيم بن الرقيق : هكذا فعل ابن عذارى والنويرى وابن خلدون والتيجانى والحسن الوزان (ليون الإفريقى) ، ومن هنا يجوز القول بأن كتاب الواقدى ظل مستعملاً حتى ظهر كتاب الرقيق فأخمله ، ولما كان ابن الرقيق قد توفى خلال النصف الأول من القرن الخامس الهجرى ، فإنه يمكننا القول بأن كتاب الواقدى عن «مغازى إفريقية» كان ذاغاً حتى أواخر القرن الرابع الهجرى ، وأن ذكره لم يخف وأهميته لم تقل إلا بعد ظهور كتاب الرقيق ، ومما يؤيد ذلك أن أبا العرب تميم ، الذى يعد من أول مصادر التاريخ المغربى الإسلامى ، يعتمد على الواقدى بدليل تشابه رواياته مع روايات البلاذرى ذلك أن أبا العرب تميم قد توفى خلال النصف الأول من القرن الرابع الهجرى ، أى أنه كتب كتابه فى فترة وجد فيها كتاب الواقدى .

من هنا كانت أهمية رواية النويرى ، فقد اجتمع له أصلان من أهم الأصول التى حفظت أخبار هذا الفتح ، فروى عن الزهرى هذا ، وأخذ عن إبراهيم بن الرقيق ، ولهذا نجد روايته غنية بالتفاصيل مما لم يجتمع لغيرها من المؤرخين ، كذكره أسماء الحكام الروم الذين تولوا أمور إفريقية بعد انصراف عبد الله بن سعد ، وتفصيله أمر المدينة التى انتقل إليها أبو المهاجر ، واهتمامه بذكر عناية عثمان بفتح إفريقية

وغير ذلك . ولا يحتاج الإنسان إلى كبير جهد ليتبع قصة الفتح الحقيقية خلال ما أورد النويرى من أساطير وتفاصيل .

١١ — النوى — (توفى سنة ٩٧٦ هـ) « تهذيب الأسماء واللغات » طبعة المطبعة المنيرة بالقاهرة .

١٢ — ابن خلدون — (توفى سنة ٨٠٨ هجرية)

(١) كتاب العبر ج ٤ و ٦

(ب) Histoire des Berbères لدى سلين

(ح) Hist. de l'Afrique et de la Sicile لدى فرجير

ربما كانت من الغريب أن يقال إن كتاب ابن خلدون لم يكن ذا أهمية خاصة في دراسة هذا الفتح (إذ المعروف أن العبر هو المرجع الأوفى الذى لا يستغنى عن النظر فيه من يبحث شيئاً من أخبار المغرب) . وربما كان سبب ذلك أن ابن خلدون أورد أخبار فتح إفريقية متفرقة فيما أورد من أخبار الخلفاء ، فلم يذكر أكثر من بضعة سطور موجزة أشد الإيجاز عن كل حلقة من حلقات هذا الفتح مما لا يعين على تتبع سيرته كاملة .

ولكن ابن خلدون عاد فكتب فصلاً ثلاثة ، مهد بها لتاريخ البربر الذى يكون الجزء الثالث من تاريخه : أولها فى « ذكر مواطن هؤلاء البربر بإفريقية والمغرب » ، وثانيها فى « ذكر ما كان لهذا الجيل قديماً وحديثاً من الفضائل الإنسانية والخصائص الشريفة » ، وثالثها فى « ذكر أخبارهم على الجملة من قبل الفتح الإسلامى ومن بعده إلى ولاية بنى الأغلب » ، فوصف فى الفصل الأول بلاد المغرب وصفاً فريداً لم يوفق إلى مثله غيره من جغرافى العرب ، ففيه تصوير دقيق لأقاليمه وتضاريسه وتقسيمه الطبيعى ، لا يقل انسجاماً أو دقة عن أى وصف جغرافى حديث لهذه البلاد ، ويكفى أنه أحسن تصوير البيئة المغربية التى كان لها أبعد الأثر فى تكوين الشعب المغربى . وأوجز فى الفصل الثانى أخبار البربر منذ الفتح الإسلامى إيجازاً سريعاً ، وردت فيه بضع ملاحظات على جانب عظيم من الأهمية كما اشارته إلى أسرار العرب لوزمار بن سولات وأخذهم إياه لعثمان وإسلامه ، وكذلك حديثه عن كسيلة والكاهنة وقوله إن صاحب

قفصة خلص المسلمين وإن موسى « أخذ رهائن المصادمة وأنزلهم بطنجة » وغير ذلك من الملاحظات التي ينفرد بها ، والتي أخذها عن نفر من أهل البلاد مثل هانيء بن نكور الضريس وغيره .

وقد أخطأ ابن خلدون فيما أورد من التواريخ أخطاء كثيرة ، ربما كان بعضها خطأ من الناسخين ، ولكن الراجح أن ابن خلدون مسئول عن كثير منها ، وربما كان سبب ذلك أنه لم يعن كثيراً بأخبار الفتح الأول .

(ب) وقد نشر البارون دي سلين الجزء الخاص بالبربر في مجلدين سنة ١٨٤٧ م ، ثم ترجمه إلى اللغة الفرنسية ترجمة وافية ، ظهرت في الجزائر بين سنتي ١٨٥٢ م و ١٨٥٤ م في أربعة مجلدات Histoire des Berbères وتولى الأستاذ بول كازانوف طبع هذه الترجمة طبعة جديدة مصححة ومعلّقة عليها بتعليقات ذات أهمية ظهرت سنة ١٩٢٧ م في باريس .

والترجمة مذيلة بما ورد في ابن عبد الحكم والنويري عن فتح العرب لشمال إفريقية ، وعلق المترجم على ترجمة ابن عبد الحكم بذكر كل ما أورده تيوفانيز عن هذا الفتح ، فاستطعنا أن نحصل بذلك على نص كامل لأخبار الفتح كما أوردها تيوفانيز .

(ج) ونشر دي فرجير الفقرات الخاصة بالفتح حتى بداية الدولة الأغلبية في كتاب خاص بعنوان : Histoire de l'Afrique et de la Sicile سنة ١٨٤١ م ، وترجم هذه الفقرات ترجمة فيها بعض الأخطاء خصوصاً في رسم الأعلام ، وقد علق على الترجمة بتعليقات وافية أي استقى معظمها عن الترجمة الناقصة التي كان أوثر قد قام بها للنويري .

١٣ — ابن حجر العسقلاني — (توفي ٨٥٣ هـ) « الإصابة في معرفة الصحابة » .

١٤ — أبو المحاسن — (توفي سنة ٨٧٠ هـ) « النجوم الزاهرة » .

أورد أبو المحاسن تفاصيل قليلة جداً عن فتح إفريقية ولم يذكر لنا أسانيدته التي اعتمد عليها . والغالب أنه لم يورد أخبار إفريقية إلا لاتصالها بمصر ، واعتباره أنها كانت جزءاً منها . ولما كان أبو المحاسن قد أورد ما أورد من أخبار فتح إفريقية ضمن أخبار مصر أو أخبار العالم الإسلامي التي كان يحرص على ذكرها في نهاية كل عام ، فإنه كان ذا فائدة عظيمة في تاريخ الحوادث وترتيبها وربطها بحوادث مصر ، وربما كان هذا أكبر مادي إلى ذكره والتعويل عليه .

بيد أن أبا المحاسن انفرد بأخبار لها أهميتها كذكره التفاصيل الخاصة بحملة دينار أبي المهاجر على قرطاجنة ، وهي أخبار أغفلها كافة مؤرخي الشرق ، ولو لم يكن أبو المحاسن قد غنى بإثباتها لظلت أعمال أبي المهاجر سرّاً مغلقاً لا نعرف عنها إلا الشذرة اليسيرة التي أوردها ابن خلدون عن حملة تلمسان .

١٥ — الإدريسي (المتوفى سنة ٥٥٨ هـ) « صفة المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس المأخوذة من كتاب نزهة المشتاق في اختراق الآفاق » طبعة دوزي ودي غويه سنة ١٨٦٦ م بليدن .

١٦ — ابن حوقل — (النصف الثاني من القرن الرابع الهجري) « المسالك والممالك » طبعة دي غويه (المكتبة الجغرافية) سنة ١٨٧٠ — ١٨٧٩ م
١٧ — ساويرس بن المقفع — كتاب (سير الآباء البطارقة) نشر المطبعة الكاثوليكية بيروت (زيبولد) .

مغربية :

١٨ — أبو العرب تميم — (توفي سنة ٣٣٣ هـ) « طبقات علماء إفريقية »

طبعة محمد بن شنب سنة ١٩١٥ م ١٩٢٠ م بالجزائر
من الواضح أن الطبعة التي بين يدينا من هذا الكتاب ليست كتاباً كاملاً ، وإنما هي شذور بقيت من الكتاب الأصلي الكبير الذي وضعه أبو العرب تميم ، ولهذا لا ينبغي الحكم على قيمة هذا الكتاب بنسبة المعلومات والأخبار الواردة في النسخة المطبوعة . والكتاب عبارة عن تراجم لطائفة يسيرة من علماء البلاد وفقهائها وصالحها تتقدمها طائفة من أخبار فتح إفريقية وسير بعض من اشتركوا فيه .

ويروى أبو العرب أخباره عن سحنون أبي سعيد عبد السلام بن سعيد التنوخي « الفقيه المغربي » كما يقول ابن خلكان وربما روى عن ابنه محمد بن سحنون أو عن أحد معارفه ورجاله كصاحب مظالمه مثلاً ، على أن الأخبار تسند بعد ذلك إلى واحد من أقطاب الرواية الأولى كالليث بن سعد مثلاً . والقيمة العلمية لما في الكتاب من الأخبار قليلة جداً إذا قيس إلى ما في غيره من المراجع الأخرى ثم إن أخباره موجزة إيجازاً شديداً ومتفرقة لا تتصل ولا ترتبط ! وفي تواريخه أخطاء شتى .

١٩ — رياض النفوس — أبو بكر عبد الله بن محمد المالكي (توفي في نهاية القرن الرابع الهجري)

لم ينته العلماء إلى رأى ثابت في حقيقة مؤلف هذا الكتاب أو تاريخ كتابته فكل مانعه عن المؤلف أنه كان قعيها ، وذكر الأستاذ فانيان أنه عاش في القرن الرابع الهجري وتوفي خلاله ، وذكر الأستاذ حسن حسنى عبد الوهاب أنه عاش في القرن الخامس أو السادس الهجري لأن أستاذه أبا العرب الذى نقل عنه توفي في منتصف القرن الرابع الهجري ، ولأنه — أى المالكي — لم يكتب في القرن الذى تلاه وإنما فصلت بينهما فترة عاصر فيها التجيبي القيروانى صاحب كتاب «الافتخار» الذى يعتمد المالكي عليه أيضا ، وعلى أى الحالين فكتاب رياض النفوس يعد من أقدم ما بين يدينا من المؤلفات عن المغرب وتاريخه .

كتب رياض النفوس في المغرب وقد جمعه مؤلفه من أهل البلاد ولم يرجع إلى أحد من أهل المشرق غير الواقدي — والغالب أنه اطلع على كتابه — والمسور بن مخزومة ، وقد نقل هذه الأخبار عنه غيره ممن كتب بعده كالدباغ .

وقد حفظ لنا رياض النفوس أطرافاً من مؤلفات وروايات قديمة ضاع معظمها ، ولو لم يثبتها في كتابه لتفرقت ولم نثر عليها ، والبيانات على ذلك كثيرة ، قصة المجلس الذى عقده عثمان للشاور في فتح إفريقية أظهرت اهتمام عثمان بيد الفتح ، وذكره القبط في حملة عبدالله بن سعد دل على أن نفراً من أهل مصر اشترك في فتح إفريقية ، وتفاصيله الدقيقة التى أوردها عن موقعة سبيلة أعانت على تصورها وتتبع أدوارها ولا ننسى تعليقه لعودة عبدالله بن سعد المفاجئة لأنه ألقى بذلك شعاعاً من الضوء على ناحية ظلت خافية ، وكذلك رأيه عن موضع القيروان الأول ، وغير ذلك كثير مما يجعل لهذا الكتاب أهمية عظمى في دراسة هذا الفتح .

ولا يغلو الكتاب من زيادات كثيرة ومبالغات شتى ، وفي بعض أجزائه اضطراب يغلب على الظن أن سببه تبديل في صحائف الكتاب مما أدى إلى اضطراب السياق ، وأخبار الفتح لا تشغل فيه إلا نيفاً وعشر صفحات من القطع الكبير ، وبقية الجزء الأول من الكتاب تراجم لعلماء المغرب وصالحيه وعلماؤه ، ولا تخلو هذه التراجم من إشارات لها أهميتها عن إدارة البلاد والحركة العلمية فيها .

٢٠ — التيجاني — (النصف الأول من القرن الخامس الهجرى) « الرحلة

التيجانية »

ذهب فورنل إلى أن التيجاني عاش في النصف الأول من القرن الخامس الهجرى واستنبط ذلك من بضع عبارات وردت في سياق حديثه ، في حين ذهب الأستاذ عبد الوهاب إلى أن هذا الكتاب كتب في النصف الأول من القرن الثامن الهجرى . والتيجاني من بيت علم وفضل من بيوت تونس الكبيرة ، اشتغل أهله براسة الدواوين نحو قرن من الزمان ، ونبغ من آباءه نفر اشتغل بالعلم ، فتوفرت له كتب كثيرة في تاريخ إفريقية وجغرافيتها ، فجاء كتابه غنياً بالأخبار الدقيقة والملاحظات الهامة . وكتابه وصف رحلة يصف فيه كل قرية ينزلها ، ثم يعقب الوصف بما يتصل بعلمه من تاريخها ، ويظهر أن جل اعتماده في ذلك كان على ابراهيم بن الرقيق ، وهو أى التيجاني أحد خمسة حفظوا لنا أجزاء من هذا المؤلف الهام ، وهم : ابن عذارى والنويرى وابن خلدون والحسن الوزان والتيجاني هذا . وملاحظاته الجغرافية على جانب عظيم من الأهمية ، فهو الذى أعاننا على تعرف قونية وحدد لنا موقعها ويمتاز عن البكرى بأنه رأى الأماكن التى يتحدث عنها ، ولهذا يأخذ حديثه هيئة المذكرات التى ربما صمت بعض ماوقع له في البلد وبعض ما اتفق له من الحديث مع أهله حين نزله . أما المادة التاريخية فلا تقل في هذا الكتاب عن البكرى مثلاً ، لولا أنها قليلة جداً ، وفي روايته كثير من الأخطاء التى يتوارد مثلها عند غيره ، وربما وردت فيه ملاحظات ينفرد بها كقوله : « إن أهل برقة كانوا استعانوا بقبيلة من البربر يقال لهم نفوسة دخلوا معهم في دين النصرانية » مما فسر لنا السبب الذى حدا بعمر بن العاص إلى إرسال بعث إلى فزان في نفس الوقت الذى سار هو فيه إلى طرابلس .

٢١ — الدباغ — (٦٠٥ — ٦٩٦ هـ) « معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان » .

ألف هذا الكتاب أبو زيد عبد الرحمن بن محمد بن على بن عبد الله الأنصارى الأسيدى ، ولم تصل إلينا نسخته الأصلية ، وإنما وصلتنا فقرات منه مع تعليق عليها بقلم قاض من أهل القرن التاسع ، يعرف بابن الناجى قاسم بن عيسى أبو الفضل (المتوفى سنة ٨٣٧ هـ) وقد اعتمد الدباغ اعتماداً عظيماً على المالكي ، ونقل عنه فقرات

كثيرة ، بحيث لا نخطئ إذا قلنا إن معالم الإيمان صورة أخرى من رياض النفوس (فيما يتصل بقصة الفتح على الأقل) . ولم ينفرد الدباغ إلا بأخبار يسيرة كعرضه بضع آراء في تفسير معنى لفظ القيروان . وأخذ كذلك عن أبي العرب لحفظ لنا فقرات من هذا الكتاب لم ترد في النسخة المطبوعة منه ، لهذا كانت رواية الدباغ مكتملة لروايتي أبي العرب والمالكي ، فعوضت ماعسى أن يكون قد فاتهما من الأخبار . أما تعليقات ابن الناجي قليلة الأهمية ومعظمها استدراكات لا معنى لها ، إذ يغلب أن يكون الاعتراض أشد خطأ وأقل أهمية من الخبر الأصلي . وقد اعتمد عليه كودل اعتماداً عظيماً واستعمله لتصحيح رواية المالكي ، ولكنه أخطأ فنسب الكتاب كله إلى ابن الناجي لا إلى الدباغ .

٢٢ — ابن أبي دينار القيرواني — (توفي سنة ١٠٩٢ هـ) « المؤنس في تاريخ

إفريقية وتونس »

ينتسب ابن أبي دينار إلى الفاتح المعروف دينار أبي المهاجر ، فبيته كان من البيوت العريقة التي تناول أفرادها مناصب الدولة وشئون العلم ، وكتابه حديث كتب في القرن الحادي عشر .

ولا يميل ابن أبي دينار إلى التطويل وطول التفسير ، بل يوجز في عبارته ويقتصر على المهم . ويبدو أن الظروف السيئة التي أحاطت ببلده كانت مؤثرة فيه أثناء اشتغاله بالتأليف ، لأنه لا ينفك رثياً وطنه متأسياً لمصابه مادحاً إياه مدحاً مبالغاً فيه ، وفي عباراته حنين لطيف لوطنه وإشادة نادرة المثال بذكره وفضائله وخيراته .

وقد قدم المؤلف لتاريخه بتمهدة جغرافية عن إفريقية وتونس لم يجيء فيها بجديد ، بل أعاد ما توارد في غيره من الكتب عن أصل إفريقية وأصل لفظ تونس . وكتابه يسد فراغاً ويعيننا على استكمال قصة الفتح ، وعلى الرغم من أنه لم ينفرد إلا بالقليل الذي لا أهمية له ، إلا أنه قدم لنا مادة نستطيع — بمقارنتها بغيرها — أن نصحح بعض الروايات والأخبار .

وقد نشر للمرة الأولى في تونس سنة ١٢٨٦ هـ جرية (١٨٦١ — ١٨٦٢ ميلادية)

واهتم الفرنسيون به اهتماماً خاصاً فقام Pellissier et Reynard بترجمته .

٢٣ — محمد الباجي — (توفي سنة ١٢٥٣ هـ) « الخلاصة النقية » : كتاب متأخر

ولهذا لم يكن الاعتماد عليه عظيماً ، وإنما رجعت إليه في تحقيق بعض الأعلام والأماكن

التي لم تيسر قراءتها في الكتب المخطوطة الأخرى . ولم ينفرد الباجي إلا بالقليل من الأخبار لأن كتابه خلاصة من معظم الكتب التي تقدم ذكرها . ومما انفرد به قوله : « إن دينار بن أبي المهاجر بعث حنش الصنعاني ليحتل جزيرة شريك في حين عاد هو إلى القيروان » .

٢٤ — سعيد بن مقديش — (توفي سنة ١٢٢٨ هـ) — « نزهة الأنظار » : كتاب شديد الشبه بكتاب « الخلاصة النقية » ، فقد ألف في القرن الثالث عشر لأن مؤلفه مات سنة ١٢٢٨ هـ فأخذ عن كل الكتب الهامة التي تقدمته ، وكل أهميته تنحصر في أنه يكمل المجموعة المغربية التي سبق الكلام عنها .

٢٥ — السلاوي — (توفي سنة ١٣١٩ هـ) « الإستقصا لأخبار المغرب الأقصى » طبع القاهرة سنة ١٨٩٤ م

هذا الكتاب من أحدث الكتب العربية التي وضعت في تاريخ المغرب ، وهو موسوعة شاملة للتاريخ المغربي ، استقصى فيه مؤلفه كل ما اتصل به من الأخبار عن المغرب فأوردها كاملة بدون تلخيص مسندة إلى أصحابها : كالكلبي والطبري وابن الرقيق وابن الأثير وابن حزم وابن خلدون ، وربما وردت فيه فقرات من كتب قديمة ضاعت ولم يبق لها أثر . ومن الأمور التي انفرد بها تعرضه لمسألة وضع المغرب من الناحية الشرعية ، وهل فتح صلحاً أم عنوة ؟ وروى في ذلك رواية نقلها عن كتاب « شرح الموطأ للشيخ أبي الحسن القاسبي » . وقد ذهب جوليان إلى أن السلاوي ربما اعتمد على مؤلفين أوروبيين .

وترجع أهمية هذا الكتاب إلى أنه كان إلى حين قريب الكتاب العربي الوحيد المطبوع في تاريخ المغرب . ولهذا كثر الاعتماد عليه والاستشهاد به وبلغ من أهميته أن تصدى لترجمته Graulle الفرنسي فترجم الجزء الأول منه ونشره سنة ١٩٢٣ م

المصادر الأفرنجية :

Ch. Diehl : l'Afrique Byzantine (٢٦)

يعد الأستاذ ديل من أكبر الأساتذة الذين توفروا على دراسة التاريخ البيزنطي ، إذ أنه ظل زماناً طويلاً يشغل كرسي الأستاذية لهذه المادة في جامعة باريس . وكتابته

هذا عن إفريقية البيزنطية فريد في بابه ، درس فيه تاريخ إفريقية من الفتح البيزنطي إلى الفتح العربي ، واستقصى فيه كل ما كتب حتى زمانه عن هذا الموضوع ، فجاء حجة لا يستغنى عن النظر فيها من يتناولون تاريخ المغرب القديم .

يبد أن طول البحث واستطراد المؤلف في بعض النواحي وتوسعه في الكثير منها أفسد نظام الكتاب وأضاع وحدته فأصبح غير متصل الحديث ، وربما طلب الإنسان فيه استقصاء حادث بعينه ، فلا يزال المؤلف يستطرد به في تفصيل الحوادث حتى يصرفه عما طلب ، وتكفي المقارنة بين ما كتبه وبين كتاب مؤلف محدث مثل جوليان فيما يتصل بمحضرة إفريقية البيزنطية وانتشار المسيحية في المغرب حتى يتضح ذلك .

وقد ختم المؤلف بحثه بتلخيص لحوادث فتح إفريقية ، اعتمد في أكثره على ما كتب تيوفانيس وتقفور وفورنل وروث وفيل ويورى وأمارى ومترجمات لبعض المؤلفات العربية ، وهي خلاصة وافية دقيقة وفق المؤلف فيها إلى استقصاء ما كتبه مؤرخو الروم ، وأضاف إليه ما وجدته في المؤلفات العربية ، فاستطاع بذلك أن يقارن النصوص ببعضها ومكننا من الوصول إلى آراء الروم والظهور على بعض ما كتبوا عن هذا الفتح .

Roth : Okba-ibn-Nafi, Gttingen, 1859. (٢٧)

وصف المؤلف كتابه بأنه دراسة في علم التاريخ عند العرب ، وقد أصاب بهذا الوصف ، لأنه أنفق أكثر من ثلثي كتابه في الحديث عن المصادر والمراجع ، وخص عقبة بن نافع وأخباره بالثلث الباقي .

ويبدو أن الرجل اضطر إلى ذلك ، فقد كتب رسالته هذه في زمن مبكر جداً قبل أن يعرف أحد شيئاً عن المراجع العربية الأولى أو يقرأها في نسخها الخطية ، فلم يجد بداً من أن ينفق وقتاً طويلاً في نقد هذه المراجع ومناقشة مؤلفيها ورواة أخبارها مناقشة انتهى منها إلى نتائج هامة ذات خطر تتعلق بكتابات : ابن عبد الحكم والبلاذرى وأبي المحاسن والنورى وغيرهم ممن اعتمد عليهم في استقصاء أخبار عقبة . أما حديثه عن عقبة فمفكك غير متماسك الفقرات لأن هذا الاستطراد شغله بين الحين والحين عن أن يستمر في بحثه . ويبدو أنه ظن أن عقبة هو الذى فتح إفريقية كلها ، فبدأ بذكر دوره في فتح فزان وفصل ذلك تفصيلاً طيباً ، ثم تحدث

عن القيروان حديثاً موجزاً ، ثم ختم البحث بترجمة ما حدث لعقبة في حملته الكبرى ،
ناقلاً عن ابن عبد الحكم دون أن يتوخى النقد أو يهتم بالتعليق .

فالكتاب بذلك يتناول حلقة صغيرة جداً من حلقات الفتح ، وربما صح أن نققد
فكرة الكتاب كله في اعتبار عقبة فاتح إفريقيا كلها . ولما كان كل أخباره مترجماً
ترجمة حرفية ، فلم يكن الاعتماد عليه بذى غناء في تعرف أحداث الفتح ، ويكفى للتدليل
على ذلك أنه أقر الكتاب الذى أورده البلاذرى ، وذهب إلى أن عمرراً أرسله إلى
عمر في حملته الأولى بدون تعليق .

H. Fournel : Les Berbères, Etude sur la Conquête de l'Afrique (٢٨)
par les Arabes, d'après les textes arabes imprimés 1815—1861.

كتب فورنل كتابه هذا منذ قرن تقريباً ، أى بعيد الاحتلال الفرنسى للجزائر ،
فكان بذلك من أوائل المستشرقين الفرنسيين ، وقد قضى نحو العشرين سنة في
تصنيف كتابه هذا فجاء نتيجة طيبة لأبحاث متصلة وعمل مجهد في المراجع
العربية الأولى .

وكان فورنل لا يكتب لمجرد استقصاء أخبار إفريقية وتعرف أحوالها ، وإنما كان
قد وضع لنفسه نظرية معينة أراد أن يثبتها بتأليف هذا الكتاب ، وهى أن الفتح
الإسلامى لم يكن أكثر من فتح حربى قليل الأثر ، وأنه كان نكبة منى بها المغرب
إذ أذلت الأهلين وأفسدت الأرضين ، وأن البربر ظلوا — رغم ما بذل العرب
من جهود — مستقلين فى بلادهم يديرون شئونهم ويسودونها ، لأن أمر العرب لم
يلبث أن صار إلى الضعف والانحلال .

لكى يثبت فورنل هذا رأى ، اضطر من حين إلى حين إلى تحويل الحقائق
وتفسيرها تفاسير لا تتفق والواقع ، واضطر إلى الوقوف من العرب موقفاً لا نبالغ
إذا قلنا إنه عدائى ، فانتقد الفاتحين جميعاً انتقاداً مرأاً ولم يرض عن شيء أتاه أحدهم ،
واعتبر الغزوات العربية كلها غارات لا تبني غير السلب والنهب ، وذلك هو عيب هذا
الكتاب الذى يشيع فيه من أوله إلى آخره ، والذى يقلل من قيمته ككتاب علمى يصح
الاعتماد عليه والأخذ منه ، ولهذا قل من المؤرخين المحدثين من يقدر هذا الكتاب أو
يرجع إليه على أنه مصدر علمى له قيمة . فكودل مثلاً ينتقد فكرة الكتاب عامة ويؤكد
أنها أفسدت البحث جميعه .

وقد كتب الرجل كتابه قبل أن يظهر شيء من المؤلفات المغربية التي سبق ذكرها، فكان جل اعتماده على المراجع الشرقية : كابن الأثير وابن عذارى والنويرى ، وكان هذا سبباً من الأسباب التي جعلت بحثه قديماً من الناحية العلمية ، بل إن الأستاذ ليفي بروفنسال يشك فيما ورد فيه من المعلومات لهذا السبب من ناحية ، ولأن فورنل اعتمد على ترجمات كثيرة الخطأ من ناحية أخرى .

بيد أن الكتاب موسوعة وافية غنية بالمعلومات عن أحوال البلاد وجغرافيتها وتاريخها وسكانها ، فما من مدينة مر ذكرها إلا علق عليها بهامش طويل ذكر فيه القراءات المختلفة لاسمها وما قال مؤرخو العرب عنها ، ولا ينسى أن يذكر ما قاله الرحالة الإنجليزى شو Shaw والسائح الإنجليزى السير جرنفيل تمبيل عنها ، وما من مناسبة تسنح له للتحدث عن أحداث الشرق إلا أسهب وأفاض في ذلك إفادة ربما خرجت بالقارىء عن موضوع البحث .

E. Mercier

1 — Histoire de l'Afrique Septentrionale (Berbérie) (٢٩)
depuis les temps les plus reculés jusqu'à la conquête Française.
Constantine 1888 - 1891

كتاب شامل في مجلدات ثلاثة ، استقصى المؤلف فيه أخبار المغرب من العصر القديم حتى الفتح الفرنسى ، وهو كتاب قديم كتب في النصف الثانى من القرن الماضى .

صنف المؤلف كتابه وهو مقيم بقسطنطينية ، معتمداً على ما اتصل به من الكتب العربية وخاصة ابن خلدون ، فاستطاع أن يستخرج من النصوص الأولى موجزاً لطيفاً كهذا . وإذا قيست أخطاؤه إلى العصر الذى عاش فيه ونظر إلى الوسائل القليلة التي أتاحت له تبين مقدار الجهد العظيم الذى بذله .

والجزء الخاص بالفتح العربى قصير جداً ، ولكن مرسىيه استطاع مع ذلك أن يوجز الحوادث وأن يستخرجها ويرويها فى أسلوب بسيط جاف ، فلم يقع له من الخطأ إلا قليل لا يكاد يذكر .

ومرسىيه من أضراب فورنل يتحمس للبربر فى غير داع ويتنقص العرب ويهاجمهم فى غير مبرر معقول ، ومن ذلك مقارنته الكاهنة بجنان دارك واعتباره إياها

نصيرة الحق والإنسانية ، أمام العرب المتوحشين كما وصفهم ، وما من مناسبة أتيت له ليرى بالعرب إلا انتهزها مبادراً ، مما جعل لكتابه لونا من التعصب قلل من قيمته العلمية كثيراً . وقد كان الرجوع له للاستعانة بموجزه على تتبع سير الحوادث ، فقد كان موقفاً جداً في إنجاز حوادث العصر البيزنطي ، ولكن كتابه ليس إلا سرداً للحوادث ، دون محاولة لتفسيرها واستنباط أحكام منها .

2 — Histoire de l'Etablissement des Arabes dans l'Afrique Septentrionale, Constantine, 1895.

يبحث هذا الكتاب في تاريخ القبائل العربية التي هاجرت إلى إفريقية حوالي القرن الثالث الهجري ، ولهذا أوجز في الفصل الرابع كل حوادث الفتح الأول كتمهيد للكلام على غزوة العرب الهلاليين . وقد أرفق المؤلف بالكتاب خريطتين للمغرب ، بين فيهما منازل القبائل البربرية بعد هذه الغزوة ، وقد رسمهما بحسب ما ورد في ابن خلدون ، فاستعنا بهما لتعرف مواقع هذه القبائل .

Le Baron de Slane :

— ٣٠ —

Histoire des Berbères et des dynasties Musulmanes de l'Afrique Septentrionale. Nouvelle édition publiée sous la direction de Paal Casanova

أعلن ظهور هذا الكتاب بدء عصر جديد في تاريخ الدراسات العلمية والتاريخية بوجه خاص في المغرب ، فقد ترجم المؤلف فيه الجزء الثالث من تاريخ ابن خلدون الخاص بالبربر ، ففتح بذلك أمام الباحثين الأوروبيين ميداناً فسيحاً للدرس والبحث بما قدم إليهم من المعلومات والتفصيلات عن هذه البلاد . وكان دى ملين قد نشر الكتاب نفسه قبل ذلك بسنوات ، وعلق على الكثير من عباراته وأعلامه تعليقات غاية في الفائدة . ولهذا الترجمة من الفائدة ما يجعل النظر فيها من أزم الأمور للباحثين في شئون المغرب .

وأعقب البارون ترجمته لابن خلدون ، بترجمة كاملة لما ورد في النويري وابن عبد الحكم عن الفتح العربي للمغرب ، وعلق على ترجمة ابن عبد الحكم بإيراد النصوص التي كتبها تيوفانيس عن هذا الفتح ، فقدم لنا بذلك نصاً من أهم النصوص التي كتبت عن هذا الفتح .

٣١ — Caudel: 1 — L'Afrique du Nord, les Byzantins, et les
Berbères, avant les invasions arabes, Paris, 1900.

2 — Les premières invasions arabes de l'Afrique du Nord,
Paris, 1900.

يكاد هذا الكتاب الصغير أن يكون المؤلف الوحيد الذى وضع عن الفتح العربى
للمغرب خاصة ، والكتاب جزءان : الأول مقدمة طويلة بعض الطول عن بلاد
المغرب والبيزنطيين والبربر والعرب ، وفق المؤلف فيها إلى تصوير العصر البيزنطى
تصويراً موجزاً دقيقاً ، اعتمد فى كتابته على دليل ، تقدم خلاصة وافية أبدى فيها
كثيراً من الآراء الطريفة التى ربما خالف فيها دليل نفسه ، بل امتاز عنه بأسلوب
فيه دعاية خفيفة ، أما حديثه عن البربر والعرب فكلام إنشائى لا غناء فيه . وفى الجزء
الثانى يقص كودل قصة الفتح العربى للبلاد ، اعتمد فى كتابته على ثلاثة الكتب المغربية
التي سبقت الإشارة إليها وهى : « رياض النفوس » و « معالم الإيمان » و « المؤنس » ،
وربما استعان بابن الأثير وابن عذارى والنورى بين حين وحين . أخذ كودل إذن
قصة الفتح عن علماء مغربيين فكان أكثر توفيقاً من فورنل ، إذ أمدته مراجعه
بتفاصيل وافية غزيرة المادة مكنته من أن يسهب فى الحديث والتفصيل ، فاقدر
على تتبع أحداث الفتح تتبعاً معقولاً مفهوماً ، وربما أخذ عليه اعتياده تماماً
على هؤلاء المغربيين .

والمآخذ عليه كثيرة ، منها اعتماده على مراجع ثانوية ومنها قلة حفله بأقطاب الرواية
الأولى ، ومنها خطؤه فى القول بأن كتاب معالم الإيمان كله من تأليف ابن الناجى ،
وليس الأمر كذلك ، ومنها تناقضه فى الحكم على أبى المهاجر وإهماله بحث مسألة إسلام
البربر واهتمامه بالتفاصيل القليلة الأهمية ، وفيما خلا ذلك لا نزاع فى أن كودل منصف
لم يتابع مدرسة فورنل ، وإنما كان مثلاً طيباً للمؤرخ المعتدل ، أنصف العرب كثيراً
وأخذهم بما رأى . من مآخذ فى رفق ، وربما حاول الدفاع عنهم ، وله فى ذلك استدراكات
وجيبة وأحكام صادقة .

٣٢ — Gautier, E. F. Le Passé de l'Afrique du Nord. (Siècles
Obscures, Paris, 1937.

ليس هذا الكتاب تاريخاً للمغرب فى عامة عصوره ، ولا دراسة لعصر منها قائماً

بذاته ، وإنما هو دراسة شاملة للمجتمع المغربي والحضارة المغربية من العصر الحجري إلى نهاية العصر الإسلامي .

والكتاب كله يقوم على نظرية واحدة ، هي أن التاريخ المغربي كله ليس إلا صراعاً بين طائفتي البربر وهما البتر والبرانس ، وقد ذهب المؤلف إلى أن البتر ليسوا فريقاً من أهل البلاد ، وإنما هم غزاة دخلوها في أول العصر القرطاجي ، وقد أتوا المغرب من الشرق فبعضهم فينيقي ، ولهذا يرى المؤلف أن البتر ساميون ، فالخلاف بين الطائفتين لا يقتصر في رأيه على انتساب كل من البتر والبرانس إلى جسد أسطوري قديم ، وإنما يرجع إلى أن كلا منهما شعب أو جنس مستقل بذاته .

على هذا الأساس درس جوتييه التاريخ المغربي ، وعلى هذا الضوء فسر أحداثه ، ولا نزاع في أنه بالغ كثيراً في الاعتقاد بهذا الرأي ، ومال إلى تفسير التاريخ المغربي تفسيرات غير مفهومة لكي يعزز رأيه ، كقوله : « إن الأفارقة كلهم كانوا يتحدثون الفينيقية ساعة فتح العرب البلاد ، وإن اصطباغهم بهذه الصبغة الفينيقية أي السامية سهل دخولهم في الإسلام ويسر لهم تعلم العربية » وهذا رأي ضعيف جداً بناء المؤلف على أسانيد قليلة الأهمية .

وللمؤلف حديث شائق عن الكاهنة وكسيلة ، فاعتبر الأولى ممثلة للحضارة السامية اليهودية ، وذهب إلى أن كاهنة مؤنث كوهين ، واعتبر كسيلة ممثلة للعصبية البربرية المسيحية التي تأثرت بالحضارة البيزنطية ، وتلك كلها آراء لا يستطيع الإنسان قبولها . وله كذلك رأي طريف في حركات الخارجية والصفيرية التي عمت إفريقية طوال العصر الإسلامي ، فمقارن بينها وبين الدونانية ، وذهب إلى أن كليهما مظهر لمقاومة العنصر السامي (البترى) في البلاد .

وملاحظات المؤلف على الفتح العربي قليلة ولكنها دقيقة شاملة ، تلقى ضوءاً مبيناً على هذا الفتح ، وقد كانت نظرياته وآراؤه موضع جدل عنيف بين المستشرقين .

٢ — واعتمد على المراجع الآتية في المواضع المشار إليها أثناء البحث :

- 33 ALBERTINI, E.: *L'Afrique Chrétienne*.
- 34 AMARI, MICHEL: *Storia dei Musulmani di Sicilia*, Firenze 1854-1867.
- 35-36 BASSET RENÉ: *Histoire de l'Algérie par les Monuments*, 1900.
Mélanges Africains et Orientaux, 1915.
- 37 BERBRUGGER: *L'Algérie Historique*.
- 38 BOSSIER, (G.): *L'Afrique Romaine*, 1895.
- 39 BIGUET, GAL-FAURE: *Histoire de l'Afrique Septentrionale sous la domination des Musulmans*, 1905.
- 40 CARDONNE: *Histoire de l'Afrique et de l'Espagne sous la domination des Arabes*.
- 41 CAGNAT: *L'Armée Romaine de l'Afrique et l'occupation militaire sous les Empereurs* 1912 (2ème. éd.).
- 42 CARETTE, E.: *Recherches sur les origines et les migrations des principales tribus de l'Afrique Septentrionale et particulièrement de l'Algérie*, 1853.
- 43-44 CAUDEL, M.: (1) *L'Afrique du Nord, les Byzantins, les Berbères avant les invasions*, 1900.
(2) *Les premières invasions de l'Afrique du Nord*, 1900.
- 45 DEFREMÉRY: *Mémoires d'Histoire Orientale*, Paris, 1854.
- 46 DESPOIS, J.: *La Tunisie*.
- 47-48 DOZY: A — *Histoire des Musulmans d'Espagne*.
B — *Recherches*. (2ème. éd.)
- 49 DOUTTÉ, E. (1): *Notes sur l'Islam Maghrabin, Les Marabouts*, 1900.
(2): *Magie et religion dans l'Afrique du Nord*, Alger, 1909. •
- 50 DUPRAT: *Les Races anciennes et Modernes de l'Afrique*.
- 51 FAONAN: *Extraits inédits relatifs au Maghreb*, Alger, 1924.
- 52 FOURNEL: *Les Berbères; étude sur la conquête de l'Afrique par les Arabes, d'après les textes arabes imprimés*, 1875-1881.
- 53 GIBBON: *Decline & fall*, Giant éd. 1937.
- 54 GSELL, STEPHANE: *L'Histoire Ancienne de l'Afrique du Nord*, 8 Vol. 1913.
- 55 GSELL, G. MARÇAIS ET G. YVER: *L'Algérie*.

- 56 HARDY, G. et P. AURES: *Les grandes étapes de l'Histoire du Maroc*, 1921.
- 57-58 MARÇAIS, G.: *Manuel d'Art Musulman*, 1926-1927.
- 59 MEAKIN, BUDGET: *The Moorish Empire, A Historical epitame*, London, 1899.
- 60-61 MERCIER, E.: (1) *Histoire de l'Afrique Septentrionale (Berbérie) depuis les temps les plus reculés jusqu'à la conquête française*. 3 vols. Cons. 1888-1891.
(2) *Histoire de l'établissement des Arabes en Berbérie Constantine*.
- 62 MESNAGE, P.: *L'Afrique Chrétienne*, 1912.
- 63 RINN: *Etude sur l'Islam en Algérie*.
- 64 WESTERMARCK: *Ritual and belief in Morocco*, 2 vols., London, 1926.
- 65 VASILIEV, A. A.: *History of the Byzantine Empire*, Vol. 1, *from Constantine the great to the epoch of the Crussades*, Madison, 1928.

٣ — مقالات وبحوث : وردت في الصحف العلمية الآتية وأشير إليها
في مواضعها من البحث :

- Hespéris*: Archives berbères. Bulletin de l'Institut des hautes études marocaines.
- Journal Asiatique.
- Revue Africaine : publiée par la Société historique Algérienne.
- Revue des études islamiques.
- Revue du Monde Musulman.
- Recueil des notices et mémoires de la société archéologique du département de Constantine.
- Revue d'Histoire Africaine: Moyen Age et Temps modernes

ذيل ٢

التواريخ الهامة

(١) الأباطرة والخلفاء

١ - أباطرة الدولة البيزنطية

٥٢٧ - ٥٦٦ م	جستنيان
٥٦٦ - ٥٧٨	جستن الثاني
٥٧٨ - ٥٨٢	تييريوس الثاني
٥٨٢ - ٦٠٢	موريس
٦٠٢ - ٦١٠	فوكاس
٦١٠ - ٦٤١	هرقل الأول
٦٤١	هرقل الثاني
٦٤١	هرقل الصغير (هرقلوناس)
٦٤١ - ٦٦٨	قنسطنط الثاني
٦٦٨ - ٦٨٥	قنسطنطين الرابع (بوجونات)
٦٨٥ - ٦٩٥	جستنيان الثاني (رينوتميتوس)
٦٩٥ - ٦٩٨	ليونتئوس
٦٩٨ - ٧٠٥	تييريوس الثاني (ابسياروس)
٧٠٥ - ٧١٢	جستنيان الثاني
٧١٢ - ٧١٣	فيليبكوس برودانس
٧١٣ - ٧١٦	انستاسيوس الثاني (ارتمئوس)
٧١٦ - ٧١٧	تيودوسيوس الثالث (ادراميتئوس)
٧١٧ - ٧٤١	ليون الإيسوري
٧٤١ - ٧٧٥	قنسطنطين الخامس (كبروفيموس)

٢ - الخلفاء

١١ - ١٣	١٣٢ - ١٣٤	أبو بكر
١٣ - ٢٣	١٣٤ - ١٤٤	عمر
٢٣ - ٣٥	١٤٤ - ١٥٦	عثمان
٣٥ - ٤٠	١٥٦ - ١٦١	علي
٤٠ - ٦٠	١٦١ - ١٨٠	معاوية بن أبي سفيان
٦٠ - ٦٣	١٨٠ - ١٨٣	يزيد بن معاوية
٦٣	١٨٣	معاوية الثاني
٦٤ - ٦٥	١٨٣ - ١٨٥	مروان بن الحكم
٦٥ - ٨٦	١٨٥ - ٧٠٥	عبد الملك بن مروان
٨٦ - ٩٦	٧٠٥ - ٧١٥	الوليد بن عبد الملك
٩٦ - ٩٩	٧١٥ - ٧١٧	سليمان بن عبد الملك
٩٩ - ١٠١	٧١٧ - ٧٢٠	عمر بن عبد العزيز
١٠١ - ١٠٥	٧٢٠ - ٧٢٤	يزيد بن عبد الملك
١٠٥ - ١٢٥	٧٢٤ - ٧٤٣	هشام بن عبد الملك
١٢٥	٧٤٣	الوليد بن يزيد بن عبد الملك
١٢٦	٧٤٤	يزيد بن الوليد
١٢٧	٧٤٥	ابراهيم بن الوليد
١٢٧ - ١٣٢	٧٤٥ - ٧٤٩	مروان بن محمد

(ب) الحوادث

١ - العصر البيزنطي

٢٢ يونيو سنة ٥٣٣	نزول بلزاريوس إفريقية وبدء الحكم البيزنطي فيها .
٥٣٤ - ٥٤٦	ولاية سليمان .
٥٤٥ - ٥٤٦	ثورة عامة في إفريقية وطرابلس ومقتل سليمان .

١٤ نوفمبر سنة ٥٦٥	وفاة جستنيان .
٥٢٧ — ٥٧١	ثورة عامة في إفريقية — سقوط قرطاجنة في يد البربر — ارطبان يخذل الثورة .
٥٨٨	ثورة في إفريقية يخذلها جناديوس .
٦٠٨	ولاية هرقل الكبير وبدء حكم أسرة جريغوريوس .
٦٤٢	وصول القوات العربية في برقة .

٢ — الغزوات العربية

٢٠	٥
سبتمبر سنة ٦٤٢	ذى القعدة سنة ٢١
	عقبة بن نافع يخرج في بعث صغير ليستطلع أحوال إفريقية .
	أوائل سنة ٢٢
	متصف سنة ٢٢
	أوائل سنة ٢٣
	أواخر سنة ٢٣
٦٤٧	أواخر سنة ٢٧
	أوائل سنة ٢٨
٦٦٣ — ٦٦١	٤٣ — ٤١
٦٦٥ — ٦٦٥	٤٥
	أوائل سنة ٤٨
٦٦٩ — ٦٧٠	٤٩
	٥٥ — ٥٠
٦٧٤ — ٦٧٥	٥٥
	٥٨ — ٥٥
	٥٩ — ٦١
	أوائل ٦٢
٦٨١ — ٦٨٢	رجب سنة ٦٢

بدء ولاية عقبة بن نافع الثانية .	٥٠	٠٢
متصف سنة ٦٢	٦٢ — ٦٤	
حملة عقبة الكبرى .	٦٤	٦٨٣ — ٦٨٤
موقعة تهودة ومقتل عقبة .	٦٥	
انسحاب زهير بن قيس إلى برقة وإخلاء إفريقية .	٦٩	٦٨٨ — ٦٨٩
مسير زهير إلى إفريقية .	٧٠	
واقعة تمس .	٧١	
مقتل زهير في برقة .	٧٦	٦٩٥
مسير حسان بن النعمان إلى إفريقية وحملته الأولى على قرطاجنة .	٧٧	
واقعة نينى وارتداد حسان عن إفريقية .	٧٩	
البطريق جان ينزل إفريقية ويستولى على قرطاجنة .	٨٠	
الكاهنة تخرب إفريقية .	٨١	
مسير حسان الثانى إلى إفريقية .	٨٥	
عزل حسان .	أواخر ٨٥	٧٠٥
بدء ولاية موسى بن نصير .	٨٦	
فتح زغوان .	٨٩	
حملته على المغرب الأوسط .	٩٠	
حملته على المغرب الأقصى .	٩١	٧٠٩ — ٧١٠
إرسال الطلائع إلى إسبانيا .	٩٢	
عبور موسى إلى الأندلس .	٩٤	
عوده إلى المشرق .	٩٨	
موته بالمشرق .		

٣ - العصر الأموي

	٥٠	٢٠	
يزيد بن أبي مسلم .	١٠٥ - ١٠٢ (٧٢٤ - ٧٢٣)	٧٢١ - ٧٢٠	
بشر بن صفوان .	١٠٩ - ١٠٥ (٧٢٨ - ٧٢٧)		
عبدة بن عبد الرحمن .	١١٤ - ١١٠	٧٣٥	٧٢٨
عبدة الله بن الحجاب .	١١٦ - ١١٤		٧٣٥
(حملته على صقلية)			
(ثورة ميسرة)			
كلثوم بن عياض - واقعة	١٢٤ - ١٢٣	٧٤٢	٧٤٠
الأشراف .			
حنظلة بن صفوان .	١٢٦ - ١٢٤	٧٤٣	٧٤٢
واقعة القرن والأصنام .			
عبد الرحمن بن حبيب .	١٢٦	٧٤٤	٧٤٣

فهارس الكتاب

١ - فهرس الأعلام

ابن عبد الحكم (المؤرخ) : ٢	ال الحكم : ١٠٥
ابن مصاد : ٢٠٠ ، ٢٠١ ، ٢١١	آل مروان : ١٠٥
ابن هريرة : ٦٨	إبراهيم بن أبي الرقيق : ٩٢ ، ١٨٧ ، ٢٥٥
ابن وهب : ١١٦ ، ١٤٩ ، ١٥٦	إبراهيم بن النصراني : ٢٢٧
أبناء عمر بن الخطاب : ٨١	أبقانيا : ٣٥
أبنة جريجور يوس : ٨٣ ، ٨٨ ، ٩١ ، ٩٢	ابن أبي حبيب : ١١٦
أبو الأسود بن النضر بن عبد الجبار : ٦٨ ، ١٠٤	ابن أبي دينار : ٣ ، ١٤٨ ، ١٤٩ ، ١٥٠
أبو الأعور : ٨٠	١٥١ ، ١٥٢ ، ١٥٦ ، ١٥٨
أبو أويس : ١٠٤	١٦٤ ، ١٦٥ ، ١٦٦ ، ١٦٧
أبو تميم الجيثاني : ٦٨	١٦٨ ، ١٧٠ ، ١٧١ ، ١٧٢
أبو جعفر الطبري : ١٤٨	١٧٣ ، ١٧٤ ، ١٧٥ ، ١٧٨
أبو ذر الغفار : ٨١	١٧٩ ، ١٨٠ ، ١٨١ ، ١٨٢
أبو ذؤيب خويلد بن خالد الهذلي : ٨١ ، ١٠٢	١٨٤ ، ١٨٥ ، ١٨٦ ، ١٩٥
أبو زمعة البلوي : ٨١	١٩٦ ، ١٩٨ ، ١٩٩ ، ٢٠٤
أبو شداد : ٢١٨	٢١٣ ، ٢١٤ وانظر أبو المهاجر
أبو صالح : ٢٤٩ ، ٢٥٤	ابن أبي لمبة : ٤٠ ، ٦٨ ، ٨٠ ، ٨٣
أبو عبد الرحمن عبد الله بن يزيد العافري	٨٩ ، ٩١ ، ١٠٤ ، ١١٥
الإفريقي : ٢٩٦	١١٦ ، ١٢٦ ، ١٥٦
أبو عبد الله بن عبد الحكم : ٩١	ابن الكاهنة : ١٨٦ ، ١٨٧ ، ٢٥٧ وانظر
أبو قبيل : ٦٨	ابنا الكاهنة
أبو قرة بن شريك : ١٧٤	ابن برزيات : أنظر بارزت
أبو محجن الثقفي : ١٩٩	ابن ثومان : ٢٣٨
أبو مهدي عيسى الصميلي (الشيخ الصالح	ابن حوقل : ٢٤١
النفقي) : ١٤٣	ابن حيان الحضرمي : ٢٠٦
أحمد بن أبي سليمان : ١٤٩	ابن خلدون : ٥
أحمد بن عمرو : ١٥٦	ابن دشيمة النضري : ١٠٣
	ابن زيد : ١٤٩

فهرس الأعلام

- إدوار وستر مارك : ٢٤٥
 أرطبان : ٢٤
 أرنولد : ٨٠
 أساقفة إفريقية : ٤٤
 أسامة بن زيد بن مسلم : ٩١
 إسحق بن عبد الله بن أبي فروة : ٥٥
 أسد بن الفرات بن سنان : ٢٩٧
 أسقف تيجس : ٢٨١
 أسقف قرطاجنة : ٢٩ ، ٤٤ ، ٤٦
 إسماعيل بن عبيد الأنصاري : ٢٩٥ ، ٢٩٦ ،
 ٢٩٧ ، ٢٩٨
 إفريقس بن أبرهة بن الرايش : ١
 إفريق بن إبراهيم : ١
 إفريقس بن قيس : ٧ ، ٨ وانظر إفريقش
 إمام الصفرية : ٢٧٨
 إمرىء القيس : ١٥٣
 أمير المؤمنين : ٦٨ ، ٢٥٠ ، ٢٥٦ ، ٢٦٤ ،
 ٢٦٥ ، ٢٧٠ ، ٢٩١
 الأبرش : ٢٩١
 الإدريسي : ٤
 الأطيلون : ١١٤
 الأعور بن سعيد بن يزيد : ٨٠
 الأقرع بن حابس التميمي : ١٩٥
 البرنسي : ١٦٣ أظفر كسيلة بن أغز
 البلاذري : ٢
 التيجاني : ٥
 الحارث بن الحكم : ٨١ ، ٨٢
 الحجاج : ٢١٨ ، ٢٨٩
 الحسن الوزان : ٥ ، ٩٢
 الزبير بن العوام : ٦٢ ، ٦٣ ، ٦٦ ،
 ٨٠ ، ٩٥
 الزهرى : ٨٠ ، ٨٤
- السائب بن عامر بن هشام : ٨١ ، ١١٩ وانظر
 السائب بن هشام
 الشيخ الأمين : ٢٣٦
 العباس : ٨٠
 الكاهنة البربرية : ٤١ ، ١٥٦ ، ١٨٥ ،
 ١٨٦ ، ١٩٧ ، ٢٠١ ، ٢٣٠ ،
 ٢٣٤ ، ٢٣٥ ، ٢٤٢ ، ٢٤٣ ،
 ٢٤٤ ، ٢٤٥ ، ٢٤٦ ، ٢٤٧ ،
 ٢٤٨ ، ٢٤٩ ، ٢٥٠ ، ٢٥١ ،
 ٢٥٢ ، ٢٥٣ ، ٢٥٤ ، ٢٥٥ ،
 ٢٥٧ ، ٢٥٨ ، ٢٥٩ ، ٢٦٠ ،
 ٢٦٣ ، ٢٧٤
 الليث بن سعد : ٦٢ ، ٨٠ ، ٨٩ ، ١٣٥ ،
 ١٤٩ ، ١٥٠ ، ٢١٦
 المدغرى : ٢٩٤
 السور بن محرمة الزهرى : ٨٠ ، ٨١ ، ٩٢
 وانظر السور بن محرمة بن نوفل
 المعافى : ٦٨
 المفصل بن فضالة : ١٤٤
 الواقدي : ٥٥ ، ٩١
 الوليد : ٢٦٥ ، ٢٨٩
 أنسطاس الكتي : ١٣٩
 أظلالس : ٢٢ ، ٢٤
 أوتر : ٢٤٢
 أورتاياس : ٢٢
 أولية : ١١٤
 إيفير : ٢٤٥ ، ٢٤٧
 باباروما : ٣٧ ، ٤٤
 بجونات : ١٣٩
 بر بن قيس : ٨ ، ٥٥
 برنس بن بر : ٨
 برسكوس : ٣٥ ، ٣٦

فهرس الأعلام

١٠٧ ، ١١٣ ، ١١٤ ، ١٦٠ ،	بروكيوس : ٣٠ ، ٦
١٦١ ، ١٩٣ ، ٢٠٣ ، ٢١٠ ،	بريتاسيوس هادرميتوس : ٢٨
٢٤٨	بسر بن أبي أرطاة : ٣٥ ، ٦٥ ، ٦٦ ، ٦٩ ،
وانظر جريجوريوس فلافيوس الأرمني :	١٣١ ، ١٣٥ ، ١٣٦ ،
وانظر البطريق	وانظر بشر بن أبي أرطاة
جرجيس (ملك الروم الأطراف) : ٧ ، ٩٧	بكير بن عبد الله : ١٢٦
جريجورى الأكبر : ٣١ ، ٣٦	بلزاريوس : ١١ ، ٢٢
جريجوريا (أخت جريجوريوس) : ٣٩ ،	بوشار : ١
٤٤ ، ٥٠	بوغراو : ٢٥٨
جستنيان : ١١ ، ١٢ ، ١٤ ، ٢٤ ، ٢٦ ،	تاجر الله : ٢٩٦
٢٨ ، ٢٩ ، ٣٢ ، ٣٤ ، ١٦١	تيم (أبوالعرب) : ١١٥ ، ١٢٢ ، ١٤٨ ،
وانظر جوستنيان	١٤٩ ، ١٥٩
جستنيان الثانى : ٢٣٤ ، ٢٥٣	توكسيه : ٨٤ ، ٩٣
جناحه : ٩٣ ، ١١٤	تيودور : (البابا) ، ٤٧ ، ٧٠
جناديوس : ٣٤ ، ٣٧	تيودوسوس : ٢٥
جناريوس : ٢٠	تيوفانيس : ٩٣ ، ١١٤ ، ١٣٩ ، ٢٣٦ ،
جندل بن صخر الصدق : ٢١٥ ، ٢١٦	٢٥٤ ، ٢٥٩
جنفارت : ٢٤	ثابت الأنصارى : ١١٩
جودريانوس : ٢٧	ثابت الفهمي : ١٤٩
جورج (حاكم قرطاجنة) : ٤٥	جاسمول : ٣٤
حبيب : ١٤٩	جان تروجلينا : ٢٧
حسان بن النعمان الفسائى : ٢ ، ٨	جبله بن عمرو الأنصارى : ١٢٧
٤١ ، ١٤٢ ، ١٦٩ ، ٢٠٥ ،	جبون : ٩٥
٢١٥ ، ٢١٦ ، ٢١٨ ، ٢٢٠ ،	جراشيل تميل (السير) : ٩٧
٢٢٤ ، ٢٢٥ ، ٢٢٧ ، ٢٣٠ ،	جرجير : ٢٠ ، ٢١ ، ٣٤ ، ٣٧ ، ٣٨ ،
٢٣١ ، ٢٣٤ ، ٢٣٥ ، ٢٣٦ ،	٣٩ ، ٤٠ ، ٤٢ ، ٤٤ ، ٤٥ ،
٢٣٧ ، ٢٣٨ ، ٢٣٩ ، ٢٤٠ ،	٤٦ ، ٤٧ ، ٥٠ ، ٦٠ ، ٦١ ،
٢٤١ ، ٢٤٢ ، ٢٤٣ ، ٢٤٤ ،	٦٧ ، ٧٤ ، ٧٥ ، ٨٣ ، ٨٤ ،
٢٤٦ ، ٢٤٧ ، ٢٤٨ ، ٢٤٩ ،	٨٥ ، ٨٦ ، ٨٧ ، ٨٨ ، ٨٩ ،
٢٥٠ ، ٢٥١ ، ٢٥٢ ، ٢٥٣ ،	٩٠ ، ٩١ ، ٩٢ ، ٩٣ ، ٩٤ ،
٢٥٤ ، ٢٥٥ ، ٢٥٦ ، ٢٥٧ ،	٩٥ ، ٩٦ ، ٩٨ ، ١٠٢ ، ١٠٣ ،

فهرس الأعلام

زهير بن قيس البلوى : ١٨١ ، ١٦٦ ، ١٣٦ ، ١٨١ ، ١٨٥ ، ٢٠١ ، ٢٠٥ ، ٢٠٦ ، ٢٠٧ ، ٢١٣ ، ٢١٢ ، ٢٠٩ ، ٢١٥ ، ٢١٨ ، ٢١٧ ، ٢١٦ ، ٢١٩ ، ٢٢٢ ، ٢٢١ ، ٢٢٠ ، ٢٢٣ ، ٢٢٦ ، ٢٢٥ ، ٢٢٤ ، ٢٢٧ ، ٢٢٨ ، ٢٢٩ ، ٢٣٠ ، ٢٣٢ ، ٢٣٣ ، ٢٣٤ ، ٢٣٨ ، ٢٤٥ ، ٢٤٩ ، ٢٦٣ ، ٢٦٤ ، ٢٦٥ ، ٢٦٨ ، ٢٧٢ ، ٢٧٦ ، ٢٨٤ ، ٢٨٦ ، ٢٧٧ ، ٢٧٤ ، ٢٧٥ ، ٢٧٦ ، ٢٦٩ ، ٢٦٨ ، ٢٦٣ ، ٢٦٤ ، ٢٦٥ ، ٢٦٠ ، ٢٦١ ، ٢٥٩ ، ٢٥٨ ، ١٢٦ ، ١٢٤ : حش بن عبد الله الصنعاني ، ١٦٩ ، ١٧٠ ، ١٨٢ ، ٢٠٥ ، ٢٧٧	خارجة بن حذافة : ٦٦ خالد بن الوليد : ٩٠ خالد بن ثابت الفهرى : ١٤٩ وانظر خالد بن ثابت الفهمى خالد بن يزيد القبسى : ٢٥١ ، ٢٥٦ ، ٢٥٧ ، ٢٤٥ : داهيا بنت ماتي بن تيفان وانظر دامية دورا : ١ دومنيك كبير قساوسة قرطاجنة : ٣١ دي سلين : ١ دينار أبو المهاجر : ٨٨ ، ١١٨ ، ١٥١ ، ١٥٣ ، ١٥٤ ، ١٥٥ ، ١٥٧ ، ١٦٢ ، ١٦٥ ، ١٦٨ ، ١٧٥ ، ١٨١ ، ٢٠٥ ، ٢٣٣ ، ٢٩ : دوناتوس (الأسقف) ، ٢٦١ : ديودور الصقلي ، ١٩٥ : ذو القرنين : ٩٢ ، ٨٤ : ريمة بن عباد الديلى : ٩٢ ، ٨٤ : روى (مؤرخ) : ١٩٤ ، ١٢٦ ، ١١٩ : روفع بن ثابت الأنصارى : ١٢٦ ، ١١٩ : زانا بن يحيى بن ضرى بن زجيك بن مادغيش الأبطر : ٩
زيد أبو طارق : ١٧٦ سالوست : ٦ ستدير بن روى : ١٦١ ، ١٦٢ ، ١٦٥ ، ١٦٦ : وانظر سقرديد بن روى بن بارزت ابن برزيات سحنون بن سعيد : ١٤٩ ، ٢٩٨ سرجيوس : ٢٤ سعيد حاكم مصر : ٢٠٥ سعيد بن عفير : ٩١ سعيد بن مسعود التجيبي : ٢٩٦ سعيد بن يزيد : ١٤٩ ، ١٧٩ سفيان بن وهب : ٢٩٧ ، ٢٩٨ سفروس : ٢٧ سلامون (سليمان) : ٢٤ سليمان بن عبد الملك : ٢٢ ، ٣٠ ، ٥٠ ، ٥١ ، ٢٧٩ ، ٢٨٩ ، ٢٩٠ ، ٢٩٥ ، ٢٩١ سليمان بن يسار : ١٢٦ سنت أوغسطين : ٢٧ ، ٢٨ سودة الجرامى : ٢٩٧ سويد بن قيس : ٢١٨	

فهرس الأعلام

عبد الله بن أنس ، ٨١	سيف : ١٠٢
عبد الله بن جعفر : ٩٠	سيفاكس : ١٦٦
عبد الله بن زيد بن الخطاب : ٨١	سينيسوس القيريني : ٢٨٠
عبد الله بن سعد بن أبي سرح : ١٩ ، ٤٠ ، ٦٧ ،	شاكر : ٢٨٨
٦٩ ، ٧٣ ، ٧٥ ، ٧٦ ، ٧٧ ،	شريك انعبسى : ١٧٤
٧٨ ، ٧٩ ، ٨٠ ، ٨١ ، ٨٢ ،	شريك بن سمى الفطيني : ١٣١ ، ١٣٢
٨٣ ، ٨٤ ، ٨٥ ، ٨٦ ، ٨٧ ،	شريك بن سمى المراضى : ١٣٥
٨٨ ، ٨٩ ، ٩٠ ، ٩١ ، ٩٣ ،	شعيب : ١٠٢
٩٤ ، ٩٥ ، ٩٨ ، ٩٩ ، ١٠٠ ،	شعبة عثمان : ١١٠ ، ١١٧
١٠١ ، ١٠٢ ، ١٠٣ ، ١٠٤ ،	صفرونيوس : ٤٥ ، ٤٦
١٠٥ ، ١٠٦ ، ١٠٧ ، ١١٠ ،	طارق بن زياد : ١٧٦ ، ١٩٣ ، ١٩٤ ، ٢٨٦
١١١ ، ١١٢ ، ١١٧ ، ١١٩ ،	طلحة : ٨٠ ، ١٠٢
١٢٧ ، ١٣٠ ، ١٤٨ ، ١٤٩ ،	عاصم بن عمر : ٨١
١٥٧ ، ١٧٤ ، ٢٠٣ ، ٢٠٦ ،	عبد الأعلى بن جريج الإفريقي : ٢٧٨
٢٠٧ ، ٢٢١ ، ٢٦٨ ، ٢٦٩ ،	عبد الرحمن بن الأسود بن عبد يقوث : ٨١
عبد الله بن سعيد : ٩٥	عبد الرحمن بن زياد بن أنعم : ٢٥٢
عبد الله بن طلحة : ٨١	عبد الرحمن بن سياد : ٢٩٧
عبد الله بن عباس : ٨١ ، ١٠٤	عبد الرحمن بن نافع : ٢٩٦
عبد الله بن عمر بن الخطاب : ٨١ ، ١٢٠	عبد العزيز بن مروان : ٢١٥ ، ٢١٦ ، ٢١٧ ،
عبد الله بن عمرو بن العاص : ٨١ ، ١١١ ،	٢١٨ ، ٢٢٧ ، ٢٢٨ ، ٢٦٢ ،
١٤٧ ، ١٤٨ ، ١٤٩	٢٦٣ ، ٢٦٤ ، ٢٦٨ ، ٢٧١ ، ٢٧٢
عبد الله بن قيس : ١٢٦	عبد القيس بن لقيط : ١٣٠
عبد الله بن موسى : ٢٧٩	عبد الله بن أبي بكر : ٨١
عبد الله بن الحجاب : ٢٦٣	عبد الله بن الحجاب : ٢٩٠ ، ٢٩٤
عبد الله بن عباس : ٨١	عبد الله بن الزبير بن العوام : ٦٤ ، ٧٨ ، ٨١ ،
عبد المطلب بن السائب بن وداعة : ٨١	٨٣ ، ٨٦ ، ٨٧ ، ٨٨ ، ٨٩ ، ٩٠ ،
عبد الملك بن مروان : ١٢٠ ، ١٢١ ، ١٢٢ ،	٩١ ، ٩٢ ، ٩٣ ، ٩٤ ، ٩٥ ، ١٠٠ ،
١٢٣ ، ١٢٤ ، ١٢٥ ، ١٢٦ ، ١٥٠ ،	١٠٢ ، ١٠٣ ، ١٠٥ ، ١٢٠ ،
٢٠٥ ، ٢١٧ ، ٢١٨ ، ٢١٩ ، ٢٢٨ ،	١٢١ ، ١٥٦ ، ٢١٧ ، ٢٣٥ ،
٢٣٣ ، ٢٣٤ ، ٢٣٥ ، ٢٣٦ ، ٢٣٧ ،	٢٣٦ ، ٢٦٨
٢٥٠ ، ٢٥٥ ، ٢٥٦ ، ٢٦٢ ، ٢٦٤ ،	عبد الله بن المغيرة بن بردة الكنانى : ٢٧٧
٢٦٦ ، ٢٧١ ، ٢٧٢	

فهرس الأعلام

٢١٠، ٢١١، ٢١٣، ٢١٤، ٢١٩،
٢٢١، ٢٢٥، ٢٢٦، ٢٢٧، ٢٢٨،
٢٢٩، ٢٣٠، ٢٣٢، ٢٣٣، ٢٣٤،
٢٤٣، ٢٤٧، ٢٤٩، ٢٥٢، ٢٦٨،
٢٧٠، ٢٧١، ٢٨٢، ٢٨٣، ٢٨٦،

٢٨٨

علقمة بن رمثة البلوى : ٢١٨

على بن أبي طالب : ٦٥، ٨٠، ١١٢، ١١٨،
١٣١

على بن زياد : ٢٩٦

عمر بن الخطاب : ١، ٥٥، ٦٦، ٦٧، ٦٨،
٧١، ٧٦، ٧٩، ٨٠، ٨١، ٨٤،

٢٨٢، ٢٨٣

عمر بن عبد العزيز : ٢٧٦، ٢٨٣، ٢٩٥،
٢٩٦

عمر بن علي القرس : ١٨١

عمر بن علي القرشي : ١٣٦، ١٨٥

عمران بن عوف الغافقي : ٢٩٧

عمرو بن العاص : ٥١، ٥٢، ٥٣، ٥٥،
٥٦، ٥٧، ٥٨، ٥٩، ٦١، ٦٢،

٦٤، ٦٥، ٦٦، ٦٧، ٦٨، ٦٩،

٧٠، ٧١، ٧٤، ٧٦، ٧٧، ٧٨،

٧٩، ٨٥، ٩٠، ٩٩، ١٠٥،

١١١، ١١٨، ١٣٠، ١٣١، ١٣٢،

١٣٣، ١٣٤، ١٣٥، ١٤٨، ١٤٩،

٢٠٤، ٢١١، ٢٧١، ٢٨٢

عمير بن وهب الجمحي : ٦٦

عيسى بن عبد الله الطويل : ٢٩٠

عيسى بن عيسى بن محمد : ١١٦

عينه بن حصن : ١٩٥

غياث بن أبي شيب : ٢٩٧

عبد الملك بن مسلمة : ٤٠، ٦٨، ٨٠، ٩١،
١٠٤، ١١٥، ١٢٦، ١٥٦

عتبة بن أبي سفيان : ١١٨، ١٣٥، ١٤٨

عثمان بن عفان (الإمام المظلوم) : ٧، ٧٦،

٧٩، ٨٠، ٨١، ٨٢، ٨٦، ٨٧،

٩١، ٩٢، ٩٤، ١٠٠، ١٠٢،

١٠٣، ١٠٤، ١٠٥، ١٠٦، ١٠٧،

١١٠، ١١٥، ١١٧، ١٢٥، ١٣٥،

١٤٦، ١٥١، ٢٦٩، ٢٧١، ٢٨٢،

٢٨٣

عدنان : ٨

عقبة بن عامر الجهني : ٨٢، ١١١، ١٤٨،

١٤٩

عقبة بن نافع بن عبد القيس الفهري : ٥١، ٥٣،

٥٤، ٥٦، ٥٧، ٥٨، ٥٩، ٦٥،

٦٩، ٧٠، ٧١، ٧٦، ٧٧، ٨١،

٨٢، ٨٤، ١١٢، ١١٨، ١١٩،

١٢٤، ١٢٩، ١٣٠، ١٣١، ١٣٢،

١٣٣، ١٣٤، ١٣٥، ١٣٦، ١٣٧،

١٣٨، ١٣٩، ١٤٠، ١٤٢، ١٤٣،

١٤٤، ١٤٥، ١٤٦، ١٤٧، ١٤٨،

١٤٩، ١٥٠، ١٥١، ١٥٢، ١٥٣،

١٥٤، ١٥٧، ١٥٨، ١٥٩، ١٦٠،

١٦٢، ١٦٣، ١٦٥، ١٦٦، ١٦٧،

١٦٨، ١٧٠، ١٧١، ١٧٢، ١٧٥،

١٧٧، ١٧٨، ١٧٩، ١٨٠، ١٨١،

١٨٢، ١٨٣، ١٨٤، ١٨٥، ١٨٦،

١٨٧، ١٨٨، ١٨٩، ١٩٠، ١٩١،

١٩٢، ١٩٣، ١٩٤، ١٩٥، ١٩٦،

١٩٧، ١٩٨، ١٩٩، ٢٠٠، ٢٠١،

٢٠٢، ٢٠٣، ٢٠٤، ٢٠٥، ٢٠٦،

فهرس الأعلام

٢٢٨ ، ٢٣٠ ، ٢٣٣ ، ٢٣٨ ، ٢٤٣ ،	فارق بن مصرم : ١
٢٤٤ ، ٢٤٧ ، ٢٤٨ ، ٢٤٩ ، ٢٨٥	فالاسيوس : ٤٦
يكتب أيضاً كسيلة بن أغز الأوربي ،	ظطوري : ١
كسيلة بن لزم ، كسيلة بن لزم ،	فوكاس : ٢٣ ، ٣٤ ، ٣٥ ، ٣٦ ، ٥٠
كسيلة النصراني	فولجنتيوس فراندوس : ٢٨
كعب بن عمرو : ٨١	فيوكتيتوس : ٢٥
كوتسينا : ٢٢	قحطان : ٨
كوربيوس : ٢٧ ، ٢٨	قدونيوس : ١٣٩
كورنيليوس : ٥٧	قسطنطين : ٤٥ ، ٤٧ ، ٥٠ ، ١١٣ ، ١١٤ ،
كوليبوس : ٣١	١٦٠ ، ١٦١
كوهين : ٢٤٥	قسطنطين الثاني (الامبراطور) : ٤٠ ، ١١٢ ،
لالافاطمة : ٢٤٥	١١٣ ، ١٢٦ وانظر قسطنط
لذريق : ١٩٢	قسطنطين الثالث : ٤٤ ، ٤٦ ، ١١٣ ، ١١٥ ،
لوا الأصغر بن لوا الأكبر بن زحيك : ٥٣	١٦٢
ليبو : ١٤٢	قسطنطين الرابع : ١٣٨ ، ١٣٩ ، ١٦٠ ،
ليسرج : ٦٨	١٨٩ ، ٢١٣
ليون الإفريقي : ٩٢	قيرس : ٢٤ ، ٤٣ ، ٤٥ ، ٢٠٤
ليونتيوس : ٢٥٣	قيس : ٨
ليونس : ٢٣٤ ، ٢٥٣	قيصريوس : ٣٨
مادغيس بن بر الأبطر : ٨ ، ٩	كاهنة لواتة : ٢٦٣
مارتن (البابا) : ١١٣ ، ١٢٦	كسيلة بن لزم الأوربي البرنسي : ٣٠ ، ١٦١ ،
مارتينة (الإمبراطورة) : ٤٥	١٦٢ ، ١٦٣ ، ١٦٤ ، ١٦٥ ، ١٦٦ ،
ماسديو : ١٩٤	١٦٧ ، ١٦٨ ، ١٦٩ ، ١٧٠ ، ١٧١ ،
ماسكري : ١٦٦	١٧٢ ، ١٧٥ ، ١٧٦ ، ١٨٠ ، ١٨١ ،
ماسوناس : ٣٠	١٨٣ ، ١٨٥ ، ١٨٦ ، ١٩٠ ، ١٩٥ ،
ماسونا ماستيجاس : ٢٢	١٩٦ ، ١٩٧ ، ١٩٨ ، ١٩٩ ، ٢٠١ ،
ماكسن : ٦ ، ١٦٦	٢٠٤ ، ٢٠٥ ، ٢٠٦ ، ٢٠٧ ، ٢١٠ ،
مالك بن مروان : ٢٣٨	٢١١ ، ٢١٢ ، ٢١٣ ، ٢١٤ ، ٢١٥ ،
محمد بن أبي بكر : ١٣٥ ، ١٧٨ ، ٢٨٤	٢١٦ ، ٢١٩ ، ٢٢٠ ، ٢٢١ ، ٢٢٢ ،
محمد بن أبي بكير : ٢٣٨	٢٢٣ ، ٢٢٤ ، ٢٢٥ ، ٢٢٦ ، ٢٢٧ ،

فهرس الأعلام

معاوية بن حديج الكندي (السكوني): ٨١، ١٠٩،	محمد بن أحمد بن تميم: ١٤٩
١١١، ١١٢، ١١٣، ١١٤، ١١٥،	محمد بن أوس الأنصاري: ١٩٩
١١٦، ١١٧، ١١٨، ١١٩، ١٢٠،	محمد بن سعد: ٥٥، ٩١
١٢٢، ١٢٣، ١٢٤، ١٢٥، ١٢٦،	محمد بن عبد العزيز: ٢٩٦
١٢٧، ١٢٨، ١٣٧، ١٣٦، ١٣١،	محمد بن يزيد بن مولى قريش: ٢٧٣، ٢٧٩
١٣٩، ١٤٠، ١٤٧، ١٤٨، ١٤٩،	٢٨٩، ٢٩٥ وانظر محمد بن يزيد القرشي
١٥٠، ١٥٣، ١٥٤، ٢١٣، ٢١٤، ٢٣٣،	محمد بن يوسف: ٢٢٠
٢٧٠، ٢٧١، ٢٧٢،	مهربنة: ٤٧
معن التنوخي: ٢٩٦	مهرباق: ٢٣٩
المقوقس: ١٩٣	مروان بن عبد الحكم: ٨١، ٨٧، ٩٠، ٩٤،
مكسيم (الراهب): ٤٥، ٤٦، ٤٧،	١٠٢، ١٠٣، ١٠٤، ١٠٥، ١١٥،
مكسيميان: ٢٧	٢١٥
ملك الأندلس: ٦٨	مروة بن ليشرح: ٦٨
ملك العرب الأعظم: ٢٥٧	مسلم بن عقبة المري: ٢١٧
ملوك الروم: ٦٨، ٨٤، ٨٥، ٢٦٥،	مسلمة بن سعيد: ٥٥
موريس (الإمبراطور): ٣٢، ٣٤، ٥٠ وانظر	مسلمة بن عبد الملك: ٨٩
موريق	مسلمة بن خالد الأنصاري: ١١٨، ١٢٧،
موسى بن نصير: ٩٠، ٢١٦، ٢٦٥، ٢٦٦،	١٣١، ١٤٦، ١٤٧، ١٤٨، ١٤٩،
٢٧١، ٢٧٢، ٢٧٣، ٢٧٥، ٢٧٧،	١٥٠، ١٥١، ١٥٦، ١٥٧، ١٥٨،
٢٧٨، ٢٨٧، ٢٨٨، ٢٨٩، ٢٩٠،	١٥٩، ١٧٠، ١٧٣، ١٧٨، ١٧٩،
ميسرة السقاء: ٢٧٧، ٢٩١، ٢٩٤،	٢٠٥، ٢٦٨، ٢٧١،
نافع بن القيس: ١٣٠	مصعب بن الزبير: ٢١٧
نافع مولى آل الزبير: ٩١	معاوية بن أبي سفيان: ٦٥، ٩٤، ١٠٣،
نقراو: ٥٣	١٠٧، ١١٠، ١١١، ١١٢، ١١٣،
نقفور: ١١٩، ١٢٠، ٢٣٦، ٢٥٤، ٢٥٩،	١١٤، ١١٦، ١١٧، ١١٨، ١١٩،
نقبتاس بن جريجور يوس: ٣٥، ٣٨، ٣٩،	١٢١، ١٢٢، ١٢٤، ١٢٥، ١٢٦،
هانء بن نكفور الضريسى: ٢٢٣	١٢٧، ١٣١، ١٣٤، ١٣٥، ١٣٧،
هرقل (البطريق): ١٣، ٢٣، ٣٠، ٣٤،	١٣٨، ١٤٦، ١٤٧، ١٤٨، ١٤٩،
٣٥، ٣٦، ٣٩، ٤٠، ٤٣، ٤٤،	١٥٠، ١٥١، ١٥٩، ١٧٨، ٢٠١،
٤٥، ٤٦، ٥٠، ٦٠، ٨٣، ٨٤،	٢٧١، ٢٧٢، ٢٨٣،
٩١، ٩٣، ١١٤، ١٩٢،	

فهرس الأعلام

هرقل الصغير : ٤٥	يحيى بن عبد الله بن بكير : ١٣٥
هرقل الكبير : ٣٨	يزيد بن أبي حبيب : ١١٥ ، ١٤٤ ، ١٥٦
هرقل قسطنطين : ٣٩	يزيد بن أبي مسلم : ٢٧٩ ، ٢٨٩
هرقلوناس : ٤٥ ، ٤٧	يزيد بن حاتم : ٢٧٧
هشام بن عبد الملك : ٢٩١	يزيد بن عبد الملك : ٢٨٩
هلال بن شروان اللواتى : ٢٣٨ ، ٢٨٤	يزيد بن معاوية : ١٥٨ ، ١٥٩ ، ١٦٨ ، ١٧٨
هوميروس : ١	١٧٩ ، ١٨٤
هيرودوت : ٢	يليان : ١٩١ ، ١٩٣ ، ١٩٤
وزمار بن صقلاب : ٢٨٢ ، ٢٨٣	يوبيا (أمير نوميدية) : ٦ ، ٢٨
يابداس : ٢٢	يوجورثا : ٦ ، ١٦٦
يافوه بن يونس : ١	يوحنا (البطريق) : ٢٤٢ ، ٢٥٤ ، ٢٥٥ ، ٢٦٠
ياقوت : ٣	يوديسيا : ٣٥
يحيى بن الحكم بن أبي العاص : ١٢٠	يوسف بن عدى : ١٢٧
يحيى بن بكير : ١٥٠ ، ٢١٦	يوليان : أنظر يليان

ب — فهرس الأجناس والشعوب والقبائل والألفاظ الاصطلاحية

١٣٨، ١٤٣، ١٤٦، ١٥٤، ١٥٧،	أسقف روسبنس : ٢٨
١٥٩، ١٦٠، ١٦١، ١٦٣، ١٦٤،	أسقف نوميدية : ٣١
١٦٥، ١٦٦، ١٦٧، ١٦٨، ١٧٠،	أسلم (قبيلة عربية) : ٨١
١٧١، ١٧٢، ١٧٦، ١٨٠، ١٨١،	أشراف العرب : ٢١٨، ٢٥٥
١٨٢، ١٨٣، ١٨٤، ١٨٥، ١٨٦،	أشراف المسلمين : ٢٥٥
١٨٩، ١٩٠، ١٩١، ١٩٢، ١٩٣،	أشراف قريش : ١٢١
١٩٤، ١٩٥، ١٩٦، ١٩٧، ١٩٨،	أصحاب الدراري والأنقال : ٢٢٧
١٩٩، ٢٠١، ٢٠٢، ٢٠٧، ٢١٠،	الأسطول البيزنطي : ٢٥٤، ٢٦٠
٢١١، ٢١٢، ٢١٩، ٢٢٠، ٢٢١،	الأبحار : ١٨٥
٢٢٢، ٢٢٣، ٢٢٤، ٢٢٥، ٢٢٦،	الأفارقة : ١، ٥، ٧، ٤٠، ٩٣، ١٠٦، ١٢٠،
٢٣٠، ٢٣٢، ٢٣٤، ٢٣٧، ٢٣٨،	٢٥٣، ٢٧٧، ٢٧٨
٢٣٩، ٢٤٠، ٢٤١، ٢٤٢، ٢٤٣،	الأفارقة اللاتينيون : ٧
٢٤٤، ٢٤٥، ٢٤٦، ٢٤٧، ٢٤٨،	الأفارقة المسلمون : ٢٠٧
٢٥٠، ٢٥١، ٢٥٢، ٢٥٣، ٢٥٦،	الإفريقيون : ٤٣، ٤٧، ١٨٦، ٢٠١ وانظر
٢٥٧، ٢٥٨، ٢٥٩، ٢٦٢، ٢٦٥،	الأفارقة
٢٧٤، ٢٧٥، ٢٧٦، ٢٧٧، ٢٧٨،	الإفرنج : ٥، ١٠٠، ١٦٣، ١٧٠، ١٧٢،
٢٨٠، ٢٨١، ٢٨٢، ٢٨٣، ٢٨٤،	وانظر الفرنج والفرنجية
٢٨٥، ٢٨٦، ٢٨٧، ٢٨٨، ٢٨٩،	الأرثوذكس : ١٦٠
٢٩٠، ٢٩١، ٢٩٢، ٢٩٣، ٢٩٤،	الأرثوذكسية : ٤٤، ٤٥
٢٩٥، ٢٩٦، ٢٩٨، ٢٩٩،	الأمويون : ١١٠، ١٢٢، ١٤٦، ٢٣٦،
البربر البتر : ٥٣، ٢٣٠، ٢٥٧ وانظر البتر	٢٩٣، ٢٩٤
البربر البدو : ٢٣٤، ٢٤٨، ٢٨٤، ٢٨٥،	الأمير العربي : ٢٦٠
البربر الجنوبيون البدو : ٢٢٠، ٢٣٨،	الإنجيل : ٢٦٢
البربر الحضرة : ٦، ٩، ٢٨٥،	الأنساب العربية : ٢٩٤
البربر الرحل : ٦	الأنصار : ١٢٦، ١٥٠، ١٥٦، ١٥٨،
البربر المستقرون : ٦	الأوراس : ٢١١
البربر المسلمون : ٢٩٢	البابوية : ٣٨، ٤٣، ٤٦، ٤٧، ١١٣،
بربر الأوراس : ٢٨	البربر : ١، ٥، ٦، ٧، ٨، ٢٧، ٣٩،
بربر البرانس : ٢٢٠	٥٥، ٥٦، ٥٧، ٥٩، ٦٣، ٧٥،
بربر برقة : ٥١، ٥٤، ٥٥	٨٤، ٨٧، ٩٦، ٩٩، ١٠٠،
بربر الجنوب : ٢١١	١١٣، ١٣٠، ١٣٢، ١٣٣، ١٣٥،
بربر الشمال : ٢١١	

فهرس الأجناس والشعوب والقبائل والألفاظ الاصطلاحية

- الجيوش العربي : ٢٣٤ ، ٦٣
الجيوش الإسلامية : ٢٣٣ ، ١٠٠
الحاكم المدني القديم : ٣٢
الخارجون : ٢٧٢
الخارجية : ٢٩٤
الحلف البربري الرومي : ١٩٨ ، ١٩٢ ، ١٩٠
٢٣٤ ، ٢٢٢
الحضر (حزب بيزنطي) : ١٢
الحلافة : ٢١٨
الخوارج : ٢٩٤
الدنانير : ٨٤
الدوناتية : ٢٨١ ، ٣١ ، ٣٠ ، ٢٩
الدوناتيون : ٢٨١
الدولة الإسلامية : ١١٦ ، ١١٢ ، ١٥٦ ،
٢٧٢ ، ٢٣٣ ، ٢١٧ ، ٢٣٣ ، ٢٣٣
الدولة البيزنطية : ١٣٣ ، ١٦٠ ، ٢٢٦ ،
٢٣٩ ، ٢٣٢
الروم : ٢ ، ٥ ، ١٢ ، ٢١ ، ٢٦ ، ٣٩ ،
٤٠ ، ٥١ ، ٥٢ ، ٥٣ ، ٥٧ ، ٦١ ،
٦٢ ، ٦٣ ، ٦٦ ، ٧٧ ، ٧٩ ، ٨٥ ، ٨٦ ،
٨٧ ، ٨٨ ، ٨٩ ، ٩٠ ، ٩٤ ، ٩٥ ،
٩٦ ، ٩٧ ، ٩٨ ، ٩٩ ، ١٠٠ ، ١٠١ ،
١٠٧ ، ١١٣ ، ١١٤ ، ١١٥ ، ١١٩ ،
١٢٠ ، ١٢١ ، ١٢٢ ، ١٢٥ ، ١٣٣ ،
١٤٣ ، ١٤٥ ، ١٤٦ ، ١٥٩ ، ١٦٠ ،
١٦١ ، ١٦٤ ، ١٦٦ ، ١٦٧ ، ١٦٨ ،
١٦٩ ، ١٧٣ ، ١٧٤ ، ١٧٥ ، ١٨٠ ،
١٨٢ ، ١٨٣ ، ١٨٤ ، ١٨٥ ، ١٨٧ ،
١٨٨ ، ١٨٩ ، ١٩٠ ، ١٩١ ، ١٩٢ ،
١٩٧ ، ١٩٨ ، ١٩٩ ، ٢٠١ ، ٢٠٤ ،
٢٠٦ ، ٢٠٧ ، ٢١٢ ، ٢١٣ ، ٢١٤
- بربر المغرب الأقصى : ٢٨٧
بربر إفريقيا : ١٦٨ ، ٥١
بربر أنطالاس : ٢٥
بربر طرابلس : ٥١
بربر طنجة : ٢٨٨ ، ١٨٠
برابرة الزاب : ٢٤٣
الجنس البربري : ٢٤٦
الشعب البربري : ٢٧٨
بربري : ٢٧٥ ، ٢٥٨ ، ٢٥١ ، ٢٤٣ ، ١٥٤
قبائل بربرية : ٢٩٤ ، ٢٩٢ ، ٢٤٨ ، ١٣٨
مسلمو البربر : ٢٢١
نسابة البربر : ٢٨٥
نصارى البربر : ١٨٢ ، ١٦١
البرانس : ٢١١ ، ٢٠١ ، ١٦٦ ، ١٦١ ، ٨ ،
٢٤٨ ، ٢٤٤ ، ٢٣٠ ، ٢٢٤ ، ٢٢٠ ،
٢٥٨ ، ٢٥٢
برانس حضر : ٢٨٥ ، ٢٤٤
البر : ٢٤٤ ، ٢٤٣ ، ٢٣٠ ، ١٦١ ، ٨ ، ١ ،
٢٤٥
البرالحضر : ٢٨٧ ، ٢٨٥ ، ٢٤٣ ، ٢٣٤
بتر بدو : ٢٨٥
البيزنطيون : ٣٣ ، ٣١ ، ٧ ، ٦ ، ٥ ، ٢ ،
٤٦ ، ٥٠ ، ٧٥ ، ٩٧ ، ١١٤ ،
٢٠١ ، ٢١٤ ، ٢٣٣ ، ٢٤٨
الحضارة البيزنطية : ٢٠١ ، ٢٢٠
التابعون : ٢٩٦
التوابون : ٢١٧
الجاهلية : ٢٥٣
الجند الإسلامي : ٢٦٢
الجيش الإفريقي : ١١٥

فهرس الأجناس والشعوب والقبائل والألفاظ الاصطلاحية

العلويون : ٩٠	٢٢٢، ٢٢٠، ٢١٩، ٢١٨، ٢١٥
المعجم : ١٢٥ ، ١٨٥	٢٢٧، ٢٢٦، ٢٢٥، ٢٢٤، ٢٢٣
عجم إفريقية : ١٦٨ ، ١٦٩ ، ٢٧٣	٢٣٣، ٢٣٢، ٢٣٠، ٢٢٩، ٢٢٨
العثمانية : ١١٢ ، ١٣١ ، ١٣٥	٢٣٩، ٢٣٨، ٢٣٧، ٢٣٥، ٢٣٤
عثماني : ١٤٧	٢٤٥، ٢٤٤، ٢٤٣، ٢٤١، ٢٤٠
العرب : ٢ ، ٥ ، ٧ ، ٣٩ ، ٤٢ ، ٤٦	٢٥٨، ٢٥٥، ٢٥٤، ٢٥٣، ٢٤٧
٥١ ، ٥٢ ، ٥٥ ، ٥٧ ، ٦٠ ، ٦١	٢٥٩، ٢٦٠، ٢٦١، ٢٦٢، ٢٦٣
٦٢ ، ٦٣ ، ٦٧ ، ٧٤ ، ٧٥ ، ٧٦	٢٦٤، ٢٦٥، ٢٧٣، ٢٧٤، ٢٧٧
٧٧ ، ٨١ ، ٨٤ ، ٨٥ ، ٨٦ ، ٨٧	٢٧٨، ٢٨٠، ٢٨٤، ٢٨٥، ٢٨٨
٨٨ ، ٩٠ ، ٩٣ ، ٩٤ ، ٩٦ ، ٩٧	رومي : ١١٤ ، ٢٠١
٩٨ ، ٩٩ ، ١٠٠ ، ١٠١ ، ١٠٦	روم إفريقية ، ١٤٥ ، ١٦١ ، ١٨٣ ، ١٨٩
١١٣ ، ١١٤ ، ١١٥ ، ١١٩ ، ١٢٠	٢١٣ ، ٢١٤ ، ٢١٥ ، ٢٢٦ ، ٢٣٤
١٢٣ ، ١٢٤ ، ١٢٥ ، ١٢٦ ، ١٢٧	٢٤١
١٣٢ ، ١٣٣ ، ١٣٤ ، ١٣٩ ، ١٤١	روم بيزنطة : ٥٣ ، ٢٢٦
١٤٢ ، ١٤٥ ، ١٤٧ ، ١٤٩ ، ١٥٣	روم طرابلس : ٦٣
١٥٤ ، ١٥٦ ، ١٥٧ ، ١٥٩ ، ١٦٠	الرومان : ٢ ، ٢٩ ، ٣١ ، ٣٢ ، ٥٧ ، ٢٨٠
١٦١ ، ١٦٢ ، ١٦٣ ، ١٦٤ ، ١٦٥	الزرق : (حزب بيزنطي) : ١٢
١٦٦ ، ١٦٧ ، ١٦٨ ، ١٧١ ، ١٧٢	السوس : ٢٨٧
١٧٣ ، ١٧٤ ، ١٧٦ ، ١٨٢ ، ١٨٦	الشعبة : ٢١٧ ، ٢٣٣ ، ٢٣٦ ، ٢٩٤
١٨٨ ، ١٨٩ ، ١٩٠ ، ١٩١ ، ١٩٢	الصحابة : ٦٥ ، ٨٠ ، ٨١ ، ٨٥ ، ١٢٠
١٩٣ ، ١٩٥ ، ٢٠١ ، ٢٠٤ ، ٢٠٥	الصفريّة : ٢١٨ ، ٢٧٨ ، ٢٩٤
٢٠٦ ، ٢٠٧ ، ٢١٠ ، ٢١١ ، ٢١٢	الصقليون : ١١٤
٢١٣ ، ٢١٤ ، ٢١٥ ، ٢١٨ ، ٢١٩	الصليبيون : ٢٠٣
٢٢٠ ، ٢٢١ ، ٢٢٢ ، ٢٢٣ ، ٢٢٤	الطرابلسيون : ٧٧
٢٢٥ ، ٢٢٨ ، ٢٢٩ ، ٢٣٠ ، ٢٣٢	المساكر المصرية : ٢٠٥
٢٣٤ ، ٢٣٧ ، ٢٣٨ ، ٢٣٩ ، ٢٤٠	العصر الإسلامي : ٥٣
٢٤٢ ، ٢٤٣ ، ٢٤٤ ، ٢٤٥ ، ٢٤٦	العصر الأموي : ١٨٦ ، ٢٧٤ ، ٢٧٩
٢٤٧ ، ٢٤٨ ، ٢٤٩ ، ٢٥٠ ، ٢٥١	٢٨٩ ، ٢٩٢ ، ٢٩٦
٢٥٢ ، ٢٥٣ ، ٢٥٤ ، ٢٥٥ ، ٢٥٦	العصر العباسي : ١٨٦
٢٥٧ ، ٢٥٨ ، ٢٥٩ ، ٢٦٠ ، ٢٦١	العصر البيزنطي : ٩٧ ، ١٤١ ، ١٦١
٢٦٢ ، ٢٦٣ ، ٢٦٧ ، ٢٦٨ ، ٢٦٩	

فهرس الأجناس والشعوب والقبائل والألفاظ الاصطلاحية

الحضارة البشرية : ٢٩٩	٢٧٠، ٢٧٢، ٢٧٣، ٢٧٤، ٢٧٥،
الحضارة الرومانية : ١٦٦	٢٧٦، ٢٧٨، ٢٨٠، ٢٨٢، ٢٨٤،
الحضارة القديمة : ٢٤٤	٢٨٥، ٢٨٦، ٢٨٧، ٢٨٨، ٢٨٩،
الحضارة العالمية : ٢٩٩	٢٩٢، ٢٩٣، ٢٩٥، ٢٩٧، ٢٩٩،
الحضارة الإسلامية : ٢٧٨	الفتح العربي : ١٥٩، ١٢٥، ٦٢، ٥٢، ٥٠،
الحضارة البيزنطية : ١٦٦، ٢٤٤، ٢٨٥	١٦٢، ٢٦٨، ٢٨٠، ٢٨٢، ٢٩٩،
الحاكم الإفريقي : ١١٣	الفتح الإسلامي : ١١٠، ١٢٧، ١٦١،
الحكام البيزنطيون : ٢٤٤	١٦٦، ٢٥٢، ٢٦٨، ٢٨٠،
الحكم الإسلامي : ٢٧٧، ٢٩٠	عرب الشام : ٢٩٢
الحكم البيزنطي : ٢٨٠، ٢٨١	مهاجرو العرب : ٢٩٢
اللهجات البربرية : ١٥٤	الغزو الوندالي : ٢٨٠
اللومبارد : ١١٣	الفرنسيون : ٢٤٥، ٢٤٦،
القيبيون : ٧، ٢٨٠	الغينيقيون : ٢٤٥، ٢٤١،
المجوسية : ١٩٤	القرآن : ٢٩٨، ٢٩٧، ٢٨٨،
المدلبي : ٦١، ٦٢، ٧١	القطب : ٤٤، ٥٣، ٨٤، ٢٦٢، ٢٦٤،
المدير : ٣٣	قطب مصر : ٤٣، ٤٥، ٥٣، ٢١١، ٢٢٧،
السيحية : ٦٣، ٩٦، ٢١٢	٢٦٢
المسيحيون : ١٣٩، ١٤٦، ٢٨٠، ٢٨٢	القاضي الروماني الأكبر : ٣٣
مسيحيو إفريقية : ١٤٦	القبائل الجنوبية في المغرب : ٢٨٤
المدنيون : ٢٢٩	القرطاجنيون : ٦
المصريون : ٢٠٥	القصاصد اليوحية (كتاب) : ٢٧، ٢٨،
المصامدة : ١٩٤، ٢٠٠، ٢٨٤، ٢٨٨	القناصل السابقون : ٣٣
مصامدة جبل درن : ٢٠٠	القيسية : ٢٩٢
المضربة : ٢٩٢	القيسيون : ٢٦٩
المضربون : ٢٦٩	القوط : ١٩٢
المغربيون : ١٣٢، ١٤٠، ١٤٩، ١٨٧،	قوط لإسبانية : ١٩٢
١٩٠	الكفار والعشركون : ١٣١، ٢١٩، ٢٥٤،
الملكانيون : ٤٣	٢٨٧، ٢٨٩،
أم المغرب : ٢٥٠، ٢٦٨	اللاتينيون : ٥، ٦، ٢٠١، ٢٦٢، ٢٧٨،
المهاجرون : ١٢٦	الحضارة اللاتينية : ١٩٠، ٢١٢، ٢٨٨،
المور (Les Maures) : ٢٨٠	

فهرس الأجناس والشعوب والقبائل والألفاظ الاصطلاحية

بنو حذر (قوم وزمار بن صولات) : ٢٨٢	المونوثيليون : ٤٥
بنو زهرة : ٨١	المونوثيلية : ٤٣ ، ٤٥ ، ٩٤ ، ١٦٠
بنو سليم : ٨١	المونوفيسي اليعقوبى : ٤٤
بنو سهم : ٨١	المونوفيسيون : ٤٤
بنو عامر بن لؤى : ٨١	النصارى : ١٣٩ ، ١٤٣ ، ١٦١ ، ١٨٢ ، ٢٥٣ ، ٢٤٤ ، ١٩٠
بنو عدى : ٨١	النصرانية : ٢٧٣ ، ٢٨٨
بنو مدلج : ٦١	النوميديون : ٧ ، ٢٨٠
بنو هاشم : ٨١	النصرانية : ٦٢ ، ٦٣ ، ١٩٤ ، ٢٠١
بنو هزبل : ٨١	الهنود : ١
بنو يفرن : ٢٤٣	الوثنية : ٢٨٠
جراوة : ١٦٢ ، ٢٠١ ، ٢٢٤ ، ٢٤٣ ، ٢٤٧ ، ٢٤٥	الوندال : ١١ ، ٢٢ ، ٢٩
جرمة : ٥٧	اليعاقبة : ٤٣
جند العرب : ٢٦٨ ، ٢٦٩ ، ٢٧٠	اليعقوبية : ٤٤
جند المغرب : ٢٧٤ ، ٢٧٧	اليونان : ١ ، ٢٦٢
جهينة : ٨١	إمبراطور الروم : ٣٤ ، ١٦٠
جيش العبادلة : ٨١	أمير مصر : ٢٦٥
حضارات البحر الأبيض المتوسط : ٦	أمير مفاوة : ٢٨٢
حكام المغرب : ٢٦٩	أنبية : ١٨٤ وانظر أنثنة وأنثنة
حكام مصر : ٥٠ ، ١٥٦	أهل الذمة : ٢٢٧ ، ٢٨٩
حياة القديس فولجانتي (كتاب) : ٢٨	أهل اللثام : ١٩٤
دمرة : ٨١	أوربة : ٣٠ ، ١٥٩ ، ١٦١ ، ١٦٢ ، ١٦٤ ، ١٦٥ ، ١٦٦ ، ١٦٧ ، ١٦٨ ، ١٧١ ، ١٧٢ ، ١٨١ ، ١٨٢ ، ١٩٠
زناقة : ٩١ ، ١٦١ ، ٢٠٠ ، ٢٠١ ، ٢٠٦	برغواطة : ٢٠٠ ، ٢١١ ، ٢٨٤ ، ٢٨٧
٢١١ ، ٢٤٣ ، ٢٨٢ ، ٢٨٤ ، ٢٨٧	بطريق : ١٠٥ ، ١٩١
زواغة : ١٦٢	بنو أسد بن عبد الغزى : ٨١
صقلاب : ٢٨٢	بنو الدليل : ٨١
صنهاجة : ٩ ، ١٦١ ، ٢٨٧ ، ٢٩٣	بنو أمية : (وانظر : الأمويون) ٨١ ، ١٣٥
عامل إفريقية : ٢٦٣ ، ٢٩٠	٢٣٦ ، ٢٦٥ ، ٢٨٨
عامل المغرب : ٢٧٥ ، ٢٧٧ ، ٢٩٠	بنو تميم : ٨١
عامل مصر : ٢٦٣ ، ٢٧١ ، ٢٧٢ ، ٢٨٩	

فهرس الأجناس والشعوب والقبائل والألفاظ الاصطلاحية

غفار : ٨١	مسلمو صراكش : ٢٤٥
غمارة : ٣٠ ، ١٩١ ، ١٩٣	مسوفة : ١٩٤
فارسي : ١٥٣	مطفرة : ١٦١
فرسان العرب : ٢٥٦	مفراوة : ٢٠٠
فهر : ٢٧٧	مفراوة : ١٦١ ، ١٦٢ ، ٢٨٤
قرشي : ١٣٠	نفوسة : ٥١ ، ٥٢ ، ٥٧ ، ٦٢ ، ٦٣ ، ٦٦
قريش : ٧٨ ، ١٢١ ، ١٢٤	١٦١ ، ١٦٢ ، ٢٠٠ ، ٢٠١ ، ٢٠٦
قرصقة : ٥٦	٢١١ ، ٢٢١ ، ٢٨٤
قصص : ١٦٢	هواره : ٥١ ، ٥٢ ، ٥٧ ، ١٣٢ ، ١٦١
كتامة : ٢٩٣	١٦٢ ، ٢٨٤ ، ٢٨٧
لوا : ٩	والي مصر : ٥٥ ، ١٧١ ، ٢٦٢ وانظر
لوانة : ٧ ، ٢٤ ، ٥٠ ، ٥١ ، ٥٢ ، ٥٣	ولاية مصر
٥٦ ، ٥٧ ، ١٣١ ، ١٣٢ ، ١٣٤	وثنيون : ٢٨٠ ، ٢٨١
٢٠١ ، ٢١١ ، ٢٣٨ ، ٢٨٤	ورجومة : ١٦٢
مدينة الله (كتاب) : ٢٧ ، ٢٨	ولاية خلفاء بني أمية : ٢٨٨
مذهب خلقيدونية : ٤٣	ولاية إسلامية : ١٥٦
مزانة : ٥٣	ولاية إفريقية : ٢٥ ، ١٥٦
مزينة : ٨١	يهود : ٢٨١
مكيانة : ٢٤٧	يوناني : ٢٤٣ ، ٢٤٨ ، ٢٥١

ج - فهرس الأماكن

١٢٦، ١٢٧، ١٢٩، ١٣٠، ١٣١،	آبار حديج : ١٢١، ١٢٤
١٣٣، ١٣٤، ١٣٥، ١٣٦، ١٣٧،	آدرس : ٢٦١
١٣٨، ١٣٩، ١٤٠، ١٤٥، ١٤٦،	آسيا الصغرى : ٣٥
١٤٧، ١٤٨، ١٤٩، ١٥٠، ١٥٣،	آمون (واحة) : ٤
١٥٤، ١٥٥، ١٥٦، ١٥٧، ١٥٨،	الأبله : ٢١٥
١٥٩، ١٦٠، ١٦١، ١٦٢، ١٦٤،	أجدابية : ٢٥٠
١٦٦، ١٦٧، ١٦٨، ١٧٠، ١٧٣،	أذنة : ١٨٩
١٧٤، ١٧٩، ١٨٠، ١٨٤، ١٨٥،	أذنة : ١٩٠
١٨٦، ١٩٣، ١٩٧، ١٩٩، ٢٠٠،	أربة : ١٨٢، ١٨٩ وانظر أربة
٢٠٢، ٢٠٥، ٢٠٦، ٢٠٧، ٢٠٩،	أسبانيا : ٣٢، ١٩٢، ٢٦٢، ٢٦٩، ٢٧٣،
٢١٠، ٢١٣، ٢١٤، ٢١٥، ٢١٦،	٢٩٩، ٢٩٢
٢١٧، ٢١٨، ٢١٩، ٢٢٠، ٢٢١،	أسفانس : ١٤٤
٢٢٥، ٢٢٦، ٢٢٧، ٢٢٨، ٢٣١،	أشلونة : ٢٤١
٢٣٢، ٢٣٣، ٢٣٤، ٢٣٥، ٢٣٦،	اصطفورة : ٢٤٠، ٢٤١ وانظر صطفورة
٢٣٧، ٢٣٨، ٢٣٩، ٢٤١، ٢٤٢،	أعمدة هرقل : ١٤
٢٤٣، ٢٤٥، ٢٤٦، ٢٤٧، ٢٤٨،	أنغات هيلانة (مسجد) : ٢٨٧
٢٤٩، ٢٥٠، ٢٥١، ٢٥٢، ٢٥٣،	أفرى : ١
٢٥٤، ٢٥٥، ٢٥٦، ٢٥٨، ٢٦٠،	
٢٦٢، ٢٦٣، ٢٦٤، ٢٦٥، ٢٦٦،	إفريقية : ١، ٢، ٣، ٥، ٧، ٨، ١١،
٢٦٨، ٢٦٩، ٢٧٠، ٢٧١، ٢٧٤،	١٣، ١٤، ١٦، ٢٢، ٢٤، ٣١،
٢٧٥، ٢٧٦، ٢٧٧، ٢٧٨، ٢٧٩،	٣٢، ٣٣، ٣٦، ٣٩، ٤٠، ٤١،
٢٨٠، ٢٨١، ٢٨٣، ٢٨٤، ٢٨٧،	٤٢، ٤٣، ٤٤، ٤٥، ٤٦، ٤٧،
٢٩٠، ٢٩١، ٢٩٢، ٢٩٥، ٢٩٦،	٥٠، ٥١، ٥٢، ٥٦، ٥٨، ٦٠،
٢٩٧، ٢٩٨، ٢٩٩	٦٣، ٦٤، ٦٥، ٦٦، ٦٧، ٦٨،
	٦٩، ٧٤، ٧٦، ٧٧، ٧٨، ٧٩،
إفريقية الإسلامية : ١٣٠، ١٤٦، ٢٣٣،	٨٠، ٨١، ٨٢، ٨٣، ٨٤، ٨٦،
٢٦٠	٨٧، ٨٨، ٨٩، ٩٣، ٩٤، ٩٥،
إفريقية البيزنطية : ٢، ١٤، ١٩، ٢٥،	٩٦، ٩٧، ٩٨، ٩٩، ١٠٠،
٣٢، ٣٧، ١٢٤، ١٤١، ١٤٦،	١٠٢، ١٠٣، ١٠٤، ١٠٥، ١٠٦،
٢٢٦، ٢٧٣	١٠٧، ١١٠، ١١١، ١١٢، ١١٣،
إفريقية الرومانية : ٢، ١٥،	١١٤، ١١٥، ١١٦، ١١٧، ١١٨،
أفريكا : ٢، ٧	١١٩، ١٢٠، ١٢١، ١٢٤، ١٢٥،

فهرس الأماكن

الجزائر : ٦، ٢	الأجم : ١٩، ٨٣، ٩٧، ٢٦٣ وانظر
الجزيرة : ١١٤، ١٢٦، ٢١٨	الأعجام والجمل والمجم
الجزر البحرية : ٢٥٣	الأريس : ١٨٨، ٩٦
الحجاز : ١١٠، ٢١٧	الإسكندرية : ٣، ١٨، ٤٤، ٤٥، ٥٢،
الحمامات : ١٧٣، ١٧٤	١١٤، ٧٠، ٦٨، ٥٦، ٥٤، ٥٣
الرباطات : ٢٨٥، ٢٢٥، ٢١٤، ٥٠ وانظر	الأطلس (درن) : ٢٠٦، ٤
الرباط	الأطلس الأدنى : ٢٠٠
الرمال التي هي أول بلاد السودان : ٣	الأطلس المتوسط : ٢٠٠
الريف (هضبة) : ١٩١	الأطلس الوسطى (جبال) : ١٩١
الزاب : ٢٨، ٣٠، ٣٢، ١٨٢، ١٨٤،	الإمبراطورية البيزنطية : ٥
١٨٧، ١٨٨، ١٨٩، ١٩٠	الإمبراطورية الرومانية : ٤٦، ٢٨٠
الزيتونة : ٢٦، ١٤٤، ١٧٤، ٢٩٦	الأمصار : ٢٨٩
السهل الداخلي : ٢٥٥	الأندلس : ٣، ١٩٢، ١٩٣، ٢٣٩، ٢٥٣،
السهل الساحلي : ٧٦	٢٨٩، ٢٩٢، ٢٩٩
السهل المتوسط : ١٩٧	الأوراس : ٦، ١٤، ١٥، ٢٢، ٢٦، ٣٠،
السودان : ٣، ١٣١، ١٣٤	٤٠، ٤٢، ٧٥، ١٦٢، ١٦٥،
السوس : ٤، ١٧٩، ١٨٤، ١٨٥، ١٩٤،	١٦٦، ١٦٧، ٢٠٠، ٢١٤، ٢٢١،
١٩٧	٢٢٤، ٢٢٥، ٢٢٣، ٢٤٥، ٢٤٦،
السوس الأدنى : ٤، ١٨٤، ١٩٢، ١٩٤،	٢٤٧، ٢٤٨، ٢٤٩، ٢٥٧، ٢٥٩،
٢٠٠	البحر الأبيض المتوسط : ٣، ٦، ٦١، ١٩٤،
السوس الأقصى : ٤، ١٧٩، ١٩٤، ٢٠٠،	٢٦٣، ٢٧٣، ٢٩٩
الشام : ٣٥، ٤٤، ١١٠، ١١٣، ١١٤،	البحر الأسود : ١١٣
١٢٦، ١٣٥، ١٤٩، ١٥٧، ٢٠٣،	البحر الشامي : ٣
٢١٨، ٢٩٢	البلاد العربية : ١٠٧
الصعيد : ٦٦	البلقان : ١٦٠
الطين (وادي) : ٣	البليار (جزائر) : ٣٢
العراق : ٢١٧، ٢٣٣، ٢٨٩	الثل : ٣٠
الفرما : ١٨	الجرف : ٨١، ٨٢
الفسطاط : ٨٨، ٩٠، ١٠٠، ١٣٣،	الجريد : ٥٠، ٣٠، ٨٥، ٩٩، ٢٠١، ٢٧٨،
١٤٦، ١٥٦	

فهرس الأماكن

الكنيسة القرية : ٣١ ، ٣٦ ، ٣٧	القرن : ١١٧ ، ١٢١ ، ١٢٢ ، ١٢٤ ، ١٥٣
الكوفة : ٢١٧	القرطاجنة : ٩٧ ، ٢٦١ وانظر قرطاجنة
المحيط الاطلسي : ٢ ، ١٩٤ ، ١٩٥	القسطنطينية : ١٩ ، ٣٥ ، ٣٦ ، ٣٧ ، ٣٨
المدينة : ٢٤ ، ٦٥ ، ٨١ ، ٨٢ ، ٨٥ ، ٨٧	٣٩ ، ٤٠ ، ٤٤ ، ٤٥ ، ٧٥ ، ٩٣
٩٥ ، ١٠٢ ، ١٠٣ ، ١٠٤ ، ١٠٥	١١٤ ، ١٥٩ ، ١٦٠ ، ١٩٣
١٠٦ ، ١٤٣ ، ١٤٤ ، ١٤٦ ، ١٤٧	٢١٣ ، ٢٢٥ ، ٢٢٦
١٠٣ ، ١٥٤ ، ١٥٩ ، ١٧٠ ، ١٧١	القيروان : ٣ ، ٢٦ ، ٤٠ ، ٥١ ، ٨٦
١٧٤ ، ١٨٥ ، ١٨٩ ، ١٩٠ ، ١٩١	٩٧ ، ٩٨ ، ١١٧ ، ١٢٠ ، ١٢٣
٢١٧ ، ٢٣٩ ، ٢٤٦ ، ٢٤٧ ، ٢٥٤	١٢٤ ، ١٢٧ ، ١٢٩ ، ١٣٥ ، ١٣٦
٢٥٩ ، ٢٦١ ، ٢٦٢ ، ٢٦٣ ، ٢٨٣	١٣٧ ، ١٤٠ ، ١٤١ ، ١٤٢ ، ١٤٣
٢٩٠ ، ٢٩٢	١٤٥ ، ١٤٦ ، ١٤٧ ، ١٤٨ ، ١٤٩
المسجد الأعظم : ١٤٤	١٥٠ ، ١٥٣ ، ١٥٤ ، ١٥٦ ، ١٥٩
المسجد الجامع : ٢٧٤	١٦٠ ، ١٦٣ ، ١٦٤ ، ١٦٨ ، ١٦٩
المسيلة : ١٥ ، ١٨٩	١٧٠ ، ١٧١ ، ١٧٣ ، ١٧٤ ، ١٧٥
المشرق : ٨١ ، ١١٨ ، ١٣٦ ، ٢٣٢	١٧٨ ، ١٧٩ ، ١٨٠ ، ١٨١ ، ١٨٢
٢٣٤ ، ٢٣٥ ، ٢٥٦ ، ٢٦٩ ، ٢٩٠	١٨٣ ، ١٨٤ ، ١٨٥ ، ١٨٦ ، ١٨٧
٢٩٨	١٨٨ ، ١٩٤ ، ١٩٥ ، ١٩٨ ، ١٩٩
المغرب : ١ ، ٢ ، ٣ ، ٤ ، ٧ ، ٥٤ ، ٥٥	٢٠٠ ، ٢٠٢ ، ٢٠٥ ، ٢٠٦ ، ٢٠٧
٥٦ ، ٥٩ ، ٧٠ ، ٧٩ ، ٨١ ، ٨٨	٢١٠ ، ٢١٢ ، ٢١٣ ، ٢١٨ ، ٢١٩
١١١ ، ١١٢ ، ١١٩ ، ١٢٦ ، ١٣٢	٢٢٠ ، ٢٢١ ، ٢٢٢ ، ٢٢٣ ، ٢٢٤
١٣٣ ، ١٣٥ ، ١٣٧ ، ١٤٣ ، ١٤٤	٢٢٥ ، ٢٢٨ ، ٢٣٨ ، ٢٣٩ ، ٢٤٠
١٤٧ ، ١٤٨ ، ١٤٩ ، ١٥٠ ، ١٦٨	٢٤١ ، ٢٤٢ ، ٢٤٧ ، ٢٤٩ ، ٢٥١
١٩٢ ، ١٩٤ ، ٢١٢ ، ٢٣٤ ، ٢٣٧	٢٥٢ ، ٢٥٦ ، ٢٦٢ ، ٢٦٣ ، ٢٧٠
٢٤٥ ، ٢٥٠ ، ٢٥٢ ، ٢٥٨ ، ٢٦٣	٢٧٣ ، ٢٧٤ ، ٢٨٣ ، ٢٨٤ ، ٢٨٥
٢٦٧ ، ٢٦٨ ، ٢٦٩ ، ٢٧٠ ، ٢٧١	٢٨٧ ، ٢٩٦ ، ٢٩٧ ، ٢٩٨
٢٧٢ ، ٢٧٣ ، ٢٧٤ ، ٢٧٥ ، ٢٧٦	القيسارية : ٢٧٣
٢٧٧ ، ٢٧٩ ، ٢٨٢ ، ٢٨٧ ، ٢٨٩	الكف الحالية : ٩٦ ، ٢٢٥
٢٩٠ ، ٢٩٢ ، ٢٩٣ ، ٢٩٤ ، ٢٩٥	الكنج : ١
٢٩٦ ، ٢٩٨ ، ٢٩٩	الكنيسة الإفريقية : ٣٠ ، ٢٨١
المغرب الإسلامي : ٢٩٨ ، ٢٩٩	الكنيسة البيزنطية : ٣١ ، ٢٨١
	الكنيسة الشرقية : ٣٨ ، ٤٦ ، ٤٧

فهرس الأماكن الجغرافية

بالبون (حصن) : ١٨ ، ٦٢ ، ٦٣	المغرب الأقصى : ٤ ، ٧ ، ١٦٣ ، ١٦٤ ،
باجة : ٣ ، ٢٤١	١٧١ ، ١٧٧ ، ٢٢٤ ، ٢٢٥ ، ٢٨٧ ،
باديس : ١٩١	٢٨٨
بارجو (جبل) : ١٤٣	المغرب الأوسط : ٤ ، ٧ ، ١٥٥ ، ١٧٥ ،
باشو (جزيرة) : ١٧٤	٢٨٧
باغاية : ٣٢ ، ١٨٣ ، ١٨٤ ، ١٨٧ ، ١٨٨ ،	المغرب الرومي : ٢٩٩
١٨٩ ، ١٩٠ ، ١٩١ ، ٢٢٣ ، ٢٤٦ ،	المغرب القرطاجي : ٢٩٩
٢٤٧	المفرقة : ٦٨ وانظر إفريقية
بحاية : ٢ ، ٣ ، ٤ ، ١٦٧ ، ١٧٣ ، ١٧٤ ،	المقاطعة القنصلية : ٢٤٠
٢٤٧ ، ٢٤١	الملعب الروماني : ٩٧ ، ٩٨
بجردة : ٢٩٧	المستير : ٢٩٣
براقة : أنظر برقة	المهدية : ١٤٤
برفة : ٢ ، ٣ ، ٤ ، ٧ ، ١٤ ، ١٦ ، ٢٤ ،	الموصل : ٢١٨
٤٢ ، ٤٧ ، ٥٠ ، ٥١ ، ٥٢ ، ٥٣ ،	التوبة : ٥٤ ، ٥٦
٥٤ ، ٥٥ ، ٥٦ ، ٥٨ ، ٥٩ ، ٦٠ ،	النيل : ٣ ، ٤٢
٦٧ ، ٦٩ ، ٧٠ ، ٧١ ، ٧٣ ، ٧٥ ،	الهند : ١
٧٦ ، ٨١ ، ٨٤ ، ١٣٠ ، ١٣١ ،	الولايات الإسلامية : ٢٧٤
١٣٥ ، ١٣٧ ، ١٤٠ ، ١٤٨ ، ٢٠٥ ،	الولايات البحرية : ٤
٢٠٦ ، ٢٠٧ ، ٢١٠ ، ٢١٢ ، ٢١٥ ،	الولاية الداخلية : ١٥ ، ١٩ ، ٢٥ ، ٢٦ ،
٢١٦ ، ٢١٧ ، ٢١٨ ، ٢٢٥ ، ٢٢٦ ،	٢١٤ ، ٢٣٨ ، ٢٣٤ ، ٢٨١ ،
٢٢٧ ، ٢٢٨ ، ٢٣٢ ، ٢٣٣ ، ٢٣٤ ،	الولاية القنصلية : ١٥ ، ٤٢ ، ٢١٤
٢٣٧ ، ٢٣٨ ، ٢٤٩ ، ٢٥٠ ، ٢٥٦ ،	اليمين : ٦٥
٢٨٠ ، ٢٨٢	أم دين : ١٨
بشر (قلعة) : ٢٥٩	أنبلونة : ٢٤١
بغداد : ٥٤	أنطابلس : ٥٤ ، ٢١٥ ، ٢٢٧ ، ٢٤٩ ،
بليش : ١٨٧ ، ١٨٨	٢٥٢ ، ٢٦٤
بنتلرية (جزائر) : ١٧٤	أوجلة : ٣٠
بنزوت : ١١٧ ، ١٢٤ ، ١٢٥ ، ١٢٦ ،	إيطاليا : ١١٣ ، ١٦٠ ، ٢٦٣ ،
١٦٠ ، ١٨٨ ، ٢١٣ ، ٢١٤ ، ٢٤٠ ،	باب النساء : ٢٣٩
٢٤١	

فهرس الأماكن

تلمسان : ٢٩ ، ٣٢ ، ١٦٤ ، ١٦٥ ، ١٦٦ ،	بنطابلس : ٢ ، ٤ ، ٣٥
١٦٧ ، ١٦٨ ، ١٦٩ ، ١٧٠ ، ١٧١ ،	بونة : ٢١٤ ، ٢٤١
١٧٢ ، ١٧٣ ، ١٩١ ، ٢٠٤	بيت المال : ١٠٤ ، ١٠٥ ، ٢٧٥ ، ٢٩١
تمجاد : ١٥ ، ٣٢ ، ١٩٨	بيت المقدس : ٦٦ ، ١٤٣ ، ٢٠٣
تندنياس : ١٨	بئر الكاهنة : ٢٥٩
تهودة : ١٨٣ ، ١٨٤ ، ١٨٥ ، ١٨٦ ، ١٨٧ ،	بيزاسيوم : ١٥ ، ١٩
١٩٨ ، ١٩٩ ، ٢٠٣ ، ٢٠٥ ، ٢٠٦ ،	بيزنطية : ١١ ، ١٣ ، ١٤ ، ٢٥ ، ٣١ ،
٢١٠ ، ٢١١ ، ٢١٢ ، ٢١٣ ، ٢١٤	٤٢ ، ٤٣ ، ٤٤ ، ١٦٠ ، ١٨٩ ،
توزر : ٥	٢٣٠ ، ٢٣٢ ، ٢٣٤ ، ٢٦٠
تونس : ٢ ، ٦ ، ٧ ، ١٩ ، ٤٠ ، ٤٢ ،	الحكم البيزنطى : ٥١
٨٥ ، ٩٩ ، ١٢٠ ، ١٣٠ ، ١٤٤ ،	الحكومة البيزنطية : ٥٦ ، ٢١٤
١٧٣ ، ١٧٤ ، ٢١٠ ، ٢٢٥ ، ٢٣٧ ،	الدولة البيزنطية : ٦١ ، ١١٢
٢٣٩ ، ٢٤١ ، ٢٥٤ ، ٢٥٥ ، ٢٦٠ ،	العصر البيزنطى : ٤٢ ، ٥٠ ، ٥١ ، ٥٣ ،
٢٦١ ، ٢٦٢ ، ٢٦٣ ، ٢٧٣ ، ٢٩٩	١٦٥ ، ٢٨١
تيجس : ٣٢	الكنيسة البيزنطية : ٣٠ ، ٣٦
تيفش : ١٥	تارودانت : ٤ ، ٢٩٩
تفست : ٧٥ ، ٩٦	تازا : ٩
ثلبت : ١٩	تافللت : ٤
جربة (جزيرة) : ٦٦ ، ١١٩ ، ١٢٦	تاكروان ، تكروان : ١٦٩ ، ١٧٥
جرجس (حصن) : Girgis ٦٦	تانس : ١٥
جرعة الطرف : ٢٤٧	تاهرت : ٣٠ ، ١٦٦ ، ١٨٩ ، ١٩٠ ،
جرمة : ١٣٦	١٩١ ، ١٩٣
جونس الصابون : ١٤١	تبسا : ٣٢ ، ٢٤٧
جلولاء ، جلولا ، جلولة : ١٩ ، ١١٧ ،	تبسة : ١٥ ، ١٨٨
١٢١ ، ١٢٢ ، ١٢٣ ، ١٢٤ ، ١٢٦ ،	ترشيش : ٢٦٢
١٦٠ ، ١٦٢ ، ١٨٨ ، ٢٧١	تطوان : ١٩١
جودة باشا : ٢٦	تكرور : ١٥٤ ، ١٥٩ ، ١٧٠ ، ١٧١
خاوار : ١٣٦	واظفر : تكيروان وتيكروان ودكرور
خير : ١٢٦	

فهرس الأماكن

سدرة : ٧	دار الإمارة : ١٤٤
سدرة : ٥٣	دار الصناعة : ٢٦٢
سردانية : ١٥ ، ٣٢ ، ٢٦٣	دجلة : ١٤٠
سردينية : ١١٣ ، ١١٥	درعة : ٢٩٩
سرقوسة : ١١٣ ، ١٢٦	درن (جبل) : ٢٠٠
سطفورة : ٢٤١	دمشق : ١١٩ ، ١٢٢ ، ١٣٥ ، ١٥٠ ، ١٥٧
سفاقس : ٢٦	١٧٩ ، ٢٥٧
سكتانة (وادى) : ٢٤٧	دمياط : ٦٦
سلانيك : ٣٥	دقلة : ١٢٥
سلفطة : ٢٦٣	دير الجائلقي : ٢١٧
سهر (وادى) : ١٩٠	رادس : ٢٦١ ، ٢٦٢ ، ٢٩٣
سوسة : ٢١ ، ٢٥ ، ٢٦ ، ٧٤ ، ٧٥ ، ٩٩	رودس : ١٢٥
١١٧ ، ١٢١ ، ١٤١ ، ١٤٤ ، ١٦٠ ، ٢٥٥ ، ٢١٤ ، ٢١٣ ، ١٨٨	روما : ٦ ، ٣١ ، ٣٦ ، ٤٣
سوق المغرب : ٢٧٣	زاين : ٢٥٨
شريك (جزيرة) : ١٦٨ ، ١٦٩ ، ١٧٠	زرهون (جبل) : ١٩٤ ، ٢٢٤
١٧٣ ، ١٧٤ ، ١٨٢ ، ٢٠٥ ، ٢١٤	زروود (وادى) : ١٤٣
٢٧٠	زوجيتانيا : ٢ ، ٤
شط هدنة : ١٨٨ ، ١٩٧	زويلة : ٥٣ ، ٥٤ ، ٥٧ ، ٥٨ ، ٥٩ ، ٦٠
شقبنارية : ٢٢٥ ، ٢٥٥	١٣١ ، ١٣٤ ، ٢٨٠
شلف (نهر ووادى) : ٢٩ ، ١٩٠	سبته : ١٤ ، ٣٢
صبرة : ١٦ ، ٢٩ ، ٥٦ ، ٦٣ ، ٦٤ ، ٦٦	سبغة : ١٤٣ ، ١٤٤ ، ٢٦١
٦٧ ، ٦٨ ، ٧١ ، ٧٤	سبرت : ٦٤
صدفة : ٣٢	سبو (وادى) : ١٩٧
صرت : ١٦ ، ٥٦ ، ١٣٥ ، ١٣٦ ، ١٣٧	سببية : ١٩ ، ٩٦
١٣٨ ، ٢٤٩ ، ٢٥٥	سيطة : ١٥ ، ١٩ ، ٢١ ، ٣٩ ، ٦٧
صطفورة : ٠ وانظار سطفورة	٧٤ ، ٧٥ ، ٧٦ ، ٨٣ ، ٨٤ ، ٨٥
صنين : ١٧٨	٨٦ ، ٩٣ ، ٩٦ ، ٩٧ ، ٩٩
صقلية : (جزيرة) : ٢٥ ، ٣٩ ، ٤٠ ، ٦٤	١٠٠ ، ١٠٢ ، ١٠٦ ، ١٦٠ ، ١٨٤
١١٣ ، ١١٤ ، ١١٥ ، ١٢٠ ، ١٢٥	٢١٣ ، ٢٣٢
١٢٦ ، ٢٢٥ ، ٢٢٦ ، ٢٣٩ ، ٢٦٣	سجلاسة : ٩ ، ٩

فهرس الا ما لن

طافه : ١
طبرقة : ٢٥٩
طنبه : ٢٠٣ ، ١٩٨ ، ١٩٧ ، ١٨٣ ، ١٥
طرابلس : ٢ ، ٣ ، ٧ ، ١٤ ، ١٥ ، ١٦ ، ١٨ ، ٢٤ ، ٢٩ ، ٣٢ ، ٣٥ ، ٤١ ، ٤٧ ، ٥٠ ، ٥١ ، ٥٢ ، ٥٣ ، ٥٦ ، ٥٧ ، ٦٠ ، ٦١ ، ٦٣ ، ٦٤ ، ٦٥ ، ٦٦ ، ٦٧ ، ٦٨ ، ٦٩ ، ٧٠ ، ٧٤ ، ٧٥ ، ٧٦ ، ٧٧ ، ٨١ ، ٨٢ ، ٨٤ ، ٨٥ ، ١١٩ ، ١٢٦ ، ١٤٨ ، ٢٢٠ ، ٢٣٧ ، ٢٣٨ ، ٢٤٩ ، ٢٦٤ ، ٢٨٣
طرشيش : ٢٦٢
طنجة : ١ ، ٢ ، ٣ ، ١٤ ، ٣٠ ، ٤١ ، ٤٢ ، ٦٠ ، ٨٤ ، ١٨٠ ، ١٨٤ ، ١٩١ ، ١٩٢ ، ١٩٣ ، ١٩٤ ، ١٩٧ ، ٢٢٥ ، ٢٥٢
طباطر (مسرح أو ملعب) : ١٩
عس : أنظر عس
عقوبة : ٨٣ ، ٨٥ ، ٨٦ ، ٩١ ، ٩٤ ، ٩٦
عين الكتان : ١٨٩
عين شمس : ٣٩ ، ٩٩
عيون أبي المهاجر : ١٦٨ ، ١٧٢
غدامس : ٩ ، ٣٠ ، ٥٨ ، ١٣١ ، ١٣٤ ، ١٣٦ ، ١٣٧ ، ١٣٨ ، ١٣٩ ، ١٨١
فارس : ٣٨
فاس : ٢٢٤
فزان : ٤ ، ٥٧ ، ٥٨ ، ٥٩ ، ٦٠ ، ٦٥ ، ٦٩ ، ٧١ ، ١١١ ، ١١٢ ، ١٣٠ ، ١٣٣ ، ١٣٦ ، ١٣٧ ، ١٦٣ ، ١٨٣ ، ٢٨٣
فلسطين : ٥٢ ، ٦٧
قونية : ٨٦ ، ٩٤ ، ١٢٠ ، ١٢١ ، ١٣٩ ، ١٤١ ، ١٤٢ ، ١٦٢ ، ٢١٤ ، ٢٢١
قايس : ١٦ ، ١٩ ، ٥١ ، ٦٦ ، ٦٧ ، ٧٤ ، ٧٦ ، ٨٣ ، ٨٥ ، ٩٩ ، ١٤٤ ، ٢٠٦ ، ٢٣٨ ، ٢٤٨ ، ٢٤٩ ، ٢٥٣ ، ٢٥٥ ، ٢٥٩
قاصرة : ١٤١
قبرص : ٧٠ ، ١٢٥
قرصقة : ٣٢ ، ٥٦
قرطاجنة : ١ ، ٢ ، ٢٤ ، ٢٨ ، ٢٩ ، ٣٥ ، ٣٩ ، ٤٠ ، ٤٢ ، ٤٣ ، ٨٤ ، ٩٦ ، ٩٩ ، ١١٤ ، ١٢٤ ، ١٢٥ ، ١٤٢ ، ١٤٥ ، ١٥٧ ، ١٦٧ ، ١٦٨ ، ١٦٩ ، ١٧٠ ، ١٧٣ ، ١٧٤ ، ١٧٥ ، ١٨٢ ، ١٨٩ ، ٢١٤ ، ٢٢٦ ، ٢٣١ ، ٢٣٤ ، ٢٣٥ ، ٢٣٦ ، ٢٣٨ ، ٢٣٩ ، ٢٤٠ ، ٢٤١ ، ٢٤٢ ، ٢٤٦ ، ٢٤٨ ، ٢٥٣ ، ٢٥٤ ، ٢٥٥ ، ٢٥٩ ، ٢٦٠ ، ٢٦٣ ، ٢٧٠ ، ٢٧٣
قسنطينة : ٢ ، ٣٢ ، ١٧٤ وانظر قسنطينة
قسطلية وقسطلية : ١٣٦ ، ١٣٧ ، ١٣٩ ، ١٤١ ، ١٦٢ ، ١٨٣
قسنطينة : ٢٤٧
قصر عبيدة : ٢٢٣
قصور حسان : ٢٤٩ ، ٢٥٠ ، ٢٥٥
قفصة : ١٩ ، ٨٣ ، ٩٧ ، ٩٩ ، ١٣٧ ، ١٦٠ ، ١٨٣ ، ١٩٩ ، ٢٠٠ ، ٢٠١ ، ٢١١
قودة : ٨٦ ، ٩٤ ، ١٤١ ، ١٤٢
قيصرة : ١٥ ، ١٩
كابوت فادا : ٨٦

فهرس الأماكن

١١٠، ١٠٦، ١٠٥، ١٠٣، ١٠١
١١٨، ١١٧، ١١٦، ١١٢، ١١١
١٣٠، ١٢٧، ١٢٥، ١٢١، ١١٩
١٤٠، ١٣٥، ١٣٤، ١٣٢، ١٣١
١٤٨، ١٤٧، ١٤٦، ١٤٤، ١٤١
١٥٨، ١٥٧، ١٥٦، ١٥١، ١٥٠
١٧٣، ١٧٤، ١٧٥، ١٧٩، ١٩٣
٢٠٣، ٢٠٥، ٢٠٦، ٢١٢، ٢١٥
٢١٦، ٢١٧، ٢١٨، ٢٢٢، ٢٢٦
٢٢٧، ٢٢٩، ٢٣٥، ٢٣٧، ٢٦٢
٢٦٣، ٢٦٤، ٢٦٨، ٢٦٩، ٢٧٠
٢٧١، ٢٧٢، ٢٧٣، ٢٨٣، ٢٨٤
٢٩٨

مصرة : ٢٢٠

مقداش : ١٣٥

مقداس : ١٩، ٩٦

مكناس : ٢٢٤

مكة : ٦٥، ١٤٣

ملوية (نهر ووادي) : ٤، ١٩٧، ٢٢٥

مس ومش وميس وعيس : ١٩، ٢١٢

٢١٣، ٢٢٠، ٢٢١، ٢٢٢، ٢٢٣

٢٢٤، ٢٢٥، ٢٢٧

مطور (جبل) : ١٢١

منفيس : ١

ميلة : ١٦٧، ١٦٨، ١٧٣، ١٧٤، ١٧٥

نبريشة : ١٦٣

نقاوس : ١٤١

نكور : ١٩١

نوميدية : ٢، ٤، ١٥، ١٩، ٢٨، ٢٩

٣٠، ٣١، ٢١٤، ٢٥٨

نني (نهر) : ٢٥، ٢٤٧، ٢٤٨، ٢٥٤

كلبرية : ١١٣، ١١٥

كوار : ١٣٦

لبدة : ١٣٢

لميزة : ١٥، ١٨٧، ١٨٨، ١٨٩، ١٩٠

١٩١، ٢٢٤

وانظر لمبيس وليس

لطة : ١٨

لوية : ٢٤٩

ليبدة : ١، ٤٤

مالان : ١٩٤

ماليانة : ٣

ماء الفرس : ١٣٦، ١٨٣

مجدد : ٤٢٤، ٤٢٥، ٤٢٦، ٤٢٧

مراح القوافل : ١٥٣

مراقية : ٢٥٠

مراكش : ٤، ٦، ١٥، ٢٤٥، ٢٥٨

مدرسومة : ١٩

مذكور : ١٤١

مرجل (وادي) : ١٤٣

مرطانية : ٢، ٣، ٤، ١٥، ١٩، ٢٢

٣٢، ٢١١

مزناتة : ١٣١

مسجد الرباطي : ٢٩٦

مسجد عقبة : ٢٦، ١٤١

مسكولا : ١٥

مصر : ١، ٢، ٣، ٣٥، ٣٨، ٣٩

٤٢، ٤٤، ٤٦، ٥٠، ٥٢، ٥٣

٥٤، ٥٩، ٦٦، ٦٧، ٧٠، ٧١

٧٨، ٨٢، ٨٤، ٩٣، ٩٨، ٩٩

فهرس الأماكن

ودان : ٥٧ ، ٥٨ ، ٥٩ ، ٦٣ ، ٦٥ ،	هادروميثوم الرومانية : ١٤١
٦٦ ، ٦٩ ، ٧١ ، ١٣١ ، ١٣٣ ،	هليوبوليس : ٩٣
١٣٥ ، ١٣٦ ، ٢٨٣	واد حاطوب : ٢٤٧
وليلي : ١٩٤ ، ١٩٥ ، ٢١١ ، ٢٢٤	واد فكا : ٢٤٧
وهيران : ١٥ ، ٣٠ ، ١٦٦	واد ملي : ٢٤٧
يونكا : ١٩	وادي العناري : ٢٤٨

د - فهرس الألفاظ الأفرنجية الواردة في البحث

Ades	٢٦١	واظر رادس	Cyrene	١٦	قيرين
Africa proconsularis	٢		D'Herbelot	٤	
Africa Propria	٤		Dux	١٨	
Antalas	٢٢		Eparci	٣٣	
Aphri	١		Epi	١	
Appollonias	١٦		Epiphania	٣٥	
Aprica	١		Eudicia	٣٥	
Archelaos	١٤		Exarcus	٣٢ ، ٢٠	
Arsinoe	١٦		Exercitus africae	١١٥	
Asbystes	٧		Fulgentius Ferrandis	٢٨	
Augila	٣٠		Garamantes	١٣٦ ، ٥٧	
Aurelius Verus	٩٧		Gasmul	٣٤	
AEYKON TYNEIA	٢٦١		Gennadius	١١٤ ، ٣٤	
Barbari	٧		Georgii Chiprii	٩٦	
Barca	١٦		Ghenaha	٩٣	
Barcytes	٧		Ghibigammes	٧	
Berenice	١٦		Gibbon, E.	٩٥	
Bezacena	٢		Girgis	٦٦	
Bibliographie Orientale	٤		Gregorius	٣٤	جرجير
Byzacium	١٥		Qsell, S.	٧	
Caesaria	١٩ ، ١٥	قبصرية	Hadrumetum	٢٥٥ ، ٢١٤	
Caesarius	٣٨		Heraclius Constantin	٣٩	
Captio	١٧		Hespéris	٢٥٨	
Caput-Vada	١٤١ ، ٨٦	قودة	Hippone Diarryte	٢١٤	بونه
Caput Verda	١٢٠		Journal Asiatique	١٠١	
Chronographia	٩٣	كتاب لنيوفانيس	Koceila	١٧١	كسيلة
Colon	٥				
Consul	٣٣ ، ١٥				
Couloulis	١٢٣ ، ١٩	جلولاء			
Cydamus	٣٠	غدامس			
Cyrus	٢٤	قيرس			

د - فهرس الألفاظ الأفرنجية الواردة في البحث

Lalla Fatma	٢٤٥	Ousselet	١٢١
Lambeisis	١٥	Patricius Johannes	٢٥٤
Leo Africanus	٥	Poeymirau	٢٥٨
Leptis Magna	١٨ لطة	Pogonat	١٣٨
Libatai	٧ الليبيون	Praefectus	١٤ ، ٣٢ ، ٣٣
Libo-Pheniciens	٧ الليبيون الفينيقيون	Praesides	١٥
Macomades	١٩ مغمداس	Praetor	٣٣
Madarsuma	١٩	Priscus	٣٥
Makés	٧	Proconsul	١٤ ، ٣٣
Mamma	١٩ ، ٢٢٠ ممس	Proconsularium	١٥
Mascula	١٥	Psylles	٧
Masunas	٣٠	Sabrata	٢٩ ، ٦٤ صبرة
Maures	٧ ، ٥	Sanctus Fulgentus Episcopi	
Maurice	٣٤	Ruspensis	٢٨
Mauretania	٢ صرطانية	Scott, C. A.	٢٩
Mauretania Ariensis	٣٢	Septem	٣٢
Mauritania Cesariensis	٣٢	Sergius	٢٤
Mauritania Sitifiensis	١٥ ، ٣٢	Sicca Vaneria	٢٢٥ شقبارية
Mauretania Setifiensis	٣٢	Sufes	١٩
Mauritania Tingtana	١٥	Suffetula	١٩ سبيطة
Meninx	٦٦ جربة	Syrta	١٦ صرت
Monastère	٢٩٣ للنستير	Tabessa	١٥ تبسة
Msila	١٥ المسيلة	Tacapes	٦٦ تابس
Nasamons	٧	Talent	١٠١ تالان
Neeny	٢٤٧	Tartessus	٢٦٢
Nicetas	٣٥	Tauxier	٩٣
Numidia	١٥	Tenchera	١٦
Opara	١	Tenes	١٥
Oran	١٥ وهران	Thamugadi	١٥ تمجاد
Otter	٢٤٢	Tharsis	٢٦٢

فهرس الألفاظ الأفرنجية الواردة فى البحث

Thelepte	١٩	Tynes	٢٥٥
Theveste	٧٥	Usilla	١٢٣
Thysdrus	٨٣، ١٩ الجم	Utica	١
Tipasa	١٥	Yunca	١٩
Tobna	طينة ١٥	Zeugitania	٤
Tribitum	١٧	Zonakes	٧
Tripolitania	١٥		

